فى ظلال نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

محمد جواد مغنية

الجزء الأول

علي صراط الحق

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

الطبعة الأولى : ١٩٧٢

الطبعة الثالثة

تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٩

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وأحمده وأستغفره ، وأصلي على نبيه الكريم وآله الأطهار .

وبعد :

فهذا هو المجلد الأول من شرح نهج البلاغة ، وربما بلغ ألفي صفحة في أربعة مجلدات .. هذا ، ان كان في الأجل فسحة ، وسمحت الظروف ، وصدق التقدير ، فقد علمتني الأيام وأحداثها أن وراء كل ظاهر باطناً ، وقبل كل شيء قضاء وتدبيراً .

التأليف :

والتأليف – بالنسبة إلي – عادة ، ومثابرة ، ونظام .. فما غيّرت في صيف أو شتاء ، ولن أغيّر موعد أكلي ونومي ، وشربي الشاي ، وقراءتي وكتابتي ، وخروجي من المنزل إلا لضرورة قاهرة . وكنت قد عزمت على ترك التأليف أو تصورت ذلك بعد انتهائي من «التفسير الكاشف» ،ولكن نفسي عاكست وتغلبت.؟ ونفس الانسان أشد المخلوقات وأكثرها معاكسة ومشاكسة ، وأقواها على عقله وأفكاره .. وكان من ثمار هذه المعاكسة – حتى الآن – كتابا : فلسفة التوحيد والولاية ، وهذا المجلد من الشرح .

وما أبعد تصوري ترك التأليف — عن أمنيتي في ذات يـوم ان ينعم الله عليّ ، وأنا في القبر ، بمكتبة ودواة وقرطـاس .. اقرأ وأفكر وأسجل ، وان دل هذا التناقض على شيء فإنما يدل على ان تصورات الانسان وأفكـاره تخضع للظروف التي تحيط به ، والدنيا التي يعيشها ، وليس من شك اني حـين تمنيت مكتبة القبر كنت سعيداً فيما كتبت أو قرأت ، وكان الباب مغلقاً عليّ ، لا أحس بشيء من حولي .

هذا من فضل ربي :

وأيضاً كنت من قبل اذا أنجزت مؤلفـاً قلت في نفسي : « هذا من فضل ربي » .. وصادف في ذات يوم أن مررت ببناية شاهقة باسقة — في شارع من شوارع بيروت — وفوق مدخلها صخرة من رخام، كتب عليها بخط كبير وعميق: « هذا من فضل ربي » .. فقلت — أيضاً — في نفسي : وما يدريك أن يكون هذا من نقمه تعالى ونقمته ، لا من فضله ورحمته ؟. أما هـدد سبحانه وتوعد بعض أرباب الأموال والأولاد بقوله : « فذرهم في غمرتهم حتى حين أيحسبون ان ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بـل لا يشعرون — ٦٠ المؤمنون » . وقوله : « انما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين — ٧٨ آل عمران » ؟.

ومن هنا انطلق بي التفكير فـيما كتبت وأذعت ، وتساءلت : وأنا أيضاً ، يدريني ان مؤلفاتي وما تدره عليّ من حق التأليف — قد بعثت في نفسي الزهو والغرور من حيث لا أحس وأريد ؟ وأي فرق بين حانوت أو عقـار ، وبين كتاب أو مقال يدر كلٌ على صاحبه الفلوس والنقود؟ثم هل غيّرت كتبي — وهي بالعشرات — شيئاً من الأوضاع الفاسدة ، أو اهتدى بها أحد في شأن من شؤون الحياة ، ونقلته من حال الى حال ، أو أوجدت آلة تدور عجلتها لإنتاج مأكل أو ملبس أو أي شيء لخير الانسان ، أو انهـا حركت وجـدان الجماهير ودفعت بهم الى الثورة ضد الظلم والطغاة ؟. وأية جدوى من المؤلفات والخطب والمقالات اذا لم يهتد بها الناس في أزماتهم وقضاء حاجاتهم ؟.

كل هذه التساؤلات أو التصورات جاءت من وحي الآيـة وصخرة البناية

وعندها وددت لو كنت شهيداً أو طريداً أو سجيناً أو جريحاً ولو بنقطة دم في سبيل الله بدل الأربعين كتاباً بما فيها موسوعة (فقه الإمام) و (التفسير الكاشف) و (شرح النهج) ، ان قُدّر له التمام . أما حديث: يوزن غداً مداد العلماء مع دماء الشهداء ، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء . أما هذا المداد فالمراد به ما يهدي للتي هي أقوم ، ويحل ولو مشكلة واحدة من مشكلات الحياة ، والدليل مقارنته بدماء الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل العدل والحرية ، وفي جهاد البغي والفساد .

الدين والحياة :

وعلى أية حال فإني أعتقد جازماً بأن الهدف من الدين بعقيدته وشريعته هو إصلاح الحياة وتنظيمها ، والسير بها الى الأفضل والأكمل ، وانه حيث توجد المصلحة فثَم شرع الله ، سواء أكانت المصلحة عامة أو خاصة في حدود ما أحل الله . ومن أجل هذا تبنيت في جميع ما كتبت قضايا الشعوب ومطالب الناس ، كل الناس ، ولاقيت من أثر ذلك ما لاقيت من العملاء والأدعياء .. وهذا عزائي وسلواي .. الحمد لله .

وبهذه المناسبة أشير الى ان الجوامع والكنائس لو تبنت بصدق وإخلاص مطالب العباد وآمالهم لأقبلوا عليها إقبالهم على مصالحهم ومنافعهم . ومن البداهة ان دين الله يقر ويبارك كل ما فيه خير الانسان بجهة من الجهات ، بل حث دين الله وأمر بالجهاد وإعلان الثورة على الطغاة والمستغلين من أجل المستضعَفين والمعذبين . قال عز من قائل : « ومالَكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان — ٧٥ النساء » . وبخ سبحانه في هذه الآية من لا يثور ويقاتل لخلاص المظلومين ، واعتبر الثورة من أجلهم تماماً كالقتال في سبيله ، بل هي هو .

وقال الإمام (ع) : « والله لولا ما أخذ الله على العلماء من الميثاق ان لا يقارّوا على كظة ظالم ، ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها » . والمقارة الموافقة ، والكظة التخمة ، والسغب شدة الجوع . ومجمل ما أراده الإمام انه: لولا عهد الله وميثاقه على العلماء أن لا يسكتوا عن التفاوت الفاحش بين الناس في لقمة العيش بحيث يُتخم البعض ، ويموت البعض الآخر جوعاً — لما جاهد في الإبقاء على

حقه الثابت في الخلافة .. وفي خطبة ثانية : اضرب بطرْفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر الا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً ، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً .

وإذا كان الله سبحانه قد أخذ العهد والميثاق على رجال الدين والعلم بــه أن يجاهدوا لخلاص المظلومين ، ويعلنوا الثورة على من طغى وبغى — فلماذا يسكتون ولا يثورون ؟. وهل سكتوا جهلاً بدين الله وكتابه ، أو جبنـاً أو إقراراً للظالم على كظته وبطنته ، أو ان البعض منهم قبض ونقض ، أو خوفاً أن تلصق بهم قوى الشر الافتراء والتهم ؟.. ثم ماذا ؟ فلقد شن النبي (ص) حرباً شعواء على المتنكبين عن الطريق ، فحاربوه بالدعايات والافتراءات ، وقالوا : إنه مجنون ، وكاهن ، وكذاب ، وطالب مُلك .

نهج البلاغة :

وزعم زاعم أن نهج البلاغة للشريف الرضي لا للإمام (ع) وأبطل أهل التنقيب والتدقيق هذا الزعم بأدلة،منها أن خطب النهج أو أكثرها مدونة في كتب الشيعة والسنة من قبل أن يولد الشريف الرضي بسنوات[1] . وتكلمت عن ذلك في كتاب: فضائل الإمام علي ، وكتاب : علي والفلسفة . والقول الفصل في نسبــة النهج الى الإمام هو أن ننظر ونحاكم ما جاء فيه على أساس كتاب الله ، فما وافق منه الكتاب فهو من قول الإمام ، لأنه مع القرآن ، والقرآن معه ، وما خالفه فلا علاقة له بالإمام من قريب أو بعيد . وقد تواتر عن أهل البيت (ع) قولهم : « لا تقبلوا علينا خلاف القرآن ، فإنّا ان تحدثنا حدثنا بموافقة القرآن والسنة ، انّا عن الله، وعن رسوله نحدث ، ولا نقول : قال فلان وفلان، فإذا أتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك فردوه ، ان لكلامنا حقيقة ، وان عليه لنوراً ، فما لا حقيقة له ، ولا نور عليه فذاك قول الشيطان » .

وما من كلمة في نهج البلاغة إلا ودل عليها القرآن بالتفصيل أو الاجمال مع

[1] أثبت هذه الحقيقة بالأرقام ومنطق الحس الأخ العلامة الشيخ عبدالله نعمه في كتاب: مصادر نهج البلاغة،وقد طبع ووزع على المكاتب .

العلم بأن كلام الله قد تفرد بخصائص كثيرة لا يشاركه فيها كلام البشر أياً كان قائله ، وهذه الحقيقة يدركها كل من «كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

وأعترف بأني أدركت هذه الحقيقة بعد أن فسرت القرآن الكريم . وباشرت بشرح نهج البلاغة ، وكنت من قبل أشبه بالمقلد .. بل كان قد عرضت لي شبهة فيها شائبة من الغلو .. ثم زالت الى غير رجعة بحمد الله ، وفضل النهج وشرحه، فلقد لمست وأيقنت ، وأنا أشرح النهج ، ان الفرق بين كتاب الله ونهج البلاغة تماماً كالفرق بين الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب .. ومرة ثانية الحمد لله .

مواضيع النهج :

ومواضيع النهج متنوعة تماماً كمواضيع القرآن . فقد تكلم الإمام (ع) عن الله وصفاته ، وعن النبوة واليوم الآخر . ومنهجه في إثبات وجود الله تعالى عين منهج القرآن ، وهو الاعتماد على منطق الحس والعقل ، وأعني بمنطق الحس مشاهدة الكون المادي ، وما فيه من صنعة وقصد وحكمة وتدبير يشمل ويعم جميع الكائنات من الذرة الى أعظم المجرات، وما لها من أوضاع محكمة وأبعاد محددة تؤدي الى غايات معقولة . أما منطق العقل فأعني به التفكير الهادىء السليم ، والتساؤل عن السبب الموجب لهذا النظام والتدبير : هل وُجد بلا سبب ؟ كيف؟ وهو لا يحمل في ذاته العلة الكافية لوجوده .. هذا ، الى ان الطبيعة عمياء صماء فكيف تنظم وتُتقن ؟ واذن فلا محيص من الانتهاء الى قاصد حكيم ، وقادر عليم يمنح الوجود ، وهو قائم بذاته لا يستمد من غيره وإلا غرق العالم والعقل معه في بحر اللاشيء .. وقد أشار سبحانه الى هذا المنهج بقوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق – ٥٣ فصلت » . والمراد بالحق هنا وجود الله سبحانه .

وهذا هو منهج الإمام بالذات ، وهو المنهج السوي ، وبه أخذ التجريبيون وعلماء الطبيعة حيث يشاهدون ظواهرها ، ثم يتفرغ واحد أو نفر منهم للبحث في ظاهرة من الظواهر ، ويتتبع خصائصها وآثارها ، ويمضي في درسها وتحليلها حتى اذا انتهى انتقل من المشاهدة والإدراك المباشر الى الاستنتاج والحكم العام على أفراد تلك الظاهرة جميعاً ما شاهد منها ، وما غاب عنه .

وبهذا يتبين معنا ان منهج التجريبيين في إثبات ما يثبتون للطبيعـــة من قوانين عامة ، ويرسلونه عليها من أحكام تشمل كل فرد من أفراد تلك الظاهرة ما كان منها وما يكون ، يتبين ان منهج التجريبيين هذا هو منهج القرآن في إثبات وجود الله تعالى ، ومنهج العلماء بالله وبدينه .. واذن فلماذا الإنكار والاستنكار ، وتسمية الإيمان بالله ايماناً بالغيب دون الأحكام العامة على الطبيعة ؟. أليس كل منهما يبتني على الحس والعقل ؟ ونقل عن (ماكس بورن) ان عقيدة (اينشتاين) الدينية تقوم على ايمانه بقدرة العقل على تخمين القوانين التي بنى الله العالم بموجبها .

وبقصد التوضيح أضرب هذا المثل : يقرأ الملحد كتاباً فيعجبه ، ويؤمن بوجود المؤلف ، وانه من أهل الفهم والعلم ، ومعنى هذا انه انتقل من عالم الشهادة الى عالم الغيب . ومثله تماماً من شاهد الكون العجيب ، وآمن بوجود المكون حيث انتقل كلٌ منهما من الشهادة الى الغيب . واذن كيف جاز للملحد أن ينكر على المؤمن ما أثبته هو لنفسه ، وأن ينقض ما أبرم ، أو يبرم ما نقض ! فإن جاز للعقل أن ينتقل مما شاهد الى ما غاب في الطبيعيات — جاز ذلك أيضاً في غيرها ، وان وجب عليه الوقوف عند المشاهدة فكذلك في كل شيء ، والفرق خطأ وتضليل.

وأيضاً تكلم الإمام (ع) عن الخلق والطبيعة بأرضها وسمائهـــا ، وعن الانسان والشريعة ، والقرآن والسنة ، والفقراء والأغنياء ، وعن الجهاد والأخلاق، والعقل والنفس والعلم ، وعن الدنيا وزينتها والموت وسكراته .. الى ما لا يحصى كثرة . ومن استقرأ وتتبع نهج البلاغة يحس ان كل كلمة من كلماته تنطلق به من حيث لا يشعر الى الايمان بالله ، والالتزام بدينه وشريعته ، أما حديث الإمام عن الموت وسكراته والقبر ووحشته وعن الحشر والنشر ، ثم الوقوف للحساب ، وعن الجنة ونعيمها والنار وجحيمها ، أما حديثه عن ذلك كله فيصح فيه القول : ان الله هو المؤلف ، والإمام هو المخرج .

العلم والعمل :

يرى الإمام (ع) أن المصدر الأول لكل العلوم والمعارف حتى الوحي هو العقل وحده او منضماً الى عنصر آخر كالحواس ، فإنها تدرك الأشياء المادية ، ولكنها قد تخدع الرائي ، والقول الفصل في خطئها وصوابها للعقل . فالعين — مثلاً —

ترى الشمس صغيرة ، ويقول العقل : هي أكبر بكثير مما رأت ، والحق معه ، وإلى هذا أشار الإمام بقوله : « قد تكذب العيون أهلها ، ولا يغش العقل من استنصحه » . وكثيراً ما تكون العين بمعونة العقل مصدراً لمعرفة الحق ، فقد سئل الإمام عن الفرق بين الحق والباطل ؟ فقال : الباطل أن تقول : سمعت ، والحق أن تقول : رأيت .. وأيضاً يرسل العلماء أحكاماً مطلقة على أفراد النوع ما وقع منها في خبرتهم الحسية ، وما لم يقع قياساً لهذا على ذاك ، ولا مبرر لذلك إلا العقل ، وبكلمة : ان معارف الانسان وسلوكه وأقواله وأفعاله وأحكامه بكاملها — ترتبط بالعقل بشكل أو بآخر ، ولو أسقطناه عن الاعتبار لانسد باب المعرفة والحكم على الأشياء بشتى أنواعها .

والعقل عند الإمام فطري وكسبي ، والأول ما يدرك به الانسان — بما هو إنسان — إدراكاً مباشراً وبلا مقدمات ، وانتقال من معلوم الى مجهول ، كإدراك الناس كل الناس — العالم منهم والجاهل — ان الشيء الواحد لا يكون موجوداً ومعدوماً في آن واحد ، ومن جهة واحدة ، أو يوجد في العديد من الأماكن في آن واحد . أما الكسبي فهو عبارة عن حركة الانتقال من معلوم الى مجهول ، من مشاهد محسوس الى غائب لازم له ، ولا ينفك عنه ، كالانتقال من رؤية الهرم الى معرفة الفراعنة وتاريخهم ، ومن رؤية النظام الثابت في الكون الى معرفة المكوّن والمنظّم . والعقل الكسبي يثبت الحقائق التجريبية وإليه أشار الإمام بقوله: العقل حفظ التجارب ، وقال : « أعلم الناس من جمع علم الناس الى علمه .. العلم أكثر من أن يحصى ، فخذوا من كل شيء أحسنه » . وفي هذا رد صريح على من قال ، يجب على المسلمين أن يكتفوا بما عندهم من علم وتراث قديم ، ولا يجوز أن يستوردوا أي علم من الخارج .

والعلم عند الإمام وسيلة الى العمل ، حتى العلم بالله فان القصد منه العمل بأمره ونهيه ، وعليه يرتكز الثواب والعقاب ، وبه يستدل على الإيمان . بل العلم عند الإمام بلا عمل خيال زائف ، ومن أقواله « العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل ، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل » . ونقل الدكتور زكي نجيب محمود عن فريق من الفلاسفة المعاصرين : « ان العلم والعمل موصول أحدهما بالآخر ، فإذا وجدت علماً مزعوماً لا يجيء بمثابة الخطة المؤدية الى العمل فقل : انه ليس من العلم في شيء » . وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن أهل البيت (ع) ذكر

طرفاً منها الشيخ الكليني في أصول الكافي .

وقول الإمام في العلم يلتقي — من وجه — مع الفلسفة البرجماتية الأمريكية التي تقول : ان الفكرة أياً كان نوعها إنما تقاس بنفعها ، فالفكرة حق وصواب اذا نفعت ، وهي باطل وخطأ اذا لم تنفع، فلا دين ، ولا علم ، ولا تربية وأدب، ولا فن وفلسفة ، ولا أية قيم إلا ما يُسعد الفرد ويعينه على كسب المال من أي مصدر كان ، ولو على حساب الملايين .

ومن هنا افترقت الفلسفة الأمريكية عن قول الإمام (ع) فإن المراد بالعمل عند الإمام العمل النافع الذي لا ضرر معه ولا ضرار : العمل في حدود ما أحل الله، وما حرم ، ولا يطاع الله من حيث يعصى ، أما البرجماتية الأمريكية فإنها تقول: كل الوسائل صحيحة وخيرة ما دامت تؤدي الى الهدف المطلوب . وبكلمة : ان المنفعة عند البرجماتيين هي الانتهازية بصرف النظر عن المبادىء والقيم ، وعند الإمام هي سد الحاجة في حدود القيم والمبادىء .

الترتيب :

وترتيبي في هذا الشرح كترتيب (التفسير الكاشف) ابتدىء بفقرة (اللغة) وثانية (للإعراب) ثم شرح المعنى وتفسيره جملة فجملة ، على طريقة القدامى في تفسير القرآن الكريم،واقفاً عند ظاهر الكلام بلا استطراد وحشو وقفزات .. لأن هذا هو الأساس لكل شرح وتفسير ، ولأن القارىء يتطلع قبل كل شيء الى المعنى المراد .

وقد تنبهت ، وأنا أشرح بعض الخطب ، ان الذين حبسوا أنفسهم على المنابر يتطلعون كثيراً الى نهج البلاغة وخطبه،لما فيها من ثمرات وسحر ونكهة، فحاولت أن أمدهم ولو باليسير ، عسى أن تنمو به خطبهم وتثمر .. ومن أجل ذلك اذا أوحت لي كلمة أو جملة من أقوال الإمام بمعنى يترك أثراً في نفس السامع — حسب تقديري — عنونته بكلمة (للمنبر) كي يهتدي اليه بسهولة من يهمه الأمر اذا راجع الفهرست أو قلب الصفحات .. واذا استقل (المنبري) ما ذكرت لهذه الغاية فإن الكلمة الحية تنتقل بالمفكر الموهوب الى العديد من الأجواء .. على اني — كما أشرت — لست بصدد وضع الخطب ونقشها. وقد أترك كلمة المنبر مكتفياً بما يشير الى الموضوع.

وقسّمت الخطبة الطويلة وما بينها وبين القصيرة،قسّمتها الى فقرات . ووضعت لكل منها أرقاماً ١ ، ٢ الخ. بقصد تسهيل الرجوع الى ألفاظ الخطبة وكلماتها عن طريق الفهرست،أما الخطبة القصيرة فسبيل الرجوع اليها سهل ولا تحتاج الى أرقام. وما راعيت في التقسيم السجع والتناسب بين أجراس الكلمات ، كما هو الشأن في تقسيم سور القرآن الى آيات ، ولا الانتقال من معنى الى غيره،لأن غرضي – كما أشرت – مجرد الكشف والتيسير .

وأطلقت كلمة الخطبة على كثير من أقوال الإمام (ع) – التي لا تعد من نوع الخطب عند الناس – لأنها مدرجة في بابها، على انه ورد عن أهل البيت (ع) « ان من قال : الحمد لله فقد خطب » .

خطة الشرح :

الفرق بين كتاب وآخر في علم من العلوم هو الفرق بين مؤلف وآخر ، لأن أسلوب الانسان هو شخصية الانسان ، فإذا كتب اثنان في موضوع واحد ، أو شرحا متناً واحداً – تناوله كل منهما من رؤية شخصيته،ونظر اليه من زاوية ميوله ورغبته . ومن هنا تغلب التاريخ والأدب على شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة وصرح هو بذلك حيث قال في شرح الخطبة ١٠٦ : « ان كتابنا هذا كتاب أدب لا كتاب نظر » . وتغلب علم الكلام في شيء من الذوق الصوفي على شرح ميثم البحراني ، وأعاد السيد الخوئي ما قاله البحراني وكرره مع بعض الاضافات من الآثار والروايات .

وقد أحسن كلّ في ناحيته ، وأعطى منها ما يشكر عليه ، وسد فراغاً في بابه كان ينبغي أن يُسد .. هذا ، ومن الذي في طاقته أن يستوعب كل الجهات أو يفطن الى كل الجهات في الموضوع الواحد ؟ بل من الذي يصيب في كل ما يقول ويكتب – بلا سقطات – وان اقتصر على ناحية واحدة من موضوع واحد؟ ألسنا بشراً غير معصومين نمارس هذه الحياة بأدوائها وأوبائها!حتى الذي اصطفاه الله لنفسه من بين خلقه كان يشكو اليه ويقول : اللهم اليك أشكو ضعفي ، وقلة حيلتي . وقد أدبه سبحانه فيما أدبه بهذا الأمر : وقل رب زدني علماً .

ولأني أدين وأعتقد بأن الإسلام ما شُرع إلا لخير الإنسان وسعادته ، وانه من أجله يعتبر العلم النافع فضيلة وفريضة ، والعمل لحياة أفضل عبادة وجهاداً –

فقد فرض عليّ هذا الاعتقاد نفسه في شرح النهج ، ودعاني أن أفسر كل كلمة أو جملة منه من خلال هذه الرؤية إن تحملها ظاهر الكلام وأشار اليها .

وليس معنى هذا اني لم أستق شيئاً من القديم ، واني رفضت التراث وتجاوزته بما فيه ، كيف ولو فعلت هذا لكان كتابي شرحاً لغير النهج أو ليس يشرح على الإطلاق ، وكانت وجهتي الى غير ما قصدت؟ثم هل أفسر الكلمات والمفردات بغير ما يتبادر منها الى الأفهام ، وبغير مـــا جاء في قواميس اللغة ، أو أبدل وقائع التاريخ ، أو اتجاهل السياق الذي يشترك الجميع في فهمه ؟

أجل ، رفضت من القديم ما يجب رفضه في هذا العصر ، ولا ينقص مـــن الدين شيئاً ، وقبلت منه ما يتفق مع كل عصر ، وأوضحته وأحكمته ومنه تطلعت وانطلقت الى ما تقبله كل النفوس ، وتقره كل العقول في هذا العصر وكل عصر. ونصوص الاسلام ــ ما عدا العقيدة والعبادة ــ بحاجة الى هذه الرؤية المعاصرة ، وتليق تماماً بمبادىء الشريعة السهلة السمحة ، وبها نجذب الشباب الذين زاغوا عن عقيدة الآباء والأجداد.

والله ولي التوفيق ، والصلاة على محمد وآله الأطهار .

الخطبة

- ١ -

الحمد لله فقرة ١ – ٣ :

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ ٱلْقَائِلُونَ . وَلَا يُحْصِي نَعْمَاءَهُ ٱلْعَادُّونَ . وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ ٱلْمُجْتَهِدُونَ[١] ، الَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ ٱلْفِطَنِ . الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ وَلَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ . وَلَا وَقْتٌ مَعْدُودٌ وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ[٢] . فَطَرَ ٱلْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ . وَنَشَرَ ٱلرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ . وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ[٣] .

اللغة :

الحمد : ثناء وتعظيم . ومدحته مدحاً : أحسنت الثناء عليه بما فيه من صفات ذاتية كالذكاء والشجاعة ، أو مستفادة كالعلم وحفظ التجربة ، ومدحة – بكسر الميم – للهيئة والكيفية ، ومعنى الجملة بمجموعها ان الثناء عليه تعالى كما يليق بحقه متعذر . والنعماء – بالفتح – قيل : هي جمع نِعمة كنعم وأنعم ، وقيل : اسم

مصدر ، وكلمة نعمة جاءت في القرآن الكريم بفتح النون للمرة : « نعمة كانوا فيها فاكهين — ٢٧ الدخـــان » . وجاءت فيه بالكسر للصنيعة والمنة : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها — ١٨ النحل » . واجتهد في الأمر : جد فيه، وبذل الوسع . وأدرك الشيء: ناله ووصل اليه . والهمم : جمع همة ، وهي العزم القوي، يقال : هو بعيد الهمة وذو همة عالية . والفطن جمع فطنة ، وهي الحدس المصيب. وغوصها : إبعادها واستغراقها لنيل المطلوب . وحدُّ الشيء : منتهاه والحاجز بينه وبين غيره . وفطر الخلائق : ابتدعها على غير مثال سبق . ووتد وأوتد الوتد : ثبته . ويشير الإمام (ع) بهذا الى قوله تعالى : « والجبال أوتاداً — ٧ النبأ » . والميدان — بفتح الياء — من ماد يميد ميداً . وميداناً : الحركة بتمايل ، يقال : تمايد إذا تمايل مهتزاً .

الإعراب :

الحمد لله مبتدأ وخبر ، والجملة انشاء في صيغة الإخبار . والذي في محل جر صفة لله ، ومثله الموصول الثاني والثالث . ومحدود صفة للحد ، وهو من باب وصف الشيء بنفسه للمبالغة ، مثل ليلٌ أليل ، وشعرٌ شاعر .

المعنى :

(الحمد لله) . حمْد الله سبحانه من أفضل العبادات ، ولهذا افتتحت بـه الصلاة ، وفاتحة الكتاب ، والخطابات ، وفي خطبة ثانية : « الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره ، وسبباً للمزيد من فضله ، ودليلاً على آلائه وعظمته» ، وفي ثالثة : « لا يحمد حامد إلا ربه » . الحمد لله وحده على توفيقه وعظيم إحسانه (الذي لا يبلغ مدحته القائلون) . يثني المخلوق على خالقه جهـد ما يستطيع ، وعلى قدر ما يعلم .. ومهما سمت العقول فلا تستطيع ، ويستحيل أن تستطيع الاحاطة بمقام العظمة والجلال ، بل لا تحيط بخلق الله وآثاره ، ومن الذي خرق بعلمه باطن الأرض وأسرارها ، وأبراج السماء وأخبارها ، وما تخفي القلوب والصدور ؟. واذا عجزت العقول عن إدراك المخلوق فكيف تدرك الخالق ؟. ومع

هذا العمى والعجز كيف تؤدي واجب المديح والثناء ؟. قال (ع) « ان من يعجز عن وصف ذي الهيئة والأدوات فهو عن وصف خالقه أعجز » .

(ولا يحصي نعماءه العادّون) . هذا تذكير لعباد الله بأنعمه التي لا تُعد ولا تحصى .. ولكن الانسان الظلوم بدل نعمة الله كفراً .. أنعم سبحانه عليه بالعقل، فاخترع به أسلحة الهلاك والدمـار ، وأجهزة التجسس ، والتضليل والخداع . وأعطاه المال ، فاتخذ منه أداة للفساد والطغيان ، ومنحه الصحة في الجسم، فأبلاها بالمعاصي والمحرمات .. قال الإمام (ع) : « اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً،أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً ، أو متمرداً كأن بأذنيه عن سمع المواعظ وقراً » .

وما ظنك بأمير المؤمنين (ع) أن يقول لو كان في هذا العصر، ورأى ما يهتز له العرش في شرق الأرض وغربها من دم يسفك ، وحرمات تهتك ، ومساكن تهدم ، وأطفال ونساء تشرد .. لا لشيء إلا لأن الجبابرة الأقويـاء يريدون من عباد الله أن يسجدوا لهم ويركعوا من دون الله ، وأن يتصرفوا بهم وبأقواتهم كما يشاءون ويهوون ؟.

بأي قول وخطاب يصف الإمام (ع) هذه الفجائع التي ترتكبها الدول الاستعمارية مع كل شعب يريد العمران في أرضه بحرية وأمان،والعيش في بيته بدعة واطمئنان؟ وبأي قول وخطاب يصف علي (ع) ما فعل الصهاينة بالأمس ، ويفعلونه اليوم وبعد اليوم في فلسطين من القتل والبطش ، والتجويـع والتشريد ، ومن الحرق والهدم ، والسجن والتعذيب ؟. كل هذا ، وأكثر من هذا حدث في فلسطـين بالأسلحة الأمريكية الحديثة ، وبأيدي الصهيونية حليفة الاستعمار ، وعدوة الأحرار.

فرحماك اللهم رحماك .. ان كنت تؤاخذنا بما أخطأنا فأرسل علينا مثل صاعقة عاد وثمود ، أو مثل طوفان نوح .. ولا تسلط علينا الصهيونية والأسلحة الأمريكية .. رحماك يا أرحم الراحمين .. يا من خلق الرحمة للمذنبين .. وكتبها عـلى نفسه ، وأكدها بقوله : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم — ٥٣ الزمر » .

(ولا يؤدي حقه المجتهدون) . ان حق الله سبحانه يقاس بعظمته ، وجهد الانسان يقاس بطاقته ، والفرق بين هذه الطاقة وتلك العظمة تماماً كالفرق بين

الخالق والمخلوق .. وهنا يكمن سر العجز عن أداء حقـــه تعالى .. أجل ، مر
أدرك هذا السر ، وانقاد لله في جميع ما يقول ويفعل فقد وفى بعهد الله الـذ
أمر به في قوله : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم واياي فارهبون ــ ٤٠ البقرة »

(الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن) . نحن ذرة من هـذ
الأرض ، وهي ذرة من الكون ، وهو ذرة من فيض الله تعالى،فكيف ندركه
وهذه هي الحال ؟. وفي خطاب آخر : « لم تحط به الأوهام ، بل تجلى لها بها
وبها امتنع منها ، واليها حاكمها » . تجلى سبحانه للعقول بخلقه وآثاره ، والعقو
من جملة الخلق والآثار ، وامتنع من العقول بذاته ، لأن المخلوق أعجز من أ
يدرك الخالق ، وحاكمَ العقول الى نفسها ، فحكمت هي بذاتها انها عاجـزة عر
إدراك الذات القدسية .

(الذي ليس لصفته حـــد محدود) حتى إذا بلغت هذا انتهت وانقطعت .
كلا ، لأنها أزلية أبدية (ولا نعت موجود) . ومعنى النعت والوصف واحـ
بحسب التبادر الى الأذهان ، ولا وجه للتفرقة بينهما كما في بعض الشروح والتعليقا
فراراً من عطف التفسير مع العلم بأنه لا أثر هنا لهذا العطف،وذلك ان الإمام (ع
بعد أن نفى عن الله سبحانه الوصف المحدود بغاية ونهاية ــ نفى عنه أيضاً الوصف
الذي يعبر عنه تعبيراً كافياً وافيـــاً ، وجامعاً مانعـاً ، نفى عنه هذا الوصف أ
هذا النعت لأنه لا طريق أبداً الى معرفته تعالى إلا بآثاره . ومن البداهـة بمكا
ان الآثار لا تعبر عن كنه المؤثر وحقيقته ، ولا تعكس كل ما فيه من صفات.
بالإضافة الى أن قدرة الله تعالى لا تقاس بما صدر عنها من خلق وآثار ، ومـ
يصدر الى الأبد .. لأنها هي هي لا تنضب ولا تنقص ولا تضعف مهما تكاثر
الآثار وتراكمت .

(ولا وقت معدود،ولا أجل ممدود) . الوقت يتعدد وينقسم ، يقال:الأمس
واليوم وغداً ، والأجل ينتهي وينقطع ، وواجب الوجود أزلي أبدي لا تُعـ
الأوقات لوجوده ، ولا تضرب الآجال لبقائه .. هذا ، الى أن الزمان من لواز
الحركة ، وهي من لوازم الجسم ، والواجب منزه عن الجسمية ، قال الإمام (ع)
« هو الأول ولم يزل ، والباقي بلا أجل » .

(فطر الخلائق بقدرته) . أي خلقها على غير مثال بكلمة «كـن» لا بآ

وأداة ، قال الإمام (ع) « المنشيء لا بروية فكر آل اليها ، ولا قريحة غزيرة أضمر عليها ، ولا تجربة أفادها من حوادث الدهر » . (ونشر الرياح برحمته ، ووطد بالصخور ميدان أرضه) . قال الشيخ محمد عبده : « يستعمل العرب كلمة الريح للعذاب ، والرياح للرحمة ، والميدان: الحركة بتمايل ، والإمام (ع) يشير الى أن الأرض كانت مائدة مضطربة قبل جمودها ، وهذ نظم جيد للكلام ، إذ نشر الرياح ، وإرساء الأرض لازم لحياة الخلائق » .

أول الدين الفقرة ٤ — ٦ :

أَوَّلُ ٱلدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ ٱلتَّصْدِيقُ بِهِ . وَكَمَالُ ٱلتَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ . وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ ٱلْإِخْلَاصُ لَهُ . وَكَمَالُ ٱلْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ ٱلصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ ٱلْمَوْصُوفِ وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ ٱلصِّفَةِ(٤) . فَمَنْ وَصَفَ ٱللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ . وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ . وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ . وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ . وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ . وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ . وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ . وَمَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ . وَمَنْ قَالَ عَلَامَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ(٥) . كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ . مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ . مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ . وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ . فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى ٱلْحَرَكَاتِ وَٱلْآلَةِ . بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ . مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ(٦) .

اللغة :

قرنه : من المقارنة ، أي جعل معه شيئاً آخر ، والمراد هنا أن من جعل مع الله صفات غير ذاته وزائدة عليها فقد جعل غيره معه . وجزّأه : جعله مركباً من أجزاء . وحدّه: جعل له حداً يقف عنده ولا يتعداه الى غيره . وعدّه : أحصاه وأحاط به . والمزايلة : المفارقة ، يقال : زايل فلان فلاناً أي فارقه ، وفي القرآن : « فزيّلنا بينهم – ٢٨ يونس » أي فرقنا بينهم . وتطلق الآلة على الجارحة كاليد والعين . والسكن : الأنيس ، وتطلق على الأهل .

الإعراب :

لكلمة أول معنيان : أحدهما أن يراد بها مجرد العدد مثل أول،ثان ، فتكون مصروفة ، ثانيهما أن يراد بها الوصف أي أسبق ، فتكون من أفعال التفضيل ، وتمنع من الصرف للصفة ووزن الفعل . والمصدر من « انها غير الخ» مجرور بعلى محذوفة ، ويتعلق بشهادة لأنها بمعنى شهد ، وكذلك « انه غير الخ » و «فيما» « في » حرف جر و « ما » استفهام ، وحذفت الألف للفرق بينها وبين « ما » الموصولة ، ومثلها « علام ». وكائن خبر لمبتدأ محذوف أي هو كائن ، وما بعده صفة له ، ومثله موجود ، ومع كل شيء ، وفاعل ، وبصير ، ومتوحد .

نفي الصفات :

قبل أن نفسر الجمل في هذا المقطع نمهد بكلمة سريعة عن صفاته تعالى كمقدمة للتفهم والتدبر .

لا يختلف اثنان من المسلمين في ان الله سبحانه يوصف بكل ما وصف به نفسه في كتابه العزيز ، وان عظمته في الكمال والجلال كما هي لا يحدها وصف ، ولا يدركها عقل ، وانها أزلية أبدية تماماً كذاته القدسية .. وانما الكلام والخلاف في ان الصفات العليا بأي معنى تنسب اليه تعالى ، وتطلق عليه : هل تنسب اليه ، جلّت عظمته على انها شيء غير الذات ، وزائدة على كنهها وحقيقتها تماماً كما

هي الحال في وصف الانسان بالعلم ، فإن حقيقة الانسان حيوان ناطق ، وحقيقة العلم الكشف عن الواقع ، فإذا وصفنا الانسان بالعلم فقد وصفناه بما هو زائد وخارج عن ذاته وطبيعته ، وإلا كان الانسان بما هو عالماً من غير كسب واستفادة وبحث ودرس ، وهذا خلاف الحس والوجدان — هل وصف الله بالعلم وغيره كذلك وعلى هذه الحال ، أو ان الله يوصف بالعلم والقدرة بمقتضى ذاته وحقيقته، لا بشيء زائد عنها تماماً كوصف الانسان بالانسانية ، والشجر بالشجرية — مثلاً — .

قال الأشاعرة كل صفاته تعالى غير ذاته وزائدة عليها ، ومعنى هذا ان ذاته بما هي لا تقتضي العلم والقدرة ونحوهما من الكمال تماماً كما ان ذات الانسان لا تقتضي العلم . وقد تخطوا بذلك حدود التوحيد حيث يلزمهم القول بتعدد القديم كما تخطوا حدود العدل في قولهم بالجبر .. وما لنا ولهم ؟ فلندعهم وشأنهم .

وذهب أهل العدل والتوحيد الى أنه لا صفات لذات الله تزيد على ذاته، وان وصفه بالعلم والقدرة تماماً كوصف الانسان بالإنسانية ، والشجر بالشجرية ، لأن ذاته تعالى بما هي وبطبعها وحقيتها تقتضي العلم والقدرة،بل هي عين العلم والقدرة كما ان الانسانية عين الانسان ، لأن كماله تعالى ذاتي لا كسبي ، ومطلق غير مقيد بشيء دون شيء ، وجهة دون جهة ، وانه بموجب هذا الكمال الذاتي المطلق غني عن كل شيء يزيد على ذاته وكنهه .. ولماذا الزيادة ؟ وما هو الداعي اليها اليها ما دامت الذات القدسية كاملة بنفسها من كل الجهات ؟ وهل نحتاج الى الزائد لنكمل به الكامل ، ونتمم التام ؟.

وعلى هذا إذا أطلقت صفات الكمال عليه تعالى كالعالم والقادر — فيجب ان يراد بها نفس الذات القدسية التي تقتضي القدرة والعلم، بل هي عين العلم والقدرة، تماماً كما يراد من كلمة « الله » . وكل وصف جاء في القرآن الكريم ، وعلى ألسنة الراسخين في العلم فإن المراد هذا المعنى بالخصوص .. أما الصفات المنفية عن ذاته تعالى في كلام الإمام (ع) فهي الأحوال الخارجة عن الذات والزائدة عليها ، وتعرضُ لها بسبب من الأسباب ، تُنفى هذه عنه لأنها من صفات المخلوقين دون الخالق .

وتسأل : كيف نتصور وحدة الذات مع تعدد الصفات ؟. وهل هذا إلا كقول من قال : الاب والابن وروح القدس إله واحد .

وأجاب البعض بأن الصفات بالنسبة اليه تعالى متعددة مفهوماً متحدة مصداقاً .

وهـذا الجواب – كما نرى – لا يحل الإشكال ، لأن صدق المفاهيم العديدة على شيء واحد يستدعي أن تكون به حيثيات عديدة ، فيقال : هو عالم لصدق مفهوم العلم عليه ، وقادر لصدق مفهوم القدرة .. والله واحـد من كل وجه لا حيثيات له وجهات .. أجـل ، يقال : هو علم لأن العلم ذاتي له ، وهو عالم لأنه يعلم كل شيء ، ولكن الجهة هنا واحدة، وهي العلم . والأولى في الجواب: انه لا مصداق ولا مفاهيم ، ولا حيثيات وجهات .. لا شيء على الإطـلاق إلا واجب الوجود الكامل المطلق من كل وجه ، وإن التعدد إنما هو في أنواع الكمال وأقسامه ، لا في ذات الكامل المطلق الذي هو المبدأ الأول لكل كمال .. وبتعبير ثانٍ كما ان تعدد المخلوقات لا يتنافى مع وحدة الخالق كذلك تعـدد الكمالات لا يتنافى مع وحدة مبدئها ومصدرها .

المعنى :

(أول الدين معرفته) . لكلمة الدين معانٍ ، والمراد بها هنا الطاعة والانقياد لله تعالى في أمره ونهيه . ومن البداهـة ان الانقيـاد يتوقف على معرفة القائد ، والطاعة على معرفة من يطاع ، ومن أجل هذا كان العـلم بالله أشرف العلوم ، لعظمة «المعلوم» من جهة ، ولأن العلم بوجوده تعالى وبأمره ونهيه هو في جوهره علم بمبدأ الانسان ومصيره ، وبما له وعليه ، وأوضحنـا ذلك في كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » . قال الإمـام (ع) : رحم الله امرءاً أعد لنفسه ، واستعد لرمسه ، وعرف من أين ؟ وفي أين ؟ والى أين ؟.

(وكمال معرفته التصديق به) . والذي نفهمه من التصديق هنـا هو الإقرار بالله عن ايمان وايقان لا يشوبه شك ووسوسة بحيث لو انكشف الغطاء لصاحبه ما ازداد يقيناً . أما من أقر بالله ، وقال : أشهـد أن لا إله إلا الله ، ثم يتقدح الشك في قلبه لأول عارض من مصاب يلم به ، أو وهم زائف ، أما هذا فهو ناقص الايمان ، وان قام الليل ، وصام النهار . قال الإمام (ع) وقد سمع رجلاً من الخوارج يتهجد ويقرأ : « نوم على يقـين خير من صلاة في شك » . وفي معناه الحديث المعروف : نوم العالم أفضل من عبادة الجاهل .

(وكمال التصديق به توحيده) . قسّم الشارحون أو أكثرهم التصديق بالله الى ناقص وكامل ، وعرّفوا الناقص بأنه التصديق بالله مع وجود الشريك أو إمكان وجوده ، ثم قالوا : وهذا يستلزم التركيب في الذات ، والمركب ممكن الوجود، لا واجب الوجود !.. والحق ان الشرك لا يمت الى التصديق والايمان بسبب ، بل هو أسوأ وأقبح من الإلحاد ، لأن الإلحاد نفي للتوحيد وكفى ، أما الشرك فهو نفي للتوحيد ، وإثبات للشرك والتعدد .

ومهما يكن فإن قصد الإمام (ع) ان التصديق الحق لا يكون ولن يكون إلا مع تنزيه الخالق عن كل ما فيه شائبة الشرك والزيادة عن ذات الله ، وأن من جعل مع الله شيئاً آخر فما هو من المصدقين على الاطلاق ، لا انه مصدق تصديقاً غير كامل .

(وكمال توحيده الإخلاص له) . قال بعض الشارحين : المراد بالإخلاص هنا الزهد الحقيقي،وقال آخر : الاخلاص منه ناقص ، ومنه تام !.. ولا ندري كيف يكون الاخلاص ناقصاً ، ومعناه الخلوص من كل شائبة ؟. والذي نفهمه ان الإخلاص المقصود في قول الإمام (ع) هو الإيمان والتصديق بأن الله سبحانه متفرد بالكمال المطلق ، ومنزه عن المادة ولوازمها ، وعن الجور وغيره من القبائح، وغني عن كل شيء ، واليه يفتقر كل شيء ، وليس كمثله شيء .

(وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه) . أي نفي الصفات الخارجة عن الذات وطبيعتها ، لا نفي الصفات التي هي عين الذات وحقيقتها ، وإلا فان « كلام الإمام (ع) مليء بصفات الله سبحانه،بل هو في هذا الكلام يصفه أكمل الوصف» كما قال الشيخ محمد عبده . وبيّنّا ذلك في صدر هذا الكلام بعنوان «نفي الصفات».

(لشهادة كل صفة انها غير الموصوف) . وكلمة الصفة تدل بنفسها على نفسها ، وانها من المعاني المضافة الى الموصوف ، والتابعة له وجوداً وعدماً . ومن البداهة ان التابع غير المتبوع ، والمضاف غير المضاف اليه (وشهادة كل موصوف انه غير الصفة) . لأنه في غنى عنها ، وهي في حاجة اليه ، واذن يستحيل نسبة الصفة اليه تعالى بمعناها الحقيقي وإلا لزم تعدد القديم ، وتركيب الذات القدسية الواجبة الوجود.. وهذه هي الصفة التي يجب نفيها عنه تعالى توحيداً للكمال المطلق ، وتنزيهاً لذاته عن كل شائبة،أما إذا أريد من الصفة مجرد الإشارة

الى تفرده تعالى في الجلال والكمال فجائز قطعاً ، وراجح عقلاً وشرعاً،وإلا فبأي شيء نتوسل اليه تعالى ، ونثني عليه ؟

(فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه) . أي من وصف الله بالعالم والقـــادر ونحوهما ، وأراد الصفة التي هي غير الموصوف فقد جعل له قريناً ، ومعنى القرين الصاحب ، وليس لله صاحب ولا صاحبة قال الإمام (ع) : وبمضادته بين الأمور عُرف ان لا ضد له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف ان لا قرين له .

(ومن قرنه فقد ثنّاه).أي جعله اثنين،وواجب الوجود واحد (ومن ثناه فقد جزأه) . يقال : جزّأه تجزئة إذا قسمه .. والأزلي الأبدي لا ينقسم .. بالإضافة الى أن القسمة تتنافى مع الكمال المطلق .

(ومن جزأه فقد جهله) . لأنه قال على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (ومن جهله فقد أشار اليه ، ومن أشار اليه فقد حده) . المراد بالإشارة هنا التشخيص ، وهذا من باب التعبير باللازم وارادة ما لا ينفك عنه هذا اللازم، لأن كل ما يمكن تشخيصه بحدوده وقيوده يمكن الإشارة اليه حسّياً كان أم عقلياً، تقول : هذا فلان ، وتقول : هذه نظرية صحيحة أو باطلة ، والمراد بالحـــد منتهى الشيء وأطرافه ، وليس المراد به التحديد باصطلاح أهل المنطق .

والمعنى ان الجاهل يشخّص الله في ذهنـه حسبما يتوهم ويتصور ، ولازمُ هذا ان لله حدوداً وقيوداً ينتهي عندها ولا يتجاوزها ، ولذا قال الإمام الباقر (ع): « كل ما وقع عليه وهمك من شيء ، فالله خلافه » ذلك ان الله تعالى ليس من شأنه أن يشخصه عقل،ويدركه وهم،وقد تكرر هذا المعنى في كلمات آل البيت(ع) من ذلك : « لا صورة له في الأذهان : ولا شبيه له في الأعيان .. تفكروا في الخلق ، لا في الخالق » .

(ومن حده فقد عده) . أي أحصاه وأحاط به .. والعقل بما فيه من قوة وطاقة لا يكشف للانسان عن نفسه وحقيقته،ولا يدرك كل ما في النملة والبعوضة من خصائص وغرائز باعتراف العلماء فضلاً عن المجرات وغيرها من الكائنات ، واذن كيف يحيط العقل بمن لا بدايـــة له ولا نهاية : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء — ٢٥٥ البقرة » . وأقصى ما تتصوره العقول عن ذاته تعالى انها فوق التصور . ومن أدرك هذه الحقيقـة ، ثم مر بخياله صورة لله تعالى من

الصور — أيقن بفسادها ، وأسرع الى نفيها ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم . ومن جهل هذه الحقيقة ، ثم رسم الشيطانُ في عقله صورة لله سبحانه — آمن بها وأيقن .. وبهذا يكمن السر في قول الإمام (ع) : « ومن جهله الخ » .

(ومن قال فيمَ فقد ضمنه) . « في » ظرف تستعمل في الزمان والمكان ، تقول : كان هذا في وقت كذا أو مكان كذا ، أي فيه وحده لا في غيره ، وضمّنه : حصره في مكان معين ، أو زمان معين ، والله سبحانه لا يخلو منه زمان ولا مكان، ونسبته الى كل شيء واحدة بلا آلة أو حركة . قال الإمام (ع) : « لا تصحبه الأوقات ، ولا ترفده الأدوات .. ولا يجري عليه السكون والحركة .. ولا يحول ولا يزول » . هذا ، الى ان الموجود في شيء مفتقر اليه لا محالة ، والله غني عن العالمين .

(ومن قال علامَ فقد أخلى منه) . من قال : ان الله جالس على الكرسي أو العرش فمعنى قوله هذا ان سائر الأمكنة خالية منه تعالى ومن قدرته ، ولهذا وجب تأويل الكرسي والعرش في بعض الآيات بالسيطرة والاستيلاء . وقال قائل للإمام الصادق (ع) : على أي شيء كان اعتماد الله ؟ فأجاب بأن اعتماده على قدرته ، أي لا اعتماد له على شيء اطلاقاً حيث لا يعتمد على سواه إلا الضعيف القاصر .

(كائن لا عن حدث) . تقول : حدث هذا ، أي لم يكن موجوداً فوجد. ولا بد لكل حادث من سبب في حدوثه بعد أن كان مسبوقاً بالعدم ، وفي بقائه واستمراره أيضاً ، لأن طبيعة الممكن بما هي لا تقتضي حدوثاً ولا بقاء إلا بسبب خارج عنها . والله سبحانه أزلي لا أول له ، وهو سبحانه مسبّب الأسباب ،ولا سبب له ، لاستحالة التسلسل في العلل ، وضرورة الانتهاء الى علة أولى (موجود لا عن عدم) . لأن أزله سبق العدم ، ومنه يبتدىء كل شيء ، واليه تنتهي جميع الأشياء .. انه يبدأ الخلق ثم يعيده .. « فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم — ٣٧ مريم » .

(ومع كل شيء لا بمقارنة ،وغير كل شيء لا بمزايلة) . المزايلة : المفارقة ، والمعنى انه تعالى مع كل شيء بعلمه وقدرته ،وبعيد عن كل شيء بكنهه وحقيقته .. فلا اتحاد ولا انفصال ، ولكن صلة بين الخالق والمخلوق ، وبين العلة والمعلول. وجاء في أصول

الكافي عن الإمام أمير المؤمنين (ع) انه قال في تمجيد الله سبحانه : « قريب في بعده ، بعيد في قربه ، فوق كل شيء ، ولا يقال : شيء فوقه ، أمام كل شيء ، ولا يقال له : أمام ، داخل في الأشياء ، لا كشيء داخل في شيء ، وخارج عن الأشياء ، لا كشيء خارج من شيء ، سبحان من هو هكذا ، ولا هكذا غيره » .

وقال الملا صدرا في شرح هذا الكلام – ما تلخيصه وتوضيحه : هو قريب من الأشياء ، لأنه خالقها ، وبه حدوثها وبقاؤها ، وهو بعيد عن الأشياء ، لأن الخالق أعظم من المخلوق ، والعلة أكمل من المعلول لاستغنائها عنه ، وافتقاره اليها ، والله فوق كل شيء ، لإحاطته بالأشياء ، ولا يقال : فوقه شيء ، لأنه غير متناهي الوجود ، وهو أمام كل شيء ، لأنه خالقها ، والخالق أسبق في الوجود من المخلوق ، ومع هذا لا يقال له : أمام ، لأنه أزلي لا أول له ، وهو داخل في الأشياء ، لأن وجودها مستمد من وجوده تماماً كما يستمد الكل وجوده من وجود أجزائه ، وهو خارج عن الأشياء ، لأنه مستقل عنها من كل وجه ، وهي رشحة من رشحات وجوده .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد – ١٦ق » . وقوله : « وهو معكم أينما كنتم – ٤ الحديد » . وقوله : « ليس كمثله شيء » .

(وفاعل لا بمعنى الحركات والآلة) . وخير تفسير لهذه الجملة قول الإمام نفسه (ع) : « فاعل لا باضطراب آلة ، مقدر لا بجولة فكر ، غني لا باستفادة. لا تصحبه الأوقات ، ولا ترفده الأدوات » . وأبلغ من هذا وأجمع قوله تعالى: « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون – ٨٢ يس » .

(بصير اذ لا منظور اليه من خلقه) . المنظور اليه ما يقع عليه النظر. والمعنى ان الله عالم بخلقه قبل أن يخلقهم ، ومثله قول الإمام (ع) : « عالم إذ لا معلوم ورب إذ لا مربوب ، وقادر إذ لا مقدور » . أي ان واجب الوجود عالم قادر بمحض وجوده ، لأن قدرته وعلمه وذاته شيء واحد ، ولما أراد سبحانه أن يخلق الأشياء وقع العلم على المعلوم السابق في علمه ، ووقعت القدرة على المقدور السابق في قدرته .

(متوحد إذ لا سكن يستأنس به ، ولا يستوحش لفقده) . قد يدخل الواحد

في عداد الاثنين والثلاثة الخ ، وأيضاً يطلق على الضعيف الذي لا ناصر له ولا معين ، وعلى المتوحد المستوحش لفقد الجليس والأنيس ، والله منزه عن القلة والضعف ، وعن الوحشة والاستيناس . والمراد بوحدته تعالى تفرده بالسلطان والكمال. قال الإمام (ع) : « واحد لا بعدد ، دائم لا بأمد ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل » .

أنشأ الخلق فقرة ٧ – ٨ :

أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ إِنْشَاءً . وَٱبْتَدَأَهُ ٱبْتِدَاءً . بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا . وَلَا تَجْرِبَةٍ ٱسْتَفَادَهَا . وَلَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا . وَلَا هَمَامَةِ نَفْسٍ ٱضْطَرَبَ فِيهَا[٧] . أَحَالَ ٱلْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا . وَلَأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا . وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبْلَ ٱبْتِدَائِهَا مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَٱنْتِهَائِهَا . عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وَأَحْنَائِهَا[٨] .

اللغة :

الروية : النظر والتفكير . وأجالها ؛ أدارها ورددها . همامة : من الاهتمام . اضطرب : تحرك . أحال : من التحويل من حال الى حال . لأم : وافق . غرائز : جمع غريزة ، وغرزها جعلها غرائز . أشباح : أشخاص . قرائنها : ما يقترن ويصدر عنها . احنائها : جوانبها .

الإعراب :

عالماً حال من الضمير المستتر في ألزمها ، ومثله محيطاً وعارفاً ، أما الضمير البارز في ألزمها ، وهو الهاء فيعود الى الغرائز .

المعنى :

(انشأ الخلق انشاء ، وابتدأه ابتداء) . المراد بالخلق هنـــا الكون ، وانشأه وابتدأه بمعنى أوجده على غير مثال سابق ، وأثبت علماء الطبيعة بالتجربة أن العالم حادث ، ويأتي البيان عند المناسبة .. والله أوجد الكون أول مـــا أوجده من لا شيء ، وإلا فأي فرق بينه وبين من يصنع شيئاً من أشياء ، وأشياء من شيء ، وإذا لم يكن للعالم من قبل عين ولا أثر فمن أين يأتي المثيل والنظير ؟

(بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همامـــة نفس اضطرب فيها) . هذه الأوصاف الأربعة كلهـا للمخلوق .. ولذا نفاهـــا الإمام (ع) عن الكمال الذاتي المطلق .. فالروية عملية تفكير وتأمل لاستخراج مجهول من معلوم ، ومثلها التجربة بإضافة الرؤية الى الروية ، وبكلمة أوضح : الرويـة عقل ، والتجربة حس ، وكـــل منهما طريق ووسيلة الى المعرفة ، والحركة من لوازم الجسم ، ولا دافع على الاهتمام بالشيء إلا الحرص على المنفعة والخوف من فقدها وزوالها .. والله قادر وعالم وغني بالذات ، لا بالأوصاف ، وبما هو لا بالوسائل ، يحيط بكل شيء،غني عن كل شيء ، وله المثل الأعلى، لكماله الذاتي المطلق من كل وجه .

(أحال الأشياء لأوقاتها) . إذا اختار الله أمراً فإنما يختاره لحكمة بالغـــة ، ولمصلحة تعود على الخالق ، لا عليه ، جلت عظمته ، فإذا اقتضت المصلحة وجود شيء في وقت معـــين أوجده سبحانه فيه ، لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه .. ولا مانع في حكم العقل ان تتعلق الارادة الأزلية بإيجاد الحوادث في أوقاتها الخاصة، ما دامت على ما هي قبل الحادث وبعده .. وتجدر الإشارة الى ان قول الإمام : «لأوقاتها» يومىء الى ان العالم لم يُخلق دفعة واحدة بل على التدريج أو التطور،وأن كل شيء يستند في وجوده واستمراره الى إرادته تعالى مباشرة أو بواسطة ما خلق وسبّب من الأسباب ، وان الطبيعة أو البيئة هي عامل يكيف الشيء الموجـود ، ولا يخلقه ويوجده .. وبهذا شهدت تجارب علماء الطبيعة ، وقد ذكر أحمـــد أمين العراقي أقوالهم في ج ٢ من كتاب « التكامل في الاسلام » ص ١٠٣ طبعة ٣ .

(ولأم بين مختلفاتها ، وغرّز غرائزها ، وألزمها أشباحها) . في الكون عوالم وعناصر متعددة ومختلفة في جوهرها ووظائفها ، فالروح – مثلاً – غير البـــدن

حقيقةً وأثراً ، ولكن كلاًّ منهما لا يقوم بوظيفته إلا اذا اقترن بالآخر ، وهذا ينطبق على كل عملية عضوية في الجسم ذي الأعضاء، فما من عضو واحد منها يؤدي وظيفته إلا باقترانه مع غيره ، وهكذا سائر الكائنات أو الكثير منها يرتبط بعضها مع بعض بنحو أو بآخر ، وبهذا الترابط الطبيعي يسير الكائن في طريقه المرسوم له ، ويحقق الغاية التي من أجلها وجد .

ويعني هذا التلاؤم والترابط انه لا شيء وجد صدفة أو عبثاً .. وأين مكان الصدفة والعبث ؟. هل هو في هذا النظام المحكم الدقيق الذي يخضع له الكون ولا يتعداه بحال ؟ أو هو في التقدير الكمي والكيفي والزمني لكل كائن ؟ أو هو في التعاون بين الكائنات على البناء والتعمير ؟. أبداً لا تفسير لذلك إلا بوجود القدير الحكيم ، وانه المصدر الأول لكل شيء ايجاداً وامداداً ، ولولاه لا شيء على الاطلاق .

(عالماً بما قبل ابتدائها ، محيطاً بحدودها وانتهائها ، عارفاً بقرائنها وأحنائها). نحن نعرف شيئاً ، وتغيب عنا أشياء ، وأيضاً لا نعرف هذا الشيء إلا بعد وجوده ، أو عند وجود أسبابه وعلاماته . ومع هذا نعرف منه الوجه الظاهر ، وتغيب عنا أكثر الوجوه. حتى أنفسنا لا نعرف عنها إلا أقل القليل. وفوق ذلك كله ان معرفتنا القليلة الناقصة لا تحصل إلا بالجد والاكتساب . والله سبحانه يعلم كل شيء على حقيقته ، ومن جميع جهاته : متى يوجد ؟ وأين ؟ وكيف ؟ وما يحدث له ؟ وفي أي أمد ينتهي ؟ لأنه هو الذي أبدعه وقدره تقديراً. وعلمه بذلك هو هو قبل الخلق وبعده لا تحويل ولا تغيير ، والسبب الأول والأخير هو كماله المطلق بلا قيود وحدود ، ولا بداية ونهاية ، وإلا كان معلولاً لا علة ، ومخلوقاً لا خالقاً . تعالى الله عما يصفون .

خلق السموات فقرة ٩ — ١٣ :

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ ٱلْأَجْوَاءِ وَشَقَّ ٱلْأَرْجَاءِ وَسَكَائِكَ ٱلْهَوَاءِ[٩] . فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِماً تَيَّارُهُ ، مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ . حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ

ٱلرِّيحِ ٱلعَاصِفَةِ ، وَٱلزَّعزَعِ ٱلقَاصِفَةِ . فَأمرهـا بِرَدِّهِ ، وَسَلَّطَهَـا عَلى شَدِّهِ ، وَقَرَنَهَا إلَى حَدِّهِ . الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ ، وَٱلْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ[10] . ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا وَأَدَامَ مُرَبَّهَا . وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا ، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَـا . فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ ٱلْمَاءِ ٱلزَّخَّـارِ ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ ٱلْبِحَارِ[11] فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ ٱلسِّقَاءِ ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ ، وَسَاجِيَهُ إِلَى مَائِرِهِ . حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ ، وَجَـوٍّ مُنْفَهِقٍ[12] ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً. وَسَمْكاً مَرْفُوعاً . بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا ، وَلَا دِسَارٍ يَنْظِمُهَا . ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَـةِ ٱلْكَوَاكِبِ ، وَضِيَـاءِ ٱلثَّوَاقِبِ . وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً ، وَقَمَراً مُنِيراً . فِي فَلَكٍ دَائِرٍ ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ[13] .

اللغة :

الفتق بفتح الفاء : الشق ، وهو ضد الرتق . والأجواء : جمع جو . والأرجاء الجوانب والأطراف . والمراد بالسكائك هنا طبقات الجو . والهواء : الجو . والتيار : موج البحر . والزخار : الممتلىء . والعاصفة : الريح الشديدة . وزعزعة الشيء : تحركه . وعلى شده أي جذبه وإمساكه . والى حده : جعل امتداد الريح على قدر امتداد الماء . والفتيق: الخالي الذي لا شيء فيه . والدفيق : من الدفق ، وهو الصب . واعتقم : جعـل الريح عقيمة لا تلقـح شيئاً . وهبّت الريـح : ثارت وهاجت . ومهبها موضع هبوبها . والمرب : محل الاقامة . وأعصف: جعله شديداً . والمنشأ موضع النشأة ، يقـال : مولدي ومنشأي في كذا ، أي موضع

ولادتي ونشأتي . ومخضته: حرّكته تحريكاً شديداً . والساجي: الساكن . والمائر : المتحرك . وعب : ارتفع. والزبد : ما يعلو الماء . والركام : المتراكم بعضه فوق بعض . ومنفتق : منشق ومفتوح . ومنفهق : واسع . والموج المكفوف : الجامد. والدسار : مسمار ونحوه . والثواقب : النجوم المنيرة المشرقة . والسراج المستطير: المنتشر الضياء . وسائر: متحرك . والرقيم : اللوح ، والمراد هنا: مثل الرقيم . ومائر: متحرك .

الإعراب :

(ثم أنشأ) للشارحين أقوال طويلة في « ثم » هذه ، وأظهرها انها عطف على معنى الكلام المتقدم عن قدرة الله سبحانه، وانه يخلق بلا حركة ولا همامة نفس الخ، ومتلاطماً صفة للماء ، وتياره فاعل لمتلاطم ، ومثله متراكماً زخـاره ، وفي فلك متعلق بمحذوف صفة ثانية للسراج والقمر .

حول الكون :

تكلم الناس كثيراً عن طبيعة الكون وأصله ، وعن هيئته وشكله في أول وجوده وتكوينه : هل وجد من التراب والماء والنار والهواء ، أو من النار وحدها ، او من الماء فقط ، أو من أشياء كثيرة ؟ وهل كان وجوده دفعـة أو بالتدريج ، الى غير ذلك .. وقال الناس عن الكون ما شاء لهم الوهم والخيال .. وهذا مـا دعا الإمام (ع) ــ كما نظن ــ أن يشير في خطبته هذه الى أصل الكون ، وقد يكون الغرض أن تعرف الأجيال القادمة ان الغيب الذي نطق به علي عن النبي (ص) عن الله سبحانه هو حق وصدق .

ومهما يكن فقبل أن نفسر المراد من قوله (ع) نمهد بما يلي ، لا بقصد التسهيل والتيسير على فهم ما قصد ، وأراد (ع) بل غرضنا الأول أن يتثبت الشاكّون ، ولا يتسرعوا الى الحكم بأن قول الإمام لا يتفق مع رأي علماء الطبيعة الجدد ، ولا يعتمد على شيء، وان يعلم الجميع ان من قال هذا فقوله هو الجدير بهذا الوصف.. والدليل :

١ — ان علماء الطبيعة لم يتوصلوا الى الاتفاق على تفسير علمي لمبدأ الكو
ولا كيف وجد ؟ وكم مضى له من العمر .. فمنهم من قال : بدأ الكون با
من كتلة المادة البدئية ، ولكنه لم يبين نوع هذه الكتلة البدائية . وقال آخر
الكون من السديم ، أي الضباب الرقيق . وقال ثالث : بدأ من غاز الهيدرو-
ولكن من أين جاء هذا الغاز ، أو تلك المادة البدائية ، أو ذاك السديم ؟
وجد صدفة ، أو وجد لنفسه بنفسه ، أو هو من قوة عليا .. أبداً لا جو
أو جواب بلا دليل .. وفوق ذلك ان الكلام في بدء الكون حيث لا شي
العدم ، لا في وجود شيء نحاول معرفته والعلم به ، واذن فتنبؤ هؤلاء أو تخر
بعيد عن موضوع الكلام والسؤال كل البعد ، وكان عليهم أن يبحثوا أولاً
كل شيء : هل العالم حديث أو قديم ؟. وقد أثبت كثير من العلماء الجدد
حادث ، ونذكر أقوالهم عند المناسبة .

وقال رابع من علماء الطبيعة : « كل ما لدينا من معلومات لا تصحح
واحدة عن الكون » . وهذا العالم هو الدكتور (ماري) الأستاذ في جامعة سبـ
ويهتم اهتماماً بالغاً بالكون وأصله . (ج ١ ع ٣ ص ٥ من مجلة عالم الفـ
الكويتية) .

وأيضاً اختلفوا في الكون : هل وجد بخطوطه الكبرى على الحال التي هو
الآن ، أو تغير عما كان عليه ؟. واختلفوا أيضاً في عمر الكون ، فمن قائـ
هو ستون ألف مليون سنة ، وقائل : بل عشرة آلاف مليون ، وقال ثالـ
لا دليل على العمر اطلاقاً . وقال الدكتور فؤاد صروف نائب رئيس الجـ
الأمريكية ببيروت : « والنقاش العلمي — أي في أصل الكون وعمره — قائـ
قدم وساق . » (مجلة عالم الفكر ج٢ ع ٢ ص ١٧) .

وبعد هذا ، هل يسوغ لقائل أن يقول : ان كلام الإمـــام (ع) عن
الكون — لا يتفق مع رأي علماء الطبيعة ؟.. أجل ، له أن يسأل ويقول :
ما هو الدليل على ان الماء أصل الكون كما جاء في خطاب الإمام ؟.

ونحن أيضاً نسأل بدورنا : هل من دليل قاطع من الحس أو العقل على
ما قاله الإمام (ع) ؟. وهل من المستحيل أن يتقدم العلم ، ويكشف بعد
وقرون ان ما قاله علي (ع) في خلق الكون هو الحق الذي لا ريب فيه .

كما اكتشف ان النقطة الواحدة من الماء الذي نشربه فيهـا عجائب وغرائب من المخلوقات والكائنات الحية التي أشار اليها الإمام بقوله – قبل ألف عام أو أكثر –: « لا تبلّ في الماء فإن للماء أهلاً » . ومثله قول أستاذه الصادق الأمين (ص) : « ان الهواء فيه خلق كثير . » وقبل الميلاد بخمسة قرون قال الفيلسوف اليوناني « انكساجوراس » : ان القمر مجرد جسم يشبه الأرض . وفي القرن الثالث قبل الميلاد أيضاً قال « ارستراكوس » اليونانـي : ان الأرض تدور حول محورها وحول الشمس . وفي القرن الأول الميلادي قال « بلوتارك » : في القمـر أودية وتلال.. وسخر الناس آنذاك من هذه الأقوال ، وعدّوها سخفاً وهراء.. وبعد ألفي سنة صعد الانسان الى القمر ،ووطأه بقدميه،ورآه تماماً كالأرض..هذا،وانكساجوراس وغيره من الذيـن صدقوا في نبؤاتهم – لم يأخذوا العـلم من خالق الأرض والسماء كالأنبياء وتلاميذهم الأولياء .. وما يدرينا ان الأيام سوف تثبت قول الإمـام في تفسير الكون ، كما أثبتت ان القمر مثل الأرض ؟. وما أكثر الشواهد في هـذا الباب .

٢ – هل من دليل قاطع على أن هذا الكون الذي نعيش فيه الآن هو بالذات الكون الأول بجميع خطوطه وتفاصيله ؟. ان كلام الإمام (ع) واضح وصريح في مبدأ الكون الأول الذي سبق الأكوان كلها ، وما سبقه إلا العدم والخواء ، وقد مضى الأول إلى غير رجعة ، وجاء بعده أكوان وأكوان .. هكذا نطقت الروايات عن أهل البيت (ع) . منها قول الإمام الباقر حفيد الإمام أمير المؤمنين (ع) : والله لقد خلق الله ألف عالم، وألف آدم قبل هذا العالم ، وما فيه من الآدميين.: وقالَ أيضاً : سيفنى هذا العالم ، ويخلق الله عالماً آخر يعيش فيه عوالم آخرون : (كتاب التوحيد،للصدوق) .

وعلى هذا اليقين عندنا ، والاحتمال – على الأقل عند غيرنا – لو اتفق أهل الأرض جميعاً على أن تفسير الإمام (ع) لخلق الكون لا ينطبق عـلى هذا الذي نعيش فيه ، لو وجد هذا الاتفاق يبقى قول الإمام على حصانته وقداسته ، لأنه عن العالم الأول ، وليس عن عالمنا هذا اللاحق بما فات ، والسابق لما هو آت :

وتسأل : ان قول الإمام (ع) صريح في العالم ، ما في ذلك ريب ، ولكـن من أين أنخذ العلم به ، وقد ذهب هذا العالم بما فيه ، وجاء بعده عوالم وعوالم.. وهل هذا إلا قول بالغيب ؟

وقد أجاب الإمام (ع) عن ذلك بقوله : « ليس هو بعلم غيب ، وإنما هو تعلُّم من ذي علم » . يريد (ع) ان مصدر علمه هو رسول الله (ص) عن جبريل عن الله سبحانه الذي لا خالق إلا هو .. ومن أجل هذا تكلم الإمام (ع) بثقة ويقين ، لا بحدس وتخمين .. كيف ؟ وهو القائل : « لا تقل ما لا تعلم ، بل لا تقل كل ما تعلم ، فان الله فرض على جوارحك كلها فرائض يحتج بها عليك يوم القيامة » . وكل الناس يعلمون ان علياً تنسجم أقواله مع أفعاله ، وأفعاله مع دينه وضميره .

سؤال ثانٍ : ان هذا الجواب لا يستمع اليه الا من آمن بالغيب، وبصورة أخص بنبوة محمد (ص) أما من جحد وأعرض فإنه يهزأ ويسخر .

الجواب :

نحن نؤمن بالغيب ، وبعصمة الأنبياء والأئمة الأطهار ، نؤمن بذلك للدلالة القاطعة ، بل والضرورة الواضحة ، وقد أعلنا هذه الأدلة على الملأ فيما سبق من الأجيال وفي هذا الجيل ليطلع عليها من أحب .. وليس من شرط العمل بالدليل أن يثبت عند كل الناس وإلا ما اختلف اثنان ، بل يكفي لصحة العمل به أن يثبت عند من يركن اليه . ومن أجل هذا لا نفرض نحن أدلتنا على جاحد أو مشكك ، وكل ما نطلب من هذا وذاك أن يعاملنا بالمثل ، ولا يفرض علينا رأيه ، وان يراجع التفكير قبل الجزم ، ويتروى قبل الحكم بأن هذه النظرية أو تلك – مثلاً – هي ضد الحق والواقع مع العلم بأنها قيد البحث والدرس عند العلماء ، وانهم في حيرة من أمرها .. وهذا هو شأنهم في الكثير من النظريات والأفكار ، ومنها نظرية الخلق. بل ان صاحب أعظم عقلية علمية في هذا العصر وهو اينشتاين قال : «ان العقل البشري مهما بلغ من العظمة فهو عاجز عن الاحاطة بالكون » . ونحن نؤمن بهذا،وبأنه لا أحد يحيط بالكون وأصله إلا خالق الكون، أو من ارتضى من عباده : « عالِم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول – ٢٧ الجن » . وإذا كان اينشتاين نفسه عاجزاً عن معرفة الكون الذي عاش فيه باعترافه ، فكيف يسوغ الحكم على قول الإمام (ع) في الكون الأول بأنه يصادم الواقع ، ويخالف العلم الحديث ؟.. هذا هو غرضنا الأول والأخير من هذه الفقرة أو من هذا التمهيد .. والسلام على من قال : رب ملوم لا ذنب له .

وبعد أن تبين هذا معنا نفسر كلمات الإمام بمداليلها الحرفية ومعانيها الحقيقية حيث لا مبرر للتأويل من حس أو عقل .

المعنى :

(ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء ، وشق الأرجاء ، وسكائك الهواء) . هذه الكلمات الثلاث كلها تشير الى شيء واحد ، وهو الفضاء أو الفراغ اللانهائي ، وأيضاً تشير الى ان لهذا الفراغ أبعاداً ثلاثة : علواً ، واليه أومأ الإمام بالأجواء، وأطرافاً ، وهي مراده من الأرجاء ، وطبقات ، وعنها عبر الإمام بالسكائك ، وجمع الأجواء والأرجاء والسكائك ، ولم يعبر عنها بالإفراد – بالنظر الى تعدد طبقات الفضاء الكوني ، وهذه الطبقات اكتُشفت بالحس والتجربة بعد غزو الفضاء وصعود الانسان الى القمر .

ويطلق علماء الفلك على كل مجرة يعرفونها أي المجموعة النجمية ، يطلقون عليها كلمة سكة بإضافة كلمة أخرى تميزها عن غيرها من المجرات ، واسم مجرتنا التي نرى بعض كواكبها سكة التبانة .. ومما قرأت ان علماء الفلك اكتشفوا حتى الآن مئة مليون مجرة من بلايين البلايين من المجرات ، وكل مجرة تتألف من بلايين النجوم ، وفي مجرتنا وحدها – أي سكة التبانة – يوجد أكثر من مئة مليار من النجوم ، بعضها أكبر من الأرض بأكثر من ثلاثمئة ألف ضعف .

وقال المتخصصون بإثارة الخلافات الكلامية : ان الفضاء مخلوق بدليل قول الإمام : « أنشأ فتق الأجواء الخ » . فردّ آخر منهم بأن الفضاء عدم محض ، والعدم لا يتعلق به الخلق والانشاء .. ونحن لا نرى أية جدوى عملية من هذا النزاع ، ولا نحن غداً عنه بمسؤولين .. والذي نفهمه ان الله سبحانه جعل الفضاء حيزاً ومقراً للكائن الأول من خلقه .

(فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره متراكماً زخاره) . ضمير فيها يعود الى الأجواء والأرجاء والسكائك ، ومتلاطماً ومتراكماً كناية عن كثرة الماء وعظمته ، وامتداده وارتفاعه ، ويدل هذا على ان المخلوق الأول لله تعالى هو الماء ، وانه تعالى أوجده في الجو محمولاً على ريح كثيفة وقوية للغاية ، كما قال (ع) :

(حمله على متن الريح العاصفة ، والزعزع القاصفة) . الضمير في حمله يعود الى الماء ، والعاصفة: الشديدة الهبوب ، والزعزع: التحريك .

(فأمرها برده ، وسلطها على شده ، وقرنها الى حده) . الهاء في أمرها وسلطها وقرنها للريح ، وفي رده وشده وحده للماء .. وقرنها الى حده أي ان الله سبحانه جعل الماء والهواء من حيث المساحة قدراً بقدر طولاً وعرضاً ، والمعنى ان الله سبحانه بعد أن خلق الماء فوق الريح وعلى قدرها أعطاها ، جلت حكمته ، قوة عظيمة وجاذبية تستطيع معها أن تشد الماء اليها على ضخامته بحيث لا يسقط منه قطرة واحدة من أطرافه ولا من خلاله .

(الهواء من تحتها فتيق ، والماء من فوقها دفيق) . الهواء الجو والفضاء ، وفتيق أي خال لا شيء فيه ، ودفيق أي دافق بمعنى مدفوق ، والهاء في تحتها وفوقها للريح ، والمعنى انه كان آنذاك فوق الريح ماء ، وتحتها فضاء .

(ثم أنشأ سبحانه ريحاً اعتقم مهبها ، وأدام مربها ، وأعصف مجراها ، وأبعد منشاها ، فأمرها بتصفيق الماء الزخار ، واثارة موج البحار) . هذه الريح غير الريح الأولى التي تحمل الماء ، والمعنى ان الله سبحانه خلق ريحاً ثانية فوق الماء ، وهذه الريح عقيمة لا تلقح شيئاً ، وملازمة للماء وقوية جداً ، وموضعها بعيد المدى (فمخضته مخض السقاء ، وعصفت به عصفها بالفضاء ، ترد أوله الى آخره ، وساجيه الى مائره حتى عب عبابه) . أي انه تعالى سلّط هذه الريح الثانية على الماء فحركته تحريكاً قوياً حتى ارتفع ، وتراكم بعضه فوق بعض .

(ورمى بالزبد ركامه ، فرفعه في هواء منفتق ، وجو منفهق) . ركامه أي متراكمه ، والهاء في رفعه لله سبحانه ، أو للماء ، وعطف الجو المنفهق على الهواء المنفتق من باب عطف التفسير ، والمراد انه كان من نتيجة تحريك الريح للماء بقوة وشدة ان تبخر الماء ، وصار بخاراً كثيفاً ، ويسمى هذا البخار الكثيف المتجمد زبداً ، فرفعه الله تعالى في الفضاء .

(فسوى منه — أي من الزبد — سبع سموات) . قلنا في المجلد السابع من التفسير الكاشف ص ٣٥٨ ، ونحن نفسر الآية ١٢ من سورة الطلاق :

ان ذكر السبع لا يفيد الحصر بها ، وإنما خصها الوحي بالذكر لأن الذين خوطبوا بالقرآن آنذاك كانوا يسمعون عن الأفلاك السبعة وكواكبها دون غيرها .

قال المؤرخون : ان الكلدانيين اشتهروا بعلم الهيئة ، وتوصلوا الى معرفة الكواكب السبعة السيارة ، وتوارثت الأمم هذه المعرفة عن الكلدانيين جيلاً بعد جيل حتى زمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فخاطبهم عن السماء بما اعتادوا أن يخاطبوا به فيما بينهم .

وتسأل : كيف تجمع بين قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهي دخان ــ ١١ فصلت » . وبين قول الإمام (ع) : ان الله خلق السموات من زبد الماء ؟

وأجابوا بأن المراد بالدخان في الآية الكريمة البخار المتصاعد من الماء بسبب تموجه وشدة حركته ، والزبد عبارة عن بخار كثيف يتصاعد على وجه الماء من حرارة الحركة ، فإذا غلبت عليه الكثافة بقي على وجه الماء وإلا انفصل عنه ، وإذا كان الزبد بخاراً في حقيقته وفي أصله ، وأيضاً كان المراد بالدخان في الآية البخار ــ يكون المعنى واحداً ولا اختلاف إلا في التعبير .. هذا ، الى أنه روى صاحب البحار عن الإمام علي (ع) ان سائلاً سأله : ممَّ خلق الله السموات ؟ فقال : من البخار ، وعليه يكون قوله هذا تفسيراً وبياناً للزبد .

(جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً) . ما من جرم في السماء إلا وهو في حركة دائمة لا يقف لحظة واحدة ، بل يدور حول نفسه أو غيره ، أو ينتقل كل يوم أو كل شهر أو كل عام من موضع إلى موضع ، ولذا شبه الأجرام السماوية بالموج الدائم في حركته ، وخص بالذكر الجهة السفلى مع ان الجرم يتحرك بكامله ، لأن هذه الجهة يمكن رؤيتها من الأرض ، ولو بواسطة المراصد ، والمراد بالمكفوف الجمود وعدم السيلان . (وعلياهن سقفاً محفوظاً) من الخلل ونحوه ، ويطلق السقف على جهة العلو من كل شيء . وتجدر الاشارة الى ان التعبير بأعلى وأسفل وفوق وتحت ــ إنما يصح بالنسبة الى ما يراه أهل الأرض بأعينهم ، أما الأجرام السماوية السابحة في الفضاء فلا أرض عندها كي توصف بهذه الكلمات الاضافية ، بل كل شيء بالنسبة اليها فضاء ، وعليه يكون وصف السموات بالأعلى والأسفل تجوزاً ، لا حقيقة .

(وسمكاً مرفوعاً) . قال سبحانه : « رفع سمكها فسواها ٢٧ النازعات » : أي رفع أجرام الكواكب فوق رؤوسنا فعدّلها بوضع كل جرم في موضعه الذي به يتماسك ويتجاذب مع غيره من الأجرام (بغير عمد يدعمها ، ولا دسار ينظمها) .

الأجرام السماوية قائمة في الهواء ، لا ترتكز على شيء ، ولا يشد بعضها ببعض مسمار أو غيره سوى ما أودع الله فيها من الجاذبية التي تحكم جميع الكواكب .

(ثم زينها بزينة الكواكب) . قيل : ان الهاء في زينّهـا تعود الى السماء الدنيا، لأن الله قال: « انّا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » . والظاهر ان الهاء في زينها ويدعمها وينظمها تعود كلها الى شيء واحد ، وهي « سبع سموات » لأنها في سياق واحد ، والعطف بالواو يقتضي المشاركة ، والمعنى ان الله سبحانه جعل السموات زينة وجمالاً بما فيها من الكواكب ، ثم بيّن السبب الموجب لهذه الزينة بقوله : (وضياء الثواقب ، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً ، وقمراً منيراً في فلك دائر ، وسقف سائر ، ورقيم مائر) . المراد من الثواقب هنا النجوم والكواكب ما عدا الشمس والقمر حيث أفردهما الإمام (ع) بالذكـر . والسراج المستطير الشمس ، وفلك الشيء مداره ، والمعنى ان النجوم والشمس والقمر كلها تسبح في الفضاء الرحب ، وان ما يراه الانسان فوقه في السماء كان تحته قبل ساعات ، وما يراه في المساء على يمينه كان على يساره في الصباح ، وهذه الأجرام الفلكيـة المضيئة المتحركة هي زينة للناظرين .. بالاضافة الى سائر المنافع التي لا يبلغهـا الاحصاء .

وتجدر الاشارة الى ان الأرض تدور حول الشمس، والقمر يدور حول الأرض، فهو تابع في دورانه لتابع . وما كان كذلك يسمونه قمراً لا كوكباً (مع الله في السماء لأحمد زكي) .

الملائكة فقرة ١٤ ــ ١٦ :

ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ ٱلسَّمٰوَاتِ ٱلْعُلَا . فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِـــنْ مَلَائِكَتِهِ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ ، وَصَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ . لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ ٱلْعَيْنِ . وَلَا سَهْوُ ٱلْعُقُولِ . وَلَا فَتْرَةُ ٱلْأَبْـدَانِ . وَلَا غَفْلَةُ ٱلنِّسْيَانِ(١٤) . وَمِنْهُـمْ أُمَنَاءُ

على وَحيِهِ ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْـرِهِ . وَمِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ[١٥] . وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي ٱلْأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ ، وَٱلْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ ٱلْعُلْيَا أَعْنَاقُهُـمْ ، وَالْخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ ، وَٱلْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ ٱلْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ . نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ . مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِـمْ . مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُـــمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ ٱلْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ ٱلْقُدْرَةِ . لاَ يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ . وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ ٱلْمَصْنُوعِينَ . وَلَا يَحُدُّونَهُ بِالْأَمَاكِنِ . وَلاَ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ[١٦] .

مشكل وشائك :

نحن نجهل تمام الجهل حقيقة الملائكة وصورهم وحياتهم وأحاسيسهم وحواسهم : أهم أجسام وأرواح ، أو أرواح مجردة عن الأجسام ؟. وهل يفرحون ويحزنون؟ الله أعلم .

ولو قُدر لي أن أكون ملكاً أو أي مخلوق آخر لآثرت أن تكــون لي غرائز الأطفال وكفى .. وكل ما يتصوره الانسان عن الجن والملائكة فهو حدس وتخمين لأنه غيب في غيب، حيث لا مكان لهذا الموضوع الشائك في العقل، ولا في الحس. أجل ، نحن كمؤمنين بالله وكتابه وبالنبي وسنته يجب علينا أن نعتقد بوجود الجن والملائكة ، أما أين مكانهم ؟ وما هي حقيقتهم ، وهيئتهم ومهنتهم ؟ فلا يجب على المسلم أن يعرف أو يسأل عن شيء من ذلك ، لأنه لا يمت الى الحياة وأصول العقائد بسبب .

وتكلم رجال من الشيعة والسنة عن عصمة الملائكة بوجه العموم ، وسودوا في ذلك العديد من الصفحات، بل تكلم بعضهم عن حقيقة الملائكة وشؤونهم وأطوارهم،

ومضوا فيه مع الخيال ، ومـا بينوا المقصود من بحثهم وتحقيقاتهم .. وإذا تكلم المعصوم عن الملائكة فإنما يتكلم بقصد التقديس والتعظيم لقدرة الله تعالى عن علم ويقين بالواقع ، أما نحن فكما أشرت ــ لا نعلم من أمرهم شيئـاً ، ولا نعرف أحداً تخصص بهذا الموضوع « الغيبي » كي نتتبع أقواله وننقل منها ، بل لا نعرف مدرسة واحدة في العالم كله تُدرس هذا الموضوع لطلابها .. وإذن كيف نخوض فيه ؟. والعاقل يدع ما لا يستطيع الى ما يستطيع،وقد تواتر عن الرسول وآله (ص): ان حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون ، ويقفوا عند ما لا يعلمون .. وان الأمور ثلاثـة : أمر بين رشده فيتبع ، وأمر بين غيه فيجتنب ، وأمر مشكل فيرد الى الله ورسوله .

خلق آدم فقرة ١٧ ــ ١٩ :

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ ٱلْأَرْضِ وَسَهْلِهَا ، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا ، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ . وَلَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزُبَتْ[١٧] . فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ وَوُصُولٍ وَأَعْضَاءٍ وَفُصُولٍ . أَجْمَدَهَا حَتَّى ٱسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ . لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ . وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ[١٨] . ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا . وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا ، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا ، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا . وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ وَٱلْأَذْوَاقِ وَٱلْمَشَامِّ وَٱلْأَلْوَانِ وَٱلْأَجْنَاسِ . مَعْجُوناً بِطِينَةِ ٱلْأَلْوَانِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ، وَٱلْأَشْبَاهِ ٱلْمُؤْتَلِفَةِ . وَٱلْأَضْدَادِ ٱلْمُتَعَادِيَةِ وَٱلْأَخْلَاطِ ٱلْمُتَبَايِنَةِ . مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ . وَٱلْبَلَّةِ وَٱلْجُمُودِ[١٩] .

اللغة :

الحزن – بفتح الحاء – ما صعب من الأرض : ضد السهل . والسبخ : ما ملح ضد العذب . وسن الماء : صبه . وحتى خلصت : صارت طينة خالصة . ولاطها : عجنها . والبلة: من البلل . ولزب الطين: لزق وصلب . والمراد بالأحناء الأضلاع ونحوها . وبالوصول العصب والعروق التي تشد الأعضاء بعضها الى بعض. وبالفصول المفاصل . والصلد : الصلب الأملس . والصلصال : الطين اليابس غير المطبوخ . وأذهان : جمع ذهن أي الفهم . وفكر – بكسر الفاء وفتح الكاف – جمع فكر – بسكون الكاف – وهو النظر في الشيء . وجوارح : جمع جارحة ، وهو العضو الذي يستعمله الانسان في شؤونه . والأذواق : جمع ذوق ، ويكون باللسان والفرج ، ويطلق أيضاً على الطبع . والمراد بالألوان الأولى الأعراض كالسواد والصفار ، وبالثانية الأحوال كالحر والبرد ، والمساءة والمسرة . والأخلاط : الأصناف المختلطة .

الإعراب :

تربة مفعول جمع . وذات صفة لصورة . وقال الشيخ محمد عبده تبعاً لابن أبي الحديد : ان « الوقت » متعلق بمحذوف حالاً من ضمير التربة ، والتقدير: معدة لوقت معدود ! والصحيح ان المجرور متعلق بصلصلت ، والمعنى ان طينة آدم بقيت جامدة لا حراك فيها الى أمد معلوم ، وهو أمد النفخ . وذا صفة «انساناً» . وفكر عطف على الأذهان ، ومثلها جوارح ، وهي ممنوعة من الصرف على وزن مفاعل . ومعجوناً صفة « انساناً » .

حول آدم :

افتتح الإمام (ع) خطبته هذه بحمد الله وتمجيده ، ونفي صفات المصنوعين عنه ، ثم أشار الى مبدأ الخلق ، وأصل الكون المسبوق بالعدم ، ثم الى خلق الملائكة .. وهو يشير الآن الى أصل الانسان الأول ، من أي شيء خلق ؟؟ وكيف تم خلقه ؟. وكما تكلم الناس عن الكون وحقيقته وأصله وعمره وأطواره

فقد تكلموا أيضاً عن أصل الانسان وكنهه وتطوره ، وكم مضى عليه من السنين في هذه الأرض ؟. ووضعوا في ذلك الكتب والأسفار ، ومع هذا لم يعرفوا عنه إلا القليل .. وصدق من قال : « ان علم الانسان بنفسه ما يزال محدوداً ، وربما استطاع أن يعرف عن غيره من الكائنات أكثر مما يعرفه عن أسرار نفسه » .

ولنفترض – وان بعُد الفرض – ان الانسان يستطيع أن يعرف حقيقته على أنها جسماً وروحاً فإنه لا يستطيع ولن يستطيع أن يعرف كيف تم خلق أبيه الأول .. وان ادعى ذلك مدعى طالبناه بالدليل وسألناه : هل دليله التجربة ؟ وبالبداهة ان التجربة تعتمد وتقوم على المجهر والتحليل الكيماوي ، وأين هو الانسان الأول حتى يراه الباحثون على شريحة المجهر ، أو يحللوا في مختبراتهم أعضاءه والعناصر التي تألفت منها هذه الأعضاء . أو ان المدعي يستدل بالعقل .. وليس من شك ان معرفة العقل بأصل الانسان وكيف تم خلقه تماماً كمعرفته باسم والدي وحسبه ونسبه ، وبقامته طولاً وعرضاً .

أو يستند المدعي الى الحفريات .. وقد أعلن أهل الاختصاص أن أحدث الحفريات تقول : ان الانسان كان موجوداً على وجه هذه الأرض منذ مليون سنة على التقريب .. وبالبداهة ان هذا شيء ، وأصل الانسان شيء آخر .. وحتى الآن ما تجرأ أحد على الزعم بأنه عثر على رفات آدم أبي البشر وحطامه .. أو أن المدعي يعتمد النقل والرواية .. والشرط الأول في النقل أن يروي ما رأت العين وشاهدت ، وأية عين رأت خلق جدها وأبيها ، بل أية عين رأت خلق نفسها بالذات ؟ : « أشهدوا خلقهم – ١٩ الزخرف » .. « أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون – ٣٥ الطور » .

وإذن لا سبيل على الاطلاق الى العلم بأصل الانسان الأول ، وكيف خلق إلا الوحي من خالق الانسان ، وعلى هذا الوحي وحده اعتمد الإمام (ع) عن خلق الانسان وأصله .

والانسان سلسلة متصلة الحلقات ، تبتدىء بآدم أبي البشر ، ولا ندري بأي مولود تنتهي .. ولا يختلف مؤمن وجاحد على ان الانسان بجميع أفراده ، من كان منه ومن يكون ، هو من تربة هذه الأرض ومائها وهوائها ، وانه يعيش عليها كضيف مؤقت ، ثم يعود اليها لا محالة .. أبداً لا خلاف في شيء من ذلك ،

وإنما الخلاف : هل كان للإنسان وجود سابق في عالم آخر غير هذه الأرض ؟ وكيف وجد عليها ؟. هل وجد أول ما وجد على صورته الحالية أو على غيرها؟ ومتى بدأ ظهوره على الأرض ؟. وما هي العناصر التي تألف منها ؟. ومن الذي أوجده ؟. وما هو الهدف من وجوده ؟. وهل له رسالة خاصة في هذه الدنيا ، أو انه لا رسالة له إلا أن يصنع نفسه على إرادته وحريته وهواه كما يقول الوجوديون.. وأيضاً هل يخرج من الأرض بعد موته ، ويعود ثانية الى الحياة ؟.. الى غير ذلك من الموضوعات والخلافات .

ما أعجب الانسان !.. انه يبحث عن نفسه بنفسه ، وربما هو الكائن الوحيد الذي امتاز بهذا الوصف .. ومع ذلك قال بعض أفراد الانسان : كان أبوه قرداً فتطور ، وترقى . وقال آخر : كلا ، ان أباه تولد من عفونة القذارات تماماً كما تتولد الحشرات !.. ولا أدري : هل يدلنا هذا القول وذاك على ان الانسان أنواع وأقسام : منها قرود ، ومنها حشرات في صورة الانسان .. وانه يبتعد عن كمال الله كل البعد كما تبتعد النملة عن حقيقة الانسان وكماله ؟.

ومهما يكن فإن ما قاله الإمام (ع) هنا عن أصل الانسان هو شرح وتفسير لما جاء في القرآن الكريم .

المعنى :

خلق الله سبحانه آدم من جسم وروح ، ولكن بالتدريج لا دفعة واحدة ، كمثل الباني يبني حجراً على حجر — المثال للتقريب — فخلق أولاً جسماً بلا روح وأيضاً خلق هذا الجسم على أطوار كما يظهر من قول الإمام (ع) . وهذه الأطوار أربعة ، وهي :

١ — (ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها ، وعذبها وسبخها تربة). حاكت مخيلة الانسان عن خلقه ووجوده أساطير وخرافات تماماً كما حاكتها حول خلق الكون وما فيه ، وربما أكثر !.. من ذلك ان الانسان كان موجوداً في عالم غير محسوس قبل وجوده على هذه الأرض !.. ولكن نصوص القرآن تأبى ذلك وتقول : خلق الله آدم من تربة أرضنا هذه ، وانه تعالى نفخ فيه من روحه بعد

أن خلق جسمه وسواه . قال الكليني في أصول الكافي : سئل الإمام الصادق عن قوله تعالى : « وروح منه » فقال : هي روح الله مخلوقة خلقها سبحانه في آدم.

وقول الإمام : « جمع سبحانه تربة » صريح في ان آدم لم يكن له عين ولا أثر قبل هذه الأرض ، وقال تعالى : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون — ٥٩ آل عمران » أي لم يكن في هذه الأرض فكان .. فأبونا آدم من تراب ، ونحن أيضاً في لحمنا ودمنا من تراب ، لأن ما نأكله من اللحوم والحبوب والفواكه والخضار والنبات ، كل ذلك كان في الأصل ماء وتراباً : « هو الذي خلقكم من تراب — ٦٧ غافر » .

أما قوله (ع) : (من حزن الأرض وسهلها ، وعذبها وسبخها) فهو إشارة الى ان الانسان كأمه الأرض يجمع في استعداده وغرائزه بين المتناقضات والمفارقات كالطيب والخبيث ، والأسود والأبيض ، قال الرسول الأعظم (ص) : « خلق الله آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على مثل الأرض ، منهم الأسود والأبيض والأحمر ، وما بين ذلك » .

٢ — (وسنها بالماء حتى خلصت ، ولاطها بالبلة حتى لزبت) . يشير بهذا الى قوله تعالى : « إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين — ٧١ ص». وقوله في الآية ١١ من الصافات : « من طين لازب » . ولا نطيل في شرح الألفاظ ، وقد ذكرنا مداليلها في فقرة اللغة ، والأجدر أن نمعن النظر في مدى آخر ، ونشير اليه بالأسلوب التالي :

وتسأل : لماذا لم يخلق الله آدم بكلمة «كن» ؟. وما هي الحكمة لخلقه من تراب ؟ أليس الله على كل شيء بقدير ؟.

الجواب :

قال البعض : أراد سبحانه أن يعلّم الناس الروية والأناة وعدم الاستعجال في أمورهم .. أما نحن فنظن انه تعالى أراد أن يعلّم الناس انهم في الخلق سواء ، لا فضل لأبيض على أسود ، كما قال الرسول الأعظم (ص) : كلكم من آدم ، وآدم من تراب .. وان يعتبروا بقدرة الله التي خلقت من المادة الصماء إنساناً عاقلاً يفعل الأعاجيب ، ويومىء الى ذلك قوله تعالى : « أكفرت بالذي خلقك من تراب — ٣٧ الكهف » . وأيضاً أن يستدل الانسان على النشأة الثانية بالأولى

كما تشير الآية ٥ من سورة الحج : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » . وقال الإمام : « عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى ، وهو يرى النشأة الأولى ! »

وعلى أية حال فإن الأرض هي البيئة الطبيعية للإنسان ، ومصدر حياته وحضارته وفيها يتعرف على خالقه ويعبده ، ومنها يثب الى السماء والكواكب ، واليها يعود ، ولا غنى له عنها بحال حدوثاً وبقاء ، وهي في غنى عنه في كل الأحوال .

٣ — (فجعل منها صورة ذات أحناء ووصول ، وأعضاء وفصول) . ضمير منها يعود الى التربة ، والمراد بالصورة صورة آدم ، قال سبحانه : «وصوّركم فأحسن صوركم — ٦٤ غافر » . وفي جسم الانسان أجزاء كالرأس واليدين والصدر والرجلين واليها أومأ بكلمة أعضاء ، وفيه أضلاع ، واليها أشار بالاحناء ، وفيه مفاصل ، وهي ملتقى العظام ولولاها لعجز الانسان عن الحركة ، وقد عبّر الإمام عنها بالفصول ، وفيه عصب يشد الأعضاء بعضها الى بعض ، وهي المقصود من كلمة وصول من الوصل .

٤ — (أجمدها حتى استمسكت ، وأصلدها حتى صلصلت ، لوقت معدود ، وأمد معلوم) . بعد أن صار الماء والتراب طيناً جمد وتماسكت أجزاؤه ، وأصبح جسماً واحداً ، يابساً ومتيناً ، اذا هبّت عليه الريح سُمع له صلصلة ، وأسند جمود الطين وصلصلته الى الله ، لأنه هو الذي خلق التراب والماء ، ومزجهما حتى صارا طيناً .

وبهذه الأطوار الأربعة تم الجسم وكمل ، ومع هذا أبقاه سبحانه بلا روح الى أمد معين ، لأن حكمته تعالى قضت أن يكون لكل أجل كتاب .

الروح :

(ثم نفخ فيه من روحه) . اختلفوا في معنى الروح من حيث هي ، وبصرف النظر عن التي نفخها سبحانه في آدم أو مريم ، فمنهم من قال : ان الله سبحانه حجب علمها من العباد ، فلا ينبغي الحديث عنها بحال لقوله تعالى : « قل الروح من أمر ربي — ٨٥ الإسراء » . وقال آخر : هي على هيئة الانسان ، لها رأس ويدان ، وبطن ورجلان ، ولكنها ليست انساناً !. وقال ثالث : هي نور لطيف

وهواء خفيف . ونُقل عن فلاسفة اليونان انهم يفرقون بين العقل والروح والنفس، فالعقل أرفع وأشرف من الروح ، وهي أشرف من النفس .

وللروح في لغة القرآن معانٍ ، منها الرحمة : « ولا تيأسوا من روح الله — ٨٧ يوسف » . ومنها جبريل: « نزل به الروح الأمين — ١٩٣ الشعراء» . ومنها القرآن : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا — ٥٢ الشورى » . والقاسم المشترك لمعنى الروح هو كل ما يحيا به الشيء مادياً ومعنوياً .

أما المراد بالروح التي نفخها سبحانه في آدم فهي الحياة .. حتى ولو كان للروح ألف معنى ومعنى ، لأن الحديث في كلام الإمام (ع) وفي قوله تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي — ٢٩ الحجر » مساق عن جسد آدم الذي بقي جماداً بلا روح لوقت معدود،وأمد معلوم .. ومثلها تماماً الروح التي نفخها سبحانه في مريم : « فنفخنا فيها من روحنا — ٩١ الأنبياء » أي انه تعالى خلق جنيناً في رحم مريم بلا تلقيح .

حول الانسان :

(فتمثلت انساناً ذا أذهان يجيلها ، وفكر يتصرف بها ، وجوارح يختدمها ، وأدوات يقلبها ، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل ، والأذواق والمشام ، والألوان والأجناس) . قيل : ان الله سبحانه خلق الانسان كي تتجلى فيه قدرته وعظمته . ومعنى هذا انه تعالى أنشأ الانسان على أكمل وجه جسماً وروحاً بحيث لا شيء فوق كمال الانسان من هذه الجهة إلا خالق الانسان. وكفى شاهداً على هذه الحقيقة عظمة محمد (ص) سيد الكونين الذي قال : انما أنا بشر .. ان الانسان تماماً كالكون في عظمته وأسراره ، كلما اكتُشف منه سر خفيت منه أسرار .. ومن أجل هذا أطلق بعضهم على الكون اسم الانسان الكبير ، وعلى ابن آدم اسم الانسان الصغير أو الكون الصغير .. ولهذه التسمية وجه وجيه ، فحتى الآن — وعلى الرغم من تقدم العلوم التي رفعت الانسان الى القمر — لم ينجح العلماء في التعرف على حقيقة الانسان ، وكل ما فيه من طاقات وأسرار .. واذا كانت حقيقة كل شيء هي ما يحققه ذلك الشيء فقد حقق الانسان أعجب من العجب، وما سوف يحققه في المستقبل القريب أو البعيد يفوق التصور ، ويستحيل التنبؤ به.

وبهذا نجد السر لقوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وتدركون ان لهذا الانسان العجيب خالقاً أكمل وأعظم ؟.

قال الفيلسوف الانكليزي « جون لوك » : صحيح ان الله سبحانه لم يطبع حروفاً في عقولنا نقرأها عن وجوده ، ولكنه أودع فينا إحساساً وإدراكاً لا نحتاج معه الى برهان أوضح على وجوده ما دمنا نحمل ذاتنا معنا ، وإذن نحن لا نستطيع أن نشكو من جهلنا بذلك ، وبالتالي فلا نحتاج لكي نعلم ونؤمن بوجود الله الى شيء أبعد من أنفسنا فإنها كافية وافية للدلالة على وجوده تعالى .

(معجوناً بطينة الألوان المختلفة ، والأشياء المؤتلفة ، والأضداد المتعادية ، والاخلاط المتباينة من الحر والبرد ، والبلة والجمود) . يشير الإمام (ع) بهذا الى أن في طبيعة الانسان ومزاجه قوى عناصر ، منها ما ينسجم بعضها مع بعض كانسجام العلم مع الحلم ، والصدق مع الوفاء ، وكانسجام الجبن مع البخل ، والكذب مع الرياء .. ومنها ما يختلف بعضها مع الآخر ، كاختلاف الرضى والغضب ، والضحك والبكاء ، والحفظ والنسيان ، وغير ذلك .. وكلها لخير الانسان وصالحه ، وبقائه واستمراره ، ولو نقصت منه صفة واحدة لاختل توازن الانسان ، ولم ينتفع بشيء .. ونضرب لذلك مثلاً واحداً :

لولا النسيان لتراكمت الهموم على الانسان ، ولم يستمتع بشيء ، ولانتهت حياته في أمد قصير . ولولا الحفظ لانسد باب العلم بشتى أنواعه ، بل ولم يهتد الانسان الى أمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وإذا خرج من بيته استحال ان يعود اليه .

وهكذا سائر الصفات المتباعدة منها والمتقاربة .. وكلها تجري على نظام مشترك، وقدر جامع ، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على وحدة الخالق والمدبر الذي لا إله إلا هو : « قد جعل لكل شيء قدراً – ٣ الطلاق » .

ومما قرأت عن الانسان ما جاء في كتاب « مصباح الإنس » :

ان في الانسان خاصية المعادن ، وهي الكون والفساد ، وخاصية النبات ، وهي النمو والغذاء ، وخاصية الحيوان ، وهي الحس والحركة ، وخاصية الانسان ، وهي الفكر والإدراك ، وخاصية الملائكة ، وهي الطاعة والحياة .

فالانسان يتملق كالكلب والهر ، ويحتال كالعنكبوت ، ويتسلح كالقنفذ ،

ويهرب كالطير ، ويتحصن كالحشرات ، ويعدو كالغزال ، ويبطىء كالدب ، ويسرق كالفأر ، ويفتخر كالطاووس ، ويحقــد كالجمل ، ويتحمل كالبقر ، ويشمس كالبغل ، ويغرد كالطير ، ويضر كالعقرب ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وأنيس كالحمام ، وخبيث كالثعلب ، وسليم كالحمـل ، وأبكم كالحوت ، وشؤوم كالبوم .

وهكذا ، ما من كائن في الأرض والسماء — ما عدا الله سبحانه — إلا وقد أخذ الانسان شيئاً منه :

وتحسب انك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

آدم وابليس فقرة ٢٠ — ٢١ :

وَٱسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ ٱلْمَلَائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ . فِي الْإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَٱلْخُشُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ . فَقَالَ سُبْحَانَهُ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ٱعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ ٱلشِّقْوَةُ وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ ٱلنَّارِ وَاسْتَهْوَنَ خَلْقَ ٱلصَّلْصَالِ . فَأَعْطَاهُ اللهُ ٱلنَّظِرَةَ ٱسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ وَٱسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ . وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ . فَقَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٢٠) . ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عِيْشَتَهُ ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ . فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ ٱلْمُقَامِ وَمُرَافَقَةِ ٱلْأَبْرَارِ . فَبَاعَ ٱلْيَقِينَ بِشَكِّهِ وَٱلْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ . وَٱسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً . وَبِالِاغْتِرَارِ نَدَماً .

ثُمَّ بَسَطَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ . وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ ، وَوَعَدَهُ ٱلْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ . وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ ٱلْبَلِيَّةِ ، وَتَنَاسُلِ ٱلذُّرِّيَّةِ(٢١) .

اللغة :

استأدى وديعته : طلب منهم أداءها . والحمية : الأنفة . واعترته : أصابته . والصلصال : الطين اليابس . والنظرة – بكسر الظاء – التأخير والإمهال . والعدة – بكسر العين – الوعد . واغتره : غرر به . ونفاسة : حسداً . والمراد بالأبرار هنا الملائكة . والجذل : الفرح . ودار البلية : الدنيا .

الإعراب :

الملائكة على النصب بنزع الخافض أي طلب من الملائكة . واستحقاقاً مفعول لأجله . وإبليس مفعول ثانٍ لحذر ، أو منصوب بنزع الخافض . ونفاسة مفعول من أجله .

المعنى :

(واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم ، وعهد وصيته اليهم) . قبل أن يخلق الله آدم قال لملائكته : « اني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين – ٧٢ ص » . فسمع الملائكة الوصية وحفظوها ، ولما تم كل شيء من خلق آدم طلب سبحانه من ملائكته أن يؤدوا الوديعة والوصية التي عهد بها اليهم من قبل ، وهي السجود لآدم عند تمام خلقه ، والى هذا أشار الإمام بقوله : (في الإذعان بالسجود له ، والخشوع لتكرمته ، فقال سبحانه : (اسجدوا لآدم فسجدوا) له سجود التحية، لا سجود العبادة ، لأنها لا تجوز إلا لله وحده .

وقد تكون الحكمة في إخبار الملائكة من قبلُ،أن لا يفاجأوا بوجوب السجود لآدم ، فيشتد وقعه عليهم .. أو انه تعالى أراد أن يعلمنا كيف نفعل اذا أردنا أن نخبر أو نطلب شيئاً من شخص لم يكن ذلك في حسبانه ، كما هو شأن الملائكة آنذاك بالنسبة لآدم والسجود له ، ولذا قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك — ٣٠ البقرة » وكأنهم يقولون لله تعالى : ولماذا آدم ، ونسل آدم البغاة العصاة ؟. اجعلنا نحن خلفاء الأرض ، وسترى عبادتنا وطاعتنا لك .. فقال لهم عز من قائل : « اني أعلم ما لا تعلمون». وعندها خشعوا و « قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم — ٣٢ البقرة » .

(فسجدوا إلا إبليس اعترته الحمية ، وغلبت عليه الشقوة) .. أبداً ما صدرت أية بادرة من آدم في حق إبليس .. كيف وقد كان آدم في عالم الغيب حين أضمر له إبليس العداوة والبغضاء ؟. بيّت له السوء ، لا لشيء إلا لأنه علم وأيقن بأن الله سيفضله عليه ، وجاءه هذا العلم من قوله تعالى : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .

(وتعزز بخلقة النار ، واستهون خلق الصلصال) . يشير الى قول إبليس : « أنا خير منه — أي من آدم — خلقتني من نار وخلقته من طين — ١٢ الأعراف » . ومنذ القديم اكتشف الانسان ان في النار أحياء تتكيف بطبعها مع النار . قال صاحب « البحار » في مجلد « السماء والعالم » ص ٦٤٧ طبع الحجر : « قال بعضهم : ان كرة النار مملوءة من الروحانيات » تماماً كقطرة الماء ، وقال الجدد من أهل الاختصاص : ان نوعاً من الأحياء يعيش في الهواء السام ، وآبار البترول .

(فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة) . طلب إبليس من الله أن يمهله ، ويبقيه حياً ما دام على وجه الأرض إنسان ، ليتولى غواية البشر أبناء آدم وعدوّه الأكبر ، طلب الإمداد له ، وهو يعلم ان ذلك يعود عليه بالشر والوبال ، ومع هذا أصر وآثر أن يتحمل كل شيء من أجل التنكيل بآدم وذريته والانتقام منهم.. فاختار الله تعالى لإبليس ما اختار هو لنفسه ، واستحق غضب الله وعذابه بسوء ما اختار : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا

له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً –١٨الإسراء » . وقال الإمام (ع) : ما ابتلي أحد بمثل الاملاء له .

(واستتماماً للبلية) . أي انـــه تعالى أمهل إبليس ليبتلي به عباده ، وتظهر سرائرهم بأفعالهم التي يستحقون بها الثواب والعقاب (وانجازاً للعدة) . أي الوعد، واختلف الشارحون في تفسير هذا الوعد ، فمن قائل ؛ انه الوعد بالامهال . وهذا اشتباه ، لأن الله سبحانه ما وعده بشيء قبل قوله : « انك لمـن المنظرين » . وقائل آخر: انه جزاء ومكافأة لإبليس على عبادته السابقة.. وهذا حدس بلا مستند.. والذي نفهمه نحن من سياق الكلام ، وقوله : « استتماماً للبلية » ان المراد بالوعد هنا ما سبق في تقديره تعالى أن يبتلي العباد بالفتنـــة ، ليعلم أيهم أحسن عملاً ، والشيطان فتنة ما في ذلك ريب ، قال تعالى : « ليجعل ما يلقي الشيطان فتنـــة للذين في قلوبهم مرض – ٥٣ الحج » .

العبر في قصة آدم وإبليس:

ونستخلص من قصة آدم مع إبليس العبر التالية :

١ – ان كل من حقد على ذي فضل لفضله ، أو صاحب مكانة لمكانته ، أو عادى إنساناً لمجرد المزاحمة أو المشاركة في الرياسة والمهنة فهو على دين إبليس ومبدئه ، ويحشر يوم القيامة في زمرته .

٢ – ان الطريق لمعرفة الدين والخلق الكريم واحد فقط ، وهو الثبات عـــلى الحق عند الابتلاء ، والتمسك به مهما تكن النتائج ، فلقـــد كان ابليس مضرب المثل في الخشوع والعبادة ، ثم انتهى أمره الى ما انتهى حين امتحنه الله ، وأمره بالسجود لآدم .. ومن يعبد الله ويخشع ، لأنه يسمع كلمات المديح والاطراء على خشوعه وتواضعه، فإذا محص بالبلاء أعرض عن الحق وكفر – فهو من جنود ابليس وأتباعه .

٣ – ان كثيراً من الناس يصرّون على الباطل لا لشيء إلا عنـــاداً لخصمهم ونكاية به ، وهم يعلمون علم اليقين ان هذا الاصرار يعود عليهم بأسوأ العواقب وأوخمها ، وهذا هو شأن ابليس بالذات ، أصر على معصية الله ، وهو يسمـــع تهديده ووعيده مباشرة وبلا واسطة : « لأملأن جهنم منك وممن تبعك – ٨٥ ص»

وأقدم على عذاب جهنم ، ولعنة الله ولعنة اللاعنين ، وهان عليه كل شيء إلا الخضوع والسجود لآدم ، والتنازل عن كبريائه .

إن الله سبحانه يقبل التوبة من ابليس اذا تاب وأخلص ، وأيضاً ابليس على أتم الاستعداد لأن يتوب ويخلص ، ولكن بشرط أن لا يأمره الله ثانية بالسجود لآدم ، أو لقبره – على الأصح – والله سبحانه لا يقبل التوبة إلا بهذا الشرط .

ومن دُعي الى خير ، وقال : أستجيب لكل شيء إلا لهذا ، لأن فيه إعزازاً لزيد أو مساً بشخصيتي فهو على مبدأ ابليس ومقلد له ، أراد ذلك أم لم يرد .

هذه بعض العبر والعظات في قصة ابليس مع آدم ، وعلينا أن نقرأها، ونكرر قراءتها بتدبر وإمعان ، والعاقل من اتعظ بالغير ، وانتفع بالعبر .

(ثم أسكن سبحانه آدم داراً أرغد فيها عيشه ، وآمن فيها محلته) . وكل نعيم دون الجنة فهو محقور (وحذره ابليس وعداوته) . « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً – ٦ فاطر » .

(فاغتره عدوه) . أي ان ابليس غرر بآدم . وقال الشيخ محمد عبده : انتهز ابليس من آدم غرة فأغواه ، وكل من التفسيرين صحيح . والغرة – بكسر الغين – الغفلة (نفاسة عليه بدار المقام) . أي حسداً لآدم على الخلود في الجنة (ومرافقة الأبرار) . وهم الملائكة .

(فباع اليقين بشكه) . أي نقض اليقين بالشك . والمراد باليقين هنا علم آدم بالنهي عن الشجرة . والمراد بالشك ان آدم بعد أن كان على يقين من ان النهي حتم وإلزام – احتمل ان هذا النهي لغير الحتم والإلزام ، وابليس هو الذي أوحى اليه بهذا الاحتمال .. هذا ما يدل عليه سياق الكلام وظاهره ، أو ما نفهمه نحن (والعزيمة بوهنه) . أي ضعفه الذي أدى به الى نقض اليقين بالشك ، وهو تفسير لقوله تعالى : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً – ١١٥ طه » .

(واستبدل بالجذل) الفرح (وجلاً) الخوف (وبالاغترار ندماً) . وهكذا عاقبة التفريط (ثم بسط سبحانه له في توبته) . وفتح باب التوبة حتم ، وسده ظلم ما دام الانسان بطبعه غير معصوم (ولقاه كلمة رحمته ، ووعده المرد الى جنته) . ولكن جعل الطريق اليها محفوفاً بالمكاره : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة

ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين – ١٤٢ آل عمران » .

(وأهبطه الى دار البلية ، وتناسل الذرية) . وعملية التناسل سهلة جداً ، بل ولذيذة أيضاً ، ولكن عاقبتها كارثة بخاصة في هذا العصر الذي نعيش فيه .. ونشير الى هذه النكتة التي تخلط الجد بالهزل ، قالها فيلسوف ظريف : أكل آدم من الشجرة عن قصد وعمد، لأنه مل حياة الفراغ والبطالة ، وآثر المتاعب والآلام مع الجد والعمل على الدعة والرفاهية مع البطالة والكسل .. ولماذا العضلات والمقدرة على الأعمال ما دام الانسان بلا عمل ؟. وهل هو في حاجة الى أكثر من معدة تمتلىء وتهضم ، ولسان يهذر ويثرثر .

الإنسان والخطيئة :

تتفق الأديان السماوية على أن آدم لم يستمع لله في نهيه عن الأكل من الشجرة.. وتولد من فكرة هذه الخطيئة أو هذه المخالفة آراء مختلفة عن طبيعة الانسان أو عن الجنس البشري بالنظر الى أن آدم أبا البشر هو الممثل لهذه الطبيعة أو لهذا الجنس .. فمن قائل : ان الانسان خيّر بطبعه . وقائل : هو شرير وذئب .. وقال الماركسيون : لا يتصف الانسان بخير أو شر ، لأنه صنيعة الطبيعة، وخاضع لقانون التطور كغيره من الكائنات الحية ، وليس هناك ما يمنع من أن يتحول في المستقبل الى شيء آخر يبعد كل البعد عن مفهوم الانسان الحالي ، وإذن ، ليس ثمة طبيعة بشرية ثابتة كي نصفها بخير أو بشر .

ووقفت المسيحية في الجانب المقابل حيث اعتبرت الانسان مذنباً ومخطئاً بطبعه ، وانه لا خلاص له من الذنب والخطيئة إلا بقوة عظمى خارجة عن طبيعته وارادته ، وتولد من هذه الفكرة فكرة الفداء أو القربان ، وان الله قد تمثل في صورة انسان ، وأنه صُلب وعُذّب ليخلّص البشر ، ويُكفّر عنهم سيئاتهم .. ومن أجل هذا يطلق المسيحيون على السيد المسيح (ع) لقب «المخلّص» ويعتبرون الخطيئة والفداء من صميم الدين والعقيدة .. وقد وصف أحدهم هذا الوضع بقوله: « لقد أصبح الدين عندنا – أي عند المسيحين – مجسداً في الخطيئة » . وقال آخر : ان الكنيسة اخترعت فكرة الخطيئة ، وفكرة الخلاص منها بالفداء كي تقنع من تسعى الى تحويلهم عن دينهم ، تقنعهم بأن الخلاص والعلاج موجود في

جيبها .. وهو اعتناق المسيحية فقط لا غير .

ووجد المستعمرون والصهاينة الشفيع والمبرر لطغيانهم وعدوانهم على الانسانية وقيمها ، وجدوا هذا الشفيع عند الكنيسة التي تقول : ان الخطيئة غريزة في طينة الانسان وجبلته .. فإذا ما اعترض معترض على بغيهم وآثامهم قالوا : هذا من صنع الله ، لا من صنعنا .. وكل من ملك استأثر ، وما كفّ أحد إلا لعلة العجز ، ومن أجل هذا ساندت قوى الشر والعدوان الكنيسة بكل ما تملك ، بل وسخّرت لهذه الغاية بعض العمائم التي تقلبت في البلاد ، وأكثرت فيها الفساد . فمنذ عهد قريب خطب معمم ، ونشر في الصحف : ان الأنبياء كغيرهم في الميول والأهواء مستنداً الى ما يظهر من بعض الآيات ، وما تنبه لأهدافه المأجورة إلا قليل .

ورُوي – ولا أستبعد هذه الرواية – ان إرساليات التبشير المسيحي أغرت داراً للنشر بإعادة طبع ونشر كتاب تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى ، واشترت من صاحب الدار العديد من النسخ ، ووزعتها بطريق أو بآخر .. والقصد أن يتنبه الناس لقوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » . وقوله : « ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وما الى ذلك .. أما تأويل الشريف بخلاف الأولى ، وبأن الأمر والنهي منه تعالى في هذا الباب هما للإرشاد فقط ، أما هذا التأويل ونحوه فيتعقله ، ويقتنع به الخاصة المؤمنون دون العامة الذين لا يفهمون من كلمة المعصية إلا المعنى الحقيقي الأصيل .

والخلاصة ان الماركسية وقفت في أقصى اليسار حين نفت الطبيعة البشرية الثابتة من الأساس،ووقفت المسيحية في أقصى اليمين حين اعتبرت الخطيئة طبيعة وعقيدة، أما الاسلام فقد وقف موقفاً وسطاً بين الماركسية والمسيحية : ولم يربط العقيدة بهذه المسألة من قريب أو بعيد،بل أشار الى طبيعة الانسان من باب التعريف والإرشاد الى الواقع ، وان كل مولود يولد على الفطرة الصافية ، والتربية هي التي تكدره وتلوثه .. أما قوله تعالى : « ان الانسان لظلوم كفار – ٣٤ ابراهيم » . ونحوه من الآيات فقد أجابوا عنه بأن هذا الحكم على الانسان إنما هو بالنظر الى بعض أفراده، لا بالنظر الى طبيعته وجنسه ، وقلنا في « التفسير الكاشف » ج ٤ ص ٢١٣ : ان الإسلام ينظر الى الانسان من خلال عقيدته وسلوكه بصرف النظر عن طبيعته ، وعلى هذا الأساس وحده يحكم عليه بأنه صالح أو طالح ، طيب أو خبيث .

وتسأل : إذا كان إبليس قد تولى غواية آدم ، فمن الذي تولى غواية إبليس؟.

الجواب :

الحسد تولى غوايـة إبليس ، وإلى ذلك أشار الإمام (ع) بقوله : « نفاسة عليه » . والحسد لا يحتاج الى من يتولاه .. حتى الأطفال يتحاسدون ويتغايرون .. ومن هنا قال الرسول الأعظم (ص) : « وإذا حسدت فلا تبغ » نهى عن آثار الحسد ، وإظهارها في قول أو فعل ، ولم ينهِ عن الحسد بالذات ، لأنه تكليف بغير المقدور .

الأنبياء فقرة ٢٢ — ٢٥ :

وَٱصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى ٱلْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ فَجَهِلُوا حَقَّهُ ، وَٱتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ . وَاجْتَالَتْهُمُ ٱلشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَٱقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ(٢٢) . فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ . وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ . وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ . وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ ٱلْعُقُولِ وَيُرُوهُمُ الآيَاتِ ٱلْمُقَدَّرَةَ مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ . وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ . وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ . وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ(٢٣) . وَلَمْ يُخْلِ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ . أَوْ حُجَّةٍ لازِمَةٍ ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ . رُسُلٌ لاَ تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ . وَلَا كَثْرَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ . مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ

قَبْلَهُ . عَلى ذٰلِكَ نُسِلَتِ ٱلقُرُونُ . وَمَضَتِ الدُّهورُ . وَسَلَفَتِ الآبَاءُ.
وَخَلَفَتِ الأَبْناءُ(٢٤) .

اللغة :

الميثاق : العهد . والأنداد : جمع ند ، وهو المثيل . والمراد بالاجتلاء هنا الصرف . وواتر : تابع مع التراخي والفصل بين نبي ونبي . ليستأدوهم: ليطالبوا منهم الاداء والوفاء . والسقف المرفوع : السماء ، والمهاد الموضوع : الأرض . والأوصاب : المتاعب . وتُهرمهم : تجعلهم هرمين . والغابر : الباقي . ونسلت: ولدت .

الإعراب :

لما بدل «لما» هنا بمعنى حين أو إذ ، لأنها دخلت على الماضي . ليستأدوهم مضارع منصوب بأن مضمرة ، ويذكروهم وما بعده عطف على ليستأدوهم . ومعايش ممنوع من الصرف . وعلى ذلك متعلق بنسلت .

المعنى :

(واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم) . بعثة الأنبياء في جوهرها وساطة بين الخالق والمخلوق ، وهدفها هداية الخلق الى الحق ، وتعاونهم على ما يكفل الأمن والعيش للجميع ، وهذا هو أمل الطيبين الأحرار منذ وُجد الانسان على سطح الأرض ، ومن هذا الأمل انطلقت النظريات ، ووضعت المؤلفات لتحققه وبلوغه ، ومنها جمهورية افلاطون والمدينة الفاضلة للفارابي .

ولكن افلاطون مزج الواقع بالخيال عملاً بنظريته في المُثُل ، وقال «دي بور»

في كتاب « تاريخ الفلسفة في الاسلام » : ان آراء الفارابي في المدينة الفاضلة تقترب في فسادها من فلسفة « نيتشه » القائمة على بقاء الأقوى .. واذا كانت هذه هي فلسفة افلاطون استاذ المعلم الأول ، وآراء الفارابي المعلم الثاني فما هي حال غيرها من النظريات الهادفة الى خير الانسان ؟.. ان كل نظرية ، أو نظام وضع لخير الانسان يستحيل أن يتم ويكمل من كل وجه إلا اذا قام على أساس المبادىء التي أقرها الوحي من الله سبحانه .. ومن هنا كثر النسخ والتقليم والتطعيم في الأنظمة الوضعية .. واذا اتفق العلماء على كثير من النظريات الطبيعية المحسوسة فإنهم حتى الآن لم يتفقوا على نظرية سياسية أو اجتماعية على الرغم من مواصلة الدراسات ، وعقد المؤتمرات .. أبداً لا أحد أعلم بخير الانسان وهدايته الى سعادته الخالدة إلا خالق الانسان ، وأي عاقل يشك في ان مخترع الآلة هو أعلم بها من غيره ؟.

(لما بدل أكثر خلقه عهد الله اليهم) . المراد بعهد الله هنا ميثاق الفطرة الذي أشار اليه الإمام (ع) بقوله : « ليستأدوهم ميثاق فطرته » . وبعد أسطر نتكلم عن هذا الميثاق بفقرة خاصة ، وقوله : « لما بدل أكثر خلقه » يومىء الى ان البعض من عباد الله ثبتوا على ميثاق الفطرة ، واستطاعوا بثباتهم هذا أن يعرفوا حق الله ويعملوا به ، ويسمى هؤلاء بالحنفاء ، وكان منهم قبل بعثة رسول الله (ص) ، أفراد وهم ورقة بن نوفل ، وعبدالله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن نوفل . وتكلمنا عنهم في ج ٥ من التفسير الكاشف ص ٩٦ .. وقال بعض الفلاسفة : لو كانت كل العقول من النوع النبيل لكان جميع الناس عقلانيين ، لا يخطئون ولا يتميز أحدهم عن الآخر في حسن التصرف أو سوئه .

(فجهلوا حقه ، واتخذوا الأنداد معه ، واجتالتهم الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته) . الشرك بالله ، والانصراف عنه نتيجة حتمية للجهل بحقه تعالى ، والجاهل ألعوبة الشيطان .. وفي بعض الروايات : أدنى العلم بالله الإقرار بأنه لا إله غيره ، وانه ليس كمثله شيء (فبعث فيهم رسله) مبشرين ومنذرين لكيلا يكون للناس على الله الحجة (وواتر اليهم أنبياءه) . أي جعل بين نبي ونبي فترة قصيرة أوطويلة ، يقال : واتر ما عليه من الصوم أي أتى بالصوم وتراً ، فصام يوماً ، وأفطر يوماً أو يومين .

ما هي الفطرة ؟

(ليستأدوهم) . أي ليطلب الأنبياء من الناس الأداء والعمل بموجب (ميثاق فطرته) . وفي الآية ٣٠ من سورة الروم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وتسأل : ما هو المراد بالفطرة في هذه الآية الكريمة ، وفي قول الإمام(ع) ؟. هل المراد العقلية البدائية مع العلم بأن هذه العقلية تقبل التناقضات ، والإيمان بالأساطير والخرافات — كما ثبت في علم الاجتماع — أم المراد بالفطرة ان هناك قوة غامضة تفرض الحق على قلب الانسان وشعوره .. وهذا خلاف الحس والوجدان .. ولو صح ما اختلف في الحق اثنان .. أو المراد بالفطرة الشعور الذاتي الذي يحسه الانسان من نفسه ، ولا يعرف له مصدراً ولا تفسيراً كالوخز الذي يشعر به حين يفعل أو يحاول أن يفعل قبيحاً مع علمه ويقينه بأن ما من أحد يطلع عليه ، أو يمكن أن يطلع .. ونحن نعلم ان وخز الضمير يكون — في الغالب — انعكاساً عن تقاليد المجتمع ومقاييسه ، أو عن الايمان بالله واليوم الآخر .. أو المقصود بالفطرة مجرد استعداد الانسان لأن يقبل الخير حين يعلم بأنه خير ، ويرفض الشر حين يعلم بأنه شر ؟.

الجواب :

كل هذه المعاني غير مقصودة من الآية ، ولا من قول الإمام ، ولا من حديث « كل مولود يولد على الفطرة » .. وكنت قد اخترت المعنى الأخير للفطرة أي الاستعداد ، وقرّبته بنحو من الوضوح والتفصيل في « التفسير الكاشف » ج ٦ ص ١٤١ .. والآن ، وأنا أشرح «النهج» عدت الى دراسة الموضوع من جديد ، وبعد النظر والتأمل عدلت عنه ، لأن استعداد الانسان للشر تماماً كاستعداده للخير أو أكثر بدليل ان أهل الشر والضلالة أكثر بكثير من أهل الخير والهداية .

والذي أراه الآن وفي هذه اللحظة بالذات ان المقصود بالفطرة في الآية الكريمة ، وفي قول الإمام (ع) وفي حديث « كل مولود » هو ان نفس الانسان خلقت صحيفة بيضاء لا شيء فيها ، ولا توحي بشيء على الاطلاق ، ولكنها تقبل كل ما يكتب فيها ويرسم سواء أكان وحياً من الرحمن ، أم كان تضليلاً من الشيطان ..

وبالبداهة ان الوحي من خالق الفطرة وهو وحده الذي يجب أن يرسم فيها ما يرسم، وأن تؤمن به وتعمل .

ويدلنا على صحة هذا التفسير ان الانسان يولد ، ولا يولد معه شيء إلا حواسه الخمس ، ومعدة تطلب الطعام والشراب — كما هو المشاهَد — بالحس والوجدان، ثم يكتسب معارفه مما يحيط به شيئاً فشيئاً عن طريق هذه الحواس .. وفي أقوال أهل البيت (ع) ما يعزز ذلك ويدل عليه : قال صاحب مجمع البيان : روى أصحابنا عن الإمام الباقر : « ان الناس كانوا قبل نوح أمة واحدة على فطرة الله ، لا مهتدين ولا ضالين ، فبعث الله النبيين » :

وسياق الآية يدل على صحة التفسير الذي اخترناه للفطرة ، بل ويفرضه، لأن الآية الكريمة وردت بعد قوله تعالى : « ومن آياته ان خلقكم من تراب .. ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً .. ومن آياته خلق السموات والأرض — الى قوله — وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده .. وله المثل الأعلى » .. بعد هذا البيان الطويل عن انشاء الخلق وإعادته ، وبعد ذكر الفطرة — قال سبحانه : « ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أي ان الدين الحنيف القيّم الذي يجب أن تأخذ به فطرة الانسان هو الايمان بالله الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، لا الشرك أو اليهودية أو النصرانية ، وما الى ذلك مما لا مصدر له إلا تضليل الأبوين ، وفساد المجتمع ، ولكن أكثر الناس يجهلون الدين الحنيف ، ويدينون بغير الحق، دين الآباء والأجداد .

وهذا المعنى هو المراد أيضاً من حديث « كل مولود » . وعليه يُحمل قول الإمام . « ليستأدوهم ميثاق فطرته » أي ان الأنبياء طلبوا من الناس أن يؤمنوا ويعملوا بما أوحاه سبحانه الى الفطرة على لسان أنبيائه ، وليس معناه — كما يظن — ان الأنبياء طلبوا من الناس أن يؤمنوا بما توحيه الفطرة نفسها .. كلا ، لأنها صحيفة بيضاء لا توحي بشيء على الإطلاق .

(ويذكروهم منسي نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول ، ويروهم الآيات المقدرة من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع) : هذا تحديد لمهمة الأنبياء ووظيفتهم، وهي التذكير بأنعم الله على عباده ، والاحتجاج عليهم بإرشاده الى أن يفكروا ويتأملوا في خلق الله وآثاره الدالة على قدرته وعظمته

(ومعايش تحييهم ، وأوصاب تهرمهم ، وأحداث تتابع عليهم) . وأيضاً من وظيفة الأنبياء أن يرشدوا النـــاس الى مذاهب الحياة المشروعة ، ويحذروهم من الحرام ، لأن الدنيا — على آلامها وأحزانها — ماضية بهم الى الزوال .

وبهذا يتبين معنا ان وظيفة الأنبياء هي الانــذار والتبشير ، وانهم لا يملكون لأحد نفعاً ولا ضراً ، وما زاد على ذلك من غرائب الأوصاف ، وعجائب الصور فليس من الدين في شيء .

(ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل ، أو كتاب منزل ، أو حجة لازمة ، أو محجة قائمة) . لا تقوم الحجة لله على خلقه إلا بعد البيان منه تعالى، والمعصية من العبد ، وليس من الضروري أن يكون البيان من رسول الله مشافهة ووجهاً لوجه ، بل يكون أيضاً بكتاب الله كالقرآن ، وبالسنة الثابتة عن رسول الله ، وهي المراد من المحجة القائمة ، أما المقصود من قوله (ع) : الحجة اللازمة فهو العقل ، أو المعصوم الذي أشار اليه فيما يأتي من كلامه : « لا تخلو الأرض من قائم بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً ، واما خائفاً مغموراً » .

(رسل لا تقصر بهم قلة عددهم) . أي ان عدد الرسل ، وإن كان قليلاً فإنهم قاموا بمهمة التبليغ على وجهها ، والعبرة بالكيفية ، لا بالكمية . وهنــاك بعض الروايات في عدد الأنبياء ، ولكن لا نعرف مكانها من الصحــة ، بل لا تهمنا معرفتها ما دام القرآن أهمل الاشارة الى العدد : « ورسلاً لم نقصص عليك — ١٦٤ النساء» . واذن فعلام الفضول ؟ (ولا كثرة المكذبــين لهم) . لاقى الأنبياء الكثير من المترفين الطغاة ، وما أكثرهم في كل عصر !.. ولكن الأنبياء صبروا صبر الأحرار في سبيل التبليغ والقيــام بواجبه ، ومن أقوال الإمام : لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة .

(من سابق سمى له من بعده) . أي ان الله سبحانه أخبر وسمى للنبي السابق الذي ذهب بذهاب زمانه ، سمى له النبي الذي يأتي بعده (أو غابر) البــاقي الموجود بالفعل ، قال تعالى: « فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين — ٨٣ الأعراف » أي من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا (عرفــه من قبله) . بشّر السابق به ، كما بشّر عيسى (ع) بمحمــد (ص) : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد — ٦ الصف » .

(على ذلك نسلت القرون ، ومضت الدهور ، وسلفت الآباء ، وخلفت الأبناء).
ذلك اشارة الى ما تقدم من قوله : « لم يخل سبحانه خلقه من نبي » الخ . وفي هذا المعنى قوله تعالى : «سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلاً — ٧٧ الإسراء » .

محمد (ص) فقرة ٢٥ — ٢٧ :

إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ . وَتَمَامِ نُبُوَّتِهِ . مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ ، كَرِيماً مِيلَادُهُ(٢٥) وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ . وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ . وَطَوَائِفُ مُتَشَتِّتَةٌ . بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ . فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ . وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ(٢٦) . ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ لِقَاءَهُ . وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مُقَامِ الْبَلْوَى . فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً . بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ . وَلَا عَلَمٍ قَائِمٍ(٢٧) .

اللغة :

عدته : وعده . ميثاقه : عهده . سماته : علاماته وصفاته . والملل : الأديان . وطوارق وطارقات : جمع طارقة ، وتطلق على العشيرة . وملحد في اسمه : حاد به عن معناه الحقيقي . وهملا : سدى .

الإعراب :

المصدر من أن بعث متعلق بنسلت أو بمضت . ولانجاز متعلق ببعث. ومأخوذاً ومشهورة وكريماً حال من محمد (ص) . وميثاقه نائب عن الفاعل لـ «مأخوذاً» . وملل على حذف المضاف اليه أي ذو ملل ، ومثله أهواء وطرائق . وبين ظرف متعلق بمتشتتة . وكريماً حال من الهاء في « قبضه » . وهملا مفعول مطلق أي تركا هملا .

المعنى :

(الى ان بعث الله سبحانه محمداً رسول الله (ص) لانجاز عدته ، وتمام نبوته). الضمير في عدته ونبوته يعود الى الله سبحانه ؛ والمعنى انه تعالى كان قد وعد ، وأنبأ — على لسان أنبيائه السابقين — أن يبعث محمداً (ص) وقد بعثه إنجازاً لوعده، وإتماماً لما أنبأ به . قال الشيخ محمد عبده : « ان الله أنبأ بمحمد ، فهذا الخبر الغيبي قبل حصوله يسمى نبوءة ، ولما كان الله هو المخبر أضيفت النبوءة اليه ».

(مأخوذاً على النبيين ميثاقه) . ضمير ميثاقه يعود أيضاً الى الله ، لأنه هو الذي أخذ العهد على أنبيائه أن يؤمنوا بمحمد ، ويأمروا الناس بالتبشير به واتّباعه عند إدراكه ، وليس من شك ان ذكر محمد كان يملأ جو الأنبياء السابقين كما يومىء اليه قولهم «اقررنا» الذي جاء في الآية ٨١ من سورة آل عمران : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

(مشهورة سماته) وصفاته في الدنيا كلها والى الأبد ، لا في الكتب السماوية فقط كما قال الشارحون (كريماً مولده) لأنه كان خيراً على الانسانية جمعاء ، وإيذاناً بتحولها الخطير من الظلمات الى النور ، وليست الكرامة في نسبه فقط كما شرح الشارحون .

(وأهل الأرض يومئذ ملل متفرقة ، وأهواء منتشرة ، وطرائق متشتتة — الى قوله — من الجهالة) . كان الناس عند بعثة محمد (ص) على أديان شتى ،

ومذاهب متعددة ، وتقاليد مختلفة ، فجاءهم النبي (ص) برسالة إلهية انسانية عامة لا تختص بأمة دون أمة ، ولا بشعب دون شعب .. ويلمح المتأمل هذا الشمول في جميع تعاليم الاسلام ومبادئه . فالقرآن الكريم والسنة النبوية يتضمنان من القواعد الكلية ، والأحكام الجزئية ما يرشد الناس الى جميع المصالح التي يجهلون ، ويضع دائماً وفي كل وقت الحلول الأساسية لمشاكل الانسان وضروراته : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء – ٨٩ النحل » . أي ان الله سبحانه أودع في القرآن كل شيء يلائم طبيعته في إرشاد الخلق لمصالحهم الفردية والاجتماعية .

وقرأت في جريدة الجمهورية المصرية عـدد ١٤ مايو « أيار » سنة ١٩٧٠ : قال برنارد شو الفيلسوف العالمي : ان دين محمد هو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز على أهلية الهضم لأطوار الحيـاة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جاذباً لكل جيل .. ان محمداً يجب أن يُدعى منقذ الانسانية ، وأعتقد أنه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجـح في حل مشاكله بطريقة تجلب الى العالم السعادة والسلام ، ان محمداً أكمل البشر من السابقين والحاضرين ، ولا يتصور وجود مثله في الآتين .

(ثم اختار سبحانه لمحمد (ص) لقاءه ، ورضي له ما عنده) . أبداً لا مهرب من المـوت لكبير أو صغير ، ولا لنبي أو شقي ، فهو الطالب الحثيث الذي لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، والسعيد من سارع الى الخيرات .

(وخلف فيكم ما خلف الأنبياء في أممها) بل خلف محمد (ص) ما لم يخلفه الأنبياء مجتمعين ، وكفى شاهداً على ذلك القرآن وشريعته معجزة المعاجز في التشريع ، ومن أجل هذا كانت رسالة محمد خاتمة الرسالات والشرائع السماوية ، وكان هو خاتم الرسل والنبيين ، وأيضاً من أجل هذا أثنى عليه تعالى بما لم يثنِ عـلى نبي سواه (اذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ، ولا علم – بفتح العين واللام – قائم) . لأن النبي إذا أهمل أمته من بعده يكون خائناً لهـا ، وناكثاً بعهد الله وميثاقه .

وغريبة الغرائب أن يقول مسلم عن نبيه : انه مات بلا وصية !.. ولماذا لم يوصِ محمد ؟ ألأن الوصية من المحرمات ، وهو القائل : من مات بلا وصيـة مات يهودياً أو نصرانياً ، أو لأنه (ص) لا يهتم بأمور المسلمين ، وهو القائل :

من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم ، وقال تعالى في وصف نبيه الكريم: « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم — ١٢٨ التوبة » . فهل ترك النبي (ص) الوصية حرصاً على مصلحة المسلمين، أو على مرضاة الله ؟.

القرآن والشريعة فقرة ٢٨ — ٢٩ :

كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ مُبَيِّناً حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ . وَرُخَصَهُ وَعَزَائِمَهُ . وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ . وَعِبَرَهُ وَأَمْثَالَهُ . وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ . وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ . مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ وَمُبَيِّناً غَوَامِضَهُ[٢٨] . بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ فِي عِلْمِهِ وَمُوَسَّعٍ عَلَى ٱلْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ . وَبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي ٱلْكِتَابِ فَرْضُهُ ، وَمَعْلُومٍ فِي ٱلسُّنَّةِ نَسْخُهُ ، وَوَاجِبٍ فِي ٱلسُّنَّةِ أَخْذُهُ ، وَمُرَخَّصٍ فِي ٱلْكِتَابِ تَرْكُهُ . وَبَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ ، وَمُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ . وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ مُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ[٢٩] .

اللغة :

الفرائض : جمع فريضة ، وهي ما يجب فعله ، ولا يجوز تركه . والنسخ: الإزالة . والرخصة : اليسر . والعزيمة هنـا : الفريضة . والمرسل : المطلق .

والمحدود : المقيد . والمحكم : الواضح . والمتشابه : المشكل والغامض . والسنة لغة : الطريقة ، وشرعاً : قول المعصوم أو فعله أو تقريره .

الإعراب :

كتاب مفعول لفعل محذوف دل عليه قوله : « وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء» كأن سائلاً يسأل : ماذا خلف رسول الله (ص) ؟. الجواب: خلف كتاب ربكم. ومبيناً حال من الكتاب . وبين ظرف متعلقاً بمحذوف حالاً من الكتاب أي دائراً بين كذا وكذا . ومباين خبر لمبتدأ محذوف أي هو مباين .

المعنى :

أحكام الشريعة الاسلامية على نوعين : اعتقادية ، وموضوعها القلب ، وعملية، وموضوعها فعل الانسان الصادر عنه بإرادته واختياره ، وهدفها – على الاجمال – إصلاح الفرد والمجتمع ، ومصدرها الوحي والعقل .. والقرآن وحي من السماء ، ومثله سنة الرسول لقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا – ٧ الحشر ».وقد صنف الإمام (ع) الكثير مما جاء في كتاب الله ، ومنها الأحكام العملية ، وفيما يلي البيان :

١ – (مبيناً حلاله وحرامه) . والحرام كالظلم والزنا ، والحلال كالزينة والطيبات ، وكل ما فيه خير وصلاح فهو حلال ، وكل ما فيه شر وفساد فهو حرام .

٢ – (وفرائضه وفضائله).الفرائض الواجبات كالصوم والصلاة ، والفضائل المستحبات كالبر والاحسان .

٣ – (وناسخه ومنسوخه) . النسخ في الأحكام الشرعية هو عبارة عن إنشاء الحكم بصيغة الدوام والاستمرار ، وبعد العمل به بعض الحين يصدر حكم آخر على عكسه ، والأول يسمى منسوخاً ، والثاني ناسخاً ، وهذا النسخ صوري لا واقعي، لأن الحكم الأول دائم ومستمر في ظاهره ، ومحدود بأمد معين في واقعه ، ولكن

الحكمة الإلهية استدعت إظهاره بمظهر الدوام والاستمرار، تماماً كما لو رأى الطبيب أن من مصلحة المريض الامتناع عن أكل اللحم اسبوعاً واحداً ، وأيضاً رأى من مصلحته أن لا يُعلمه بتحديد الوقت ، فنهاه عن اللحم من غير قيد على هـذا الأساس ، وبعد مضي الاسبوع أذن له أن يأكل اللحم .. وعليه ينحصر معنى النسخ في محو مـا ظهر من إرادة الدوام ، لا محو الارادة الواقعية الذي يستلزم البداء والجهل .

٤ – (ورخصه وعزائمه) . الرخصة لغة اليسر والتخفيف ، وشرعاً الإذن للمكلف بفعل ما كان ممنوعاً عنه ، الإذن له بذلك لسبب موجب كالإذن للمضطر بالأكل من الميتة : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه – ١٧٣ البقرة » . أما المباح في الأصل فلا يسمى رخصة . والعزيمة لغة القصد المؤكد،وشرعاً الإلزام بإيجاب من الله سبحانه .

٥ – (وخاصه وعامه) . العام يشمل أفراد الموضوع بكاملها مثل « كـل امرىء بما كسب رهين – ٢١ الطور » . والخاص لا يشمـل إلا بعض الأفراد مثل « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم – ٥٠ آل عمران » .

٦ – (وعبره وأمثاله) . والمراد بعبَر القرآن الآيات التي أخبرت عما أصاب أهل الفساد والضلال ، وحذرت من بأس الله وعذابه . والأمثال ما يضرب للتقريب الى الأذهان كقوله تعالى : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح – ٣٥ النور » . أو للترغيب : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل – ٢٦١ البقرة » . أو للعبرة والعظة : « ألم ترَ الى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار – ٢٩ ابراهيم » . وغير ذلك .

٧ – (ومرسله ومحدوده) . المرسل غير المقيد مثل : « أو تحرير رقبة – ٨٩ المائدة » . والمحدود المقيد « فتحرير رقبة مؤمنة – ٩٢ النساء » .

وتجدر الاشارة الى ان الناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، كل ذلك يدخل في مباحث علم أصول الفقه ، وما كان لهذا العلم عين ولا أثر في ذاك العهد ، وعليه يكون الإمام (ع) أول من أشار الى بعض أبوابه ومباحثه .

٨ — (ومحكمه ومتشابهه مفسراً مجمله ومبيناً غوامضه) . في القـرآن آيات واضحة الدلالة مثل « وتوبوا الى الله » وتسمى محكمة ، ومنها ما يحتاج الى بيان من أهل العلم مثل « ثم استوى على العرش » ويسمى متشابهاً،والنبي وأهل بيته (ص) هم المرجع في تفسيره وبيانه ، وأهل البيت أدرى بالذي فيه .

٩ — (بين مأخوذ ميثاق علمه ، وموسع على العباد في جهله) . أشرنا قبل قليل الى ان أحكام الاسلام منها اعتقادية ، ومنها عملية ، ولا عذر لمن يجهـل الأصول الأولى من الأحكام الاعتقادية ، ولا يؤمن بها ، كالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، ويعذر في أشياء أخر كالعلم بأن صفات الله عين ذاته أو غيرها ، وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » بعنوان « ما يجب وما لا يجب » . أما الأحكام العملية فيجب على المكلف أن يعرف حـكم كل فعل يمارسه ويصدر عنه، عبادة كان أو غيرها حتى المأكول والمشروب .

١٠ — (وبين مثبت في الكتاب فرضه ، ومعلوم في السنة نسخه) . اتفقوا على ان الكتاب يُنسخ بالسنة المتواترة ، واختلفوا في نسخه بالخبر الواحد ، فذهب الأكثر الى عدم الجواز ، بل نقل عليه الإجماع .. وفي رأينا ان الأحكام الثابتة بظاهر القرآن يجوز نسخها بالخبر الواحد ، لأن السنة بيان وتفسير لكتاب الله ، ولا فرق أبداً بين الآية القرآنية ، وبين الخبر الواحد من الوجهة العملية ووجوب التدين أيضاً فيما يعود الى الأحكام الفرعية بخاصة اذا كان الدليل على حجة الخبر الواحد السنة المتواترة .

١١ — (وواجب في السنة أخذه ، ومرخص في الكتاب تركه) . كما ينُسخ الكتاب بالسنة كذلك تُنسخ السنة بالكتاب ، والمراد بالسنة قول المعصوم أو فعله أو تقريره ، وقد ثبت باليقين ان النبي (ص) كان يصلي أول الأمر لجهة المسجد الأقصى،فحوله القرآن الى المسجـد الحرام : « فول وجهك شطر المسجد الحرام — ١٤٤ البقرة » :

١٢ — (وبين واجب بوقته ، وزائل في مستقبله) . ينقسم الواجب بالنظر الى الوقت الى مضيّق وموسع ، والمضيق هو الذي يجب في وقت معين ، ويذهب بذهابه ، ولا يجب قضاؤه إلا بدليل ، كصوم شهر رمضان .. يجب في هـذا الشهر دون غيره ، والموسع لا يختص بوقت كصلاة الآيات — ما عدا الكسوفين —

حيث تجب المبادرة اليهـا عند حدوثها ، ومن أخّر يأتي بها مدة حياته ، وقد يكون الواجب الواحد موسعاً من جهة ومضيقاً من جهة ثاني ، كصلاة الظهر ، فإنها موسعة بالنسبـة الى مجموع الوقت ، ومضيقة بالنسبة الى آخره ، ولم يشر الإمام الى الموسع .

١٣ – (ومباين بين محارمه من كبير أوعد عليه نيرانه ، أو صغير أرصد له غفرانه) . يشير الى ان الذنوب منها كبار ، ومنها صغار كما جـاء في الكتاب العزيز « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم – ٣٢ النجم » . واللمم الصغائر ، ويومىء قول الإمام الى تحديد الذنب الكبير بأنه الذي توعّد عليه سبحانه ، وهدد أصحابه بالنار ، وما عداه فصغير ، وقد أعد الله له الغفران ، وفي هـذا المعنى روايات عن أهل البيت (ع) . وقال صاحب الجواهر :

« لا شك ان الصغائر لا ينفك عنها الانسان .. وان فعل الطـاعات واجتناب الكبائر تكفير لارتكاب الصغائر .. وإذن فلا حاجة الى التوبة منها .. نعم لا ينبغي ترك العزم على الاصرار ، لحـديث « لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار »[1] . وهـذا الخبر يُشعر بأنه لا حاجة للصغيرة الى الاستغفار مع عدم الإصرار .

١٤ – (وبين مقبول في أدناه ، موسع في أقصاه) . مثـل قوله تعالى : « فكفارته – أي حنث اليمين – إطعام عشرة مساكين من أوسط مـا تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبـة – ٨٩ المائدة » . فأدنى أفراد هـذه الكفارة الاطعام ، وأقصاها تحرير الرقبـة ، وليس من شك ان في قبول الأدنى توسعة على العباد .

الحج فقرة ٣٠ – ٣١ :

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَـرَامِ الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ يَرِدُونَهُ وُرُودَ الأَنْعَامِ وَيَأْلَهُونَ إِلَيْـهِ وُلُوهَ الْحَمَامِ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلامَةً

---

[1] وعلى هذا يسوغ لنا أن نقول : ولا إيمان مع الاصرار على الكبيرة .

لِتَواضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ[٣٠] . وَٱخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ . وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ ، ٱلْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ يُحْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَ مَوْعِدِ مَغْفِرَتِهِ . جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْإِسْلَامِ عَلَماً وَلِلعَائِذِينَ حَرَماً . فَرَضَ حَجَّهُ وَأَوْجَبَ حَقَّهُ وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ « وَلِلّٰهِ عَلى النَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ[٣١] .

اللغة :

الحج لغة : القصد . وشرعاً : المناسك المعروفة ، وجاء في أقرب الموارد : « الحج بالكسر لغة في الحج ، وقيل بالفتح الاسم ، وبالكسر المصدر ». ووصف بيت الله بالحرام حيث يجب تقديسه، ويحرم هتكه ، ولمن لاذ به نوع من الحصانة . حتى الطير يحرم صيده هناك على المحل والمحرم . وورود الأنعام أي كحال الأنعام تزاحماً عند ورود الماء . ويألهون : من الوله ، وهو لغة : الحزن والوجد، والمراد به هنا الحنين والشوق . ويتبادرون : يتسارعون . والعائذين : جمع عائذ ، وهو المستجير والملتجيء . والوفادة : الزيارة .

الإعراب :

الذي جعله : صفة لبيته . ومن استطاع « من » بدل بعض من الناس . ومن كفر « من » مبتدأ ، والجملة من أن واسمها وخبرها خبر .

سر الحج :

معنى كلام الإمام (ع) واضح ، وفي غنى عن الشرح .. أجل ، ان في الحج سراً عميق الدلالة ، وهو وحده يفسر حقيقته ، ويكشف عن كنهه ، وقد أشار الإمام الى هذا السر بكلمة عابرة ، وهي : « ويألهون اليه ولوه الحمام » . واليك ما استوحيناه من هذه الإشارة في البيان التالي :

تكلم المسلمون عن الحج وغير المسلمين أيضاً ، وأطنبوا وكرروا فيما كرروا « ان الحج مؤتمر عالمي يعقده المسلمون على صعيد واحد،وفيه يتعارفون ويتشاورون». ولا أدري مـــاذا أنتج هذا المؤتمر وغيره من المؤتمرات التي تعقد هنا وهناك ؟! ثم أي مسلم ذهب الى مكة المكرمة ، وهو يحمل في رأسه فكرة التعارف والتشاور؟ وإذا صادف وتعرف على واحد أو اثنين فلا شيء وراء هذه المعرفة إلا الرؤيـــة تماماً كما تلتقي أنت وإنسان في السيارة أو المطعم .

ان السر في الحج أبعد من هذا وأعمق ، ويتضح من الجواب على هذا التساؤل:

لماذا يذهب المسلم الى الحج بهذا الوله والحنين ، ويدفع الأموال الطائلة،ويتحمل المشاق والأخطار على الطريق ، وفي منى وعرفات ، وفي المسعى والطواف.. وقبل سفره يحمل أوراقه ، وينتقل بها من دائرة الى دائرة ، ومن مكتب الى مكتب؟ هل وضع محمد لوناً من السحر في أحجار الكعبة لا تعرفـه السحرة ، ووضع في قبره نوعاً من الجاذبية لم يهتد اليه نيوتن ، ولا العلماء من بعده؟!

الجواب :

ان في أحجار الكعبة ، وفي قبر محمد سراً وأي سر ، سراً هو أعظم بكثير من السحر والجاذبية النيوتنية .. انه الحب ، حب الله ورسوله الذي لا سلطـــان عليه لانسان ولا شيطان .. والى هـذا الحب أشار الإمـام (ع) بقوله : « يألهون اليه ولوه الحمام » . والحمام — كما هو معلوم — رمز الحب والسلام،وأشد الطيور ولهاً وحنيناً .. وأيضاً هذا الحب هو الذي أراده ابراهيم أبو الأنبياء (ع) يوم وقف الى جوار الكعبة يبتهل الى الله ويقول : « فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم — ٣٧ ابراهيم » . قال : أفئدة من الناس ، ولم يقل : جماعة من الناس لأن الفؤاد هو سويداء القلب ، وقال : تهوي ولم يقل : تأتي ، لأن الهوى أو الهوي يتضمن معنى الشوق والوجد ، والمحب المشتاق لا يسأل عن الأسرار ، ولا يهتم «بالتشاور

والتذاكر » .. أبداً لا يعرف إلا السمع والطاعة لمن عشق وأحب ، وقديماً قيل: ان المحب لمن يحب مطيع .

ان المسلم حقاً يحس ، وهو ذاهب الى الحج ، بأن دعوة نزلت عليه من السماء موقعة باسم الله ورسوله لكي يحضر الاحتفال بمكة في الوقت المعين ، فيسرع رافعاً صوته : « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك » .. فإذا واجه الكعبة خفق قلبه طرباً ، وتساقطت دموع الفرح من عينيه على ما وُفق اليه من الاستجابة لخالقه ، والوقوف مواقف أنبيائه ، والتشبيه بملائكته المصطفين بعرشه كما قال الإمام (ع).

والأثر الأول الذي تتركه في النفس هذه الفرحة والغبطة هو الشعور بالمسؤولية أمام الله سبحانه رب هذا البيت . وهذا الشعور بالمسؤولية أمام قوة قاهرة عالمة جديرة بالطاعة والعبادة هو الحكمة من الحج وتشريعه ، والمبرر الوحيد لوصف الانسان بالتدين والايمان عالماً كان أم جاهلاً .

وتسأل : ان كثيراً من أهل الحجيج لا يشعرون بهذه المسؤولية على الاطلاق بدليل انهم يعودون من البيت الحرام الى ما كانوا عليه من قبل ؟.

الجواب :

ان الإمام (ع) تكلم عن الذين يشعرون ، ويقصدون بيت الله الحرام استجابة لدعوته ، وتواضعاً لعظمته ، وإذعاناً لعزته ، ومن لا يشعر بشيء من ذلك فلا يعد من حجاج بيت الله الحرام ، وان قصده في كل عام .. وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء ، كما قال الإمام (ع) .

الخطبة

- ٢ -

بعد انصرافه من صفّين

لا يفتقر من كفاه .. فقرة ١ — ٣ :

أَحْمَدُهُ اسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ . وَٱسْتِسْلَاماً لِعِزَّتِهِ . وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ . وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ . وَلَا يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ . فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ(١) . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخلَاصُهَا. مُعْتَقَداً مُصَاصُها نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبداً مَا أَبْقَانَا ، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ . وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ وَمَرْضَاةُ الرَّحْمٰنِ . وَمَدْحَرَةُ ٱلشَّيْطَانِ(٢) وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ ٱلْمَشْهُورِ . وَٱلْعَلَمِ ٱلْمَأْثُورِ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمَسْطُورِ . وَٱلنُّورِ ٱلسَّاطِعِ . وَٱلضِّيَاءِ

اللَّامِعِ . وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ . إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ . وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيراً بِالْآيَاتِ . وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ[٣] .

اللغة :

استتماماً : طلباً للتمام . واستسلاماً : انقياداً . واستعصاماً : طلباً للعصمة . ولا يئل : لا ينجو . ومصاصها : خلوصها من كل شائبة . وأهاويل : مخاوف. والمدحرة : الطرد والبعد . والمراد بالدين المشهور الدين الظاهر ، وقيل : التام الأركان . والعلم بفتح اللام ما يهتدى به . والمراد بالمأثور: المختار ، وقيل : المنقول عنه ، وهو بعيد عن الفهم . والأمر الصادع : الأمر الكاشف عن الحق . والمثلات : الآفات والنكبات .

الإعراب :

استتماماً وما بعدها مفعول من أجله . وان لا إله إلا الله « ان » مخففة ، واسمها محذوف أي انه ، وجملة ما بعدها خبر ، و « لا » نافية للجنس ، وإله اسمها ، والخبر محذوف ولفظ الجلالة بدل منه أي موجود إلا الله . وممتحناً حال، وإخلاصه فاعل له ، ومثله « معتقداً مصاصها » . وأبداً يؤكد به الزمان المقبل نفياً وإثباتاً ، تقول : لا أفعل أبداً ، وأفعل أبداً ، وقط والبتة لتأكيد الزمان الماضي . وازاحة وما بعدها مفعول لأجله .

المعنى :

(أحمده استتماماً لنعمته ، واستسلاماً لعزته ، واستعصاماً من معصيته) . يحمد الله ، ويشكره لأمور ، منها أن يتم عليه نعمته بالصبر وغيره من النعم بعد أن أنعم عليه بالهداية الى الايمان،ومنها ان في الحمد والشكر طاعة لله ومجانبة لمعصيته ، ومعنى العزة: القدرة والغلبة ، وعبّر الإمام بها عن الذات القدسية للإيماء الى ان

القادر الغالب حقاً وواقعاً هو الله وحده .. ومن أقواله : ما ظفر من ظفر الإثم به ، والغالب بالشر مغلوب ، وكأنه يشير الى ان معاوية ما نجا من حرب صفين إلا بالإثم والمعصية .

(وأستعينه فاقة الى كفايته) . إذا أهمك أمر فاستعن عليه بالجد والعمل مع التوكل على الله ، لأن مقاليد الأمور كلها في يده ، ولا جدوى من السعي إذا أراد سبحانه أن يمنع عنك ما تريد ، كما انه ، جلت حكمته ، لا يعطيك إلا مع الجد والسعي : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه — ١٥ الملك » .

(انه لا يضل من هداه) . ولكنه « لا يهدي من هو مسرف كذاب — ٢٨ غافر » . وإنما يهدي من اتبع رضوانه وسبيله القويم « وانما » هنا للحصر . (ولا يئل من عاداه) . أي لا ينجو من عذاب الله من عصاه : « وينجي الله الذين اتقوا — ٦١ الزمر » . (ولا يفتقر من كفاه) أي أغناه ، ومراد الإمام (ع) بالفقر والغنى في الآخرة لا في الدنيا بدليل قوله في آخر النهج : «الغنى والفقر بعد العرض على الله » . (فإنه أرجح ما وُزن ، وأفضل ما خزن) . الضمير يعود الى الحمد ، وقيل : يعود الى الله . مع ان « ما » لغير العاقل — في الغالب ، ومهما يكن فإن الأمر سهل لأن الحمد لله .

كلمة التوحيد :

(وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له) . لا شيء أكمل وأعظم من كلمة الإخلاص والتنزيه والتوحيد ، وهي أصل الأصول في عقيدة الاسلام ، وبها يمتاز عن جميع الأديان ، ولا يكفي بجرد التدين بها من غير نطق ، بل على كل مسلم أن يكررها في اليوم والليلة مرات ، وهو واقف بين يدي الله للصلاة .. هذا ، الى أن للإيمان بالتوحيد صلته الوثيقة بالأخلاق والتربية ، وتأثيره في السلوك والعادات ، لأنه إيمان بالحق والعدل والمساواة .

(شهادة ممتحناً إخلاصها ، معتقداً مصاصها) . أي ان كلمة التوحيد خرجت من أعماق الإمام خالصة لله وحده إخلاصاً يتفق فيه السر مع الإعلان ، والقلب مع اللسان ، وليس من شك أن من نطق بكلمة التوحيد ، وهو يعتز بغير الله ،

ويستعين بسواه فهو كاذب يناقض نفسه بنفسه ، ومن هنا سُميت كلمة التوحيد بكلمة التقوى لأنها بموجب طبعها ووضعها تورث التقوى .

وسميت أيضاً بكلمة النجاة لأنه لا نجاة من عذاب الله إلا بها ، وكلمة النذير لأنها تنذر بفناء كل شيء إلا وجهه الكريم ، وكلمة التوكل على الله لأنها تنفي القوة عمن سواه .. وبالتالي ، فإن كلمة التوحيد تنزيه للخالق عن الشريك ، وللمخلوق عن العبودية لغير الله . وصدق من قال : ان كلمة التوحيد ليست حروفاً ، ولكن منهج حياة ، وشريعة قلب .. ومن هنا قال رسول الله (ص): خير ما جئت به انا والنبيون من قبلي كلمة لا إله إلا الله .

(نتمسك بها أبداً ما أبقانا ، وندخرها لأهاويل ما يلقانا) . ولا يعرف التاريخ ولا الانسانية أحداً بعد رسول الله (ص) استمسك بلا إله إلا الله كما استمسك بها علي والحسين بن علي ، فقد كانت منهما العقل والقلب ، واللحم والدم ، والمال والأهل ، وما عداها ورقة في فم جرادة ، والشاهد الذبح والنحر من أجل لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(فإنها عزيمة الايمان) . أي لا ايمان بدونها (وفاتحة الاحسان ، ومرضاة الرحمن ، ومدحرة الشيطان) . ان الله سبحانه يجزي من أحسن بالحسنى وزيادة، ولكن على شرط التوحيد وكلمته ، فمنها تبتدىء المكافأة ، أما من جحد أو أشرك أو دلس فأجره على الشيطان الذي قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين .

(وأشهد ان محمداً عبده ورسوله) . لا غنى بكلمة التوحيد – على عظمتها – إلا مع الشهادة لمحمد بالرسالة ، ولا غنى بهذه الشهادة إلا مع كلمة التوحيد ، وكل منهما جزء متمم للآخر ! والاسلام يقوم عليهما وعلى الايمان باليوم الآخر .

(أرسله بالدين المشهور) الظاهر على الدين كله ولو كره المشركون (والعلم المأثور) من الإيثار أي المختار (والكتاب المسطور) القرآن (والنور الساطع ، والضياء اللامع) من صفات القرآن لأنه أخرج الناس من الظلمات الى النور (والأمر الصادع) الكاشف عن الحق .

(إزاحة للشبهات ، واحتجاجاً بالبينات ، وتحذيراً بالآيات ، وتخويفاً بالمثلات). هذه هي وظيفة المبلغ الحق ، يزيح الشبهات عن العقول والقلوب بمنطق الحس والعقل ، ويحذر من غضب الله وعذابه ، ويبشر برضوانه وثوابه .

والمبلغون في عصرنا – ويا للأسف – منهم المتبلد فهماً وفكراً ، ومنهم كبائعات الهوى ، والذين يُستمع اليهم أقل من القليل .

والناس في فتن .. فقرة ٤ – ٥ :

وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ . وَضَاقَ الْمَخْرَجُ وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ فَالْهُدَى خَامِلٌ وَالْعَمَى شَامِلٌ . عُصِيَ الرَّحْمٰنُ ، وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ ، وَخُذِلَ الْإِيمَانُ فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ ، وَعَفَتْ شُرُكُهُ(٤) . أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ ، وَقَامَ لِوَاؤُهُ فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا ، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا . فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ . نَوْمُهُمْ سُهُودٌ وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ . بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ(٥) .

اللغة :

تطلق الفتنة على الإضلال ، ولذا يقال للشيطان : فتان ومفتن ، وعليه يكون المعنى ان الناس كانوا عند بعثة النبي (ص) في جهالات وضلالات . وانجذم : انقطع . والسواري : جمع سارية ، العماد . والمراد باليقين هنا الحق . والنجر : الأصل . وضاق المخرج أي مما هم فيه من الفتن . وعمي المصدر أي جهلوا مصدر الفتن ، وهو أهواؤهم وشهواتهم . والخامل من لا ذكر له ، ولا أحد ينتبه اليه.

وتنكرت : تغيرت . ومعالمه : علاماته وآثاره . ودرست وعفت : انطمست . والشرك — بضم الشين والراء — الطرائق . والمناهل : جمع منهل مورد الشرب. والأخفاف للإبل . والأظلاف للبقر والمعز والغنم . والقدم للإنسان . والسنابك : أطراف الحافر . والسهود : الأرق .

الإعراب :

والناس في فتن مبتدأ وخبر ، والواو للحال . وضمير « بهم » يعود للذين أطاعوا الشيطان . وجاهلون خبر ثان لـ « هم » ومفتونون خبر ثالث . وفي خير دار متعلق بـ « مفتونون » وبأرض بدل من خير دار ، أو متعلق بما تعلق به .

المعنى :

المعنى واضح ،والكلمات مترادفة ، أو متشابهة ، وذكرنا ذلك في معنى المفردات، وبعض الجمل في فقرة « اللغة » ، ولا داعي للتكرار ، ويمكن ايجاز هذا المقطع من الخطبة بأن الله سبحانه أرسل محمداً (ص) في أشرف بقعة وأفضلها ، وان أهلها كانوا آنذاك شر أهل الأرض ، والبقعة هي مكة المكرمة .. وانما اطنب الإمام (ع) لأنه في مقام الخطابة ، والاشارة الى ان الذين حاربوه في صفين لا يختلفون في أوصافهم عن الذين كانوا عند البعثة ، وأيضاً أراد الإمام (ع) ان يبين آيات العظمة في شخصية رسول الله (ص) التي أتت بأطيب الثمار على رغم الصعوبات والعقبات .. وليس من شك ان شخصية محمد (ص) من خوارق العادات ، وانها لا تقاس بالمألوف والمعروف بشهادة العلماء الأجانب . أنظر شرح الخطبة الأولى فقرة «محمد» (ص) .

والغريب انه ما من بلد فيه قبر نبي أو إمام إلا وأكثرُ سكانه من الأشرار الفجار ، لا يعرفون من الدين إلا اسمه . وما الزائر الغريب عندهم إلا صيداً لفخوخهم وشباكهم ، بل وأحل من الصيد ، فهل السر في ذلك ان الله سبحانه يمتحن قلوب الزائرين لأوليائه بشياطين الإنس ؟. وصدق الإمام (ع) حيث يقول: ان أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان .

أهل البيت .. فقرة ٦ :

هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ وَلَجَأُ أَمْرِهِ وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ وَمَوْئِلُ حِكَمِهِ وَكُهُوفُ كُتُبِهِ ، وَجِبالُ دِينِهِ . بِهِمْ أَقامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ (٦) .

اللغة :

لجأ هنا اسم ، ومعناه الملاذ ، ومثله الموئل والكهف . والعيبة : الوعاء . والفرائص : جمع فريصة ،وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف .

الإعراب :

لا يختلف اثنان من الشارحين في ان المراد بضمير « هم » أهلُ البيت[١] وانما الخلاف في ضمائر « سره وأمره وعلمه وحكمه وكتبه ودينه وظهره وفرائصه » فمن قائل : أنها لله ما عدا ضمير ظهره وفرائصه فإنهما لرسول الله (ص)، وقائل: كلها للدين . وقال ثالث : ترجع بكاملها لرسول الله ، والأرجح ان الضمائر تعود الى رسول الله ما عدا ضمير ظهره وفرائصه فانهما يعودان الى الدين لتقدم ذكره في قول الإمام : « وجبال دينه » ولقرب الضميرين منه .

المعنى :

ان المعيار لصحة ما جاء في نهج البلاغة ، ونسبته الى الإمام أمير المؤمنين(ع) هو الموافقة للواقع المحسوس ، ولكتاب الله وسنّة النبي (ص) فأية خطبة أو كلمة جاءت في النهج على وفق الحس والكتاب والسنة فهي للإمام ومن الإمام بلا ريب وإلا فهو منها براء براءة الصدق من الكذب .. وكل ما وصف به الإمام أهل البيت يشهد به التاريخ والقرآن ومن أنزل عليه .

---

١ انظر كتاب : فلسفة التوحيد والولاية ، فصل من هم أهل البيت (ع) .

(هم موضع سره) أي سر محمد (ص) كما أشرنا في فقرة الإعراب،والمراد بالسر هنا العلم ، وفي كلمات الإمام وخطبه نبؤات تحققت كما أخبر قبل أن تقع بعشرات السنين ، منها حوادث الزنج وما حدث للبصرة وأهلها من الموت والجوع، وهي صورة طبق الأصل عن نبوءة الإمام ، وكانت في القرن الهجري الثالث .، وقال للإمام بعض أصحابه : لقد أعطيت علم الغيب يا أمير المؤمنين . فقال : « ليس هو بعلم غيب ، وانما هو تعلم من ذي علم — الى أن قال — علم علّمه الله نبيه ، فعلّمنيه ، ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي » .

علم المعصوم :

قال الله لنبيه الكريم عن المنافقين : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم — ١٠١ التوبة » . وقال النبي : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير — ١٨٨ الأعراف » . وقال الإمام : « ليس هو بعلم ، وانما تعلّم من ذي علم » . وقال بعض الناس : كلا ، ان الإمام يعلم الغيب ، وان قال الله والرسول والإمام : انه لا يعلم .. فإنا لله ، وإنا اليه راجعون .

(ولجأ أمره ، وعيبة علمه ، وموئل حكمه وكهوف كتبه) . قال الشيخ محمد عبده : « ان حكمه وشرعه — أي النبي — يرجع اليهم ، وهم — أي أهل البيت — حفّاظ كتبه يحوونها كما تحوي الكهوف ما فيها،والكتب القرآن وجمعه ، لأنه فيما حواه كجملة ما تقدمه من الكتب ، ويزيد عليها ما خص الله به هذه الأمة — ثم قال — وهذه صفات أهل البيت لاستعدادهم لأسرار الله وحكمته ». وقال ابن أبي الحديد : المراد بكتبه ان القرآن والسنة عند أهل البيت (ع) .

(وجبال دينه) . أي ان أهل البيت مثلهم بالنسبة الى الاسلام كمثل الجبال بالنسبة الى الأرض ، فلولا الجبال لمادت الأرض بأهلها ، ولولا أهل البيت لماد الاسلام ، ولم يكن له عين ولا أثر (بهم أقام انحناء ظهره ، واذهب ارتعاد فرائصه) . قال الشيخ محمد عبده : « كنّى بانحناء الظهر عن الضعف في بدء الاسلام ، وبإقامة الدين عن القوة،وبهم أمنه من الخوف الذي ترتعد منه الفرائص». فكلام الشيخ محمد عبده صريح في ان الاسلام نما وقوي وامتد بأهل البيت (ع) .

وبعد ، فإن الأوصاف التي ذكرها الإمام لأهل البيت تشهد بها آية المباهلة

٦١ من سورة آل عمران ، وآيــة التطهير ٣٣ من سورة الأحزاب ، وحديث الثقلين الذي ساوى النبي (ص) فيه بين القرآن وأهل بيته ، وقد جمع أسانيد هذا الحديث المتواتر من طريق السنة ، جمعهــا الشيخ قوام الدين الوشنوي القمّي في رسالة خاصة ، أسماهــا « حديث الثقلين » ، ونشرتها دار التقريب بين المذاهب الاسلامية ، أما آية المباهلة فقد دلت على أن نفس علي هي نفس محمـد بالذات حيث قال : «وأنفسنا» وأراد نفسه وعلياً الذي أخرجه معه . وقال : «ونساءنا» ولم يكن معه عند المباهلـــة واحدة من النساء إلا فاطمة ، أما أزواجه فبقين في بيوتهن . وقال : « أبناءنا » وما كان من الأبناء إلا الحسن والحسين باتفاق المفسرين. وأغرب ما قرأت في التناقضات ان بعض السنة يقولون : ان آية التطهير نزلت في نساء النبي ، وفي الوقت نفسه يقولون : ان المراد من نساءنا في آية المباهلة فاطمة لا أزواج النبي .. فأين وجه الجمع ؟

زرعوا الفجور . فقرة ٧ — ٨ :

زَرَعُوا ٱلْفُجُورَ : وَسَقَوْهُ ٱلْغُــرُورَ . وَحَصَدُوا ٱلثُّبُورَ(٧) لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً . هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ ، وَعِمَادُ ٱلْيَقِينِ . إِلَيْهِمْ يَفِيءُ ٱلْغَالِي ، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ . وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِرَاثَةُ. الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ(٨) .

اللغة :

الثبور : الهلاك . والغالي : من الغلو ، وهو الزيادة وتجاوز الحد . والتالي : المقصر ضد الغالي المتطرف . ونقل الى منتقله بفتح القاف أي رجع الى الموضع الذي نقل عنه أولاً .

الإعراب :

الأمة عطف بيان من هـذه . والآن ظرف متعلق برجع . وإذ بمعنى قد ، وقيل : زائدة .

المعنى :

(زرعوا الفجور ، وسقوه الغرور ، وحصدوا الثبور) . تنطبق هذه الأوصاف تماماً على الفئة التي حاربت الإمـام في صفين بقيادة معاوية بن أبي سفيـان الذي قاد الحروب ضد رسول الله (ص) في بدر وأحد والأحزاب . وهذه الفئة هي المرادة من قول الإمام ، لأن هذه الخطبة كانت بعد رجوعه من صفين بلا فاصل ، ولأن الإمام وصف معاوية بالغدر في مقام آخر ، وقال : « والله مـا معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر » .

(لا يقاس بآل محمد (ص) من هذه الأمة أحد) لأن الله طهرهم من الذنوب بنص آية التطهير ٣٣ من سورة الأحزاب ، ورسول الله ساوى في حديث الثقلين بينهم وبين القرآن الذي لا يقاس به شيء ، ولا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه .

(ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين ، وعماد اليقين) . قال ابن أبي الحديد : « ولا ريب أن محمداً (ص) وأهله الأدنين من بني هاشم أنعموا على الخلق كافة بنعمـة لا يقدّر قدرها ، وهي الدعاء الى الاسلام والهداية .. لقد جاهد عليٌّ بالسيف أولاً وثانياً ، ونشر العلوم ، وتفسير القرآن ، وإرشاد العرب الى ما لم تكن فاهمة ولا متصورة .. لقد أنعم علي حتى على الذين تقدموا عليه .. جاهد عنهم وهم قاعدون ، وأمدهم بعلومه التي لولاها لحكموا بغير الصواب .. وقد اعترف عمر بذلك ، والخبر مشهور : « لولا علي لهلك عمر » .

(اليهم يفيء الغالي) الذي أفرط وتجاوز الحد (وبهم يلحق التالي) الذي فرط وقصر عن بلوغ الحق ، وأهل الحق والعدل ، وبهـم يقاس تقصير هذا وتفريطه ، وغلو ذاك وإفراطه . وفي « مستدرك الصحيحين » ج ٢ ص ٣٤٣

طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٤ هـ : ان رسول الله (ص) قال : مثل أهـــل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلّف عنها غرق .

(ولهم خصائص حق الولاية) بمعنى الرياسة والسلطة ، وقلنـــا في كتاب : « فلسفة التوحيد والولاية » : ان للكامل العادل ولاية على الناقص بحـــكم العقل والواقع ، وأهل البيت (ع) أفضل وأكمل خلق الله بعد رسول الله (ص) .

(وفيهم الوصية والوراثة) . المـراد وصية النبي بالخلافة ، وهم وحدهم لها وارثون . وتأتي الاشارة الى ذلك في الخطبة التاليـة المعروفـة بالشقشقية (الآن إذ رجع الحق الى أهله) وهو الخلافة (ونقل الى منتقلـه) أي عادت الخلافـة الى الموضع الذي نقلت منه ظلماً وعدواناً .

الخطبة

-٣-

وتعرف بالشقشقية لقول الإمام (ع) بعدها : تلك شقشقة هدرت ، ثم قرّت.

ينحدر عني السيل .. فقرة ١ :

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ ٱلْقُطْبِ مِنَ الرَّحى . يَنْحَدِرُ عَنِّي ٱلسَّيْلُ وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ . فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً ، وَطَفِقْتُ أَرْتَإِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلى طِخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا ٱلْكَبِيرُ ، وَيَشِيبُ فِيهَا ٱلصَّغِيرُ ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ(١) .

اللغة :

تقمصها : لبسها كالقميص . وقطب الشيء : ملاكه ومداره . وسدل الثوب: أرخاه ، وبه يكنى عن الإعراض . والكشح : ما بين الخاصرة والجنب . وطفقت: شرعت . واليد الجذاء : المقطوعة . والطخية : الظلمة .

الإعراب :

« أما » للتنبيه . والواو للقسم . والهاء في تقمصها للخلافة بدلالة الحال .

المعنى :

(أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة ، وانه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى) . ما هذا ؟. هـل هو حرقة وتلهف على الخلافة ، كـما يتراءى للأغبياء ؟ حاشا لمن قال : « ان دنياكم عندي لأهون من ورقـة في فم جرادة تقضمها » . وكلنا يعلم ان علياً يفعل ما يقول ، ولا يقول ما لا يفعل ، واذن فما هو السر لهذه الشكوى وهذا التظلم ؟. السر واضح ، لا إبهام فيه .. انه نفس الشيء الذي أشعر به أنا وأنت ، وكل انسان حين ينتهب ثوبه عن بدنه ناهب أو غاصب ، نقول هذا مع الايمان والعلم بأن علياً أحرص على مصالح الناس من الناس أنفسهم ، وانه لا يرضى ويغضب إلا لله وحده .. هذا ، الى انها نفثـة مصدور هدرت ثم قرت ، كما قال (ع) .

(ينحدر عني السيل ، ولا يرقى إلي الطير) . وكفى شاهـداً قول الرسول الأعظم (ص) : أنا مدينة العلم ، وعليّ بابها : (فسدلت دونها ثوباً،وطويت عنها كشحاً) . وعطف الجملة الثانية على الأولى للتوضيح والتفسير ، والمعنى انه (ع) أعرض عن الخلافة ، ولم يلتفت اليها ، ثم بيّن السبب الموجب لذلك بقوله :

(وطفقت أرتإي بين ان أصول بيد جذاء ، أو أصبر على طخية عمياء) . بعد أن بويـع أبو بكر بالخلافة فكر الإمام (ع) : ماذا يصنع ؟. وانتهى بـه التفكير الى انه واقف بين محذورين : إما أن يصر وينهض مطالباً بحقـه من غير جدوى إلا إراقة الدماء لعدم الناصر ، وتفتيت وحـدة الاسلام والمسلمين ، وإما أن يسكت ويصبر حرصاً على هيبة الدين وصالحه ، فاختار الصبر كما يأتي .

وهذا الكلام واضح الدلالة في أن الإمام (ع) لم يعلن الحرب من أجل الخلافة، ولكنه لم يسكت عن حقه ، بل استمر في الدعوة الى نفسه هو ومن شايعه كسلمان وأبي ذر ، وعمار،والمقداد ، بل واجه بذلك أبا بكر في بعض مواقفـه ، وقال له : « أفسدت علينا أمرنا ، ولم تراع حقنا » . كما جاء في كتاب السقيفة للشيخ

المظفر نقلاً عن « مروج الذهب » . وقال في خطبة يأتي شرحها ان شاء الله : « قال لي قائل : انك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص ، فقلت له : بل أنتم والله أحرص وأبعد ، وأنا أخص وأقرب ، وإنما طلبت حقي ، وتحولون بيني وبينه .. فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هب كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به » ومعنى هب هنا : انهزم .

وهذا الكلام يدل بظاهره انه كان مع أحد الخلفاء الذين تقدموا على الإمام ، وانه (ع) قد طالبه ، واحتج عليه فهزمه وأفحمه ، فهل بعد هذا يقال : ان علياً أقر بخلافة الخلفاء ، ورضي بما كان فيه ؟ أجل ، لا يشك مسلم انه قد تعاون معهم ومع غيرهم على إقامة العدل والصالح العام .. وقرأت في كتاب «الدرة النجفية » شرح نهج البلاغة لعبد الصمد التبريزي : « ان أكثر الشيعة قالوا : ان علياً لم يبايع أصلاً ، ومنهم من قال : بايع بعد ستة أشهر ، وقال السنة : بايع بعد أن تخلف في بيته ودافع طويلاً » . وعلى أية حال فمن قرأ تاريخ أهل البيت من علي وفاطمة الى آخر إمام — يجد الشكوى والتظلم من كل من تسلط وحكم في عهدهم .

الصبر أحجى .. فقرة ٢ — ٣ :

فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى ، وَفِي الْحَلْقِ شَجاً أَرَى تُرَاثِي نَهْباً حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ فَأَدْلَى بِهَا إِلى فُلَانٍ بَعْدَهُ :

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلى كُورِهَا ... وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَباً بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا(٢) فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كُلَامُهَا

وَيَخْشُنُ مَسُّهَا ، وَيَكْثُرُ ٱلعِثَارُ فِيهَا ، وَالْاعْتِذَارُ مِنْهَا . فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ اللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ وَتَلَوُّنٍ وَٱعْتِرَاضٍ . فَصَبَرْتُ عَلى طُولِ ٱلمُدَّةِ وَشِدَّةِ المِحْنَةِ(٣) .

اللغة :

هاتا : هذه : وأحجى : أجدر . والقذى ما يقع في العين من تبنة ونحوها . وشجاً : ما يقع في الحلق من عظم ونحوه . وكور الناقة : ما يوضع على ظهرها للركوب . وتشطر : أخذ كل واحد شطراً : والحوزة : الطبيعة . وكلامها — بضم الكاف — : الأرض الغليظة . والعثار — بكسر العين— : الزلل . والصعبة : الناقة الشديدة التي يصعب قيادهـا . واشنق الناقة : جذبها اليه بالزمام . وخرم أنف الناقة : شقه . وأسلس للناقة : أرخى لها الزمام . وتقحَّم : هلك . والخبط : السير بلا هدى . والشماس : الامتناع . والتلون : التبدل . والاعتراض : السير بلا استقامة .

الإعراب :

شتان اسم فعل بمعنى بعُـد ، تقول : شتان زيد وبكر أي بعد ما بينهما ، و « ما » زائدة . ويومي الأول فاعل،والثاني عطف عليه . فيا عجباً أي يا عجبي احضر . وبين : تستعمل لظرف المكان مثل جلست بينهما ، ولظرف الزمان مثل بين الطلوعين،والألف في بين عوض عن كلمة أوقات المحذوفة ، أي بين أوقات الاستقالة منها عقدها لغيره . ولشد ما اللام زائدة للتوكيد ، وشد فعل ماض ، و « ما » مصدرية ، والمصدر المنسبك فاعل شد ولعمر الله اللام زائدة للتوكيد، وعمر مبتدأ ، والخبر محذوف وجوباً أي لعمر الله قسمي ، والمعنى اقسم بـدوام الله ، وإذا حذفت اللام تعين نصب عمر على المصدرية .

المعنى :

(فرأيت ان الصبر على هاتا أحجى ، فصبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجاً) . صبر الإمام (ع) على مضض حيث لا ملجأ إلا الصبر ، ولو لم يصبر اوقع ما هو أشد وآلم .

وتسأل : هل عدم الصبر يكشف عن عدم الإيمان ؟

الجواب :

ان الصبر من شؤون العقل لا من شؤون الدين ، لأنه نتيجة لعملية الموازنة بين ضررين لا مفر من أحدهما ، يجريها الانسان بنفسه .. وليس من شك ان العاقل يختار ما هو أخف وطأة ، وأقل ضرراً ، والدين بدوره يقر العقل على حكمه واختياره ، أما الأحاديث التي تقول : لا إيمان بلا صبر ، فمعناها في واقع الأمر أنه لا إيمان بلا عقل سليم يختار الأجدى والأصلح .. ومن البداهة ان الله سبحانه يجزي العباد بعقولهم تماماً كما يجزيهم بإيمانهم .

(أرى تراثي نهباً) . كنى عن الخلافة بالتراث لأنها حق له تماماً كالميراث الذي هو حق خاص بالقريب دون البعيد، وليس المراد ان الخلافة إرث كالمتاع.. كيف وهو القائل : واعجباه !. أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة ؟.

وتسأل : وكيف تكون الخلافة حقاً خاصاً بعلي ؟.

الجواب :

قال الشيعة : ان النبي (ص) نص على علي بالخلافة ، وقال السنة : بل تركها شورى بين المسلمين .

وسألهم الشيعة : هل نص النبي (ص) على ان الخلافة شورى بين المسلمين ؟. ثم قال الشيعة : واذا ادعى مدع ان وجوب الشورى من الواضحات ، ولا يحتاج الى نص وبيان .. هذا ، الى ان الله سبحانه قد نص عليها بقوله : « وأمرهم شورى بينهم — ٣٨ الشورى » .

اذا ادعى هذا مدع أجبناه : لو كان الأمر واضحاً لما وقع الخلاف ، ولو كان المراد بهذه الآية الخلافة لكان أبو بكر في نصه على عمر مخالفاً لله ورسوله، ولا قائل من السنة بذلك ، واذن فلا دلالة في الآية على الخلافة .

ويتلخص دليل الشيعة على وجود النص بأن الله سبحانه قد أكمل الدين لأمة محمد (ص) كما جاء في الآية ٣ من سورة المائدة : « اليوم أكملت لكم دينكم » ولا يكمل الدين من غير النص على الخلافة ، لأنها من أهم الأمور ، وعليها قوام الحياة ، والدين الذي بيّن حكم العصفور المذبوح بلا تسمية لا يهمل ما عليه مدار الحياة بشتى جهاتها .. هذا ، بالاضافة الى انها خلافة عن الله ورسوله .. ثم قال الشيعة : ان النص موجود وثابت بالفعل في حق علي بن أبي طالب بالذات .

وقد تتبع الشيعة كتب السنة وآثارهم ، وجمعوا مفردات النص بالخلافة على الإمام ، جمعوا من كتب السنة في الحديث والتاريخ والتفسير بل والأدب أيضاً ، بل تخصص كثيرون من علماء الشيعة في هذا الموضوع بالذات ، وألّفوا فيه المجلدات ، منها «الشافي» للمرتضى ، و « دلائل الصدق » للعلامة والمظفر ، وآخرها — فيما أعلم — « فضائل الخمسة من الصحاح الستة » في ثلاثة مجلدات كبار للفيروزآبادي . ويمتاز هذا السفر عن غيره بالحياد التام ، لأنه مجرد عرض ونقل عن كتب السنة بلا فلسفات وتعليقات ، بل يدع المؤلف القارىء وشأنه ، يستخلص بعقله وفهمه ما شاء وأراد ، ولا يحاول إقناعه بشيء . ولكي يبرهن المؤلف على تثبته في النقل ذكر اسم الكتاب والجزء ورقم الصفحة ، كما ذكر في آخر الجزء الثالث تاريخ الطبع ومكانه ، واسم المطبعة أو المكتبة التي نشرته .

(حتى مضى الأول لسبيله ، فأدلى بها الى ابن الخطاب بعده) . وهذه البيعة حملت في طياتها أسوأ الآثار ، وعلى المدى البعيد بالنسبة الى أهل البيت وشيعتهم . وأي شيء كان أسوأ أثراً على آل الرسول ومحبيهم من ولاية معاوية على الشام التي تولد منها خلافة يزيد بن معاوية ؟ وهل كان للأمويين من دولة في الاسلام لولا ولاية معاوية.

(فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته) . كيف عقد أبو بكر الخلافة لعمر بعد وفاته ، وكان من قبل يظهر الزهد فيها، ويقول: أقيلوني منها أقيلوني .

أما بيت الشعر الذي تمثل به الإمام فهو لأعشى قيس، واسمه ميمون بن جندل، وحيان سيد بني حنيفة ، وكان في جاه ونعمة ، وكان الأعشى ينادمه، ويقضيان

أياماً في السكر واللهو .. ومعنى البيت: فرق بعيد بين يوم الشاعر ، وهو عـ ا، الناقة تسير به في الرمضاء ، ويومه في الظل الوارف يطرب ويشرب مع حيان ، وغرض الإمام من إنشاد البيت بيان الفرق بين خلافته التي جرّت عليه المتاعب كيوم الشاعر على الناقة ، وبين خلافة غيره التي كانت كيوم الشاعر مع حيان المترف .

(ولشد ما تشطرا ضرعيها). ضمير التثنية في تشطرا،يعود لأبي بكر وعمر ، وهاء ضرعيها للخلافة ، وشبهها الإمام بالناقة يقتسم منافعها الأول والثاني ، لكل منهما ضرع يحتلبه ، وقال المؤرخون : كان عمر أول من بايع أبا بكر ، فحفظها له ، (فسيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ، ويخشن مسها) . يشير إلى أخلاق عمر ، فإنه كان معروفاً بالغلظة ، قال طلحة لأبي بكر : ما أنت قائل لربك غداً ، وقد وليت علينا فظاً غليظاً ؟

(ويكثر العثار فيها ، والاعتذار منها) . ضمير منها لطبيعة عمر التي عبّر الإمام عنها بالحوزة ، وكان عمر يتسرع في إصدار الاحكام باسم الله وشرعه حتى إذا نُبّه الى خطئه اعتذر،وقد أحصي عليه الكثير ، من ذلك ما هو مشهور كتحديده لمهر الزوجة ، واعتراض امرأة عليه بآية « وآتيتم احداهن قنطاراً — ٢٠ النساء » . فقال : كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال .

(فصاحبها — أي طبيعة عمر — كراكب الصعبة ان اشنق لها خرم ، وان أسلس لها تقحم) . من كانت له طبيعة كهذه كان أشبه براكب الناقة الشموس، ان كفها بالزمام خرم أنفها وشقه ، وان أرخى زمامها صارت حياته في كف عفريت .

(فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس ، وتلون واعتراض) . يقصد ان الناس ابتلوا بطبيعة عمر ، وهي خليط من الاضطراب ، وعنه عبّر الإمام بالخبط ، وخليط أيضاً من الصرامة ، واليها أشار بالشماس ،ومن التبدل من حال الى حال، وهو المراد من التلون ، أما الاعتراض فالقصد منه عدم الاستقامة على حال .

(فصبرت على طول المدة ، وشدة المحنة) . أراد بالمدة عهد الذين سبقوه الى الخلافة .. وليت شعري متى صفت لك الأيام يا أبا الحسن حتى خصصت بالذكر عهد الخلفاء ؟. هل صفت الخلافة لك مع أهل الكوفة أو البصرة ، أو في

صفين أو يوم النهروان ، أو يوم استشهادك وأنت ساجد لله في بيت الله ؟. ولا بدع فحياتك وحياة أبنائك وأحفادك كلها آلام ومحن .

أقرن الى هذه النظائر .. فقرة ٤ :

حَتَّى إِذَا مَضَىٰ لِسَبِيلِهِ . جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ فَيَا لِلَّهِ وَلِلشُّورَى مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هٰذِهِ النَّظَائِرِ لٰكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا . فَصَغَى رَجُـــلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَـــالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَهَنٍ إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ . وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضِمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَةَ الْإِبِلِ نِبْتَـــةَ الرَّبِيعِ إِلَى أَنِ انْتَكَثَ فَتْلُهُ . وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ(٤) .

اللغة :

أسفّ الطائر : دنا من الأرض . ولضغنه : لحقده . ويطلق الهن على الشيء، والمراد به هنا الهوى والغرض . ونافجاً : رافعاً . ونثيلـه : روثه . والمعتلف : من العلف . ويخضمون : يأكلون . وفتل الحبل : لواه . والبطنة ــ بكسر الباء ــ التخمة .

الإعراب :

النظائر عطف بيان من هذه . ونافجاً حال من ثالث القوم .

المعنى :

(حتى اذا مضى لسبيله – أي عمر – جعلها في جماعة زعم اني أحدهم) .
لما طعن أبو لؤلؤة عمر ، وعلم انه ميت دعا علياً وعثمان وطلحة والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف ، وقال : مات رسول الله ، وهو راضٍ عن هؤلاء ، وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ، ثم قال لمن يعتمد عليه : إن اجتمع علي وعثمان فالقول ما قالاه ، وان صاروا ثلاثة وثلاثة فالقول للذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف لعلمه ان علياً وعثمان لا يجتمعان ، وان ابن عوف لا يعدل بالأمر عن عثمان لأن ابن عوف صهره وزوج أخته ، ثم أمر عمر أن تضرب أعناق الستة ان امتنعوا عن تنفيذ أمره .

هذا ايجاز سريع لمجمل القصة،لا لتفاصيلها المذكورة في شرح ابن ابي الحديد وكتب التاريخ ، ولكل انسان أن يتساءل : كيف أمر عمر بقتل الستة كلهم أو بعضهم بعد أن شهد بأن رسول الله (ص) مات ، وهو راضٍ عنهم ؟ وما هو السبب الموجب لترجيح الثلاثة الذين فيهم ابن عوف على الذين فيهم علي ؟ ولماذا لم يجعل الأمر بيد ابن عوف منذ البداية ؟ وما الذي دعاه الى أن يجعل الشورى الى ستة لا الى جميع المسلمين كما فعل رسول الله – على زعمه – أو يختار الأصلح الذي يعرفه ويعتقده كما فعل أبو بكر ؟. وبالتالي اذا كانت الشورى مبدأ اسلامياً إلهياً فقد أشير على عمر أن يختار ولده عبدالله ، فلماذا خالف الشورى واستبد برأيه ؟ « فيا لله وللشورى » !.

(متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن الى هذه النظائر).
عفوك ورضوانك يا مولاي ألست القائل : ان الحق ثقيل مريء ، وان الباطل خفيف وبيء ؟. واذن فأي عجب اذا قرنوك الى هذه النظائر فما دونها ؟. وليس من قصدي ان أبرر المقارنة كلا ، وألف كلا .. وأي مبرر للمقارنة والموازنة بين مخلوق وبين من قال له الرسول الأعظم (ص) : أنت أخي وولي في الدنيا والآخرة .. ولكن من قصدي ، وإن قصر البيان ، أن أشير الى أن للحق ثمنه الغالي من البلوى .

ومن أقوالك يا سيدي : « رب منعّم عليه مستدرج بالنعمى ، ورب مبتلى مصنوع له بالبلوى » . وأي صنع ورصيد أجلّ وأفضل من هذا الرصيد الذي

ادخره الله لأخيك محمد (ص) ولك ؟.. لقد اتفق المسلمون عليه وعليك،واختلفوا في الذين قرنوك وأخروك، ولا شيء أدل من هذا الاتفاق على انك أخو محمد (ص) وانك منه بمنزلة هرون من موسى حقاً وصدقاً وإلا لاختلفوا فيك تماماً كما اختلفوا في الذين قرنوك وأخروك .

(ولكني أسففت إذ أسفوا ، وطرت إذ طاروا) . لأن المنافسة بين القوم كانت على الألقاب والمناصب ، والفرص غير متكافئة ، والظروف غير مؤاتية للإمام كي يردع المخالفين عن الباطل ، ويرجعهم الى الحق ، فكان السكوت لمصلحته وصالح المسلمين .. ولكنه كان عليهم رقيباً يحاسبهم ويرشدهم للتي هي أقوم ، والانصاف ان أبا بكر وعمر كانا يسمعان منه ، ويرجعان اليه في الكثير من المهمات ، أما عثمان فقد كانت له شياطين لا شيطان واحد يقودهم مروان بن الحكم،الحاكم بأمره .

(فصغى رجل لضغنه) . وهو سعد بن أبي وقاص ، وكانت أمه أموية ، والإمام (ع) قاتل الأمويين مع رسول الله ، وقتل صناديدهم على الشرك ومحاربة الرسول ، والحقد الذي عند سعد على الإمام جاء من قبل أخواله الذين قتلهم الإمام (ومال آخر لصهره) . الآخر هو عبد الرحمن بن عوف ، وكان زوجاً لأخت عثمان (مع هن وهن) أي أغراض أخرى لا يريد الإمام ذكرها ، ومن حكمه : « لا تقل ما لا تعلم ، بل لا تقل كل ما تعلم » .

(الى أن قام ثالث القوم – أي عثمان – الى قوله كبت به بطنته) . وندع الكلام عن عثمان للسنة أنفسهم ، قال ابن قتيبة وأبو الفداء : ان عثمان اقطع فدكاً لمروان ، وهي صدقة الرسول التي طلبتها فاطمة .. وكان الحكم بن العاص عم عثمان ، ومن أشد الناس عداء وإيذاء لرسول الله (ص) وكان قد طرده ونفاه ، فرده عثمان وأغدق عليه الأموال ، وولاه ، وأعطاه فيما أعطاه ثلاثمئة ألف درهم من أموال المسلمين في عطية واحدة كما قال البلاذري .

وأعطى مروان بن الحكم ، وهو زوج ابنته، خمسمئة ألف دينار في يوم واحد وأعطى الحارث أخا مروان وزوج ابنة عثمان ، أعطاه ثلاثمئة ألف درهم وإبل الصدقة وسوق المدينة . وجاء في « العقد الفريد » انه أعطى عبدالله بن خالد الأموي أربعمئة ألف . وفي شرح ابن أبي الحديد : أعطى عثمان أبا سفيان مئتي

ألف . وفي « ابن الأثير » : أعطى عبدالله بن أبي سرح مئة ألف دينار[1] .

وقال السيد قطب في كتاب « العدالة الاجتماعية » ص ٢١٠ طبعة ١٩٦٤ : « والأمثلة كثيرة على توسعات عثمان فقد منح الزبير ستمئة ألف ، وطلحة مئتي ألف ، وقال له زيد بن أرقم خازن أموال المسلمين : أظن انك تأخذ هذا المال عوضاً عما كنت تنفقه في عهد رسول الله (ص) .. وكانت توسعات عثمان تغدق على الولاة من قرابته ، فقد وسع على معاوية في ملكه ، فضم اليه فلسطين وحمص. وآوى عمه الحكم بن العاص طريد رسول الله ، وجعل ابنه مروان وزيره المتصرف. وكان الصحابة يرون هذه التصرفات خطيرة العواقب ، فيتدافعون الى المدينة لانقاذ تقاليد الاسلام — الى أن قال — ولا بد لمن ينظر الى الأمور بعين الاسلام ، ويستشعر الأمور بروح الاسلام ، أن يقرر أن الثورة على عثمان كانت في عمومها من روح الاسلام » .

ومع هذا قالوا : كان عثمان من الخلفاء الراشدين ، أما السر — فيما نظن — فهي خلافة علي بعد عثمان ، لأن ما من أحد يجرؤ على القول : ان علياً لم يكن راشداً في خلافته ، وصعب عليهم أن يعدوا علياً من الراشدين دون عثمان ، فألحقوه بهم على علاته .. ولو ان أحداً تولى الخلافة بعد عثمان غير علي لحصر الرشد بأبي بكر وعمر فقط .

عفطة عنز .. فقرة ٥ — ٦ :

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ . وَشُقَّ عِطْفَايَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللهِ حَيْثُ يَقُولُ : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ

---

١ انظر ما نقله الاميني من كتب السنة في الغدير ج ٨ و ٩ .

نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» بَلَى وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا . وَلٰكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَــا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا[٥] . أَمَــا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ . وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ . وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ لَا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَــالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا . وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ[٦] .

اللغة :

عُرف الضبع : ما كثر على عنقها من الشَعر ، وهي حيوان مفترس . وينثالون: يتتابعون مزدحمين . وشُق : جُرح أو خدش . وعطفاي : جانبـاي . وربضت الدابة : بركت . وربيضة الغنم : القطعة الرابضة من الغنم . ونكث العهد : نقضه ولم يف به ، والناكثون : علـم على أصحاب الجمل،وهم عائشة وطلحة والزبير . ومرق من الدين : خرج منه ببدعة فهو مارق ، والمارقون : علـم على الخوارج أصحاب النهروان . وقسط الوالي : جار أو عـدل ، والقاسطون بمعنى الفاسقين علم على أصحاب صفين الذين حاربوا الإمام (ع) بقيادة معاوية وعمر بن العاص. وحلي الشيء في عيني فلان : أعجبه . وراق الشراب : صفا . والزبرج – بكسر الزاء – الزينة . وفلق الحبة : شقها . وبرأ النسمة : خلقها . أن لا يقاروا : ان لا يقروا ويسكتوا . والمراد بكظة الظالم اعتداؤه على حقوق الناس ، وبسغب المظلوم هضم حقوقه . والغارب : العنق أو أعلى الظهر مما يلي العنق . ويريد بعفطة العنز المخاط الذي تنثره من أنفها عند العطاس .

الإعراب :

فاعل راعني محذوف أي شيء أو رايع . والناس الواو للحال ، والّيّ متعلق بمحذوف حال من الناس أي متزاحمين اليّ ، ومجتمعين حال ثانية . وبلى حرف جواب تبطل النفي ، وقد أبطلت « لم يسمعوا » . و « أما » حرف استفتاح.

المعنى :

(فما راعني إلا والناس كعرف الضبع — الى قوله — كربيضة الغنم) . غضب المسلمون على عثمان وأفعاله ، ورغبوا اليه أن يصلح ويعدل ، ولا يحابي أحداً في حق الله ، ولا يصغي لمروان وأمثاله من أرباب الأغراض والأهواء ، ولكن قعد به الضعف أمام ذويه وأرحامه ، فعرض عليه كثيرون أن يعتزل، ولما رفض ثاروا عليه وقتلوه . وبطبيعة الحال تألم لقتله قوم ، وهم الذين كانوا يستغلونه وينتفعون منه ومن خلافته ، وفرح آخرون ، وفي طليعتهم طلحة والزبير .. قال المؤرخون : كان طلحة يحرض الثائرين على عثمان طامعاً في ولاية الأمر من بعده، وان الزبير لم يكن أقل طموحاً اليها من طلحة ، ومن أجل هذا كان هواه مع الثائرين ، ولكنه لم يتظاهر .

وبعد أن قتل عثمان وقضي الأمر ذهب الثائرون الى الإمام ليبايعوه بالخلافة فرفض ، ولما ألحوا عليه قال لهم : « انا لكم وزيراً خير مني أميراً » . قال هذا ليدفعهم عنه ، ولو قبلها منهم وحدهم لقال الناس : ما بايعه أحد من المسلمين إلا قتلة عثمان ، وان بيعة علي كانت فلتة نتيجة للظروف والمفاجآت . وأيضاً لو وليهم الإمام (ع) لحملهم على الحق الواضح ، والمحجة البيضاء كما قال الخليفة الثاني ، والحق مر المذاق ، وثقيل على أنفسهم ، وبالتالي يرون شدة علي في الحق ، وقوته في العدل شراً عليهم لا خيراً ، وقول الإمام (ع) مُنزّل على رأيهم هذا لا على الواقع ، وإذن فلا وجه للتشكيك في نسبة هذا القول الى الإمام كما فعل بعض الشارحين ، فإن لكل مقال مقاماً ، وقبل الإمام (ع) قال خاتم النبيين (ص) للمشركين : « وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين — ٢٤ سبأ » .

ثم جاء المهاجرون والأنصار يرجون علياً ويلحون عليه أن يقبل الخلافة ليلم

شعث المسلمين،ولأنه هو الرجل الوحيد الذي كان يعبر عن رغبة الناس في الحياة الحرة الكريمة ، فلم ير بدأً مما ليس منه بد ، قال الدكتور طه حسين في كتاب « علي وبنوه » : « وأدار كل من المهاجرين والأنصار بينه وبين نفسه،وبينه وبين من استطاع أن يلقى من أصحابه ، فإذا هم يميلون الى علي ، ويؤثرونه على طلحة والزبير ، وكذلك أقبلوا – أي المهاجرين والأنصار – على علي يعرضون عليه الإمامة، ويلحون في قبولها ، وحاول أن يمتنع ، فلم يجد الى الامتناع سبيلاً ، وقد رفض علي الخلافة حين قدمها له الثائرون ، وهؤلاء المهاجرون والأنصار يعرضونها عليه ، ويريدون أن يبايعوه كما بايعوا من قبله ، وجلس على منبر النبي (ص) . كما جلس الخلفاء من قبله ، وأقبل الناس فبايعوه ، ولكن نفراً أبوا أن يبايعوا ، فلم يلح عليهم ، ولم يأذن للثوار بإكراههم : ومن الذين أبوا سعد بن أبي وقاص ، وعبدالله بن عمر » .

(فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة) . نقلنا قبل لحظة عن المؤرخين ان هوى طلحة والزبير كان مع الثائرين على عثمان طمعاً بولاية الأمر من بعده ، ولكن المهاجرين والأنصار أبوا إلا علياً،وتبعهم الناس ، وتزاحموا أو تجمعوا على الإمام للبيعة كما وصفهم بقوله : « ينثالون علي من كل جانب » وتأثر الزبير وطلحة بهذا الزحام والتجمع ، وبايعا مع من بايع ، ثم ندما وثارا مع عائشة ، أو ثارت عائشة معهما ، قال طه حسين في كتاب « علي وبنوه » : « كانت عائشة من أشد نساء النبي (ص) إنكاراً على عثمان ، وكانت تعترض على الكثير من أعماله حتى ظن كثير من الناس أنها كانت من المحرضين على الثورة به .. وكانت تنكر على علي لأنه أبو الذرية الباقية للنبي (ص) ولم يتح لها الولد من رسول الله (ص)».

وكان من قصة من أهل الجمل ما هو معروف ، وإليهم أشار الإمام بقوله: « نكثت طائفة ». وأخذ هذا الوصف من أمر رسول الله (ص) له بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين كما جاء في « مستدرك الصحيحين » ج ٣ ص ١٣٩ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢ هـ و« أسد الغابة » ج ٤ ص ٣٠٣ المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٨٥ هـ .

(ومرقت أخرى) وهي الخوارج ، وفي صحيح البخاري كتاب «بدء الخلق» وصحيح مسلم كتاب « الزكاة باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا » : ان النبي (ص) قال : الخوارج يخرجون على خير فرقة من الناس (وقسط آخرون).

وهم الفئة الباغية بقيادة ابن العاص ومعاوية .. وفي صحيح البخاري كتاب « الصلاة باب: التعاون في بناء المساجد - عن رسول الله (ص)، ان عماراً «تقتله الفئة الباغية» ، ومثله في صحيح مسلم « كتاب الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه » .

قال طه حسين في كتاب « علي وبنوه » :

« وما زال قتل عمار بن ياسر من الأحاديث المأثورة بين المسلمين ، فهو ابن أول شهيدين في الاسلام . فتن أبو جهل أباه ياسراً وأمه سمية حتى قتلها كما هو معروف . وهو الذي قال له النبي (ص) : تقتلك الفئة الباغية ، وكان خزيمة بن ثابت الأنصاري يتحرى أمر عمار ، فلما عرف بقتل عمار قاتل مع علي حتى قتل. ووقع قتل عمار من معاوية وأصحابه وقعاً أليماً ومروعاً ، ولم يشكوا في ان النبي (ص) قال له : تقتلك الفئة الباغية ، وانما حاولوا أن يخفوا علمهم بهذا الحديث ، فلما لم يجدوا الى ذلك سبيلاً تأولوه ، وقال معاوية : أنحن قتلناه ؟ انما قتله الذين جاءوا به » .

فـ « طه حسين » يدين معاوية بأنه ارتكب إثماً لمحاولته إخفاء الحديث ، ولما عجز أوّله بالباطل عن قصد وعمد ، ثم قال الدكتور طه : « ولم يجيء أحد بعمار الى صفين ، لم يستكرهه علي على الحرب ، ولا على الخروج معه ، وانما كان عمار شيخاً قد نيف على التسعين ، شاخ جسمه ، ولكن قلبه وعقله وبصيرته ظلت بمأمن من الشيخوخة ، وهو الذي سلم على عائشة بعد وقعة الجمل ، وقال لها : كيف رأيت ضرابنا يا أماه ؟. وكان عمار أشد أصحاب علي تحريضاً على الحرب ، وكان يحارب ويشير الى راية عسكر معاوية ويقول : والله لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله (ص) ثلاث مرات - في بدر وأُحد والأحزاب - وهذه هي الرابعة ، وما هي بأبرّهن . وكان يقول لأصحابه حين رأى بعض انكشافهم : والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا إنا على الحق ، وانهم على الباطل » .

(كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول - الى قوله - وراقهم زبرجها » . ومن أقواله (ع) : « ما كل ذي لب بلبيب ، ولا كل ذي سمع بسميع ، ولا كل ذي ناظر ببصير » . وأي انسان لا ينتفع بالتجارب ، ويؤمن ويعمل بما يوحي

به العقل والبديهة ، ولا يتعظ ويعتبر بما يسمع ويرى فهو ك لا عقل له ، ولا سمع وبصر . قال عز من قائل : «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون — ١٧٩ الأعراف » .

(لولا حضور الحاضر) . قيل ، المراد بحضور الحاضر مَن حضر لبيعة الإمام بالخلافة من المهاجرين والأنصار ، وقيل : بل المراد حلول الوقت الذي وقّته رسول الله (ص) لقتال الإمام من بعده ، وقيل غير ذلك .. وفي رأينا ان المراد بحضور الحاضر الوضع الحاضر ، وهو الفساد الذي كان سائداً ومنتشراً آنذاك .

(وقيام الحجة بوجود الناصر) . أي لا حجة ولا عذر عند الله لمن يسكت عن الفساد والضلال اذا وجد من يناصره ويؤازره ، والإمام (ع) بعد أن رأى الفساد في الأرض ، وبعد أن عُرضت عليه الخلافة — أصبح من واجبه أن يقبل وينهض ، ويردع المفسدين ، ويرعى مصالح المسلمين .

(وما أخذ الله على العلماء ان لا يقاروا على كظة ظالم ، ولا سغب مظلوم). بعد أن قال الإمام (ع) : ان إنكار المنكر حتم وواجب بخاصة إذا وجد المنكر المناصر والمؤازر ، بعد هذا أشار الى الدليل القاطع على هذا الوجوب واللزوم ، وهو ان الله سبحانه قد أخذ على العلماء عهداً أن يكونوا للمظلوم عوناً ، وعلى الظالم حرباً .. ومعنى كظة الظالم تخمته وبشمه ، وكنى بها الإمام عن تماديه في العتو والطغيان ، ومعنى سغب المظلوم جوعه وبؤسه . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

والمرء وهو يداوي البطن من بشم   يسعى ليسلب طاوي البطن ما جمعا

الغاية تبرر الواسطة :

(لألقيت حبلها على غاربها،ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز) . الهاء في حبلها وغاربها وآخرها وأولها تعود الى الخلافة ، ومعنى هذا وما قبله انه لولا ما أوجب الله على الإمام من إنكار المنكر بعد ما أوكلوا اليه أمر الخلافة لكان موقفه منها كما كان من قبل ، لأن الدنيا بكاملها لا تعدل المخاط الذي تنثره العنز من أنفها عند العطاس .

وقد اشتهر عن المذهب الميكيافيللي انه يقول : الغاية تبرر الواسطة ، ومثله

البرجماتية والانتهازية .. وأيضاً الإمام يقول ، الغاية تبرر الواسطة ، ولكن الكلام أو الفرق في تحديد الغاية : ما هي ؟ هل الغاية ينبغي أن تكون فردية ذاتية تعود الى هذه الحياة ومتاعها ومنافعها بصرف النظر عن الأخلاق والدين ، والمبادىء والقوانين - بحيث لا شيء حلال أو حرام في ذاته ، ولا بالقياس الى مبدأ عام ، أو قاعدة كلية كما تقول الانتهازية والبرجماتية، أو ان الغاية شيء آخر أجل وأرفع ؟

قال الإمام (ع) : ان الغاية الحقة التي وجد الانسان من أجلها ، وعليه أن يضحي بنفسه وجاهه، وأهله وماله في سبيلها - هي الآخرة ، هي الجنة وحدها ، ومرضاة الله وحده ، وبيّن هذه الغاية في الكثير من أقواله ، منها : «ما يصنع بالدنيا من خُلق للآخرة .. الجنة غاية السابقين .. الدنيا خلقت لغيرها ، ولم تخلق لنفسها .. الدنيا دار ممر لا دار مقر ، وهي منتهى بصر الأعمى » .. الى غير ذلك مما هو معروف ومشهور .

هذه هي الغاية عند الإمام ، وهي السمة البارزة التي طبعت جميع حركاته وسكناته ، وفي ضوئها يجب أن تُفسر أقواله وأفعاله منذ يومه الأول مع رسول الله الى النفس الأخير من حياته . ونختم الكلام في شرح هذه الخطبة ، بما جاء في خطبة ثانية :

« قلت : يا رسول الله : أوليس قد قلت لي يوم أحد حين استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عني الشهادة ، فشقّ علي ذلك ، فقلت لي : ابشر فإن الشهادة وراءك ؟ فقال لي : ان هذا لكذلك ، فكيف بصبرك إذن ؟ فقلت: يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البشرى والشكر ».

شق على الإمام (ع) أن لا يستشهد في سبيل الله ، وعاتب النبي (ص) على ذلك ، ولما أيقن بالشهادة وانها آتية لا محالة ، استبشر وشكر ، وعدها الفوز الأكبر ، وقال حين أتته ببهجة البشرى وفرحتها : فزت ورب الكعبة .. هذا هو علي بن أبي طالب ، لا يفرح بالخلافة والولاية ، وان أتت منقادة تجرر اليه أذيالها ، ويفرح بالضربة المسمومة القاتلة لأن الجنة بعدها ووراءها : « وما من شر بعده الجنة بشر ، وكل نعيم دون الجنة فهو محقور ، وكل بلاء دون النار عافية » .

الخطبة

– ٤ –

بنا اهتديتم .. فقرة ١ :

بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ ، وَتَسَنَّمْتُمْ ذُرْوَةَ الْعَلْيَاءِ وَبِنا انْفَجَرْتُمْ عَنِ السَّرَارِ . وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ وَكَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ . رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ . وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ[1] .

اللغة :

تسنم الشيء : علاه من قولهم تسنم الناقة أي ركب سنامها . والذروة – بكسر الذال وضمها – أعلى الشيء . وانفجرتم : خرجتم مثل تفجر الماء من الأرض أي خروجه منها ، ويجوز أن يراد دخلتم في الفجر . والمراد بالسرار هنا الظلام .

والوقر : الصمم . وتُطلق الواعية على الصراخ ، يقال : ارتفعت الواعية أي الصراخ على الميت . والنبأة : الصوت الخفي . والصيحة : الصوت المرتفع . والجنان : القلب . وأتوسم : أتفرس .

الإعراب :

سمّع نائب عن الفاعل لوقر ، وكيف استفهام فيه معنى التعجب في محل نصب على الحال أي على أي حال يراعي. والياء في بصرنيكم مفعول أول،وكاف المخاطبين مفعول ثانٍ .

المعنى :

(بنا اهتديتم في الظلماء) . غير المصلح يعبر عن نفسه بما يحوز ويملك . وبالمظاهر والمضاهاة ، أو بالجرائم والآثام .. أما المصلح فيعبر عن هويته بما يسديه للانسانية من خير وصلاح ، وما من أحد أو أهل بيت تركوا للعالم ما تركه محمد (ص) وسليلة محمد وآل محمد من خير وهداية للعالم كله من أقصاه الى أقصاه بشهادة الحس والتاريخ والبعيد قبل القريب ، وهذا القرآن ونهج البلاغة وكتب الحديث والشريعة وغيرها في متناول كل يد .

(وتسنمتم ذروة العلياء) . كان العرب قبل الاسلام أميين ورعاة إبل وشاء ، وفي موطن الفقر والجهل والتأخر والخمول ، فأصبحوا بنعمة الاسلام شيئاً مذكوراً : ومحمد وآله هم دعائم الاسلام وحماته ، وبهم أكمل الله دينه ، وختم وحيه (وبنا انفجرتم عن السرار) . أي خرجتم من ظلمة الجهل وخمول الذكر الى نور العلم وعلو الشأن ، وأشار القرآن الى ذلك بقوله : « فاستمسك بالذي أوحي اليك انك على صراط مستقيم — وانه — أي الذي أوحي اليك — لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون — ٤٤ الزخرف » .

وقوله تعالى : وانه لذكر لك ولقومك بعد قوله : فاستمسك بالذي أوحي إليك — يُشعر بأن المسلمين لا يكون لهم ذكر وشأن ، ولن يكون أبداً إلا اذا تمسكوا بالوحي وعملوا به وحرصوا عليه ، وإن أهملوا وتقاعسوا فيصبحوا أذل

الأمم ، لا ينتفعون بكثرة ، ولا يعتصمون من عدو ، وإن قلّ وحقر .. وقد حدث ذلك بالفعل ، والشاهد اسرائيل ، وفي ذلك يقول الإمام (ع) : « وإن في سلطان الله عصمة لكم ، فأعطوه طاعتكم غير ملومة – أي غير ملومين عليها بنفاق ورياء – ولا مستكرهة ، والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الاسلام ، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأزر – أي يرجع – الأمر الى غيركم » .

(وقر سمع لم يفقه الواعية) . هذا دعاء بالصمم على من يسمع المواعظ ولا يتعظ ، ونهتف به الزواجر ولا يزدجر (وكيف يراعي النبأة من أصمته الصيحة). المراد بالنبأة هنا حِكم الإمام ومواعظه ، وبالصيحة ما في كتاب الله وسنة نبيه من تخويف وتحذير ، والمعنى من لا ينتفع بنذر الله والرسول وندائها لا ينتفع بهمسة مني أو من غيري ، وشبه الإمام عظته بالنبأة ، وهي الصوت الخفي ، وعظة الله والرسول بالصيحة – تعظيماً لمقامها وعلو شأنها .

(ربط جنان لم يرافقه الخفقان) . هذا دعاء بالصبر وصلابة الأعصاب لكل ذي قلب يخفق باستمرار خوفاً ورهبة من غضب الله وعذابه ، ويلقي اليه بالطاعة رغبة وطمعاً في مرضاته وثوابه .

(ما زلت انتظر بكم الغدر ، وأتوسمكم بحلية المغترين) . وجه الإمام (ع) هذا الخطاب للناكثين والمارقين الذين بايعوه ثم غدروا به ، وكان الإمام يترقب الغدر منهم ، ويتفرس فيهم الاغترار (حتى سترني – أي كفني – عنكم جلباب الدين) . يقول لهم : أنا أعرف من أنتم حقاً وواقعاً ، ولكن لا سبيل لي عليكم ما أظهرتم كلمة الاسلام وشعائره .. وقد كان شأنهم مع الإمام تماماً كشأن المنافقين مع رسول الله (ص) .

(وبصرنيكم صدق النية) . أي ان الذي عرّف الإمام (ع) بحقيقتهم هو صدقه في نيته ، وصفاؤه في دخيلته وإخلاصه في إيمانه ، قال الشيخ محمد عبده: « وصاحب القلب الطاهر تنفذ فراسته الى سرائر النفوس فتستخبرها » بالإضافة الى إخبار النبي (ص) لعلي (ع) بأنه يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين .

ويأتي ان شاء الله ان الإمام مر بقتلى يوم النهروان فقال : لقد ضركم من غركم ، فقيل له : من غرهم يا أمير المؤمنين ؟. فقال الشيطان المضل، والأنفس الأمارة بالسوء ، غرتهم أنفسهم ، وفسحت لهم بالمعاصي ، ووعدتهم الأظهار فاقتحموا النار .

ما شككت في الحق .. فقرة ٢ :

أَقَمْتُ لَكُمْ عَلى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ ، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلاَ دَلِيلَ . وَتَحْتَفِرُونَ وَلَا تُمِيهُونَ . اَلْيَوْمَ أُنطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ عَزَبَ رَأْيُ امْرِىءٍ تَخَلَّفَ عَنِّي مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ . لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خِيفَةً عَلى نَفْسِهِ بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدِوَلَ الضَّلَالِ . اَلْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ(٢) .

اللغة :

السنن : جمع سنة ، وهي السيرة والطريقــة والشريعة . والجـواد – بتشديد الدال – جمع جادة ، وهي وسط الطريق . والمضلة – بفتح الميم ، وكسر الضاد أو فتحها – هي الأرض التي يضل سالكها . واصل كلمة ماء مَوَه بدليل الجمع مياه وأمواه ، ولا تميهون : لا تجدون مياهاً . والمرأة العجماء في لسانها لكنة ، وكلمة عجماء : غامضة مبهمة . والمراد بالعجماء هنا من لا نطق لها . وعزب : غاب . ولم يوجس : لم يحس . واشفق : خاف . وتواقفنا : تقابلنا .

الإعراب :

حيث ظرف مبني على الضم ، وتلزم الاضافة الى جملة ، وقــد ترد للزمان بمعنى متى ، وإذا لحقتها « ما » كانت بمعنى الشرط ، وجزمت فعلين . وذات مؤنث « ذو » ومثناها « ذواتان » وجمعها « ذوات » . وخيفة مفعول بـه أي أحس الخوف . ومن مبتدأ ، ولم يظمأ خبر .

المعنى :

كانت ظروف الإمام (ع) قاسية ومرهقة تماماً كظروف النبي (ص) في أول البعثة .. ابتلي النبي بقوم يعبدون الأصنام ، ويأتون الفواحش ، ولا هادي لهم ودليل ، فحاربهم بالقرآن وحاربوه بالسيف والسنان ، وابتلي الإمام بقوم ظاهرهم الهدى ، وباطن أكثرهم الغدر والضلال ، وهم اللذين خاطبهم بقوله :

(أقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة حيث تلتقون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون) . كانوا أفراداً وفئات يسيرون في اتجاهات متباينة لا يجمعها إلا الفساد والضلال ، وكانوا يلتقون ويتدارسون شؤونهم عسى أن يهتدوا الى رشد ، ولكن بغير جدوى .. تماماً كالذي يطلب الماء بالبحث والحفر ولا يجد شيئاً .. وقد يكون لهم بعض العذر لو لم يقم فيهم رجل رشيد .. أما وقد وقف الإمام مناراً وعلماً فلا حجة ولا معذرة .

قال طه حسين في كتاب « علي وبنوه » : « كان علي يقسم وقته بين شؤون الحرب والسياسة والدين .. يقيم للناس صلاتهم ، ويعظهم ويفقههم في دينهم .. وكان يعظهم جالساً على المنبر أو قائماً .. ولم يكن يعظهم بما كان يقول لهم ، وإنما كان يعظهم ويعلمهم بسيرته فيهم ، كان لهم إماماً ، وكان لهم معلماً ، وكان لهم قدوة وأسوة » .

(اليوم انطق لكم العجماء ذات البيان) . المراد بالعجماء هنا العظات والعبر ، وهي صامتة من حيث المقال ناطقة بلسان الحال ، والمعنى ان الإمام شرح وبيّن لهم أسرار العبر والعظات ، وما تهدف اليه من التحذير والتخويف لعلهم يرشدون (عزب رأي امرىء تخلف عني) . لأنه تخلف عن إمام الهدى وكلمة التقوى، وقال في خطاب آخر : قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم ، وأديت اليكم ما أدت الأوصياء الى من بعدهم ، وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا — أي تجتمعوا — لله أنتم !. أتتوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق ، ويرشدكم السبيل ؟.

(ما شككت في الحق مذ أريته). هذا بيان للسبب الموجب للزوم طاعته ووجوب متابعته ، وعلم الإمام بالحلال والحرام يستحيل أن يتطرق اليه الشك لأنه صورة طبق الأصل عما في علم الله تعالى ، ومن هنا قال الإمام : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً .

(لم يوجس موسى (ع) خيفة على نفسه ، بل اشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال) . وكأن سائلاً يسأل : كيف لا يشك الإمام في الحق اطلاقاً ، ومن قبله نبي الله موسى خاف من السحرة مع ان الله سبحانه قال له ولأخيه: «لا تخافا انني معكما — ٤٦ طه » فهل الإمام أقوى ايماناً وأثبت جناناً من الأنبياء ؟.

فأجاب (ع) بأن موسى (ع) لم يخف على نفسه ، وانما خاف أن يلتبس الأمر على الناس ، وينخدعوا بأباطيل السحرة ، وأن يتغلب عليهم فرعون وأعوانه . قال الشيخ محمد عبده : « وهذا أحسن تفسير وتبرئة لنبي الله من الشك في أمره، كما ان البلاغة واضحة في ضرب المثل بموسى ، لأن موسى قوبل بالسحر ، وهو أبطل الباطل ، وما قوبل به أمير المؤمنين يشبه السحر » في باطله .

(اليوم تواقفنا على سبيل الحق والباطل) . أي ان الإمام وقف موقف الحق ووقفوا هم موقف الباطل ، واتضح كل شيء .

(ومن وثق بماء لم يظمأ) . وفي معناه قول الإمام (ع) : «صانع وجهاً واحد يكفيك الوجوه كلها » وقول الرسول الأعظم (ص) مخاطباً ربه : «ان لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي». وكتب الإمام فيما كتب الى معاوية : ما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ، ما لم يكن شاكاً في دينه ، ولا مرتاباً في يقينه :

الخطبة

- ٥ -

علي والموت .. فقرة ١ ـ ٢ :

أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ . وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ وَضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ . أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ . أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ . هٰذَا مَاءٌ آجِنٌ . وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا . وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ[1] فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ . وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي وَاللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ . بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ[2] .

اللغة :

عرّجوا : ميّلوا . وأفلح : فاز : وأجن الماء – بفتح الجيم – تغير لونه وطعمه فصار كريه المذاق . واندمجت على كذا : انطويت عليه . والمكنون : المستور . والأرشية : جمع الرشاء – بكسر الراء – الحبل . والطوي : البئر . والبعيدة : العميقة .

الإعراب :

كالزارع خبر لمجتني . وهيهات اسم فعل بمعنى بعُد . واللتيا والتي جر بالإضافة، واللام مفتوحة في اللتيا ، ويعبر بهاتين الكلمتين عن الأهوال كبارها وصغارها ، وقيل : اللتيا للهول الصغير ، والتي للهول الكبير .

المعنى :

(أيها الناس شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة ، وعرّجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة) . هذه الخطبة قالها الإمام بعد أن حدث ما حدث من أمر السقيفة وبيعة أبي بكر ، ومحاولة أبي سفيان إثارة الفتن والقلاقل ، ويأتي التفصيل . والمفاخرة والمنافرة بمعنى واحد ، أو متلازمان لأن المفاخرة النفسرة والعداء . والفتن كأمواج البحر تؤدي الى الغرق والهلاك ، وأية وسيلة يكون بها الخلاص من الفتن ومحارم الله سبحانه فهي سفينة النجاة والسلام .. هذه كانت نصيحة الإمام للمسلمين حين بويع أبو بكر بالخلافة ، وكل حياة الإمام نصح وتضحية من أجل الاسلام . لقد كان يرى الخلافة حقاً له لا يجوز أن تصرف الى غيره كائناً من كان ، وكان في الوقت نفسه يرى ان مصلحة الاسلام أهم وفوق كل شيء .

قال الأديب الشهير طه حسين في كتاب « علي وبنوه » : « كان علي ربيبَ النبي (ص) وصاحب السابقة في الاسلام ، وصاحب البلاء الحسن الممتاز في المشاهد كلها ، وكان النبي يدعوه أخاه ، حتى قالت له أم أيمن ذات يوم مداعبة : تدعوه أخاك وتزوجه ابنتك ! وقال له النبي : أنت مني بمنزلة هارون من موسى،

وقال للمسلمين يوماً آخر : من كنت مولاه فعليّ مولاه .. من أجل ذلك كله أقبل العباس بعد وفاة النبي وقال له : مد يدك أبايعك ، ولكن علياً أبى مخافة الفتنة .. وجاءه أبو سفيان الذي حارب النبي (ص) ولم يسلم إلا كارهاً لا طائعاً، واعترف بأن لا إله إلا الله ، ولكن حين طلب اليه أن يشهد ان محمداً رسول الله قال : أما هذه فإن في نفسي منها شيئاً ، ولولا حثّ العباس له وتخويفه القتل لما اعترف بهذه الشهادة التي كان في نفسه منها شيء .. فهو اذن أحد الطلقاء.. جاء أبو سفيان الى علي وقال له : ابسط يدك أبايعك ، ولكن علياً أبى أن يستجيب خوفاً من إثارة الفتنة » .

(أفلح من نهض بجناح ، أو استسلم فأراح) . المراد بالجناح هنا القدرة ، والمعنى ان من يملك القدرة ، ويستغلها في إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل فقد ربح وفاز ، أما العاجز فخير له وللناس أن يصبر حتى اذا مرت الفرصة انتهزها ، ومن أقوال الإمام : « من الخرق المعاجلة قبل الامكان ، والأناة بعد الفرصة » .. لقد آذت قريش رسول الله (ص) وقال عنه عتاتها : شاعر وساحر ، وكاهن ومجنون ، ووثبوا عليه يوماً ، فأخذ بعضهم بخناقه ، وجذبه آخر بثوبه ، ونتف ثالث من شعره .. وحرشوا عليه الصبيان فطاردوه ورموه بالحجارة حتى أصيب في قدميه ، وسالت منها الدماء .. كل هذا وأكثر من هذا حدث لرسول الرحمة(ص) دون أن يحرك ساكناً طاعةً لله في قوله : « واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور » .. « واصبر حتى يحكم الله » .

(هذا ماء آجن ، ولقمة يغص بها آكلها ، ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع في غير أرضه) . هذه إشارة الى طلب الخلافة ، والظروف غير مؤاتية، وانه من الحمق وسوء التصرف أن يطلبها أو يتصدى لها مع المقاومة وإعلان الحرب من أجلها ، لأنها كانت بالنسبة اليه بعد وفاة الرسول (ص) كالماء الذي لا يستساغ شربه ، واللقمة يغص بها الآكل ، والثمرة المقطوفة قبل النضوج ، ومن قطف الثمرة قبل الأوان لا ينتفع بها كما ان من زرع في غير أرضه لا ينتفع بما زرع.. وليس معنى هذا أن العاجز لا ينبغي له أن يطالب بحقه، كلا ، بل أن يطالب ويحتج ، ولكن على قدر طاقته .. وأشرنا فيما سبق الى احتجاج الإمام (ع) على من سبقه الى الخلافة .

وقال الشيخ محمد عبده : يشير الإمام بقوله هذا الى أنه لو طلب الخلافة آنذاك لكان كمجتني الثمرة قبل إيناعها ونضوجها . وقال ابن أبي الحديد: يجوز أن يريد بيعة السقيفة .

(فإن أقل – أي أطلب الخلافة – يقولوا حرص على الملك ، وان أسكت يقولوا جزع من الموت) . ثم ماذا وان قالوا ؟ أليس أكثر الناس أو الكثير منهم على ذلك منذ كانوا ؟. وهل اتفقوا على تصرف واحد من الخالق أو من المخلوق ؟.. وذو الضمير الحي ، والدين المتين يصغي لوجدانه وإيمانه ، ويسخر من كل قول لا يؤمن به ، وان أجمع عليه أهل الدنيا .. وأحمد الله على هذه النعمة ، وهي وسيلتي الى رضوانه وجنانه .

(هيهات بعد اللتيا والتي) . أبعد أن ركب عليّ الأهوال والشدائد في بدر وأحد وخيبر والأحزاب وغيرها ، وبارز مرحباً وابن ود ، وبات على فراش النبي ليلة الهجرة ، وبرقت الأسنة ولمعت السيوف من حوله ، ينتظر الموت بين لحظة ولحظة ، أبعد هذا وأكثر من هذا يقال : جزع علي من الموت ؟ قال فيلسوف صيني : الانسان أكثر مخلوق مشاكس في العالم ، وقد خلقه الله ، وهو يعلم انه يخلق كائناً مشاكساً : «وكان الانسان أكثر شيء جدلاً – ٥٤ الكهف» .

(والله لابنُ أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه) . والله كل من يعرف : من هو علي بن أبي طالب يقسم معه هذا القسم، بل كل من يثق ويؤمن بأن له بعد الموت ما لعلي من النعيم والتعظيم عند الله كما وثق وآمن علي بذلك طلب الموت وتعشقه ، وأنس به كما يأنس الطفل بثدي أمه أو أكثر .. وإذن فأين مكان العجب في قول علي هذا ، أو في قوله : فوالله لا أبالي دخلتُ الى الموت ، أو خرج الموت إليّ .

(بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة) . يريد الإمام بهذا العلم أسرار النبي (ص) التي خصه بها، وائتمنه عليها دون غيره ، وقوله : « لو بحت به لاضطربتم » يومىء الى ان النبي (ص) أخبره عن حقيقة بعض الصحابة الذين يظن الناس بهم خيراً وهم عند الله من شرار خلقه .. ومن كان يظن بأهل الجباه السود ، وفيهم من الصحابة ، أن يمرقوا من الدين ، أو يظن بعائشة فراش النبي أن تركب الجمل ، وتحرض

المسلمين على أن يذبح بعضهم بعضاً ، أو يظن بالزبــير ، وهو حواري رسول الله (ص) أن يحارب علياً ابن عمته ، وكان أشد الناس حباً له ، ومن أجله شهر السيف يوم السقيفة ؟.

ويؤيد ما اخترناه من تفسير العــلم ما جاء في النهج باب المختار من رسائله بعنوان « من دعاء له » ، وهو قوله : « فوالذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ما أسلموا ، لكن استسلموا ، وأسروا الكفر ، فلما وجدوا أعواناً عليه أظهروه ».

الخطبة

- ٦ -

اضرب العاصي بالمطيع :

وَاللهِ لَا أَكُونُ كَالضَّبُعِ تَنَامُ عَلى طُولِ اللَّدْمِ . حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا وَيَخْتِلُهَا رَاصِدُهَا . وَلٰكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ . وَبِالسَّامِعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيَ الْمُرِيبَ أَبَداً . حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي فَوَاللهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي مُسْتَأْثِراً عَلَيَّ مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى يَوْمِ النَّاسَ هٰذَا .

اللغة :

الضبع : ضرب من السباع مؤنثة . واللدم : نحوٌ من الضرب . والراصد : الرقيب والذي يقعد بالمرصاد أي الطريق للحراسة ، ويختلها يخدعها . والمريب : المشكك .

الإعراب :

يصل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، ويختلها معطوف على يصل .

أبداً ظرف منصوب بأضرب . ومستأثراً حال من التاء في « ما زلت » أو خبر بعد خبر . وحتى حرف جر بمعنى الى .

المعنى :

تقدم في خطبة الشقشقية ان الكثرة الكثيرة من المسلمين ، وفي مقدمهم الأنصار والمهاجرون – أرادوا الإمام للخلافة لأنه الوحيد الذي يضمن لهم العدل والكرامة، ويحقق الأمن والحرية ، واستجاب ليؤدي ما أخذه الله على العلماء « أن لا يقاروا على كظة ظالم ، ولا سغب مظلوم » . ولكن طلحة والزبير ومعاوية وغيرهم ساءهم أن يكون علي عوناً للمظلوم ، وخصماً للظالم ، فجندوا له ، وخرجوا عليه .: وليس من الحكمة في شيء أن يبقى الإمام في المدينة ليغزوها أهل الشام وأصحاب الجمل ، ومن أجل هذا استعد للخروج الى العراق .

ولما أشير عليه بالبقاء في المدينة قال : (والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل اليها طالبها ، ويختلها راصدها) . كيف أصبر وانتظر حتى يغزوني العدو في عقر داري ؟ أتريدونني ان أكون كالضبع يخدعها صائدها ؟ لا كان ذلك أبداً (ولكني أضرب بالمقبل الى الحق المدبر عنه ، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً حتى يأتي علي يومي) . أبداً لا هوادة عند الإمام للطغاة والمجرمين ما وجد عليهم أعواناً وأنصاراً .. لقد وجد المجرمون الأعوان للباطل، فثاروا بهم على الحق وحاربوه ، فهل يستسلم الإمام ، وعنده من يسمع ويطيع؟ وبماذا يعتذر الى الله والناس ؟.

ومن كتاب له الى بعض أمراء جيشه : « وان توافت الأمور الى الشقاق والعصيان فانهد بمن أطاعك الى من عصاك ، واستعن بمن انقاد معك على من تقاعس عنك » .

(فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً عليّ منذ قبض رسول الله(ص) حتى يوم الناس هذا) . ان حق الإمام في الخلافة هو حقوق الانسان بالذات ، لأنه الحارس لها والضامن ، ومن أجل هذا وحده حاربوه ودافعوه عن الخلافة ، ولما توافرت له أسبابها ثار عليه الناكثون والقاسطون والمارقون، وخلقوا المشاكل والمصاعب للاسلام والمجتمع الاسلامي بكامله من التفرقة في الدين ، وسفك الدماء ، وانتهاك الحرمات فتظلّم الإمام وتألم للحق والناس جميعاً .

الخطبة
-٧-

اتخذوا الشيطان :

اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلَاكاً ، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً . فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ . فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ . فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرَكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلى لِسَانِهِ .

اللغة :

مِلاك الأمر : قوامه الذي يملك به ، يقال : القلب ملاك الجسد أي لا وجود للجسد إلا به . وأشراك : جمع حبائل الصيد . والحجور : جمع حجر ــ بكسر الحاء ــ حضن الانسان . والزلل : الزلق ، ويستعمل في ارتكاب الذنوب . والخطل : الحمق .

الإعراب :

فِعلَ منصوب على المصدرية أي فعلوا فعل من الخ .

المعنى :

(اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم له أشراكاً فباض) الخ . هذا الوصف ينطبق على من أبغض علياً ، ونصب له العداء .. إذ لا مكان أرحب وأوسع للأبالسة والشياطين من بغض علي وسبه وحربه .. وأي شيء في علي يستوجب السب والعداء ؟ أفي زهده بالدنيا التي لا تعادل عنده عفطة عنز ، أم في عدله الذي ملأ قلوب البؤساء والمستضعفين فرحاً وطمأنينة ، أم في علمه الذي لولاه لهلك الراشدون وأهلكوا معهم المسلمين ، أم في شجاعته التي هدمت صروح الشرك وأقامت دعائم الدين وأركان الاسلام ، أم في حسبه ونسبه ، أم في ماذا ؟.

وقد تعرض شبهة كاذبة لإنسان جاهل فيؤلّه علياً ويقول بربوبيته .. أما من نصب له العداء ، وسبه على المنابر ، وأمر الناس بسبه ، وعلق المشانق لمن لا يسب ويلعن ، أما هذا فلا شبهة له ولا معذرة .

الخطبة

-٨-

بايع بيده:

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ. فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ. وَإِلَّا فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ.

اللغة:

الوليجة : المضمرة .

الإعراب:

فليأت مجزوم بلام الطلب . وإلا كلمتان : ان الشرطية ولا النافية ، وفعل الشرط محذوف أي وان لم يأت فليدخل .

المعنى:

بايع الزبير علياً ، ثم نكث وتآمر ، ولما احتج عليه الإمام (ع) بالبيعة قال: أظهرتُها وما قصدتُها .. وان دلت هذه المعذرة على شيء فإنما تدل على جهل الزبير بدين الله ، وشريعة رسول الله (ص) لأن قوله : بايعت، إقرار صريح بالبيعة ،

وهل يستطيع لها نفياً وإنكاراً !.. والمرء مؤاخذ بإقراره ، وبه تثبت المسؤولية عليه أمام القضاء في جميع الشرائع . أما قوله : ما قصدت ولا أردت، فردود عليه إلا مع الدليل القاطع ، لأن الارادة يترجم عنها القول أو الفعل فهو الحجة لمن قال أو فعل . وقد أظهر الزبير البيعة ، وعبّر عنها بوضوح وصراحة ، ثم ادعى خلاف هذا الظاهر فعليه أن يثبت وإلا فليلتزم بما أظهر وعبّر ، أما الواقع بما هو فلا أثر له أمام القضاء ما دام مستوراً ومجهولاً .

الخطبة

- ٩ -

أرعدوا وأبرقوا :

وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا ، وَمَعَ هٰذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشَلُ . وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِعَ . وَلَا نُسِيلُ حَتَّى نُمْطِرَ .

اللغة :

أرعد وأبرق : هدد وتوعد . والفشل : الجبن والضعف .

الإعراب :

تستعمل « مع » مفردة غير مضافة ، فتنوّن وتكون حالاً نحو جئنا معاً أي جميعاً ، وتستعمل مضافة لمكان الاجتماع فتكون ظرفاً مكانياً مثل: اجتمع معكم ، ولظرف الزمان فتضمن معناه نحو: جئت مع العصر ، وتكون بمعنى عند كقول الإمام : ومع هذين الأمرين أي عندهما . ولا نسيل عطف على ولسنا نرعد .

المعنى :

الضمير في أرعدوا وابرقوا لأصحاب الجمل كما في شرح ابن أبي الحديد ،

وقال الشارحون لهذا الكلام : « ان الضوضاء والجلبة امارة الجبن والعجز ، وهو صفة أصحاب الجمل الذين أرعدوا وأبرقوا بلا مطر ، وان الصمت والسكـــوت إمارة الشجاعة والبطولة ، وهي من صفـــات الإمام (ع) » . وقد دلتنا التجارب ان من سمات البطالة والفراغ كــثرة الثرثرة والتفاهات ، ومن صفات الضعف والغرور – في الغالب – كثرة الأقوال الفارغة والادعاءات ، أما البطل المتواضع فيقول ما يفعل ، ولا يقول ما لا يفعل ، وقال عارف حكيم : « خير المحاربين من لا يُظهر غضبه الجامح » .. والإمام لا يقول شيئاً حتى يفعله تماماً كالسيل لا يجري إلا بعد نزول المطر .. ومن أقواله : « الوفاء توأم الصدق » ، وقرأت لأحد فلاسفة هذا العصر كلمة قال فيها : فرق واضح بين الكلام والحديث ، لأن القصد من الحديث في الغالب مجرد المتعة،بخاصة إذا كان بين صديقين ، أما الكلام فالغاية منه الجد والصدق والوفاء .

الخطبة

- ١٠ -

الشيطان جمع حزبه :

أَلاَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ ، وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجْلَهُ . وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي مَا لَبَّسْتُ عَلى نَفْسِي وَلَا لُبِّسَ عَلَيَّ . وَايْمُ اللهِ لاَ أُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ لَا يُصْدِرُونَ عَنْهُ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ .

اللغة :

المراد بخيله راكبو الخيل ، وبرجله المشاة . ولا لبّست على نفسي : ما خدعتها بالأماني ، ولا خدعتني بالكواذب . ولا لُبّس عليّ : ولا خدعني خادع . لأفرطن : لأملأن وماتحه مالئه أو نازح مائه من البئر . والصدور : ضد الورود ، وصدر عنه رجع وانصرف .

الإعراب :

ألا لافتتاح الكلام أو التنبيه ، وأيم مبتدأ والخبر محذوف أي قسمي ، وجملة لا يصدرون صفة « حوضاً » .

المعنى :

(ألا وان الشيطان قد جمع حزبه ، واستجلب خيله ورجله) . الشيطان مضاف

الى محذوف أي قرين الشيطان أو نصير الشيطان . وظاهر الكلام يصدق على أهل صفين وأصحاب الجمل ، لأن كلاً منهما جمع حزبه ، واستجلب خيله ورجله لحرب الإمام (ع) . (وان معي لبصيرتي ما لبّست على نفسي ، ولا لُبّس عليّ) . ليس المراد بالبصيرة هنا المعادلات العلمية ، والأرقام الاحصائية ، بل المراد بها فطرة الله التي نشأت وترعرعت في أحضان الرسول الأعظم (ص)، والإمام يدرك الأمور على حقيقتها بهذه الفطرة الإلهية المحمدية التي لا تخدع صاحبها ، وتصونه من خداع الخادعين .

قال ابن ابي الحديد : « ما لبست تقسيم جيد لأن كل ضال عن الهداية فإما أن يضل من تلقاء نفسه ، وإما بإضلال غيره له » . وكل من هذين لا يصدق في حق الإمام،لأن البصيرة التي كانت معه في عهد الرسول الأعظم (ص) هي هي ما تغيرت ولا تبدلت .

(وأيم الله لأفرطن لهم حوضاً أنا ماتحه ! . لا يصدرون عنه ، ولا يعودون اليه) . أي ان الإمام (ع) سيلقّن حزب الشيطان درساً قاسياً لا ينساه أبداً .. فمن ثبت من هذا الحزب للقتال فنصيبه الموت لا محالة ، ومن فر فلن يعود الى القتال ثانية .. وهذا ما حدث بالضبط لأصحاب الجمل ، كما كاد يُقتل معاوية أو يفر لولا المصاحف ، وبيت من الشعر « كلما جشأت وجاشت » .

الخطبة
- ١١ -

أعر الله جمجمتك :

تَزُولُ ٱلْجِبَالُ وَلَا تَزُلْ . عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ . أَعِرِ ٱللهَ جُمْجُمَتَكَ . تِدْ فِي ٱلْأَرْضِ قَدَمَكَ . ٱرْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى ٱلْقَوْمِ . وَغُضَّ بَصَرَكَ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلنَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ .

اللغة :

الناجذ : واحد النواجذ ، وهي أقصى الأضراس الأربعة . والجمجمة : عظم الرأس المشتمل على الدماغ . وتد : ثبت قدمك كالوتد .

الإعراب :

ببصرك الباء زائدة أي إرم ببصرك . والمصدر من ان النصر الخ .. ساد مسد مفعولي أعلم .

المعنى :

أعطى الإمام (ع) الراية يوم الجمل لولده محمد بن الحنفية ، وأوصاه بهذه الوصية ، وكان الإمام يقذف به في مهالك الحرب ثقة بصبره وشجاعته ، ويكف عنها الحسن والحسين (ع) لئلا ينقطع نسل رسول الله (ص) . كما أشار الى ذلك في بعض ما يأتي من كلامه .. وكان محمد مطيعاً لأخويه الحسنين مقراً بإمامتهما ، وما ادعى الإمامة بعدهما ، ولا دعا أحداً لنفسه ، وكان من رؤوس التابعين علماً وتقىً ومكانة .

الخطبة

- ١٢ -

أهوى أخيك معنا :

أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنَا ؟ فَقَالَ نَعَمْ . قَالَ فَقَدْ شَهِدَنَا . وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هٰذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ ، سَيَرْعُفُ بِهِمُ الزَّمَانُ وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ .

المعنى :

ليس هذا من الخطبة في شيء ، ومع ذلك أطلقنا عليه وعلى بعض مـا تقدم اسم الخطبة ، ونطلقه أيضاً على بعض ما يأتي ، أولاً لأنه مدرج في باب الخطب. وثانياً للتيسير على من يرجع الى « الكاشف عن ألفاظ النهج » ليهتدي الى مـا يبتغيه من كلمات الإمام (ع) .

قال الشريف الرضي: لما ظفر الإمام بأصحاب الجمل قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك . فأجابه الإمام بهذه الكلمة ، ومعناها ان كل من كان هواه مع الحق فقد رآنا بقلبه وعقله، وله أجر الأخيار والأبرار حاضراً كان في عسكرنا هذا ، أم غائباً عنه .. وسيجود

الزمان بأجيال من شيعتنا يقوى بهم الحق ، ويعتز الدين بصدقهم وإخلاصهم ، وهم معنا وفي هذا العسكر ، وان غابوا عنه بأبدانهم .

واذا كان الغرض من القتال مع الإمام مرضاة الله والجنة فكل من مات على ولايته فهو من أهل الجنة لحديث : « يا علي أنت وشيعتك في الجنة » . رواه الخطيب البغدادي ج ١٢ ص ٢٨٩ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٩ هـ . وأيضاً رواه أبونعيم في « حلية الأولياء » ج٤ ص ٣٢٩ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٥١ هـ (عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

الخطبة

-١٣-

أتباع البهيمة :

كُنْتُمْ جُنْدَ ٱلْمَرْأَةِ . وَأَتْبَاعَ ٱلْبَهِيمَةِ. رَغَا فَأَجَبْتُمْ . وَعَقَرَ فَهَرَبْتُمْ . أَخْلاَقُكُمْ دِقَاقٌ وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ . وَٱلْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهِنٌ بِذَنْبِهِ ، وَٱلشَّاخِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجُؤْجُوءِ سَفِينَةٍ قَدْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا ٱلْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا وَغَرِقَ مَنْ فِي ضِمْنِهَا . (وَفِي رِوَايَةٍ) وَأَيْمُ اللهِ لَتَغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُوءِ سَفِينَةٍ . أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ . (وَفِي رِوَايَةٍ) كَجُؤْجُوءِ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ . (وَفِي رِوَايَةٍ) أُخْرَى بِلَادُكُمْ أَنْتَنُ بِلَادِ اللهِ تُرْبَةً. أَقْرَبُهَا مِنَ ٱلْمَاءِ وَأَبْعَدُهَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ . وَبِهَا تِسْعَةُ أَعْشَارِ الشَّرِّ . ٱلْمُحْتَبِسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ وَٱلْخَارِجُ

بِعَفْوِ اللهِ . كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى قَرْيَتِكُمْ هٰذِهِ قَدْ طَبَّقَهَا ٱلْمَاءُ حَتَّى مَا يُرَى مِنْهَا إِلَّا شُرَفُ ٱلْمَسْجِدِ كَأَنَّهُ جُؤْجُؤُ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ .

اللغة :

البهيمة : كل ما لا نطق له ، والمراد هنا جمل عائشة . ورغا الجمل : صوّت . وعقر : جرح . ودقاق الشيء : صغيره وحقيره ، ودقاق الأخلاق دناءتها . والشقاق : الخلاف . والزعاق : المالح : وشخص فلان من بلد الى بلد : ذهب . وتدارك القوم : تلاحقوا ، وتداركه الله برحمته : لحقه بها . والجؤجؤ : الصدر .

الإعراب :

كأني بمسجدكم الباء زائدة ، ومسجدكم مفعول لفعل محذوف أي كأني أرى مسجدكم ، كجؤجؤ متعلق بمحذوف حال من مسجدكم ، ومثله كأني بك أي كأني أراك .

المعنى :

تجمّع أهل البصرة لحرب الإمام مع عائشة وطلحة والزبير ، وبعد أن تغلّب عليهم وصفهم بضعف العقل والدين والأخلاق،فهم بلا عقل لأنهم أتباع البهيمة، وهم بلا دين لأنهم منافقون ، وهم بلا أخلاق لأنهم نكثوا العهد .. وليس هذا بغريب عليهم فالانسان ابن الأرض ، منها وُلد ، وعليها يعيش ، وأرضهم نتنة عفنة ، وماؤهم ملح أجاج .. ثم أشار الإمام الى ما سوف يحدث للبصرة من الغرق . وقال ابن أبي الحديد : « غرقت البصرة مرتين : مرة في أيام القادر بالله ، ومرة في أيام القائم بأمر الله ، ولم يبق منها إلا المسجد الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطير كما أخبر أمير المؤمنين . وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة يتناقلها خلفهم عن سلفهم » .

تجمع أهل البصرة لحرب الإمام،ولو أمكنتهم الفرصة منه لاختطفوه بأسلحتهم، وهو يعلم ذلك علم اليقين .. فماذا كافأ الإمام أهل البصرة عندما ظفر بهـم ؟. ونترك الجواب عن هذا السؤال لطه حسين . قال في كتاب «علي وبنوه» ما نصه بالحرف الواحد :

« سار علي في أهل البصرة سيرة الرجل الكريم الـذي يقدر فيعفو ، ويملك فيسجح ، وكان يقول : سرت في أهل البصرة سيرة رسول الله (ص) في أهل مكة .. وبعد أن دخل البصرة عمد الى بيت المال ، فقسم ما وجد فيه على الغالبين والمغلوبين جميعاً .. وغضب من حارب معه وقال : لم يفرق بين شيعته وبـين عدوّه .. وكان مع أهل الجمل جماعة بني أمية ، ولما تغلب غضّ الطرف عنهم، وكان يعلم ان عائشة ضمت اليها كثيراً من الجرحى ، فلم يعرض لهـم بسوء ، وكان يعلم بمكانهم » .

وليس هذا بكثير على أهل المبادىء والدين والأئمة المعصومين . ومن أقواله : اذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه .

الخطبة

- ١٤ -

خفّت عقولكم :

أرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ المَاءِ . بَعِيدَةٌ مِنَ السَّماءِ . خَفَّتْ عُقُولُكُمْ وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ . فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ ، وَأُكْلَةٌ لِآكِلٍ ، وَفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ .

اللغة :

خفيف الروح : لطيف ، وخفيف الظهر : قليل العيال ، وخفيف القلب : ذكي . وخفيف العقل: أحمق . والحلوم : جمع حلم – بكسر الحاء – وهو الأناة، ومراد الإمام انهم يخطئون الواقع لطيشهم وسرعتهم . والغرض : الهدف . والنابل: من يرمي بالنبل . والأكلة: المأكول . والمراد بالفريسة القتيل أو السليب . والصائل: الواثب .

الإعراب :

إذا قلت : سفه زيد – بكسر الفاء – فمعناه صار زيد سفيهاً ، وإذا قلت: سفه زيد رأيه فرأيه مفعول ، والأصل سفه رأي زيد ، فلما أسند الفعل الى زيد

تحول الفاعل الى مفعول ، ولم يتحول الى التمييز ، لأن التمييز لا يكون معرفة : هكذا قالوا .

المعنى :

الخطاب لأهل البصرة ، وهم أول من أعلن الحرب على الإمام بعد بيعتـــه بالخلافة .. وأرضهم قريبة من الماء لأنها على الشاطىء ، وبعيدة من السماء أي من رحمة الله تعالى ، ونقل ابن أبي الحديد عن علماء الهيئة انهم ما رأوا ــ آنذاك ــ موضعاً من الأرض أكثر هبوطاً وانخفاضاً من بلدة بالقرب من البصرة تسمى الأبُلّة، ثم قال : وهـــذا من خصائص أمير المؤمنين (ع) لأنه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب ، ولا تهتدي اليـــه ، وهو مختص بالمدققين الحكماء ، وهذا من أسراره وغرائبه .

الخطبة

- ١٥ -

من أين لك هذا ؟

وَٱللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ ٱلنِّسَاءُ وَمُلِكَ بِهِ الإِمَاءُ لَرَدَدْتُهُ فَإِنَّ فِي ٱلْعَدْلِ سَعَةً ، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ ٱلْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ .

المعنى :

(والله لو وجدته قد تُزوج به النساء ، ومُلك به الإماء لرددته) . ضمير الغائب في وجدته وما بعده يعود الى المال الذي وهبه عثمان بغير حساب ، لا لشيء إلا لأنه كان لا يرى بأساً ولا جناحاً في أن يأخذ الضرائب من المستهلكين والكادحين ويعطيها للأغنياء والمترفين ، فليس من العدل في نظره أن يساوي بين الناس ، وأن لا يؤثر قريباً على بعيد ، وقوياً على ضعيف ، ولا من الحق في مفهومه ان يحفظ على المسلمين حقوقهم وأموالهم ، ولا ينفقها إلا في مواضعها .

وكان الإمام أمير المؤمنين على العكس تماماً من عثمان ، كان يرى ان الثروة يجب أن توزع على الجميع بالمساواة : ولا يجوز أبداً في عقيدته أن تتركز في أيدي القلة كيلا يبغي ويعلو بعضهم على بعض ، ومن أقواله : « لو كان المال لي لسويت بينهم ، كيف وإنما المال مال الله ! » . وكان لا يأخذ لنفسه من بيت المال إلا ما يقيم الأوَد ، وان استطاع أن ينقص عن مقدار الحاجة والضرورة

فعل ، ومن أقواله : « فوالله ما أخذت منه إلا كقوت اثان دبرة » .. وكان أكره شيء عليه الادخار ، ويقول في ذلك : « فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ، ولا حزت من أرضها شبراً » .

وأجمع الرواة وأهل السير على ان علياً كان يدخل بيت المال ، ويقسم على الناس ما وجد فيه حتى الإبرة والخيط وكسرة الخبز ، ثم يأمر فيكنس، وينضح الماء ، ثم يصلي فيه ركعتين ، ويقول : هكذا يجب أن يكون بيت المال .

واذن فلا عذر ولا مندوحة لعلي ، وقد أصبح خليفة المسلمين — أن يسكت ويتجاهل ما انتهبه المستغلون من بيت المال ، وأن لا يأخذهم بمبدأ « من أين لك هذا ؟ » حتى ولو تزوج به النساء ، وملك به العبيد والإماء .. ومن أجل هذا ثار عليه الناهبون والمغتصبون . قال التاريخ : ان عمرو بن العاص كتب الى معاوية يقول : « ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل ما تملك كما تقشر عن العصا لحاها » أي قشرها .. وأيضاً قال التاريخ ان الإمام أمر بأن تجمع كل الأموال التي أعطاها عثمان حيثما كانت ، وأن تؤخذ إبل الصدقة التي كانت في دار عثمان حين قتل .

وتسأل : أليست هذه قسوة من الإمام ، يأخذ إبل الصدقة من دار الخليفة المقتول ، ويحرم منها أهله وأولاده .

الجواب :

إن القاسي هو الذي يعتدي على حقوق الناس ، أما من انتصر للحق ، ورده من الغاصب الى أربابه فهو عادل ورحيم ، ما في ذلك ريب .. هذا ، الى ان أبا بكر انتزع فدكاً من فاطمة ، وهي بضعة من رسول الله (ص) وكانت لتصرف بفدك في حياة أبيها وعلى مرأى منه ، ومع هذا أخذ أبو بكر فدكاً ، وقال : هي للمسلمين .. فهل أولاد عثمان أفضل وأعظم عند الله من فاطمة التي كناها المسلمون « بأم أبيها » لأنها أشبه الناس به سمتاً وخلقاً ، وهدياً ومنطقاً !.

(فإن في العدل سعة) . لأنه يضع الأمور في مواضعها،ويعطي لكل ذي حق حقه ، وليس في دولته ظالم ولا مظلوم (ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق) بالبداهة ، لأن من لا يطيق العدل والانصاف ، وينفر منه كيف يطيق العسف والجور .

الخطبة

-١٦-

حجزته التقوى .. فقرة ١ — ٢ :

ذِمَّتي بِمَا أَقولُ رَهِينَةٌ ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ . إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ ٱلعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ المَثُلَاتِ حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ(١) أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً ، وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً ، وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ ٱلقِدْرِ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ وَأَعْلَاكُمْ أَسْفَلَكُمْ . وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا . وَلَيَقْصُرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا . وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً وَلَا كَذَبْتُ كِذْبَةً . وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهٰذَا المَقَامِ وَهٰذَا ٱليَوْمِ(٢) .

اللغة :

الذمة : العهد والأمان . ورهينة : مأخوذ به . وزعيم : كفيل . وصرحت:

كشفت . والعبر : جمع عبرة – بكسر العين – العظة يتعظ بها . والمثلات : العقوبات . البلبلة : الاختلاط ، والهيجان . وغربل الشيء : قطعه أو ميّز الصالح من غير الصالح . وساط الشيء : خلطه . والوشمة : الكلمة والمرة .

الإعراب :

جملة حجزته خبر إن . ويعود بمعنى يصير ، وأعلاكم مفعول .

المعنى :

(ذمّتي بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم) . أي كل ما أقوله وأحدثكم به أنا مسؤول عنه ، ومأخوذ به ، وكفيل بأنه واقع لا محالة ، وهو :

١ – (ان من صرحت له العبر عما بيّن يديه من المثلات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات) . من يتعظ بما رأى وسمع عن الدهر وضرباته ، ودولاب الحوادث ودوراته – يحجم ويقف عند مظنة الخطيئة والعقوبة فضلاً عما هو صريح في المنع والتحريم ، ومن أقواله : « ولا ورع كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهد كالزهد في الحرام » وفي الحديث : إنما الأمور ثلاثة : أمر بيّن رشده فيُتّبَع ،وأمر بيّن غيه فيجتنب ، وأمر مشكل فيردّ حكمه الى الله ، وفي حديث ثان : من ترك الشبهات نجا من المحرمات ، ومن وقع في المحرمات هلك من حيث لا يعلم ، وفي ثالث : الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة .

ونحن نعرف أفراداً يُضفون من تلقائهم ثوب الشبهة على الحرام الصريح ليبرروا اقتحامهم وجرأتهم على الحرام .

٢ – (ألا وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه (ص)) . يريد ان المسلمين آنذاك تماماً كما كانوا في الجاهلية الجهلاء تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى على ما فيهم من سائر العيوب .. وتكلم كثيرون عن السبب الموجب لتأخر المسلمين، ووضع بعضهم المؤلفات في ذلك ، وفسروه بالفرقة والشتات ، والمخالفة عن أمر الإسلام وعدم الالتزام بأحكامه وتعاليمه ، وكلام الإمام (ع) يومىء الى ذلك ، لأنه ربط ولازم بين عدم التقوى والبلية ، وآيات القرآن أكدت هذا المعنى ،

منهـا : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم – ٥ الصف » . والذين اهتدوا زادهم هدى – ١٧ محمد » .

ونوجز بيان التلازم والترابط بأن المسلم الحق هو الذي يؤمن ويعتقد أولاً وقبل كل شيء بأن وراء هذا الكون ذاتاً وقوة يجب أن يقدسها ويحبها ، وأيضاً يؤمن ويعتقد بأن تلك الذات والقوة هي مصدر الفعل والتدبير في هذا الوجود ، ومصدر التحليل والتحريم ، وانها تُهاب وتُرجى ، وتثيب وتعاقب .

ثانياً : أن يترجم المسلم الحقّ تقديسه وحبه لله ، وإيمانه بأنه تعالى هو وحده الخالق المدبر ، والحاكم المشرع ، والمراقب المعاقب ، ان يترجم ذلك كله بالأفعال لا بالأقوال فقط ، لأن الحب والإيمان يقاسان بالآثار والأعمال ، أما مجرد النظرية المنطقية والخاطرة النفيسة فيشبهان حديث النفس والخيال .

هذا هو المسلم الحق والاسلام الصحيح .. واذا نظرنا الى مسلمي هذا العصر ، وأردنا أن نقيّم تدينهم على هذا الأساس – وجدناهم يترجمون تقديس الله سبحانه بالمظاهر والشعائر كالصوم والصلاة ، وبناء المساجد والحسينيات ، أما المجتمع الاسلامي على وجه العموم فالاسلام عنده نظرية منطقية تنحصر في الأذهان والاستدلال ، وعصبية عاطفية لا تتجاوز النفوس والأقوال .

إن الدين في مجتمعنا اليوم مجرد «ايتيكيت» .. و « بروتوكول » تماماً كالتهنئة في الأفراح ، والتعزيـة في الأتراح ، ولا نرى له أثراً إلا في العبرات وضرب القامات ، وفي سير المواكب وإقامة الحفلات ، وفي الأذان والصلوات ، وفيما عدا ذلك لا أثر للدين إلا عند بعض الأفراد ، وهم أندر من النادر .. وهكذا كلما كثرت المظاهر الدينية ، وارتفع طنينها ضعف تأثير الدين من الوجهة العملية حتى قال قائل على صفحات الجرائد: « ان الله لا يوجد بين القوم الذين يؤمنون به» أي ان الـذين يكثرون من التظاهر بالإيمان هم أبعد الناس عنه ، تماماً كالكسول البطّال يكثر من الثرثرات والتفاهات .. ان الايمان الحق يظهر أثره في جميع أفعال المؤمن وحركاته ووجوه نشاطه وأخلاقه ، لا في مجرد الشعائر والمظاهر .

(والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم) . هـذه الجمل توائم من حيث المعنى ، وترمي الى هدف واحد ، وهو اضطراب حال المسلمين بعد الإمام ،

واختلاط حابلهم بنابلهم ، وتأخرهم عن الأمم .. وقد مر على المسلمين أدوار متقلبة ومتنوعة سوءاً وضعفاً ، وأسوأها على الاطلاق ما هم عليه الآن .. انهم أذل الأمم ، وأضعف الخلائق ، والسر الأساسي — فيما نعتقد — هو ان الحكم ومركز القوة والقيادة في أيد أثيمة خائنة ، والى هذا أشار الإمام بقوله : « يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم » وعنه تتفرع بقية المساوىء كسيطرة الأعداء والأجانب ، وظهور الدجالين والأدعياء ، والتفرقة والشتات ، وما إليه من التأخر والانحطاط . لقد كان فيما مضى أمم قوية ومتحضرة ، ثم مزقهم التناحر وأفسدتهم الآفات ، فانمحوا من الوجود ، وصاروا أثراً بعد عين ، فهل يحيق بنا ما حاق بهم ، أو يتداركنا الله برحمته ؟.

(ليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا) . قال الشيخ محمد عبده : « سبق معاوية الى مقام الخلافة وقد كان في قصوره عنه ، بحيث لا يظن وصوله اليه ، وقصر آل بيت النبوة عن بلوغه وقد كانوا أسبق الناس اليه » . وهذا صحيح في نفسه ولكنه بعيد عن الكلام ، فإن المتبادر من كلمة السباق هنا السبق الى الفضائل ، لا الى السلطان حتى ولو كان جوراً . قال سبحانه : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » . وقال الإمام (ع) : وغداً السباق . ويقال : ليست له سابقة ، أي منقبة وفضيلة ، أما لفظ القاصر والمقصر فهو أظهر في الذم من لفظ السابق في المدح . ومراد الإمام — كما يرجح في الظن — ان بعض الصحابة كانت لهم سابقة مع رسول الله (ص) ثم ختموا حياتهم بأسوأ الأعمال كالزبير الذي حبط عمله في البصرة إلا ان يقبل الله توبته .. وبعضهم لم تكن لهم سابقة يعرفون بها ثم سبقوا الى الفضائل والخيرات ، وما أكثر هؤلاء في المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان .

(والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة : ولقد نبئت بهذا المقام ، وهذا اليوم) . إن القرآن الناطق الذي يدور الحق معه كيفما دار يستحيل في حقه الكذب والخيانة .. بل هو حجة ودليل على الحق والصدق . وقال الشيخ محمد عبده في شرح هذا الكلام ببلاغة وايجاز : « كان رضي الله عنه لا يكتم شيئاً يحوك بنفسه ، كان أمّاراً بالمعروف نهّاء عن المنكر ، لا يحابي ولا يداري ، ولا يكذب ولا يداجي . وهذا القسم توطئة لقوله : نبئت بهذا المقام ، أي انه قد أخبر به من قبل على لسان النبي (ص) بأنه سيقوم هذا المقام ، ويأتي عليه يوم مثل هذا اليوم» .

وجاء في « مستدرك الصحيحين » ج ٣ ص ١٤٠ طبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد سنة ١٣٢٤ هـ : « قال النبي : يا علي انك ستلقى بعدي جهداً . قال علي : أفي سلامة من ديني يا رسول الله ؟. قال : في سلامـة من دينك » ؛ فالأهم عند علي أن يسلم له دينه قبل كل شيء لا نفسه وأهله، أما حديث تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين فقد تجاوز حد التواتر .

خاب من افترى .. فقرة ٣ ــ ٥ :

أَلَا وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ . أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ . حَقٌّ وَبَاطِلٌ . وَلِكُلٍّ أَهْلٌ فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيماً فَعَلَ . وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ . وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ[٣] . شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى . الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ . وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ . عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَآثَارُ النُّبُوَّةِ . وَمِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ[٤] . هَلَكَ مَنِ ادَّعَى وَخَابَ مَنِ افْتَرَى . مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَهُ . لَا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ . وَلَا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ . فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ . وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ . وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، لَا يَحْمَدُ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ وَلَا يَلُمْ لَائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ[٥] .

اللغة :

الخطايا : جمع خطيئة ، وهي الذنب . والشُمُسُ – بضم الشين والميم – جمع شموس ، الفرس الجموح يأبى ويمتنع أن يمكن أحداً من ظهره وإسراجه وإلجامه . ومطايا : جمع مطية ، وهي الدابة يستوي فيها المذكر والمؤنث . وذلل: جمع ذلول ، وذل البعير : سهل ركوبه وانقياده . وأمر – بكسر الميم – كثُر. والمضلة – بفتح الميم – ضد الهدى . وصفحته : وجهه ، والمراد هنا من جاهر بعداء الحق . وسنخ الأصل : موضعه ومنبته .

الإعراب :

شمس صفة للخيل ، وذلل صفة للخطايا ، وحق خبر لمبتدأ محذوف ، ومثله باطل أي التقوى حق والخطايا باطل ، وقديماً منصوب بنزع الخافض ، والأصل فعل في الزمن القديم ، ثم حذف حرف الجر والموصوف وأقيمت الصفة مقامه . ورب للتقليل ، وتجر النكرة الموصوفة ، ومجرورها لا يتعلق بشيء ، واذا لحقتها « ما » كفتها عن العمل ، ولعل من أخوات ان تنصب الاسم وترفع الخبر ، وإذا لحقتها « ما » كفتها عن العمل ومن أجل هذا كفت هنا رب ولعل ، ومعنى لعل التوقع والترجي . ولئن اللام للقسم ، وان شرطية وقلّ فعلها ، وجوابها محذوف والتقدير فلربما يعود .

المعنى :

(ألا وان الخطايا خيل شمس ، حمل عليها أهلها ، وخلعت لجمها ، فتقحمت بهم النار) . أي ان الذنب كالفرس الجموح ، والنفس كالراكب ، والدين كاللجام ، ومن ركب فرساً جموحاً بلا لجام يردعها أوردته مناهل الهلكة،وهكذا فاعل الخطايا ، ومرتكب الذنوب بلا رادع من دين الله – مآله الى النار لا محالة ، ومن أقواله (ع) : أشد الذنوب ما استهان به صاحبه .

(ألا وان التقوى مطايا ذلل ، حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها ، فأوردتهم

الجنة) . أما من يتقي الله ، ويسلس قياده الى أحكامه وحلاله — فنهايتـــه الى الجنة تماماً كراكب المطية الذلول تسير طوع إرادته في طريق السداد والأمان .

(حق وباطل ، ولكل أهل) . الناس منهم المحق ، ومنهم المبطل ، ما في ذلك ريب ، ولكن بأي شيء نميز بينهما ، وكل من الاثنين يدعي الحق وينتحله؟ وهل للحق قياس ؟ والجواب عند الإمام (ع) واضح ، فكل من أطاع الله هو محق ، والمبطل من عصى الله : ومن أقواله : « الحلال ما أحل الله ، والحرام ما حرم الله » . وقد بيّن سبحانه على لسان نبيه الكريم (ص) محابّه من الأعمال ومكارهه ، ونواهيه وأوامره ، وألقى الحجة على الجميع ، ولم يـــدع لأحد من عذر يتعلل به . وما رسمه علماء الأخلاق وغيرهم من المفكرين للفضيلة العملية ، واعتبروه طريقاً سليماً للمعاملة الانسانية — فإنه يلتقي مع دين الله وحلاله وحرامه، وان نظر كل منهما الى الموضوع من زاويته الخاصة .

(فلئن أمر الباطل لقديماً فعل) . لا غرابة أبداً في أن يقوى الباطل، ويكثر في أعوانه ، فهذا هو شأنه وشأن الناس معه منذ القديم ، لأنه خفيف على النفس، وعلى وفاق مع شهواتها وأهوائها(ولئن قل الحق فلربما ولعل). الحق قليل الأعوان، وقد ينتصر حيناً من الدهر ، وقول الإمام (ع) : «ولعل» يشبه قولنا : « اللهم إنا نسألك في دولة كريمة تعز بها الاسلام وأهله ، وتذل بهـــا النفاق وأهله » . (لقلما ادبر شيء فأقبل) . سياق الكلام يدل على ان المـــراد بالشيء هنا دولة قوم من الناس ، وليس المراد منه الحق كما في شرح ميثم : وعليـه يكون المعنى نادراً ما تعود دولة قوم بعد زوالها ، وعلى هذا ابن أبي الحديد والشيـــخ محمد عبده . ودولاب الحوادث يؤيد ذلك ويعززه . ومن أقوال الإمام : لكل مقبـل إدبار ، وما أدبر كأن لم يكن .

(شغل مَن الجنة والنار أمامه) . من كان مصيره الى النعيم أو الجحيم ولا ثالث فعليه أن يشغل نفسه بما يبتعد به عن هذا ، ويقربه من ذاك . وقد اشتهر على ألسنة الناس اذا واجه أحدهم أمراً خطيراً ان يقول : المسألة مسألة مصير ، وحياة أو موت .. ويعني بهذا انه سيبذل الوسع والجهد ، ويضحي بكـل عزيز كي يبتعد عن الخطر الداهم ، وأي خطر أشد من النـــار وعذابها ؟.. ثم قسّم الإمام (ع) الناس الى أقسام :

١ — (ساع سريع نجا) . أسرع الى مرضاة الله ، وتقرّب اليــه بالأعمال الصالحات ، فنجا من أليم العذاب وشدته .

٢ — (وطالب بطيء رجا) . يحب الخير ويطلبه ويعمل له ، ولكن ببطء وكسل ، وقد تتداركه هذا رحمة من ربه .

٣ — (ومقصر في النار هوى) . لا يسرع ولا يبطىء ، بل يعرض ويقصر. وليس من شك ان عاقبة التقصير الخسران والندامة . ومن أقواله (ع) : لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويرجىء — أي يؤخر — التوبة بطول الأمل .

(اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجادة). أي المعتدلة الواضحة والمتوسطة بين الإسراف والتقصير ، ومن انحرف عنها يمنة أو يسرة فقد انحرف عن الهدى الى الضلال ، وعن النجاة الى الهلاك (وعليها باقي الكتاب وآثار النبوة). المراد بباقي الكتاب الكتاب الباقي ببقاء الله تعالى ، والمعنى مــا من شيء جاء في كتاب الله وسنّة نبيه إلا وهو قائم عـلى هـذه الطريق الوسطى ، والجادة المثــلى (ومنها منفذ السنة) من هذه الطريق يبتدىء وعليها يسير حـلال محمد وحرامه (واليها مصير العاقبة) . لأن الخلائق يوم القيامــة يحاسبون على أساس الصراط المستقيم .

والخلاصة ان المنهج السوي الذي يجب شرعـاً وعقــلاً أن يسير عليه الأفراد والجماعة هو القائم بين الإسراف والتقصير ، فكــلٌ من هذين شر وفساد ، وما بينهما خير وصلاح .. وقد رأينا الناس يحبون الرجل المعتدل في سلوكه وأعماله ، ويثقون به ويصفونه بأوصاف الكمال والتقدير كالعاقـل والمتزن ، بل ويستشيرونه في المهمات من أمورهم ، ولا وزن عندهم للمقصر أو المسرف ، وان كان دماغه مخزناً للعلوم والآراء والأرقام .

(هلك من ادعى) بلا حجة ودليل (وخاب من افترى) بلا رادع وزاجر (ومن أبدى صفحته للحق هلك) . ومثله قول الإمام (ع) : من صارع الحق صرعه (وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف نفسه) . لأنه يتجاوز الحدود بالافتراءات والادعاءات الكاذبة ، ومن أقواله (ع) : يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعله العاقل بعدوه .. وتُطلق كلمة الجاهل الأحمق على كل من يضع الأمور في غير مواضعها، حتى ولو درس عشرات السنين ، وحفظ مئات الكتب .. وأحمق الناس في عصرنا سائقو السيارات الذين يسرعون في سيرهم .

(لا يهلك على التقوى سنخ أصل) . المراد بالسنخ هنا التربـة ، وبالأصل الجذور ، والمعنى إذا قامت الأعمال على أساس من التقوى كان العامل في مـأمن من الهلاك تماماً كجذور الشجرة تنبت في تربة طيبة ، تسلم من الآفات والعاهات (ولا يظمأ عليها زرع قوم) . هذا تشبيه ثانٍ للتقوى ، وانها كالماء ، والزرع ينمو به ويثمر ، فكذلك الأعمال تعود على صاحبها بالخيرات مع التقوى ، ومن أقواله (ع) : لا يقل عمل مع التقوى ، وكيف يقل ما يتقبل ؟.

(فاستتروا في بيوتـكم) . هذا خطاب للغوغاء والسواد من الناس،وهو يأمرهم بالسكوت وعدم الخوض فيما لا يعلمون خوفاً من البلبلة وإثارة الفتنة . ومن أقواله في وصف الغوغاء : « اذا اجتمعوا ضروا ، واذا تفرقوا نفعوا .. فقيل له : قد عرفنا مضرة اجتماعهم ، فما منفعة افتراقهم ؟. قال : يرجع أصحاب المهن الى مهنهم ، فينتفع الناس بهم » .

(اصلحوا ذات بينكم) وهي الحال التي يجمعون عليها ، والمراد بها هنا الألفة والمحبة،وفي الحديث:اصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصوم (والتوبة من ورائـكم) . المراد بورائكم هنا بين أيديكم ، قال تعالى : « من ورائه جهنم .. ومن ورائه عذاب غليظ – ١٦ و ١٧ ابراهيم » أي بين يديه ، لأن العذاب لاحق به ، وكذلك التوبة لاحقة بالعاصي باعتبار انها بين يديه ، ولا يمنعه عنهـا مانع (ولا يحمد حامد إلا ربه) لأنه هو وحده يستحق الشكر والحمد (ولا يلم لائم إلا نفسه) لأنه أعرض عن دعوة الحق والعدل ، واستجاب للهوى والجهل .

الخطبة

- ١٧ -

ضال مضل .. فقرة ١ ـ ٢ :

إنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللهِ رَجُلَانِ : رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بِدْعَةٍ ، وَدُعَاء ضَلَالَةٍ . فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ . ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ . مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ . حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ . رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ[1] وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً . مُوضِعٌ فِي جُهَّالِ الْأُمَّةِ عَادٍ فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ . عَمٍ بِمَا فِي عِقْدِ الْهُدْنَةِ قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ . بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ آجِنٍ ، وَاكْتَنَزَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ . جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ، ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ . فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثّاً مِنْ رَأْيِهِ ثُمَّ قَطَعَ بِهِ[2] .

اللغة :

قصد السبيل : الصراط المستقيم . والجائر : المائل عن هذا الصراط . والبدعة – بكسر الباء – ما ابتدع على غير مثال سابق لغة ، أما شرعاً فهي الإحداث في الدين بتقليمه أو تطعيمه . وللفتنة معان ، والمراد بها هنا الضلال بدليل سياق الكلام . وقمش : جمع ، وتطلق على أكلّ . والموضع – بضم الميم وكسر الضاد – المسرع . والعادي أيضاً المسرع أو الساعي . والأغباش – بفتح الهمزة – جمع غبش – بكسر الباء – المظلم . وعمٍ من العمى . وبكّر : بادر . واستكثر الشيء : رآه كثيراً ، واستكثر من الشيء أكثر من فعله . والماء الآجن : الفاسد الذي تغير لونه وطعمه . وللتخليص : لفصل الخصومات ببيان الحق . والالتباس : الاشتباه . والمبهمات : المشكلات . والحشو : الزائد . والرث : البالي .

الإعراب :

رجلان خبر إن ، والرجل الأول بدل مفصل من مجمل ، والرجل الثاني عطف على الأول ، والمبدل منه رجلان . ومن جمع بالتنوين ، و « ما » موصولة مبتدأ ، وخبر خبر . حتى حرف ابتداء ، ولا عمل لها هنا ، وإذا ظرف متضمن معنى الشرط ، وجلس جواب الشرط ، وقاضياً حال ، وضامناً صفة له ، ورثاً صفة « حشواً » .

المعنى :

(ان أبغض الخلائق الى الله رجلان) . حب الله تعالى : رحمته وثوابه ، وبغضه : نقمته وعذابه . وأشد الناس مقتاً عند الله ، وأبعدهم من رحمته (رجل وكله الله الى نفسه) . وهو الذي تتحكم فيه نفسه الأمارة بالسوء بلا رادع وزاجر . كالتائه المغرور والمسرف المبذر والبخيل الممسك والحسود الحقود ومن انتهك حرمات الله والتابع لشرار الخلق ، وكل من لا يهتدي الى دليل ، قال الإمام زين العابدين : اللهم ان وكلتني الى نفسي عجزت عنها ، وفي دعاء ثان : أعني على نفسي بما تعين به الصالحين على أنفسهم ، وفي ثالث : اللهم خذ لنفسك من نفسي ما

يخلصها ، وابق لنفسي من نفسي ما يصلحها ، وفي رابع : سيـدي ان وكلتني الى نفسي هلكت .. فلا تعرض عني بوجهك الكريم .

وكل من عرف نفسه وحقيقته يشعر هذا الشعور ، ومن هنا قيـل : « من عرف نفسه عرف ربه » . ومن فقد هذا الشعور فهو أجهل الناس بنفسه وخالقه.

(فهو جائر عن قصد السبيل) أي مائل عن صراط الحق والانسانية ، وأي امرىء يعمل لمنفعتـه الخاصة ولا يهتم بمجيئه فقد انحرف عن الصراط القويم ، أما إذا أضر سلوكه بغيره فهـو وحش كاسر وحيوان مفـترس .. لأن الانسان بما هو انسان يستحيل أن ينتهك حمى الانسانية ، ويعتدي على أخيه الانسان .

(مشغوف بكلام بدعة ، ودعاء ضلالة) . الضلالة ضد الهداية ، ومن ضل في سعيه خابت آماله ومطالبه ، والبدعة هي العقيدة أو الفتوى التي لا دليل عليها من الكتاب أو السنة أو الاجماع أو العقل ، وهذا البغيض البعيـد من رحمـة الله مولع بالشهرة والاستطالة ، ومن أجلها يرائي ويدلس ، ويبتدع ويختلق في الدين وشريعة سيد النبيين ، ويدعو الى الضلال والفساد (فهو فتنة لمن افتتن بـه) : المراد بالفتنة هنا تضليل من صدقه ، وإفساد من وثق به .

(ضال عن هدي من كان قبله) . وهم الذين أشار اليهم سبحانه بقوله : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ـ ٩٠ الأنعام » ومن دعاء للإمام زين العابدين (ع) : اللهم ألحقني بصالح من مضى ، واجعلني من صالح من بقي ، وخذ بي سبيل الصالحين (مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته) . ان أخسر الناس صفقة ، وأخيبهم سعياً من ضل عن سبيل الصالحين من قبله ، وكان قدوة للمضللين من بعده .

(حمّال خطايا غيره) من الذين ترأس عليهم ، ونال الحظوة عندهم بالتدليس والتظاهر بالعلم والتقوى . قال عز من قائـل : « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مـع أثقالهم وليسألـن يوم القيامـة عمـا كانوا يفترون ـ ١٣ العنكبوت » .. (رهن بخطيئته) . ولا فكاك لهذا الرهن ، ولا ثمن إلا عذاب الحريق .

والخلاصة ان أشد الناس عذاباً اثنان : الأول أسلس القياد لشهواته وأهوائه ، فمالت به عن الصراط القويم ، وعاش في دنيا الفساد والضلال ، والتدليس والنفاق ، وانخدع به من انخدع من الجهلة وسواد النـاس ، فضلّ وأضل ، وتحمل أثقاله

وأثقال من اغتر به .. وقد يملك أهل الضلال من دنياهم الجاه والمال ، ولكن هذا الملك يعود عليهم بالخسران والوبال حيث يجعلهم عبيداً لأكثر من إله ، ويورثهم جبناً في الحق وانغماساً في المراوغة والباطل .. أما الرجل الثاني فهو الذي أشار اليه الإمام بقوله :

(ورجل قمش جهلاً) . ويلتقي مع الأول في الفساد والضلال حيث أسلس الأول قياده للنفس الأمارة ، والثاني يقوده العمى والجهل ، والنتيجة واحدة ، وهي الخذلان والخسران (موضع) بضم الميم وكسر الضاد ، أي مسرع (في جهال الأمة) . يمضي بهم في التضليل ويزيدهم جهلاً على جهل ، وينطبق هذا الوصف على أكثر المعممين في عصرنا .. تجالس أحدهم فلا تشم منه عبير الإيمان واليقين ، ولا ترى على حديثه نور العلم والذكاء ، ولا تلمسه منه غير السخف والجهل ، ومع هذا يحب الشهرة ويحن اليها ، ويشتريها بكل ثمن .

(عاد) من العدو السرعة (في أغباش الفتنة) أي ظلمات الجهل والأباطيل، يسرع فيها تائهاً لا يدري أين المصير (عم بما في عقد الهدنة) . اختلف الشارحون في تفسير هذه الجملة على أقوال لا تركن النفس الى شيء منها ، والذي نفهمه نحن : ان الشريعة الاسلامية الانسانية تقوم على أسس عديدة ، أهمها وأدقها رعاية المصلحة ودفع المفسدة ، لأن أحكام الإسلام تبتني بكاملها على هذا الأساس، وقد يكون في الحادثة أو الفعل مصلحة من جهة ومفسدة من جهة ثانية ، وعندها لا مفر من عملية الموازنة بين رعاية المصلحة ودفع المفسدة ، وتقديم الأهم على المهم، فإن كان درء المفسدة أوجب تجاهلنا المصلحة ، وعقدنا الهدنة والمصالحة مع المفسدة الى أن تحين الفرصة وتسنح ، والشرط الأول فيمن يجري عملية الموازنة ان يكون من العارفين الحكماء .

(قد سماه الناس عالماً وليس به) . يستعمل الإمام (ع) كلمة أشباه الناس وأشباه الرجال في الجهلاء الذين لا يميزون بين ما يضرهم وينفعهم ، وفي الجبناء الذين يتهربون من الجهاد والكفاح من أجل حريتهم وكرامتهم ، وليس في هذا الاستعمال كناية وتجوز ، لأن الرجل مأخوذ من الرجولة التي تومىء الى الشجاعة والصبر على الشدائد ، ومن أقوال الإمام : « قدر الرجل على قدر همته » .

(بكّر فاستكثر من جمعٍ ما قلّ منه خير مما كثُر) . كل ما يحرر الانسان

من الجهل والخوف والفقر ، ويتجه به الى حياة أفضل فهو خير وحق وجميل وعظيم وكثير ، وإن كان قليلاً بالقياس الى غيره . هذا هو معنى الخير عند الإمام . ومن أقواله : « خير البلاد ما حملك .. وخير القول ما نفع .. ولا خير في علم لا ينفع » . وعليه فلا فرق أبداً بين من أقلّ أو استكثر من المعلومات وحفظ الأقوال والنظريات اذا لم تكن وسيلة الى الوعي والتنوير ، وحياة أنفع وأكمل ، فكيف بمن استكثر من الجهالات والأساطير التي تُعمي عن الحق ، وتُبعد عن الواقع ؟.

(حتى اذا ارتوى من ماء آجن) . كنى الإمام (ع) بالماء العفن المتغير لوناً والمستكره طعماً ، كنى به عن البدع والجهالات والأساطير والخرافات (واكتنز من غير طائل). أي ان هذا الغر الجاهل بعد أن جمع وحفظ الكثير من صفحات الكتب والمجلدات المضللة ، والروايات الكاذبة (جلس بين الناس قاضياً) . ولا يجلس هذا المجلس إلا نبي أو وصي نبي أو شقـي ، . وفي بعض التفاسير ان المراد بالأمانة القضاء في قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً — ٧٢ الأحزاب » . هذه صورة طبق الأصل عن بعض قضاة المحاكم الجعفرية بلبنان ، الى جانب الاشاعة عن بعضهم بالرشوة والفجور وشرب الخمور .. ولو جرت عملية التكرير والتطهير ، وأخذ العدل مجراه لكان أكثرهم في السجن مع المجرمين. نحن الآن في سنة ١٩٧١ م .

(ضامناً لتخليص ما التبس على غيره) . فهو وحده بزعمه العالم اللامع الذي يرى ما لا يرى العلماء ، ويعرف ما لا يعرفون ، ويحل المعضلات التي استعصت على أهل الفكر والعلم . أما كيف ؟ ومن أين نال وتوصل الى هـذه المنزلة فمن ذاته التي تتفجر تحقيقاً وتدقيقاً ، لا من جده واجتهاده .

(فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه ، ثم قطع به) . ان الله في كل واقعة حكماً ، والطريق الى معرفته الأدلة الأربعة : الكتاب والسنة والاجماع والعقل ، وقد تفيد هذه الأصول العلم بحكم الله لجميع النـاس كوجوب الصلاة والصيام ، وكثيراً ما يتعذر استخراج الحكم منها إلا على أهل النظر والاجتهاد بخاصة إذا كان في الواقعة جهة صلاح وجهة فساد ، وتصارعت الآراء في الموازنة

بينهما والترجيح والتقديم على أساس الشريعة ومبادئها ، ولكن الجسور المغرور الذي عناه الإمام (ع) يلفق من خياله وأوهامه (حشواً رثاً) أي كلاماً فارغاً (ثم يقطع به) ويقول : هذا هو الحق الذي لا ريب فيه .. وهكذا يعيش في دنيا الظلام والأوهام من يتخذ من ذاته مقياساً لكل شيء ، ويجهل أو يتجاهل الحق والواقع .

يعيشون جهالاً ويموتون ضلالاً .. فقرة ٣ ـ ٥ :

فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ ٱلْعَنْكَبُوتِ . لا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخطَأَ فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخطَأَ . وَإِنْ أَخطَأَ رَجا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ[٣] جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالاَتٍ . عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ لَمْ يَعَضَّ عَلى ٱلْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ يُذْرِي الرِّوَايَاتِ إِذْرَاءَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ . لاَ مَلِيءٌ وَاللهِ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ . وَلاَ هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوِّضَ إِلَيْهِ . لاَ يَحْسَبُ ٱلْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ وَلاَ يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ . وَإِنْ أَظْلَمَ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ[٤] . تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ . وَتَعِجُّ مِنْهُ ٱلْمَوَارِيثُ . إِلَى اللهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً وَيَمُوتُونَ ضُلاَّلاً لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ . وَلاَ سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً وَلاَ أَغْلَى ثَمَناً مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَلاَ عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ وَلاَ أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ[٥] .

اللغة :

اللبس – بفتح اللام – الاختلاط وعدم الظهور والوضوح . والخبط : الضرب؛ ويقال ، يخبط خبط عشواء لمن يتصرف في الأمور عــلى غير بصيرة . والعاشي والأعشى : ضعيف البصر . وذرت الريح التراب : أطارتــه . والهشيم : النبت اليابس المتكسر . وكل ما يُتجر به يسمى سلعة .

الإعراب :

جاهل خبر ثان لهو ، وخباط صفة جاهل ، ومثله ولا مليء . وبإصدار متعلق بمليء ، وما بلغ مجرور بالإضافة ، ومذهباً مفعول يرى ، وجهالاً حال من واو يعيشون ، وضلالاً حال من واو يموتون ، وفيهم خبر مقدم لليس ، وسلعــة اسمها ، وأبور صفة لسلعة ، وبيعاً تمييز ومثله ثمناً .

المعنى :

(فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت) . الراسخون في علم الكتاب والسنة هم المرجع في دفع الشبهات عن دين الله وشريعته ، وحل المشكلات حين تلتبس الآراء ، وتختلف الأهواء ، لأنهم على يقين من معرفة الحق ، أما الجاهل الذي يتسم بسمات أهل العلم وليس منهم فهو عارٌ وشنار على الدين واهله ، لأنه في ضعفه علماً وفهماً كنسج العنكبــوت ، وما أضعف من يتقي بهذا النسج من العدو وضرباته .

(لا يدري أصاب أم أخطأ) . جاهل لا يعرف قدره ، ولا يقف عنده ، بل يقتحم الشبهات ، ويقول بالظنة ، ويحكم بالتهمة (فإن أصاب) صدفةً ورميةٌ من غير رامٍ (خاف أن يكون قد أخطأ) لجهله بمدرك الصواب ومواقعه (وان أخطأ رجا أنّ يكون قد أصاب) لعماه عن أسباب الخطأ وموارده ، ومن أقوال الإمام (ع) في الثناء على المؤمن : « يقول فيفهم ، ويسكت فيسلم » .

(جاهل خباط جهالات ، عاشٍ ركاب عشوات) . وتومىء صيغة المبالغة

في خبّاط وركّاب الى كثرة الأغلاط والأخطاء (لم يعض على العلم بضرس قاطع). أي لا يعتمد في أقواله وأحكامه على أصل ثابت ، وقاعدة صحيحة (يُذري الروايات اذراء الريح الهشيم) . المراد بالروايات هنا كل نقل يُثبت قول المعصوم أو فعله أو تقريره ، ويذري الروايات كناية عن جهله بدلالاتها ووقائعها (لا مليء والله بإصدار ما ورد عليه) فارغ من العلم ، فإذا وردت عليه إحدى القضايا قال فيها بالجهل والغباء ، وحكم بالجور والأهواء (ولا هو أهل لما فوض اليه) . وتولى منصب القضاء بالشفاعات والرشاوات .

(لا يحسب العلم في شيء مما أنكره) . زين له الجهل انه أحاط بكل شيء علماً ، وان ما غاب عنه فليس بعلم .. وان قال سبحانه : « وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً — ٨٥ الإسراء » .. (ولا يرى ان من وراء ما بلغ مذهباً لغيره) . ليس للعلماء — في زعمه — بحوث وتجارب ، ولا للأئمة آراء ومذاهب، ولا للعلوم تقدم وتطور .. أبداً لا شيء إلا عقله وفهمه ، وهو الحكيم الخبير .. وهذه أبشع صورة للجاهل ، وقد يُظن انها ضرب من المبالغة .. كلا ، هي عين الواقع ، ومن تتبع وتأمل رآها في أكثر من واحد .

(وان أظلم) أي خفي (عليه أمرٌ اكتتم به) ستر جهله بالأمر الذي خفي عليه (لما يعلم من جهل نفسه) ومع هذا يتظاهر بالعلم والمعرفة كيلا يُعد مع الجاهلين (تصرخ من جور قضائه الدماء) . أي ان الدماء التي يحكم بها تنطق بلسان الحال انها أريقت ظلماً وعدواناً (وتعج منه المواريث) لحكمه فيها بغير ما أنزل الله سبحانه (الى الله أشكو من معشر يعيشون جهّالاً ،ويموتون ضلالاً). والعيش في الجهل مع التظاهر بالعلم موت على الفساد والضلال ، ولا شيء وراء هذا العيش أو الموت إلا الداهية والهاوية .

(ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب اذا تلي حق تلاوته) . المراد بالتلاوة هنا الفهم السليم ، والتفسير القويم لآيات الله ، والمعنى ان هؤلاء المعاشر اذا فُسر القرآن بالحق وبغير ما تهوى أنفسهم أعرضوا عنه وعاندوه (ولا سلعة أنفق بيعاً، ولا أغلى ثمناً من الكتاب اذا حُرّف عن مواضعه) وأوّل بما يشتهون .. فالدين عندهم المصلحة وكفى (ولا عندهم أنكر من المعروف) لأنه يخالف أهواءهم (ولا أعرف من المنكر) لأنه على وفق مقاصدهم .. قال الشيخ محمد عبده : وما أشبه حال هذه المعاشر بالمعاشر من أهل هذا الزمان .

الخطبة

-١٨-

تَرِدُ عَلى أَحدِهِمُ ٱلْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرأْيِهِ ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ ٱلْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِهِ ثُمَّ يَجْتَمِعُ ٱلْقُضَاةُ بِذٰلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلٰهُهُمْ وَاحِدٌ وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ . أَفَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالِاخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ . أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ[1] أَمْ أَنْزَلَ اللهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلى إِتْمَامِهِ . أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ . فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تَامّاً فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَائِهِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : « مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » وَقَالَ : «فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ» . وَذَكَرَ أَنَّ ٱلْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً وَأَنَّهُ لَا ٱخْتِلَافَ فِيهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً » . وَإِنَّ ٱلْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ . وَبَاطِنُهُ

عَمِيقٌ . لَا تَفْنَى عَجَائِبُـهُ وَلَا تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ[٢] .

اللغة :

استقضاهم : طلبهم أو اختارهم للقضاء . والتبيان : التوضيح . والأنيق : الحسن الذي يسُرّ الناظرين .

الإعراب :

الذي استقضاهم صفة للإمام ، وجميعاً حال من الضمير في آرائهم . ومن زائدة ، وشيء مفعول فرطنا ، والمصدر من الكتاب الخ مفعول ذكر .

المعنى :

هذه الخطبة واضحة في ذم الجهل والعمل بالرأي ، وتلتقي مع التي قبلها على صعيد واحد ، ومن أجل هذا نشرحها بإيجاز ما أمكن (ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه) لا بالأصول المقررة للشريعة وأحكامها . ومن البداهة ان أحكام الله سبحانه لا تصاب بالآراء ، ولا تدرك أسرارها بالأفكار (ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه) . قد ينبع الاختلاف بين الفقهاء من الاختلاف في فهم آية أو صحة رواية ، وهذا جائز ومشروع ، ما في ذلك ريب ، والمخطىء معذور ، بل ومأجور مع بذل الجهد وإفراغ الوسع في البحث والتنقيب،وقد ينبع الاختلاف من مجرد الاختلاف في الرأي والاستحسان وهذا محظور ، وصاحبه آثم حتى ولو أصاب الواقع اذا ادعى الاجتهاد زوراً وبهتاناً ، وهو المقصود من كلام الإمام .

(ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم) . المراد بالإمام هنا الخليفة الذي صيرهم قضاة ، و « بذلك » إشارة الى الحكم الذي اختلفوا فيه (فيصوب آراءهم جميعاً) مع العلم بأنه ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما

ضلالة ، كما قال الإمام (ع) .. (وإلههم واحد ، ونبيهم واحد ، وكتابهم واحد) . واذن فلماذا الاختلاف ؟. ومرة ثانية نشير الى ان مراد الإمام الاختلاف الذي لا مصدر له إلا الرأي والاستحسان المشوب بالجهل والغرض .

(أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه ، أم نهاهم عنه فعصوه) . بل أمرهم بالوحدة ، ونهاهم عن الفرقة . قال سبحانه : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم – ٤٦ الأنفال » .. (أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً الخ) . أشار الإمام (ع) الى جميع الفروض والاحتمالات التي تبرر اعتمادهم على الرأي ، وأوردها في صورة الاستفهام مع النفي والإنكار ، والغرض إثبات النقيض وتأكيده:

هل عجز الله عن تشريع أحكامه ، وخفيت عليه أسرارها فاستعان بهيئة منهم تخطط وتشرع ؟.

هل هم شركاؤه في خلقه أو في دينه أو أذن لهم ؟.

هل قصّر محمد (ص) في التبليغ فأتموه وأكملوه ؟.

وإذا لم يكن من ذلك شيء ثبت انهم على الحق يفترون ، وقد خاب من افترى .. وقال الشيخ محمد عبده : استدل أمير المؤمنين عليه السلام بثلاث آيات: بالأولى على عدم النقصان ، وهي : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . وبالثانية على الوضوح مع التمام ، وهي : « فيه تبيان كل شيء » . وبالثالثة على عدم لاختلاف والتناقض ، وهي : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » . فلا يكمل بالرأي دين وصفه كذلك .

الخطبة

- ١٩ -

كان الإمام (ع) يخطب على منبر الكوفـة ، فاعترضه الأشعث بن قيس في بعض كلامه ، وقال : يا أمير المؤمنين هذا عليك لا لك ، فخفض الإمام اليه بصره ، ثم قال :

عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين :

مَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي ، عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ وَلَعْنَةُ ٱللَّاعِنِينَ . حَائِكٌ ٱبْنُ حَائِكٍ مُنَافِقٌ بْنُ كَافِرٍ وَاللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ ٱلْكُفْرُ مَـرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى . فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِـدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلَا حَسَبُكَ وَإِنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفَ . وَسَاقَ إِلَيْهِمُ الْحَتْفَ . لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الأَقْرَبُ . وَلَا يَأْمَنَهُ الأَبْعَدُ .

الإعراب :

« ما » الأولى استفهام فيه معنى الإنكار ، ومحلها الرفع بالابتـداء ، وجملة

يدريك خبر ، ومثلها « ما » الثانية ، وعلـيّ خبرها ، ومضمون الجملة مفعول يدريك ، و «ما» موصول مجرور بمن ، ويتعلق بما تعلقت به علي ، ولي صلة ، وحائك خبر لمبتدأ محذوف أي أنت حائك . والمصدر من أن يمقته منصوب بنزع الخافض .

الأشعث بن قيس :

يقال : رجل أشعث أي مغبر الرأس متلبد الشعر ، أو منتشره تقول : لمّ الله شعثكم أي جمع أمركم ، واسم الأشعث معدي كرب ، وغلب عليه الأشعث حتى نسي اسمه ، لأنه كان أشعث الرأس ، واسم أبيه قيس الأشجّ ، لأنه شج في بعض الحروب . ونقل ابن أبي الحديد عن (تاريـــخ الطبري) : « كان المسلمون يلعنون الأشعث ، ويلعنه الكافرون أيضاً ، وسماه نساء قومه عُرف النار ، وهو اسم للغادر » . وعُرف النار تشبيهاً بعرف الديك .

وقال الشيخ محمد عبده : أسلم الأشعث في زمن النبي ، وارتد بعد موته ، وكان من أصحاب علي ثم خرج عليه. وقال محمد عبده وكثير من أهل السير والتاريخ: « كان الأشعث في أصحاب الإمـــام (ع) كعبدالله بن أبـي سلول في أصحاب النبي (ص) كل منهما رأس النفاق » واشترك الأشعث في دم الإمام أمير المؤمنين (ع) ، وابنُه محمد في دم الإمام الحسين سيد الشهداء (ع) ، وابنته جعـــدة ناولت الإمام الحسن الزكي السم الذي مات به بعد أن وعدها معاوية بالزواج من ولده يزيد. وهكذا جمع الأشعث اللؤم من أطرافه .

وقال طه حسين في كتاب « علي وبنوه » طبعة ١٩٦٤ ص ٨٠ « أسلم الأشعث أيام النبي (ص) ثم ارتد بعد وفاته ، وألب قومه حتى ورطهم في حرب المسلمين، ثم أسلمهم – الى القتل – وأسرع هو الى المدينة تائباً » .

وقال الدكتور طه في ص ٨١ : « لا أستبعد أن يكون الأشعث قد اتصـل بعمرو بن العاص ، ودبرا أن يقتتل القوم – أي جيش علي ومعاوية – فإن ظهر أهل الشام فذاك ، وان خافوا هزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف ، وأوقعوا الفرقة بين أصحاب علي ، وقد تم لهما ما دبرا ، واستكره الأشعث ومن أطاعـه

علياً على كف القتال ، وأكبر الظن ان المؤامرة لم تقف عند هذا الحد ، وإنما تجاوزته الى ما هو أشد خطراً ، وهـــو اختيار الحكمين .. فقد كان علي إذن مكرهاً على قبول التحكيم ، ومكرهاً على اختيار أحد الحكمين ، ولم تأت الأمور مصادفة ، وإنما جاءت عن ائتمار وتدبير » .

ابن العاص يخلص لمعاويـــة — وبالأصح يخلص لنفسه لأنه شريك معاوية في الربح والغنيمة ، والأشعث يتآمر ويغدر بالإمام (ع) لأن دنياه عند معاوية ، ولا شيء عند الإمام إلا الدين .. وأية حاجة للأشعث وأمثال الأشعث بالـــدين إذا لم يكن وسيلة للدنيا وحطامها ؟.

المعنى :

(ما يدريك ما علي مما لي) . الأشعث المرتد والمنافق الوغد يُحدد ويُعرف من قال فيه الرسول الأعظم (ص) : « علي مع الحق ، والحق مع علي » يعرفه بما يجب له وعليه .. ولا جواب لهذا الوقح الخاسر إلا ما قال سبحانه لابليس : « وان عليك اللعنة الى يوم الدين — ٣٥ الحجر »

(حائك ابن حائك) . قال ابن أبي الحديد والشيخ محمد عبده وغيرهما : ان « الحائكين أنقص الناس عقلاً ، وأهل اليمـــن يعيرون بالحياكة ، والأشعث يمني من كندة ، وقال عارف بأهل اليمن : ما فيهم إلا حائك برد ، أو دابغ جلد ، أو سائس قرد ، ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم فأرة ، ودل عليهم هدهد » .

(منافق ابن كافر) . كان أبو الأشعث من المشركين ، أما هو فمن المنافقين والمرتدين كما تقدم . (اسرك الكفر مرة ، والاسلام أخرى) . قُتل قيس أبو الأشعث في الجاهلية ، فخرج طالباً بثأر أبيه من القاتل فأسر ، فالأب قتيل والابن أسير .. أما قول الإمام (ع) للأشعث : (فما فداك من واحد منهما مالك ولا حسبك) ، فمعناه ما منعك من خزي الجبن ومنقصته ، وعار الأسر ومذلته — مال ولا حسب . وحسب المرء عند العرب هو ما يدعيه من مفاخر الآباء والأجداد .

ويشير الإمام بأسر الاسلام الى ارتداد الأشعث وخروجه مع قومه لقتال المسلمين ، ولما أسروه أظهر التوبة ، وأضمر الكفر (وان امرءاً دل على قومـــه السيف ،

وساق اليهم الحتف الخ). لما ارتد الأشعث وقومه عن الاسلام حاربهم المسلمون وحاصروهم أياماً ، فطلب الأشعث الأمان له ولعشرة من أهله وإخوانه ، وتجاهل غيرهم ، ثم فتح الحصن واستسلم هو والعشرة للأسر ، وترك بقية قومه للسيف والحتف ، وهم ٨٠٠ فقتلوا بكاملهم ، ومن أجل هذا الغدر أسماه النساء : عُرْف النار ، والى هذا أشار الإمام (ع) بقوله : « وان امرءاً دل على قومه السيف » الخ .

الخطبة

- ٢٠ -

قريب ما يطرح الحجاب:

فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ. وَلٰكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا. وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ وَهُدِيتُمْ إِنِ ٱهْتَدَيْتُمْ. بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ ٱلْعِبَرُ وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا ٱلْبَشَرُ.

اللغة:

الجزع والفزع والوهل والخوف بمعنى واحد. والعبر جمع عبرة وهي الموعظة، والمراد بها هنا الاعتبار، قاله سبحانه: « ان في ذلك لعبرة لمن يخشى ». ومزدجر – بفتح الدال – ما فيه ردع ومنع عن التقحم في المعاصي والآثام.

الإعراب :

محجوب مبتدأ ، وما قد عاينوا « ما » اسم موصول نائب فاعل لمحجوب وقد سد مسد الخبر . وما يطرح الحجاب « ما » مصدرية ، والمصدر المنسبك مبتدأ مؤخر ، وقريب خبر مقدم أي وطرح الحجاب قريب . وفيه خبر مقدم، ومزدجر مبتدأ مؤخر ، والجملة صلة الموصول .

للمنبر — الدنيا جنازة :

الدنيا جنازة وقبر ، ومجلس فاتحة وعزاء ، وحفلة تأبين ورثاء .. ثم ينتهي كل شيء .. أبداً كأن لم يكن إلا مرور عابر ، أو هواجس خاطر .. واذن قد كشفت الدنيا عن عيوبها ، ولم تخف منها شيئاً ، والبصير من أبصر وتذكر .

وللموت حشرجات وسكرات ، وللقبر وحشة وظلمات .. ولو أيقن المرء بهذا وتنبه له كأنه أمام عينيه — لاتقى محارم الله ، وعمل لآخرته كأنه يموت في ساعته .. ولماذا لا يوقن ويعتبر ، ويتذكر ويزدجر ، وقد حُذّر من الغفلة وسوء المصير ، وأنذر بالحجج البوالغ على لسان الأنبياء والأوصياء والعلماء والمبلغين؟

وقال قائل من الفلاسفة: « التفكير فن لا علم » . ويرجح في ظننا ان التفكير فن وعلم ودين وتطور وتقدم إذا كان سلماً وسيلة للإيمان والنعيم .. والفن أو العلم داهية وكارثة إذا كان سبيلاً للبلاء والشقاء .

هذا محصل ما يهدف اليه الإمام (ع) من كلامه هنا وشرحته بهذا الأسلوب لأني — حين انتهيت الى هذه الخطبة — تنبهت الى ان الوعاظ والمبلغين يتطلعون الى خطب النهج وشرحها ، فحاولت التعاون معهم ولو باليسير كلما دعت الحاجة أو شعرت من نفسي الميل والرغبة الى ذلك .. وان أذكر هذا اليسير في موارده بعنوان من العناوين ليهتدي اليه بسهولة من يهمه الأمر اذا راجع الفهرست ، وان استقل ما ذكرت تحت هذا العنوان « المكرور » فإن الكلمة الحية تنتقل بالقارىء المفكر الموهوب الى أجواء وأجواء..على ان القليل المقبول خير من الكثير المملول.

ويضاف الى هذا انه لو جمع شتات هذه الكلمات التي اكتبها تحت العنوان المذكور لاستوعبت عشرات الصفحات .

ولا يعني هذا ان ما يصلح مادة للتبليغ والإرشاد ينحصر بما قلته بعنوان : «للمنبر» كيف وكل خطب النهج هي حكم ومواعظ ، والشرح تابع للأصل ؟.. ولكن الذي عنيته هو التركيز على قصد الموعظة والخطابة مما ذكرته بهذا العنوان والاهتمام به أكثر من أي شيء آخر على أساس المعنى الذي أراده الإمام (ع) . وقد أترك كلمة « المنبر » مكتفياً بما يشير الى الموضوع .

الخطبة

- ٢١ -

تخففوا تلحقوا :

فَإِنَّ ٱلْغَايَةَ أَمَامَكُمْ وَإِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ . تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا . فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ .

المعنى :

(فإن الغاية أمامكم) : المراد بالغاية هنا النهاية ، وليس من الشك ان الموت نهاية الانسان ، ولا شيء بعده إلا الحساب والجزاء الأوفى على ما قدم .. إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر (وان وراءكم الساعة تحدوكم) . المراد بالساعة هنا القيامة ، وتحدوكم أي تسوقكم ، وقال : وراءكم . مع ان القيامة أمامنا تنزيلاً لها منزلة السائق الذي الذي يسوقنا الى ما نسير اليه لا محالة . ومن أقوال الإمام (ع) : كل نفس معها سائق وشهيد : سائق يسوقها الى محشرها ، وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال : من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وان كان واقفاً ، ويقطع المسافة وان كان مقيماً وادعاً ، أي ساكناً .

(تخففوا تلحقوا) بفتح التاء ، ومن كان خفيف الجسم والحمل أسرع في في خطاه ، ولحق بالذين سبقوه ، ومراد الإمام (ع) ان من تحرر من الذنوب

والأوزار لحق بالسلف الصالح ، وحُشر معهم وفي زمرتهم (فإنما ينتظر بأولكم آخركم) . يمثل الانسان دوره في هذه الحياة ، ثم يمضي الى حفرته ، ويمكث إلى يوم يبعثون ، ويأتي بعده الأولاد والأحفاد ليمثلوا دورهم ، ونهاية الكل واحدة ، والسابق ينتظر اللاحق ، ولا يسبقه الى البعث والحساب . حتى إذا جاء أمر الله لما يريده من تجديد خلقه بعث سبحانه الأجيال كلها دفعة واحدة،وحشرهم للحساب والجزاء بلا ترتيب وتقديم وتأخير .. فالتقديم والتأخير إنما هو في الحياة والموت لا في النشر والحشر .

الخطبة

- ٢٢ -

واني لراض بحجة الله .. فقرة ١ — ٣ :

ألاَ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَرَ حِزْبَهُ وَٱسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ ، وَيَرْجِعَ ٱلْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ . وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً ، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِفاً[1] وَإِنَّهُـمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ . فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ . وَإِنَّ أَعْظَـمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ . وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ . يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي . مَنْ دَعَا وَإِلاَمَ أُجِيبَ وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ . وَعِلْمِهِ فِيهِمْ[2] . فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ . وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَنَاصِراً لِلْحَقِّ . وَمِنَ ٱلْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنِ ٱبْرُزْ لِلطِّعَانِ . وَأَنِ ٱصْبِرْ لِلْجِلاَدِ هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ وَلاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ . وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي . وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي[3] .

اللغة :

ذمر : حث وحض . الجلب – بفتح اللام – مصدر بمعنى المفعول ، وهو المجلوب من بلد الى بلد . والمراد به هنا الجمع . والنصاب : الأصل . والنصف: العدل . والتبعة : ما يترتب على فعل الشر من المؤاخذة . وهبلتهم : ثكلتهم . والهبول : النساء الثاكلات .

الإعراب :

إلا للتنبيه ، وجملة هم تركوه حال من واو يطلبون ، ويجوز أن تكون صفة «حقاً» وخيبة منادى أي أيتها الخيبة احضري فهذا أوانك ، ومن دعا مبتدأ وخبر وفيه معنى التعجب ، والباء في «به» زائدة ، والهاء في محل رفع على الفاعلية ، وشافياً تمييز ، ومن العجب خبر مقدم ، وبعثهم مبتدأ مؤخر ، والى متعلق به، والمصدر من ان أبرز مفعول لفعل محذوف أي يطلبون البراز ، وما اهدد الواو زائدة دخلت على خبر كان لمجرد تزيين الكلام .

المعنى :

(الا وان الشيطان قد ذمر – أي حث – حزبه) على معصية الله والرسول .. ان لله سبحانه حزباً ، وللشيطان أيضاً حزباً ، وقد حدد الله في كتابه العزيز كلاً من الحزبين تحديداً واضحاً لا لبس فيه ، قال في تحديد حزبه تعالى : «ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون – ٥٦ المائدة» . والمراد بالولاية هنا الطاعة بقرينة الحال ، وبالذين آمنوا أهل العصمة من آل محمد (ص) الذين ساوى النبي بينهم وبين القرآن ، وأمر بالتمسك به وبهم في حديث الثقلين الذي رواه مسلم في صحيحه وغيره من علماء السنة ، وأيضاً قال سبحانه عن حزبه: «رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون – ٢٢ المجادلة» . أما حزب الشيطان فقد أشار اليه سبحانه بقوله : «استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم

الخاسرون ــ ١٩ المجادلة » . فحزب الشيطان هم الذين نسوا ولاية الله ورسوله وأهل بيته .

(واستجلب جلبه) . بعد أن حث الشيطان أتباعه وحزبه على معصية الله جمعهم لحرب الحق وأهله، والمراد بحزب الشيطان أصحاب الجمل كما تدل الكلمات الآتية ، وقال الإمام (ع) في خطبة سبق شرحها : « ألا وان الشيطان قد جمع حزبه ، واستجلب خيله ورجله » .. (ليعود الجور الى أوطانه ، ويرجع الباطل الى نصابه) . أي ان الشيطان بعد ان انتقل النبي(ص) الى الرفيق الأعلى زين لبعض المسلمين الارتداد عن الاسلام ، والرجوع الى شرك الجاهلية (والله ما أنكروا علي منكراً) . الضمير في أنكروا يعود الى الناكثين ، ان الذين نكثوا بيعة الإمام (ع) وحاربوه ما وجدوا عليه أية حجة ، أو عذراً لهم يتذرعون به ، بل الحجة له عليهم (ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً) . ما دعوه الى المحاكمة عند عالم عادل ينصف بينه وبينهم ، بل أعلنوا عليه الحرب ابتداء وبلا سابقة .

(وانهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه) . المراد بالدم هنا دم عثمان ، وبالحق القصاص من قاتليه ، وأشرنا فيما سبق الى ان هوى الزبير كان مع الثائرين علي عثمان ، ولكنه لم يتظاهر ، وان طلحة كان يحرض على قتله ، ولا يخفي ميله الى الثائرين ، أما عائشة فكانت من أشد الناس انكاراً على عثمان حتى قيل : انها لم تتحرج من الجهر بقولها : اقتلوا نعثلاً ، قتل الله نعثلاً أي عثمان.. قتلوا عثمان ليصلوا الى مكانه ، ويحلوا محله في الخلافة ، ولما انقطع أملهم طالبوا الأبرياء بدمه ، وهنا محل الغرابة ..

وأعجب من هذا التناقض أن يؤمن من يؤمن بأن عثمان وطلحة والزبير هم من العشرة الذين بشّرهم النبي (ص) بالجنة .. ومعنى هذا ان القاتل عمداً والمقتول ظلماً ــ بزعمهم ــ عند الله سواء !.. وهكذا يمجد الجهلة الأغبياء أبطال الخداع والأدعياء من حيث لا يشعرون !.

(فلئن كنت شريكهم فيه ــ أي في دم عثمان ــ فإن لهم نصيبهم منه) . من اشترك مع غيره في جريمة من الجرائم فهما بمنزلة سواء، حساباً وعقاباً . ومن أقوال الإمام (ع) : أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله. (ولئن كانوا ولوه دوني فما التبعة إلا عندهم) . إن لم يكن الإمام شريكاً مع عائشة وطلحة والزبير في دم

عثمان فهم وحدهم المسؤولون عنه والمؤاخذون عليه ، وإذن بأي مبرر يطالبون بدمه ؟.. سلام الله عليك يا مولاي .. أنت تنطق بلسان الله والحق،وهم يتكلمون بلغة الساسة والسياسة .

(وان أعظم حجتهم لعلى أنفسهم) . لأنهم يزعمون ان عثمان قُتل مظلوماً وهم القتلة ، ومعنى هذا انهم قد حكموا بأنفسهم على أنفسهم (يرتضعون أماً قد فطمت) وجف لبنها ، يريد الإمام بهذا المثال ان طلحة والزبير يطلبان الخلافة بعد أن أدبرت عنهما ونفرت منهما ، ولقلّما أدبر شيء فأقبل كما قال الإمام. (ويحيون بدعة قد أميتت) . المراد بالبدعة هنا سيرة عثمان في توزيع الأموال والمناصب ، أما إحياء طلحة والزبير لهذه البدعة فهو محاولتهما أن يعيدا هذه السيرة الى الحياة .. وكان طلحة قد طلب من الإمام الولاية على البصرة كما طلب الزبير الولاية على الكوفة ، ومراده بإمامة هذه البدعة انه قد أبطل هو سيرة عثمان وقضى عليها .

(يا خيبة الداعي) . قال ابن أبي الحديد : « الداعي هو أحد الثلاثة : الرجلين والمرأة) أي طلحة والزبير وعائشة (من دعا) !. هذا تحقير للداعي وشأنه ، والاستخفاف به وبدعوته تماماً كما تقول لمن تزدريه : من أنت !.. (وإلام أجيب) ! الى البغي والجور !. حاشا لله وللمعصومين من أوليائه (واني لراض بحجة الله عليهم) وهي الوفاء بالعهد . قال تعالى : « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً — ٣٤ الإسراء » . وقال : « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا — ١٧٧ البقرة » .. (وعلمه فيهم) بأنهم نكثوا العهد ، ومن نكثه حلت عقوبته . قال تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه — ١٠ الفتح » أي سقطت حرمته بعد أن انتهك حرمة الحق والعهد .

(فإن أبوا) عن الوفاء بعهد البيعة وأصروا على إيقاظ الفتنة وإعلان الحرب (أعطيتهم حد السيف) للقضاء على الفتنة والفساد (وكفى به — أي بالسيف — شافياً من الباطل ، وناصراً للحق) . الإمام يستعمل السيف ليحطم به سيف البغي والضلال . ومن أقواله : من أنكر المنكَر بسيفه لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الظالمين هي السفلى — فذاك الذي أصاب سبيل الهدى ، وقام على

الطريق ، ونوّر في قلبه اليقين .

(ومن العجب بعثهم إليّ أن ابرُز للطعان ، وأن اصبر للجلاد) . وموضع العجب انهم أعرف الناس بشجاعة الإمام وثباته . (هبلتهم الهبول) دعاء عليهم بالثكل . (لقد كنت وما أهدد بالحرب الخ) قال الشيخ محمد عبده : « بيّن الإمام في الجُمل الأخيرة انه خُلق للحرب ، فهو لا يهابها من طبعه ، ثم ازداد إقداماً عليها ، لأنه على يقين من ربه في حقه ، وانه ما اعترته شبهة قط في دينه ، فكيف يهدد أو يرهب من حاله كذلك » ؟.

الخطبة

-٢٣-

اعملوا في غير رياء ولا سمعة .. فقرة ١ ــ ٢ :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً . فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ الْبَرِيءَ مِنَ الْخِيَانَةِ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَتُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ . وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَغْرَمُ(١) وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ . إِمَّا دَاعِيَ اللهِ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُ . وَإِمَّا رِزْقَ اللهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ . إِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ لِأَقْوَامٍ فَاحْذَرُوا مِنَ

اللهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ . وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللهِ يَكِلْهُ اللهُ إِلَى مَنْ عَمِلَ لَهُ . نَسْأَلُ اللهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ . وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ وَمُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ(٢) .

اللغة :

الغفيرة : الزيادة . وغشا زيد بكراً : أتاه . ويغري : يحرض . والفالج : الرابح . والياسر : اللاعب بالميسر أي بالقمار . والقداح : سهام يُلعب بها بالقمار. والمغنم : المنفعة . والمغرم : المضرة . والحرث : ما يعود على الحارث بالنفع . والتعذير : العذر الكاذب . والسمعة : الشهرة أو ما يقصد به الشهرة .

الإعراب :

أما للتوكيد ، وبعدُ ظرف مبني على الضم في محل نصب متعلقاً بفعل محذوف أي نزولاً مثل نزول قطرات،وما لم يغش «ما» مصدرية ظرفية،والمرء اسم أن ، وكان كالفالج خبرها ، وكذلك المرء مبتدأ وخبر ، فإذا هو « اذاً » للمفاجأة .

المعنى :

تكلم الإمام (ع) كثيراً عن الرزق في خطبه ورسائله وحكمه ، ويأتي البيان ، وكلامه واضح وصريح في ان الرزق مقدَّر ومقسوم ، من ذلك قوله : (أما بعد فإن الأمر ينزل من السماء الى الأرض كقطرات المطر الى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان) . قال الشيخ محمد عبده في تعليقه: ان المطر مقدر بالقياس الى الأماكن التي يسقط فيها ، وهو مصدر ارزاق الخلائق . واقتبس الشيخ هذا المعنى من ابن أبي الحديد ، كما هو شأنه في أكثر أقواله وتعليقاته ، وقد ينقل العبارة بنصها الحرفي .

للمنبر — في الرزق:

كتبت كثيراً عن الرزق وأسبابه في « التفسير الكاشف » .. أنظر فقرة « الرزق وفساد الأوضاع » في تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ، وفقرة « هل الرزق صدفة أو قدر » في تفسير الآية ١٠٠ من هذه السورة ، وفقرة « الانسان والرزق» عند تفسير الآية ٢٦ من سورة الرعد، وفقرة « الرزق والثقة بالمخلوق دون الخالق» عند تفسير الآية ٦٠ من سورة العنكبوت ، وفقرة « الرزق بالعمل لا بالدعاء » عند تفسير الآية ٢٧ من الشورى .

والآن أعود الى هذا الموضوع للمرة السادسة ، وبعد التأمل والتفكير العميق ، وتتبع الآيات والروايات ، وبعد التجارب مرات ومرات — انتهيت الى الإيمان القاطع بأنه لا يحدث شيء في الوجود من جليل أو حقير إلا ولله فيه قضاء وتدبير.. وهذا هو الأصل الأول ، والمبدأ الأساسي لعقيدتي في كل الميادين ، وفلسفتي لكل بحث أتكلم فيه أياً كان نوعه وموضوعه .

وليس معنى هذا ان الله سبحانه يتولى كل صغيرة وكبيرة بنفسه مباشرة وبلا واسطة ، بل معناه ان كل شيء خاضع لسلطانه تعالى ، وانه لا شيء يحدث في الأرض والسماء قسراً لإرادته ، ولكنه ، جلت حكمته ، شاء أن يربط المسببات بأسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، وهو تعالى القوة المبدعة لكل مقدمة وسبب، ويعني هذا ان الله يقسم الأرزاق ، ولكن عن طريق العمل ، ويهب الأولاد بواسطة الزواج ، ويمنح الشهرة والجاه لأهل العلم والموهبة والخدمات الانسانية .. وهكذا كل جهد يبذله الانسان يمكن أن يحقق النتائج المقصودة بمشيئة الله تعالى ، لأنه هو الذي خلق الكون بما فيه ، ولو شاء لذهب به وبما يحويه .

وتسأل : أليس معنى هذا ان الانسان مسيَّر لا مخيَّر ، وبالتالي انه غير مسؤول أمام الله عن سلوكه وأفعاله ؟

الجواب :

إن الله سبحانه منح الانسان العقل والقدرة والارادة ، وبالعقل يميز ، وبالقدرة يفعل ، وبالإرادة يستطيع أن يختار أحد النجدين : طريق الخير ، وطريق الشر: ويسلك أيهما شاء . وعلى هذا يكون للانسان شيء من الحرية يستتبع المسؤولية أمام الله .. وقد تكلمنا عن ذلك مفصلاً في ٦٦ صفحة من كتاب : « فلسفة التوحيد والولاية » بعنوان « فلسفة الاختيار » .

سؤال ثانٍ : هل الرزق الحرام أيضاً مقسوم ومقدر من الله تعالى ؟.

الجواب :

يستحيل في حقه سبحانه أن يحرم على الانسان أخذ المال بلا مبرر ، ثم يجعله رزقاً له ، لأن ما حرُم أخذه حرم عطاؤه .. بالاضافة الى انه تشجيع على الحرام وفعله .. ولكن اذا اختار الانسان رزقه من الحرام يتركه الله وسوء اختياره ، وفي الوقت نفسه يحرمه من الرزق الحلال الذي كان مقدراً له ، ثم يحق عليه القول بنزول العذاب .

وفي الآثار : ان السارق اذا سرق حسبه الله من رزقه ، وكان عليه إثمه ، ولو صبر لنال ذلك من وجهه المشروع . وخير ما قرأت في باب الرزق قول الإمام الصادق (ع) : «أبى الله سبحانه إلا أن يرزق المتقين من حيث لا يحتسبون وان لا تقبل لأوليائه شهادة في دولة الظالمين » .. وهذا ثابت بالحس والعيان . فالذي يتجر بالمحرمات يعرف دخله سلفاً وقبل الأوان ، أما المتقون فعلى بابك يا كريم .

(فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة). الغفيرة الزيادة،وهي في الأهل كثرة الأولاد والأعوان ، وفي النفس العمر الطويل، والجاه العريض ، والصحة الدائمة،والمراد بالفتنة هنا ما يفضي الى الحسد والغيرة، أو الطمع والتودد الكاذب لأهل الجاه والمال يلتمس ما في أيديهم من حطام ، والمعنى ان الطيب الصالح يغض البصر عما في أيدي الناس ، ويترفع عن الحسد وغيره مما يشين ويهين ، ولا يتقرب الى مخلوق إلا بما يرضي الله والضمير .

(فان المرء المسلم ما لم يغش – بفتح الياء وسكون الغين – دناءة تظهر) . أي لم يجترح سيئة تثبت عليه (فيخشع لها) يستحي منها (اذا ذكرت) ويتوارى عن الأعين خجلاً من سوء ما يُذكر به (ويغري بها لئام الناس) يحملهم على هتك ستره ونشره في الملأ ، ويفتضح حيث الفضيحة به أولى (كان الفالج) الرابح (الياسر) المقامر ، من اللعب بالميسر أي بالقمار (الذي ينتظر أول فوزه من قداحه – أي السهام التي يلعب بها في القمار – توجب له المغنم ، ويرفع بها عنه المغرم) . أي ان الذي يجترح السيئات مثله كمثل المقامر الرابح ينتظر أول كسب يجلب له نفعاً ، ويدفع عنه ضراً .. مع وجود الفارق بين الاثنين ، ولذا قال الإمام (ع) :

و (كذلك) وشبيه بالرابح الذي جلب له الربح المنفعة ، ودفع عنه المذ ة (المرء المسلم البريء من الخيانة) لعهد الله في حلاله وحرامـه (ينتظر من الله إحدى الحسنيين) وهما حسنات الدنيا وحسنات الآخرة ، وأشار الى الثانية بقوله: (اما داعي الله فـا عند الله خير له) لأنه تعالى أعد للمحسنين مغفرة وأجراً كريماً ، وأشار الى الأولى بقوله : (واما رزق الله فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه) أي وان أمد الله في حياته عاش سعيداً في دينه،وكرامة في عرضه، وقد يفتح الله عليه باب الخيرات والبركات ، فيسعد أيضاً ولو لحظات في نفسه وأهله وماله . وهناك لون آخر من السعادة أكثر متعة من الأهل والمال ، وهو ان تقرأ على انفراد كتاباً أو مقالاً يجمع بين الحقيقة والفن ، بين رقة العاطفة وفائدة العلم ، ولم يشر اليه الإمام لأنه للصفوة لا لجميع الفئات .

(ان المـال والبنين حرث الدنيا) يتمتع الانسان بهما أياماً ، ثم لا شيء ، تماماً كالتمتع برؤية الكواكب والحدائق ، والأشجار والأنهـار (والعمل الصالح حرث الآخرة) . وحصاده ملك دائم ، ونعيم قائم ، وهو حرام إلا عـلى من أطاع الرحمن ، واتقى مدارج الشيطان (وقد يجمعهما الله لأقوام) . ضمير التثنية يعود لخير الدنيا وخير الآخرة ، وقد : هنا للأقل من القليل ، لأن البلاء موكل بالمؤمن ، وذاق الإمام (ع) منه الكثير الكثير ، وقال سبحانه لنبيه والذين آمنوا معه : « لتُبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثـيراً وان تصبروا وتتقوا ان ذلك من عزم الأمـور – ١٨٦ آل عمران » .

(فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه) حيث قال عز من قائل : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم – ٦٣ النور »..

(واخشوه خشية ليست بتعذير) أي بذات عذر عليـل ، والمعنى من خاف الله حقاً وصدقاً لم يعصه في شيء يعتذر معه بأعذار واهية كاذبة ، ومن عصى الله واعتذر مدعياً الخوف منـه فهو كاذب في دعواه ، لأن الـذي يخاف الله يتبين خوفه في عمله ، وبكلمة:المؤمن الحق لا يخشى إلا الله ، ولا يطيع أحداً سواه .

(واعملوا من غير رياء ولا سمعة) . وهل يجتمع الرياء والايمان بأن الله وحده هو مالك الضر والنفع ؟. أما الشهرة فهي معشوقـة الأذلاء الذين يعتزون بغير الله

(فإن من يعمل لغير الله يكله لمن عمل له) . هذا هو الحق والعدل ، لأن أجرة الخادم على مخدومه ، ومن كان له الغُنم فعليه الغرم .. بالاضافة الى ان العمل لغير الله شرك في واقعه ، وتعدٍ على حقه تعالى ، فإن العبد يفعل بقدرة من الله ، فإن تصرف بها في غير طاعته فقد خان الأمانة .

(ونسأل الله منازل الشهداء ، ومعايشة السعداء ، ومرافقة الأنبياء) . ونحن أيضاً نسأله تعالى مرافقة علي أمير المؤمنين سيد الأوصياء ، وإمام الأتقياء .

القرابة .. فقرة ٣ — ٤ :

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حِيطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ . وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُوَرِّثُهُ غَيْرَهُ(٣) أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ . وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ ، وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ(٤) .

اللغة :

الحيطة — بفتح الحاء — الرعاية ، وبكسرها الصيانة : والمعنيان متقاربان . والشعث — بفتح العين — التفرق . والنازلة : المصيبة . ولسان الصدق : حسن الذكر بالحق . والخصاصة : الفقر والحاجة . والحاشية هنا : الجانب والجناح ، قال سبحانه : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » .

الإعراب :

حيطة تمييز ، والا للتنبيه ، والمصدر من ان يسدها بدل اشتمال من القرابة ، أي لا يعدلن عن سد حاجة القرابة ، مثل أعجبني زيد ، ثوبه ، أي أعجبني ثوب زيد .

المعنى :

نص الاسلام كتاباً وسنة على ان للفقراء حقاً معلوماً في أموال الأغنياء على سبيل الشركة حقيقة أو حكماً من غير فرق بين أن يكون الفقير من أقارب الغني أو بعيداً عنه رحماً ونسباً .. نعم القريب أولى استحباباً من البعيد ، وفي بعض الروايات « لا صدقة وذو رحم محتاج » .. وما جعل الاسلام للقريب الفقير ، ولا غير الاسلام – فيما نعلم – نصيباً في مال قريبه الغني ما دام حياً ، أما وجوب الانفاق على فئة خاصة من الأقارب فلا يستدعي أن تكون هذه الفئة شريكة للغني في أمواله .

ومن أجل هذا سلك الإمام (ع) سبيلاً غير النص كالاستحسان ، وهو يحث الأغنياء أن ينفقوا على أقاربهم الفقراء ، كترغيب الغني الباذل في الذكر الجميل الذي أشار اليه الإمام بقوله : « ولسان صدق » وقوته بالعشيرة والقبيلة «ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم » وان المال الذي في يده « يرثه غيره .. لا يزيده ان أمسكه ، ولا ينقصه ان أهلكه » وما إلى ذلك من أوجه الاستحسان .. ولا محذور من الاعتماد عليه وعلى القياس أيضاً في الاستدراج الى عمل الخير .

ونكتفي بهذه الاشارة ، لأن كلمات الإمام واضحة في هذا الباب لا تحتاج الى الشرح ، وهذه أوضح ، بالإضافة الى ان صلة الرحم أشبه بالأمور الخاصة كحقوق الوالدين .. ومن أجل هذا لا نجد لها أثراً في القوانين الحديثة وأقوال المشرعين مع انهم تكلموا عن حقوق المرأة وأوضاع العاطلين عن العمل واللاجئين والمتقاعدين .

الخطبة

- ٢٤ -

فروا الى الله :

وَلِعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ ٱلْحَقَّ وَخَابَطَ ٱلْغَيَّ مِنْ إِدْهَانٍ وَلاَ إِيهَانٍ فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ وَفِرُّوا إِلَى اللهِ مِنَ اللهِ . وَٱمْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ . فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلَجِكُمْ آجِلاً وَإِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً .

اللغة :

الادهان : نفاق وخداع . والايهان : ضعف وجبن . ونهجه : أوضحه وبينه. وعصبه : شده وربطه ، والمراد هنا التكليف والالزام . والفلج : الفوز والظفر .

الإعراب :

لعمري مبتدأ ، وخبره محذوف وجوباً أي قسَمي ، وعلي خبر مقدم، وادهان مبتدأ مؤخر و « من » زائدة ، وعباد الله منادى علـى حذف حرف النداء ، وآجلاً حال من فلجكم ، وعاجلاً حال من ضميره في تمنحوه .

المعنى :

(ولعمري ما عليّ من قتال من خالف الحق وخابط البغـي من إدهان ولا إيهان) .. أبداً لا شيء عند علي (ع) إلا الحق ورضى الله ، فهو دينه ودنياه، ونفسه وعقله ، ولحمه ودمه ، وليكن بعد هذا ما كان من موت أو حياة، وهو كذلك يستحيل في حقه أن يصانع ويداهن في أمر من أمور الاسلام والمسلمين ، أو يجبن ويضعف أمام أهل البغي وأعداء الحق . ومن أقواله : « ما ضعفت ولا جبنت ولا خنت ولا وهنت ، وأيم الله لا بقرن الباطـل – أي المبطلين – حتى أخرج الحق من خاصرته » . وقال : «لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع».

(واتقوا الله عباد الله ، وفرّوا الى الله من الله) من غضبه الى رحمتـه ، ومن المعصية الى التوبة ، وما طرق بابه الكـريم طارق إلا وشمله بعفوه ورحمته (وامضوا في الذي نهجه لكم) وأوضحه في كتابه وسنّة نبيه من حدود الحلال والحرام (وقوموا بما عصبه بكم) . أدوا الى الله طاعته ، واتقوه في أمره ونهيه (فعليّ ضامن لفلجكم آجلاً ان لم تمنحوه عاجلاً) . ان أجر المتقين في الآخرة مؤكد ومضمون ، أما أجرهم في الدنيا فربما ولعل .. وليس من شك ان القليل الدائم – وإن قلّ – خير من الزائل وإن كثر ، فكيف اذا قلّ هذا وكثر ذاك !!

الخطبة

٢٥ -

مللتهم وملّوني .. فقرة ١ — ٢ :

مَا هِيَ إِلَّا ٱلْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا . إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلَّا أَنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ . فَقَبَّحَكِ اللهُ .

لَعَمْرُ أَبِيكَ ٱلْخَيْرِ يَا عَمْرُو إِنَّنِي   عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا ٱلْإِنَاءِ قَلِيلِ

أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ ٱطَّلَعَ ٱلْيَمَنَ وَإِنِّي وَاللهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ ٱلْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ . وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي ٱلْحَقِّ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي ٱلْبَاطِلِ ، وَبِأَدَائِهِمُ ٱلْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ . وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ . فَلَوِ ٱئْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ[1] . اَللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً

مِنِّي . اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ . أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ (٢) .

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ

اللغة :

أقبِضها وأبسُطُها : أتصرف فيها . والأعاصير : جمع إعصار ، ريح ترتفع بالغبار وتستدير كالعمود . اطلع : بلغ . والقعب – بفتح القاف : القدح . والعلاقة – بفتح العين – لما لا يحس من المعاني ، وبكسرها لما يحس ، وهي ما يعلق من الشيء : ومث : أذِب .

الإعراب :

هي ضمير القصة مبتدأ ، والكوفة خبر ، وجملة أقبضها خبر لمبتدأ محذوف أي أنا أقبضها ، والياء في تكوني للمخاطبة اسماً لكان ، وأنت تأكيد للياء ، وخبر كان محذوف أي عدة وقوة ، وأُنبئت نبأ يتضمن معنى العلم ، ولذا تعدى الى مفعولين ، ناب عن الأول تاء الضمير ، وبُسراً مفعول ثان ، والمصدر من ان هؤلاء الخ سادّ مسد مفعولي ظن، وخيراً مفعول ثانٍ لأبدلني ، أو صفة لمفعول محذوف أي قوماً خيراً .

للمنبر – علي والخلافة :

بويع الإمام (ع) بالخلافة في ذي الحجة سنة ٣٥ هـ ، واستشهد في رمضان سنة ٤٠ ، فكانت خلافته حوالى ٥ سنوات ، ابتدأها بعد ٤ أشهر بحرب أصحاب الجمل ، في البصرة ثم حرب معاوية وأهل الشام في صفين ، ثم حرب الخوارج في النهروان .. وهل صفي الجو ، واستقامت له الأمور ، وانتهى كل شيء بعد

هذه الحروب ؟.. كلا ، لقد كان ما بعدها أدهى وأمرّ : ثورات من الداخل يعلنها فلول الخوارج وغيرهم من الناقمين على الحق والعدل يعرّضون أمن العباد للخطر .. وغارات من الخارج يصبها معاوية على البلاد ، وتترك الدمار والدماء، والفزع والهلع .. وجيش متثاقل متخاذل .. وأصحاب يقولون : سمعنا وعصينا تماماً كما قال بنو اسرائيل لله وكليمه .

قال طه حسين في كتاب « علي وبنوه » : « كان علي لا يسد ثغرة إلا فُتحت له أخرى ، وأصحابه على ذلك ممعنون في العجز مغرقون فيما أحبوا من العافية ، قد فُل حدهم ، وكسرت شوكتهم ، وطمع فيهم العدو البعيد ، وأغري العدو المقيم بين أظهرهم » .

هذه هي خلافة علي بأتعابها وحرابها .. وكان ختامها ضربة بسيف مسموم أصابه في جبهته حتى بلغ الدماغ ، فلفظ النفس الأخير ، وهو يتلو قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وكان هذا آخر كلام نطق به .. واقتسم ولداه : الحسن والحسين (ع) ميراث الوالد، فكان السم من نصيب الحسن ، والسيف من نصيب الحسين .. والذنب ذنب « الحق ».. أحبه علي وبنوه فكان هذا جزاءَهم من أعدائه .

المعنى :

(ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها) . أي أتصرف فيها . وكانت الأقطار الاسلامية كلها في تصرف الإمام وسلطانه ما عدا الشام ، ثم انتزع الخصوم أكثر الأقطار أو الكثير منها ، وبقي فيما بقي الكوفة ، فحقرها الإمام (ع) بقوله : ما هي إلا الكوفة الخ أي ليست بشيء إذا قيست الى غيرها .. حتى هذه الكوفة عاصمة الإمام غار عليها أبو مريم في جيش من الموالي المرتزقة ودنا منها ، فأرسل الإمام جنوداً لحربه فهزمهم .. وعندها اضطر الإمام أن يخرج اليه بنفسه ، فقتله ومن معه (ان لم تكوني إلا أنت تهب أعاصيرك) . ان لم يكن لي من الجند والأنصار إلا اهلك أقاتل بهم الباطل وأهله (فقبحك الله) . أبعدك وأبعد أهل العراق ، أهل الغدر والمكر ، والغرور والفجور .. وقد عرف الحَجاج داءهم ودواءهم ، فكان لهم الطبيب المداويا .

(أنبثت بسراً قد أطلع اليمن) . قالوا : ان معاوية وابن العاص والمغيرة بن شعبة من دهاة العرب.. ومن البداهة ان الدهاء يحتاج الى عقل: وقال أهل الله وأولياؤه: العقل عقلان : رحماني يُعبد به الله ، ويستغل في خدمة الانسان وصالحه، وشيطاني يُتخذ أداة للصوصية والتقتيل والتدمير كالعقل الذي اكتشف أو صنع أخطر سلاح يهدد مصير البشرية في القرن العشرين .. وقد اكتشف معاوية في عهده هذا النوع من السلاح في أشخاص يضمنون له التفوق على العباد ، والتحكم في مقدرات البلاد تماماً كما هو شأن الذين يملكون في عصرنا أسلحة الخراب والدمار .

ومن هؤلاء الأشخاص الذين اكتشفهم معاوية بسر بن أرطاة ، فلقد كان سفاحاً مفسداً في الأرض مسرفاً في الحرق والنهب والقتل والذبح حتى النساء والأطفال : فاختاره معاوية وجهزه بالسلاح والرجال ، وقال له فيما قال : « أقسُ على أهل البادية من شيعة علي ، واملأ قلوبهم ذعراً ، وأت المدينة فأرهب أهلها حتى يروا انه الموت — لأنها آوت النبي (ص) وناصرته على أبيه (معاوية) أبي سفيان » .

وقال طه حسين : « مضى بسر ، وأنفذ أمر معاوية ، وأضاف اليه من عند نفسه قسوة وغلظة وإسرافاً في الاستخفاف في الدماء والأموال والحقوق والحرمات، فكان كثير الفتك في البادية ، وجاء المدينة فروّع أهلها حتى أراهم الكارثة رأي العين ، وأمرهم بالبيعة لمعاوية ففعلوا .. ومضى الى اليمن ونشر فيها الرعب بالإسراف في القتل ، ثم أخذ البيعة لمعاوية ، وذبح ابني عبيد الله بن عباس ، وكانا صبيين » .

هذه هي كياسة معاوية الداهية تجلت في سفك الدماء ونهب الأموال وذبح الأطفال ، في مبدأه « الميكيافيلي » الذي يبرر أخس الوسائل لبلوغ الغاية الدنيئة الأموية .

(واني والله لأظن ان هؤلاء القوم) ، وهم معاوية وأهل الشام (سيدالون منكم) . يتغلبون عليكم ، ويتحكمون في أموالكم ودمائكم .. وصدقت نبوءة الإمام (ع) ، فقد تسلط من بعده معاوية على العراق ، وأذل أهله بالسيف ، وأذاقهم الله وبال أمرهم . ثم أشار الإمام الى الأسباب الموجبة لذلك ، وهي أربعة :

١ — (باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم) . تعيش الدول وتحقق أهدافها إذا توافر لديها رجال وجنود منضبطون وموحدون ، وإلا كان مصيرها

في كف القدر ، وشاءت الظروف أن تكون دولة علي (ع) في العراق ومن أهل الشقاق والنفاق ، ودولة معاوية في الشام ومن أهل النظام والوئام .. فلا بدع ان تثبت هذه ، وتتزلزل تلك .

٢ — (وبمعصيتكم إمامكم في الحق ، وطاعتهم إمامهم في الباطل) . ونقل ابن أبي الحديد عن الجاحظ : « ان العلة في عصيان أهل العراق وطاعة أهل الشام ان أهل العراق ذوو نظر وفطنة ينقبون عن عيوب الأمراء والرؤساء ، واهل الشام ذوو بلادة وجمود على شيء واحد لا يروون النظر ، ولا يسألون عن مغيّب الأحوال » .

وهذا مجرد وهم وكلام ، فأية عيوب أظهرها أهل العراق لحكم الإمام (ع)؟. والصحيح ما قاله المؤرخون وأهل السير القدامى والجدد ، ومنهم طه حسين في كتاب « علي وبنوه » من « ان معاوية كان يكيد ويمكر ، ويشتري من الناس دينهم وضمائرهم ، وان علياً لم يكن يستبيح لنفسه مكراً ولا كيداً ولا دهاء ، بل كان يؤثر الدين الخالص على هذا كله ، وكان يحتمل الحق مهما تثقل مؤونته ، لا يعطي في غير موضع العطاء ، ولا يشتري الطاعة بالمال ، ولا يحب أن يقيم أمر المسلمين على الرشوة ، ولو شاء علي لمكر وكاد ، ولكنه آثر دينه وأبى الا أن يمضي في طريقه الى مثله العليا من الصراحة والحق والاخلاص والنصح لله وللمسلمين عن رضى واستقامة لا عن كيد والتواء » .

وآية ذلك قوله : أتأمروني ان اطلب النصر بالجور ؟.

٣ — (وبأدائهم الامانة الى صاحبهم وخيانتكم) . المراد بالأمانة هنا البيعة ، وان أهل الشام بايعوا معاوية ووفوا ، وان أهل العراق وغيرهم بايعوا الإمام(ع) وغدروا .

٤ — (وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم) . أهل الشام يدافعون عن بلادهم ويستميتون في سبيلها ، أما أهل العراق فقد آثروا الراحة والدعة ، وما دفعوا ضيماً ، ولا جلبوا مغنماً (فلو ائتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن يذهب بعلاقته). نفاق وشقاق،وفوق ذلك كله الرتع في الخيانة وعدم الأمانة حتى على أتفه الأشياء.

(اللهم اني قد مللتهم وملّوني ، وسئمتهم وسئموني) . ملّهم وسئمهم لخيانتهم ونفاقهم وشقاقهم ، وملّوه وسئموه لإخلاصه وعدله وصلابته في جنب الله (فأبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شراً مني) . هو خير بلا شر ،

وهم شر بلا خير ، ولا قاسم مشترك بينه وبينهم ، فكيف المعايشة ؟. ومن أجل هذا دعا اللهَ سبحانه أن يجعله مع الذين على شاكلته ، ويجعلهم مع من هو على شاكلتهم .

(اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في المـاء) . أي سلط عليهم الهموم والأحزان ، ومن أقواله : الهمُّ نصف الهرم (اما والله لوددت ان لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم) بفتح الغين وسكون النون ، وهم من بني تغلب مشهورون بالشجاعة ، ومنهم ربيعة بن مكدم حامي الظعينة حياً وميتاً ، وذلك انه كان في بعض أسفاره ، ومعه نسوة يحميهن وحده ، فعرض له جماعـة من الفرسان ليسبوا الحريم اللاتي معه ، ورماه أحدهم بسهم أصاب قلبه ، ولما أيقن بالموت نصب رمحه في الأرض واعتمد عليـه ، وأشار الى النسوة بالمسير ، فسرن حتى بلغن مأمنهن دون أن يتعرض أحد لهن ، لأن الفرسان ظنوا ان ربيعة ما زال حياً .

الخطبة

-٢٦-

فلا ظفرت يد البائع .. فقرة ١ – ٣:

إنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِهِ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ. وَأَمِيناً عَلى التَّنْزِيلِ. وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ عَلى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ. مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ ٱلْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ. الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ[١] فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلى ٱلْقَذَى، وَشَرِبْتُ عَلى الشَّجَى، وَصَبَرْتُ عَلى أَخذِ ٱلْكَظَمِ وَعَلى أَمَرِّ مِنْ طَعْمِ ٱلْعَلْقَمِ[٢] وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلى ٱلْبَيْعَةِ ثَمَناً فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ ٱلْبَائِعِ وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ ٱلْمُبْتَاعِ. فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا. فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا وَعَلَا سَنَاهَا. وَٱسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ[٣].

اللغة :

منيخون : مقيمون . وحيات صم : لا تنزجر بالصوت . والماء الكدر : غير الصافي . والطعام الجشب : الغليظ . ومعصوبة : مشدودة . والقذى : ما يسقط في العين . والشجى : ما يعرض في الحلق . ولظاها : نارها . وسناها: ضوؤها . واستشعروا : من الشعار لا من الشعور ، وهو العلامة ، وقيل المراد به هنا ما يلازم الجسد كالثياب ، وهذا المعنى بالمقام أليق .

الإعراب :

نذيراً حال ، ومعشر العرب منادى ، ومنيخون خبر أنتم ، وعلى شر وفي شر وبين حجارة كلها متعلقة بـ « منيخون » . فإذا ليس قيل « اذا » هنا ظرف. ولكنها للمفاجأة أقرب،لأنها مثل:خرجتُ فإذا زيد في الباب ، أما قول النحاة : إن اذا الفجائية تختص بالجملة الاسمية ف « ليس » هنا بمعنى « لا » وقيل : هي حرف لا فعل ، وعليه يكون المعنى فنظرت فإذا لا معين لي .

المعنى :

(ان الله بعث محمداً (ص) نذيراً – الى قوله – معصوبة) . هذا الكلام واضح في نصه ومضمونه ، ولا يحتاج الى الشرح ، بالإضافة الى ان مثله تقدم في الخطبة الأولى. ويتلخص المعنى بأن العرب قبل البعثة كانوا في ذلة وفاقة،وجهالة وضلالة ، فأنقذهم الله سبحانه بمحمد (ص) ورسالته من هذه وتلك ، وأصبحوا شيئاً مذكوراً .

للمنبر – حول الدين :

وتسأل : ان أكثر الشعوب والأمم في شرق الأرض وغربها كانت متخلفة في شتى الميادين ، ثم تطورت وتقدمت مادياً ومعنوياً دون أن يأتيها نبي من الأنبياء، أو ينزل عليها كتاب من السماء ، وإذن فليس من الضروري لكي يتقدم الانسان في هذه الحياة أن يكون ملتزماً بدين ؟.

الجواب :

١ ـ نحن لا ندعي ان التقدم في الصناعة والزراعة وغيرهما من مظاهر الحضارة وقف على المتدينين ، ولا ننسب هـذه الدعوى الى انسان ، والغرض الأول هو الاشارة الى ان محمداً (ص) قد أخرج الناس من الظلمات الى النور ، وتقدم بالحياة مئات السنين . ولا يختلف في ذلك اثنان بصرف النظر عن الدين .. على ان التقدم في أي ميدان من ميادين العلم وغيره ما هو بشيء اذا لم يكن لصالـح الانسان وأمنه ، والقضاء على ضعفه وفقره . ولا نعرف عصراً من العصور تجرّد فيـه الأقوياء عن انسانيتهم ، وأصبحوا أشد خطراً على البشرية من الأفاعي والوحوش كالعصر الذي نعيش فيه ، والسبب الأول هو تقـدم الآلة ، وتطور الأسلحة ، وتعاظمها في شأنها وأثرها .

٢ ـ إن الاسلام يدعو الى كل خير ويباركه حتّى ولو كان فاعله من الملحدين ، وينهى عن كل شر ويبرأ منـه ومن صاحبـه وان آمن بالله ورسله وكتبه . قال الإمام (ع) : « ان الله يحب العبد ـ المؤمن ـ ويبغض عمله ، ويحب العمـل ـ الصالح من الكافر ـ ويبغض بدنه » أي كفره ، وعليه فكل خطوة يخطوها الانسان الى حياة أفضل فهي من الدين في الصميم ، مسلماً كان أم غير مسلم . ومن يقف ضد العلم النافع أو أي عمل يصلح الحياة بجهة من الجهات فهو عدو لله ودين الله ، أراد ذلك أم لم يرد . كيف والاصلاح هو الغايـة الأولى من رسالة الرسل والأنبياء .

٣ ـ كل الناس يقدسون المعاني الانسانية النبيلة ، ولكن الفرق بعيد بين أن يكون هذا التقديس ديناً وعقيدة ينبع من العقل والقلب ، ويختلط باللحم والدم مع الشعور بأن هذه المعاني كما هي نبيلة في ذاتها فإن الإنسان مسؤول عنها أمـام قوة قادرة عادلة تراقب وتحاسب ، وتثيب وتعاقب ، الفرق بعيد جداً بين هـذا وبين أن يكون تقديس المعاني الانسانية لمجرد انها نبيلة ، وان الانسان يفعلها لمحض انـه طيب ومهذب وحسن المعاملة ، دون أن يكون مسؤولاً عن تركها وإهمالها أمام قوة تعلم الغيب وتحاسب من أهمل وتجاهل .. وأية جدوى من الخير في ذاته ومن الشر في ذاته إذا لم يشعر الانسان انه مسؤول عن كل ذرة منها أمام من لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ، وسأل عنها ، وكافأ من أحسن بالحسنى ، ومن

أساء بما يستحق ؟ قال أديب معاصر : « ان من قال : لسنا في حاجة الى القرآن لنكون على أخلاق هو أشبه بالبقال الذي اكتشف ان حسن المعاملة بضاعة رابحة في حد ذاتها ، وانها تكسب له قلب الزبون وجيبه » .

(فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي ، فضننت بهم عن الموت) . قال ابن أبي الحديد : « ما زال علي (ع) يقول هذا القول ، ولقد قاله عقب وفاة رسول الله (ص) قال: لو وجدت أربعين ذوي عزم .. ذكر ذلك نصر بن مزاحم وكثير من أرباب السير » .

وعلى أية حال فإن قوله (ع) : « ليس لي معين إلا أهل بيتي ، فضننت بهم عن الموت » . واضح الدلالة على انه كان يرى ان الخلافة حق له دون غيره ، وان قريشاً انتهبوا هذا الحق واغتصبوه ، وانه لو دافع عنه بالقوة لقابلوه بقوة أشد، وما أبقوا عليه ولا على أهله، فسكت لا حرصاً على نفسه — لأنه لا يبالي بالموت — بل على أهله .. وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » فصل: حول التسنن والتشيع .

(واغضيت على القذى الى قوله — العلقم) . تقدم مثله في الشقشقية مع الشرح.

(ولم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمناً) . البائع هو عمرو بن العاص، والمشتري معاوية بن أبي سفيان ، والثمن مصر .. وكان ابن العاص من أعدى أعداء الرسول (ص) آذاه وحاربه وهجاه بسبعين بيتاً ، فقال (ص) : اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة ، وحرّض على عثمان ، ثم طالب بدمه .

وندع الكلام عنه للدكتور طه حسين ، لا لأنه أديب شهير ، أو من السنة، بل لأنه يقول ما يعتقد ، ويسجل للتاريخ . قال في كتاب « علي وبنوه » :

« كان عمرو بن العاص قد وجد على عثمان حين عزله عن مصر ، فلما ظهرت الفتنة كان من المعارضين لعثمان ، فكان يؤلّب الناس ويحرّضهم ما وسعه ذلك ، وقال له جهرة في المسجد : انك قد ركبت بالناس نهابير — أي المهالك — وركبناها معك فتب الى الله .. وكان عمرو في فلسطين حين جاء النبأ بقتل عثمان فقال : أنا أبو عبدالله ما حككت قرحة إلا أدميتها ، يريد انه قد مهد للفتنة والثورة بعثمان ، فأحكم التمهيد ، وانتهى الأمر الى غايته .. ولحق عمرو بمعاوية ، وهو على ثقة بأن معاوية ليس على الحق ، وبأن خصمه هو صاحب الحق، وبأن الانتصار لمعاوية واللياذ به انما هو سبيل الدنيا لا سبيل الدين .. وأيقن معاوية ان عمراً ان

انصرف عنه كاد له فأبلغ في الكيد .. وسأل معاوية عمراً عما يريده ثمناً لانضمامه اليه ؟ فطلب أن يطعمه مصر حياته ، واستكثر معاوية هذا الثمن .. ثم اتفقا على ذلك ، وكُتب بهذا الاتفاق بين الرجلين عهد مؤكد » .

(فلا ظفرت يد البائع) . وهو ابن العاص، وكيف تظفر يدٌ ظَفِرَ الاثم بصاحبها (وخزيت أمانة المبتاع) . وهو معاوية ، والمراد بالأمانة هنـا حقوق المسلمين ، وبالخزي الذل والهوان ، وفيه إيماء الى ان ما من أمة يقودها الخونة إلا ضُربت عليها الذلة والمسكنة ، واستهان بها القريب والبعيد ، والقوي والضعيف ، وأصبحت أكلة لكل آكل ، وغرضاً لكل طامـع كما هو شأن العرب اليوم .. قهرهم اليهود على قلتهم ، وصاروا أذل الشعوب والدول والأمم .. ولا سر إلا خيانة القائد وفساده .

وبعد ، فإن من تتبع وقرأ سيرة معاوية وصاحبه ابن العاص يعجب كيف يصنع حب الدنيا بالإنسان .. ولكنه يذهل عن نفسه وعن الكثير من معارفه الذين يتنافسون في الدنيا ، ويتكالبون على حطامها ، ويبيعون دينهم لكل من يدفع الثمن .. وهؤلاء موجودون في كل عصر ، وفي كل فئة دون استثناء .

الخطبة

-٢٧-

الجهاد باب الجنة .. فقرة ١ – ٣ :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ لِبَاسُ ٱلتَّقْوَى وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ وَجُنَّتُهُ ٱلْوَثِيقَةُ . فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ ٱلْبَلَاءُ وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَٱلْقَمَاءَةِ وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْأَسْدَادِ(بِالِاسْهَابِ)وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمَ الْخَسْفَ وَمُنِعَ النِّصْفَ[1] . أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً ، وَسِرًّا وَإِعْلَاناً ، وَقُلْتُ لَكُمُ ٱغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتِ ٱلْغَارَاتُ عَلَيْكُمْ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ[2] . وَهٰذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ ٱلْبَكْرِيَّ وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى ٱلْمَرْأَةِ

ٱلْمُسْلِمَةِ وَٱلْأُخْرَى ٱلْمُعَاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَقَلَائِدَهَا وَرِعَاثَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ .

اللغة :

الجنة – بضم الجيم – ما وقي أو ستر. ودُيث – بتشديد الياء المكسورة – ذُلل أي صار سهلاً ذلولاً ، ومنه قوله تعالى : «وذُللت قطوفها تذليلاً» .والصغار : الضيم. والقماءة : الحقارة،والقميء : الحقير . والإسهاب: العمق وروي الأسداد جمع سد. والمراد بأديل هنا القصاص . وسيم الخسف : ابتلي بالذل ، وفي كتب اللغة : سامه خسفاً أي أولاه ذلا . وشنت عليكم الغارات : صبت عليكم من كل جهة . والأنبار : بلد في العراق . والمسالح : الحدود والثغور التي تُحصّن من العدو بالسلاح . والمعاهِدة : الذمية . والحجل : الخلخال . والقلب – بضم القاف – السوار . والرعث والرعاث : جمع رعثة : القرط . والاسترجاع : قول إنا لله وإنا اليه راجعون . والاسترحام : طلب الرحمة . والكلم – بفتح الكاف وإسكان اللام: الجرح .

الإعراب :

رغبة مفعول لأجله ، وجملة ألبسه خبر من تركه ، وألا للتنبيه ، وسراً مفعول مطلق لدعوتكم لأن الدعوة كانت بالقول والسر من صفاته ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال أي مسراً ومعلناً ، وقط ظرف زمان لاستغراق ما مضى ، والمصدر من:ان الرجل،مفعول بلغني ، ووافرين حال من فاعل انصرفوا .

المعنى :

كل كلمة من كلمات الإمام هي جزء من ذاته وطبيعته حتى كأنها قد ولدت

معه ، أو ولد منها ، بخاصة ما قاله ايام خلافته ومحنته بالكوفة وأهل الكوفة الذين خاطبهم بقوله : « لقد لقيت برحا » . وفي خطبة سابقـة سأل الله سبحانه أن يبدله بهم خيراً منهم ، وقال في هذه الخطبة : لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهام أنفاساً أي أنه تجرع الهم مع كل نفس من أنفاسه .. ترى هل من مزيد على هذه المحنة والمأساة ؟.. أبداً حتى نفس واحد لا يصفو له من الكدر .

(أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه) . كان الحاكم قبل الاسلام لا يخضع لشرع وقانون، والكل خاضعون لقوله ورأيه، فهو وحده المشرّع والقاضي والمنفذ .. يعلن الحروب على من شاء متى شاء ، ويجند من أراد بلا رقيب وحسيب .. ولما جاء الاسلام أخضع الحاكم والمحكوم لنصوص القرآن والسنة، قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ـ ٤٥ المائدة » . وقد أمرتْ هذه النصوص بالجهاد والدفاع عن الحق وأهله ، ووعـدت المجاهدين بالجنان والحور الحسان ، وتوعدت المتخلفين بغضب الله وعذاب الحريق ، ولكنها ما أشارت الى كيفية التجنيد ، ولا الى عقوبة من تخلف عن الجهاد ، وما حددت سن المجندين .. الى غير ذلك مما جاء في القوانين الحديثة .

أمر الإسلام بالجهاد وترك التنفيذ الى دين المسلم وقناعته تماماً كالأمر بالصلاة والصدقة والتعاون على البر..وآية ذلك سيرة الرسول والإمام ، وهذه الخطبة وأشباهها.. يأمر بالجهاد ، ويحث عليه ويرغب فيه ، ويحذر من تركه ومـا يتبعه من سوء العاقبة .. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ومن أقواله : « ألا وإني معسكر في يومي هذا ، فمن أراد الرواح الى الله فليخرج، تماماً كالوعاظ والمرشدين . وقـد تثير أقواله (ع) الحماسة في بعض النفوس فتتطوع للجهاد ، ويؤمّر الإمام عليهـا من يختار ، وفي أكثر الأحيان كانوا يسمعون منه ، وينصرفون عنه .

وتسأل : لقد نزل في القرآن العديـد من الآيات في الأسلحة وصورة الجهاد كقوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ـ ٤ الصف » . وقوله مخاطباً نبيه الكريم : « تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ـ ١٢١ آل عمران » وقوله : « وأعـدوا لهم ما استطعتم من قوة ومـن رباط الخيل ـ ٦٠ الأنفال » . وأيضـاً أمر النبي (ص) بمقاطعة بعض المتخلفين عن غزوة تبوك كما أشارت الآية ١١٨ من سورة التوبة : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا »؟.

الجواب : ان الاشارة واللمحة الخاطفة كالأمر بتسوية الصفوف وإعداد العدة شيء ، ونظام التجنيد للحرب شيء آخر .. أما السر في أن الاسلام يترك أمر الجهاد لقناعة المجاهد فهو ان من يجبر على التجنيد لا يحارب بإخلاص،وقد يكيد ويبث الفتنة والتفرقة بين الصفوف ، أو يتآمر مع العدو . وأشار سبحانه الى ذلك فيما قاله عن المنافقين : «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ـ ٤٧ التوبة » .

(وضرب على قلبه بالاسهاب) . فلا ينتفع بـه،تماماً كالبئر البعيدة القعر لا يدرك ماؤها (وأديل الحق منه بتضييع الجهاد) . أي من ضيّع الجهاد ورغب عنه اقتص الحق منه بالإذلال ومرض القلب (وسيم الخسف) ابتلي بالمذلة والنقيصة (ومنع النصف) . فإذا احتقره محتقر واستهان به فلا أحد ينتصف له منه لأنه هو الذي أذل نفسه واستهان بها .

(الا وإني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً). وما زادتهم دعوة الإمام (ع) إلا فراراً تماماً كقوم نوح حين قال لهم : اني لكم نذير مبين ان اعبـدوا الله واتقوه وأطيعون (وقلت لكم : اغزوهم قبـل أن يغزوكم) . اجمعوا أمركم واستعدوا لحرب أعـداء الله وأعدائكم قبل أن يشنوا عليكم الغارات ويسوموكم من الذل والخسف ما شاءوا .

(فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا) . وأية كرامة لدولـة تعجز عن حماية نفسها وأرضها ورعاياها ؟ وهل تسمى دولة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ؟ وهل للمواطن فيها وزن وكرامة عند نفسه وعند النـاس ؟ وقد لقي جنوب لبنان من الإرهاب الصهيوني الأسود في أيامنا ما لا مثيل له ، ومع هـذا يقال : ان للجنوب دولة لبنان ، وان له منه نواباً ووزيراً أيضاً ، ومجلساً يدعى مجلس الجنـوب ، وآخر يسمونه المجلس الملي الشيعي .. فيا للذل والخسف ، والبلاء والصغار .. ما بالهم لا يحركون ساكناً ، ولا يطلقون صيحة .. حتى ولا يغضبون .. بل يتجاهلون الأمر كأن لم يكن شيء .

(فتواكلتم وتخاذلتم) ولا تطمعون في شيء إلا أن تأكلوا لتعيشوا . (حتى شنت عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان) . ذكرنا طرفاً من هذه الغارات في كتاب «الشيعة والحاكمون» .. (فهذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار الخ.)

هو سفيان بن عوف من بني غامد ، وهم قبيلة في اليمن ، دعاه معاوية وجهزه بجيش كثيف ، وقال : امض حتى تغير على الأنبار والمدائن ، واقتل من لقيت ممن ليس على مثل رأيك ، وأخرب كل ما تمر به من القرى ، وانهب الأموال وهو أوجع للقلب .. وامتثل سفيان ، وقتل ونهب ودمر وملأ القلوب رعباً .. ولما عاد الى معاوية قال له : كنتَ عند ظني بك .

معاوية، خالُ المسلمين، يأمر بالغارات عليهم قتلاً وسلباً ، وتخريباً وترويعاً فيُسمع له ويطاع ، وعلي (ع) يأمر بالدفاع عن النفس والردع عن الفساد ، فيُعصى ولا يسمع منه .. ثم يأتي متخصص بفلسفة الجريمة وتبريرها ، ويقرر ان معاوية كان عالماً فاجتهد وتأول فهو معذور ومأجور أيضاً !.. وهكذا يعاني الحق ويتألم على أيدي أنصار الباطل والضلال منذ القديم الى يومنا هذا .

يا أشباه الرجال .. فقرة ٤ — ٦ :

فَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً. فَيَا عَجَباً : عَجَباً وَاللهِ يُمِيتُ ٱلْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ ٱجْتِمَاعِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ، فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ . وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ . وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ (٤) فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هٰذِهِ حَمَارَّةُ ٱلْقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هٰذِهِ صَبَارَّةُ ٱلْقُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا ٱلْبَرْدُ ، كُلُّ هٰذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَٱلْقُرِّ ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَٱلْقُرِّ تَفِرُّونَ فَإِذَا أَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ (٥) . يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ ، حُلُومُ الْأَطْفَالِ ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ . لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ

أَعرِفْكُمْ . مَعْرِفَةٌ وَاللهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً . قَاتَلَكُمُ اللهُ لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً . وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً ، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً . وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلاَنِ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ إِنَّ ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلٰكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ . لِلهِ أَبُوهُمْ ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي ! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ ٱلْعِشْرِينَ ، وَهَا أَنَاذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلٰكِنْ لاَ رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ(٦) .

اللغة :

الترح : ضد الفرح . والغرض : الهدف الذي يرمى اليه بنبل أو نحوه . وحمارّة القيظ بتشديد الراء : شدة الحر . ويسبخ بتشديد الباء مع الفتح : يخفف. وصبارة القر بتشديد الراء : شدة البرد . والقُر بضم القاف : البرد . والسدم : الهم والغيظ . والنغب بضم النون جمع نغبة : أي الجرعة . والتهمام : الهم كما في ابن أبي الحديد . والمراس : الممارسة . وذرفتُ : زدتُ .

الإعراب :

المصدر من ان امرءاً فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت كون امرىء الخ ، وأسفاً صفة لمفعول مطلق محذوف أي موتاً أسفاً ، أو هو مصدر في موضع الحال ي متأسفاً . وعجباً الأول منادى أي احضر أيها العجب فهذا أوانك ، ونصبه لأنه لا يقصد عجباً معيناً ، والعجب الثاني منصوب على المصدرية ، ومثله قبحاً وترحاً . وفراراً مفعول من أجله لفعل محذوف،أي كل هذا فعلتموه للفرار من الحر والقر، ويجوز نصبه على المصدرية . ولا رجال « لا » نافية للجنس ، ورجال

اسمها، والخبر محذوف أي في الواقع . وحلوم الأطفال خبر لمبتدأ محذوف أي حلومكم، ومثله عقول ربات الحجال . والمصدر من اني لم أركم مفعـول وددت ، وقبحاً تمييز ، ومثله غيظـاً وأنفاساً ومراساً ومقاماً ، وهأنذا الهاء للتنبيه وأنذا مبتدأ وخبر .

المعنى :

(فلو ان امرأً مسلماً مات بعد هذا أسفاً ما كان ملوماً) . أراد الإمام (ع) بقوله هذا ان يستصرخ ضمائرهم ، ويثير حميتهم عسى أن ينفروا لحرب الطغـاة والمعتدين ، ولكنهم سمعوا وانصرفوا . (فيا عجباً : عجباً والله يميت القلب ، ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم) . تقدم مثله في الخطبة ٢٣ .

(فقبحاً لكم وترحاً) ولكل من لا تهزه نكبة المنكوبين ، وألم البـائسين . (فإذا أمرتكم بالسير — الى قوله — فراراً من الحر والقر) . هذا مظهر مـن مظاهر التناقض واللامنطق ، ولكن أي فرق بين هؤلاء الذين وبخهم الإمام (ع) بهذا التوبيخ، وبين من يعيب أخاه ويذمه بعمل قد ركب مثله ، أو يقول بحرارة: لو كنت رئيساً مثل زيد ، أو غنياً مثل بكر لصنعت وفعلت .. حتى إذا مـا أسعفته الظروف تنكر لنفسه وانفصم عنهـا ؟ واذن ليس لواحد منـا أن يتعجب ويستغرب هذا المنطق المتناقض عند أهل الكوفة وغيرهم إلا اذا انسجم مع نفسه وعقيدته في جميع أقواله وأفعاله .

وإذا قال قائل : ليس كل الناس علياً بن أبي طالب .. قلنا : أجل، ولكن الصدق والانسجام مع النفس لا يحتاج الى عصمة علي وشخصيته ، بـل الى شيء من الإيمان واليقين .

(يا أشباه الرجال ولا رجال) . وكل جبان مخنث لا يثأر لكرامته ، وينام على الهوان فهو رجل في الشكل لا في القلب والعقل . ومن أقوال الإمام : ينام الرجل على الثكل ، ولا ينام على الحرب — بفتح الراء — أي يصبر على موت ولده ، ولا يصبر على إهانته ومس كرامتـه (حلوم الأطفال) . أي هم في عقولهم كالطفل الذي خيّل اليه انه شاب قد احتلم وأدرك البلوغ ، أو انهم مثل

الطفل في أحلامه وأمانيه الكاذبة .. على ان من أحلام الأطفال ما هو ممتع ونبيل وواقع أيضاً ، ولا شيء في أحلام من وصفه الإمام إلا الفقر والفاقة (وعقول ربات الحجال) في الحرب والاستعداد لها .

(لوددت أني لم أركم ، ولم أعرفكم) لأنه (ع) لم يبلغ بهم أية غاية لله فيها رضى ،وللناس فيها صلاح (لقد ملأتم قلبي قيحاً ،وشحنتم صدري غيظاً،وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً) . هل هذه شكوى الى الله ، أم نفثة مصدور ؟ وهل لهذا الألم من مثيل ؟. أبداً .. حتى نفس واحد لا يصفو من الكدر .. ولا عجب .. انها حياة المخلصين مع الخونة، والصادقين مع أهل الغدر والنفاق . ومن أقواله (ع) : كانت الرعايا قبلي تشكو حيف راعيها ، واني اليوم لأشكو حيف رعيتي ، كأنني المقود وهم القادة .

والسر أن الإمام يتطلع الى إحقاق الحق ، فهو وحده المثل الأعلى ، والناس تقودهم الرغبة والرهبة .. وربما يُتساءل : هل تصلح هذه السياسة مع الناس، أو ان صاحبها يعيش غريباً أينما كان في شرق الأرض أو في غربها ؟. ويجيب الإمام(ع) عن هذا التساؤل بقوله : « والله ما يزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة » . وسنعود الى هذا الموضوع ان شاء الله .

(حتى لقد قالت قريش: ان ابن أبي طالب رجل شجاع،ولكن لا علم له بالحرب). معاوية له علم بالحرب بزعم قريش ، ولماذا ؟ لأنه أعطى مصر طعمة لابن العاص، وألف جيشاً من المرتزقة يحسنون النهب والسلب ، والترهيب والترغيب ، والحرب والقتل والغدر والاغتيال ، ويتعطشون لدماء الشيوخ والنساء والأطفال ، وبتعبير عقاد : « جلادون ، وكلاب طراد » يثبون وينهشون .. أما علي فلا علم له بالحرب كما يزعمون ، لأنه يكرهها ، ولا يخوضها إلا دفاعاً عن الحق والعدل ، وحرصاً على النظام والأمن ، ولا يجعلها وسيلة لتمجيده وشهرته ، ولا أداة لمنفعته وسيطرته .. وإذن أين علمه بالحرب وفهمه ؟.

(لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وهاأنذا قد ذرفت على الستين) . العلم حفظ التجارب والممارسة ، وعلي (ع) مارس الحرب وخاضها مرات منذ الصغر حتى الكبر ، فهو أعلم الناس بها وبمواقعها ، ومتى يجب أن تُعلن ؟ وعلى من ؟ (ولكن لا رأي لمن لا يطاع) . رفع معاوية المصاحف ، فقال الإمام : لا تصدّقوا .. انها مكيدة .. فأبوا إلا الكف عن القتال ، ثم اختاروا للتحكيم

أبا موسى الأشعري ، فقال الإمام : لا ، ولكـــن ابن عباس ، فأبوا عليه إلا الأشعري ، وغارت خيل معاوية على الأطراف ، فدعاهم الإمام الى الذب عن أنفسهم فلم يسمعوا ، ثم توغلت خيل العدو حتى دنت من العاصمة ، فصاح بهم فسمعوا وانصرفوا.. وبعد أن دارت عليهم الدائرة عرفوا واعترفوا بأنهم لو أطاعوا الإمام لكان لهم النصر والظفر ، ولعدوهم الهزيمة والفشل..واذن أين ضعف الرأي في علي والجهل بالحرب ؟.. ولكن أبت قريش إلا أن تقول هكـذا .. وهو منطق كل حاقد وحاسد منذ البداية والى الأبد .. ومن أقواله (ع) مخاطباً أصحابه: أريد أن أداوي بكم ، وأنتم دائي ، كناقش الشوكة بالشوكة .

الخطبة

-٢٨-

من لا ينفعه الحق يضره الباطل .. فقرة ١ – ٢ :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ . وَغَداً السِّبَاقَ . وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ . أَفَلَا تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ ؟ أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ(١) ؟ أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ . فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ نَفَعَهُ عَمَلُهُ . وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ . وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ . وَضَرَّهُ أَجَلُهُ . أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ . أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا . وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا . أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعْهُ الْحَقُّ يَضْرُرْهُ الْبَاطِلُ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَقِمْ بِهِ الْهُدَى يَجُرَّ

بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى . أَلَا وَإِنَّكُمْ قَـدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ . وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ . وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِثْنَتَانِ : اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ . تَزَوَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ أَنْفُسَكُمْ بِهِ غَداً[٢] .

اللغة :

آذنت : أعلمت . والمضمار : المكان أو الزمان الذي تضمّر فيه الخيل للمسابقة، والضامر قليل اللحم . والسبقة بفتح القاف : الغاية المحبوبة ، والمراد بالغاية هـ مصير العاصين . والظعن : السير والرحيل . وتحرزون : تحفظون .

الإعراب :

اليـوم اسم ان ، والمضمار خبرها . ولم أر كالجنــة ، رأى هنا قلبية تنصب مفعولين : الأول محذوف أي نعمة ، والثاني جملة نام ، والكاف بمعنى مثل صفة للمفعول الأول . واثنتان اسم ان ، واتباع الهوى وطول الأمـل بدل مفصل من مجمل ، وهو اثنتان .

المعنى :

(أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت ، وآذنت بوداع) . لكـــل فرد من أفراد الانسان دنياه الخاصة به ، وهي عمره ومدة حياته ، ومن هنا قيـل : من مات فقد قامت قيامته . وهذا العمر ، وإن طال ، فإلى فناء وزوال ، لأن من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يُسار به وإن كان واقفاً كما قال الإمام (ألا وإن الآخرة قد أقبلت) بحسابها وجزائها (وأشرفت باطلاع) ظهرت طلائعها ، أو أشرفت واطّلعت على الأعمال وأحصتها (الا وان اليوم المضمار) . المراد باليوم هنا دنيا الانسان ، وبالمضمار العمل ، والمعنى مرادف لما قاله الإمام (ع) في بعض كلامه:

اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل (وغداً السباق) الذي يعرف فيه الرابح من الخاسر .

(والسبقة الجنة) فهي وحدها التي يجب التنافس عليها ، والمسابقة اليها(والغاية النار) أي انها غاية العاصين ، وقد استعمل الإمام كلمة الغاية في الجنة وفي القيامة كما استعملها في النار ، من ذلك قوله : ان الغاية القيامة ، وقوله : الجنة غاية السابقين ، والنار غاية المفرطين .

(أفلا تائب من خطيئته قبل منيته) . التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، بل هو من المحسنين قال تعالى : « ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً — ٣ هود » . وقال الرسول الأعظم (ص) : « من رأى انه مسيء فهو محسن » . ومن ترك التوبة فقد أساء مرتين : مرة بفعل الذنب ، وثانية بترك التوبة ، وهي من أهم الواجبات تماماً كالصوم والصلاة (ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه) . فإن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، بل يوفيه حقه ويزيده من فضله ، قال سبحانه : « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله — ٣٨ النور » .

(الا وانكم في أيام أمل من ورائه أجل) . أيام الأمل حياة الانسان، والأجل الموت، أما المأمول فثواب الله، ولا طريق اليه إلا العمل الصالح (فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله) . أما الأموال والأولاد والأنساب فما هي بشيء عند الله إلا إذا كانت للخير والعمل الصالح : وإذا أدت الى الفساد والضلال فهي وبال ونيران . (ولم يضره أجله) لأنه يقدم على خالقه راضياً بثواب الله مرضياً بأعماله الصالحات .

(ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله) . لأنه أطال الأمل ، وأساء العمل : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً — ١٢٣ النساء » .. (وضره أجله) تماماً كالمدين للغرماء ينتهي أجل الدين ، ولا شيء عنده للسداد والوفاء .

(الا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة) . ان كثيراً من الناس يذهلون عن الخالق ويتجاهلون فضله عليهم ، ولا يذكرونه إلا ساعة الشدة والبلاء ، تماماً كالذي يمسه الضر في البحر يؤمن ويخضع حتى إذا بلغ البر أعرض وكفر .. والمؤمن الحق في الحالين سواء .. سامع طائع في الرغبة والرهبة أي عند الشدة

والرخاء، لأن الله في إيمانه ويقينه يجب أن يطاع على كل حال ودون قيد أو شرط، بل الخوف منه تعالى في السراء أولى وأوجب، لأنها ربما تكون امتحاناً واستدراجاً: « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون – ٤٤ القلم » . « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين، نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون – ٥٦ المؤمنون » .

(ألا واني لم أرَ كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها) . يأوي الآمن الى فراشه ، وينام ملءَ عينيه هادىء النفس مرتاح البال ، لا يؤرقه شيء كأنه في عزلة عن العالم كله ، أما الخائف الهارب فلا يقر له قرار ، ولا يجد الهدوء والراحة ، لأنه في شغـــل شاغل بما يخيفه ويهدده .. حتى عن الأكل والنوم ، وكذلك من يطلب العزيز الثمين ، ويسعى اليه فإنه يركز عليه همه واهتمامه وجميع حواسه وأفكاره ، وينصرف عن كل شيء عداه . ومن البداهة انه لا نعيم أعز وأغلى من نعيم الجنة ، ولا عذاب أقسى وأخزى من عذاب جهنم . واذنْ كيف يزعم زاعم انه يخاف من نار جهنم ويهرب منها ، وانه يرغب في الجنة ويطلبها، ثم يغرق في سبات عميق ؟

(ألا وأنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل) . قد يتحذلق البعض ويقول : وأية جدوى من الحق واتبـــاعه ؟ انه لا يجلب في هذه الحياة نفعاً ، ولا يدفع ضراً .. ويقول الإمام (ع) في جوابه : إذا لم ينتفع بالحق – كما زعمت – فإن الباطل يجره الى الويلات لا محالة .. وتجدر الإشارة الى أن هذا الجواب من الإمام إنما هو على سبيل المماشاة مع الخصم والتسليم جدلاً بدعواه .. وإلا فإن الحق أحق أن يتبع ، والباطـــل يجب أن يترك على كل حال ، ومهما تكن النتائج ، وفي الحديث الشريف : ان الجنة حفت بالمكاره ، وان النار حفت بالشهوات . وقال الإمام (ع) : الحق ثقيل مريء ، والباطل خفيف وبيء .

(ومن لا يستقيم به الهدى يجرّ به الضلال الى الردى) . سبيلان فقط ، ولا ثالث : سبيل الهدى وسبيل الضلال ، ومن سلك الأول فقد فاز ، ومن انحرف عنه فإلى الهاوية ، قال تعالى : « ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصْله جهنم وساءت مصيراً – ١١٥ النساء » .. (ألا وانكم قد أمرتم بالظعن ، ودللتم على الزاد) . كلكم أيهـــا الناس مدعوون الى الله والوقوف بين يديه للحساب والجزاء والسؤال والجواب ، ولا مهرب إلا التلبية والاستجابة ، فأعدوا لهـــا ما

دلكم الله عليه وأمركم به من صالح الأعمال ، وكريم الخصال (وان أخوف ما أخاف عليكم اثنتـــان : اتباع الهوى ، وطول الأمل) . أما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة كما قال الإمام (ع) .

للمنبر – بين الدنيا والآخرة :

(فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً) يشير الإمام (ع) بهذا الى العلاقة القوية الوثيقة والترابط المتين بين السعادة في الآخرة والصلاح والاصلاح في الحياة الدنيا ، وبين الشقاء في الحيـــاة الثانية والفساد والإفساد في حياتنا هذه .. يقول (ع) : خذوا من هذه الحياة قبل أن يوافيكم الموت ، وتزودوا من خيرها الى الآخرة قبل الرحيل ، وكم فيها من خيرات .. فما من شيء يسهّل العيش على الانسان إلا هو خير عند الله ، وما من عمل يحقق الأمن والدعة للناس جميعاً إلا هو فضيلة في كتـــاب الله ، وما من نهضة تحرر الانسان من الجهـــل والعبودية والاستغلال إلا هي حق في علم الله .. وكل ما يسير بالحياة الى الأفضل في أيـــة جهة تكون فهو دين وايمان عند الله .

أرأيت الى هذا الترابط العضوي بين الدنيا والآخرة، وهذا التكامل بين الشجرة والثمرة ؟. واذن أين مكان الريب في اليوم الآخر ؟ وما هي عيوب الايمان بـه وبالوقوف بين يدي عادل قدير لنقاش الحساب على ما فعـــل الانسان وترك ؟ أبالثواب والنعيم على ما أحسن ، أم بالعقاب والجحيم على ما أساء ؟.. هذه هي الآخرة عند الاسلام .. لا تنفك ولا تنفصم عن عمل الدنيا بحال : « من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً – ٧٢ الإسراء » .. « أم حسبتم أن تدخلوا الجنـة ولمـا يعـلم الله الذين جاهـدوا منـــكم ويعلم الصابرين – ١٤٢ آل عمران » .. أبداً لا نظرية مجردة ، ولا عقيدة مستقلة عن العمل في الاسلام، كيف وهو القائل : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى وان سعيه سوف يرى – ٤٠ النجم » . ومن هنا كان الاسلام دين العمل حقاً وواقعاً ، العمل من أجل حياة أفضل في شتّى الميادين .

ومن هنا أيضاً يبارك الاسلام الخصب والرخاء ، ويحرص على الأمن والعدل ، ويستنكر الفقر والتخلف ، ويلعن الاستعباد والاستغلال، ويثور على الظلم والعدوان..

هذا هو الاسلام واضح وبسيط ومقنع في جميع تعاليمه التي تمثل الإحساس بمعاني الحيـــاة ومطالبها ومسؤوليتها .. ولا مشاكل للاسلام ولا فيه إلا مشكلة واحــدة تسربت اليه من إساءة الفهم والتفسير الخاطىء الجائر، من الذين يدّعونه ويمجدونه على أساس انه عواطف ومجاهيل ، وشعائر وتقاليد وكفى .. ثم يتهمون كل من يعرف الاسلام على حقيقته ، ويرمونه بما شاء لهم الجهل والغرض ، ولو ابتعــد الأدعياء أو أبعدوا عن الدين ووظائفه لدخل الشباب في دين الله أفواجاً ، ونبذوا التيارات الشائعة الذائعة في هذا العصر .

الخطبة

- ٢٩ -

لا يدرك الحق إلا بالجد .. فقرة ١ — ٢ :

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱلْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ ، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ . كَلَامُكُمْ يُوْهِي الصُّمَّ الصِّلَابَ وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْدَاءَ . تَقُولُونَ فِي ٱلْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ . فَإِذَا جَاءَ ٱلْقِتَالُ قُلْتُمْ حِيدِي حِيَادِ . مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ وَلَا ٱسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ . أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ . دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ ٱلْمَطُولِ لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ . وَلَا يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ(١). أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ ، ٱلْمَغْرُورُ وَاللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ . وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَاللهِ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ . وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ . أَصْبَحْتُ وَاللهِ لَا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ ، وَلَا أُوعِدُ ٱلْعَدُوَّ بِكُمْ . مَا بَالُكُمْ ؟

مَادَوَاؤُكُمْ ؟ مَا طِبُّكُمْ ؟ اَلْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ . أَقْوَالًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ ، وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ(٢) .

اللغة :

أهواؤهم : آراؤهم وميولهم . والصم : جمع الأصم وهو الأطرش ، والمراد به هنا الحجر . والصلاب : جمع الصلب – بضم الصاد – أي الشديد . وكيت وكيت : كذا وكذا كناية عن الحديث ، ولا تستعملان إلا مكررتين ، ومثلها ذيت وذيت . وحيدي حياد : تنحي عنا أيتها الحرب . وقاساكم : أخذكم بالقسوة والشدة . وأعاليل : جمع اعلولة ، وتُشعر بكذب التعليل . وأضاليل : جمع اضلولة . والمطُول : مبالغة في المطل أي التسويف بوعد الوفاء . والأخيب : الخاسر . والأفوق: السهم الذي كُسر طرفه . والناصل ما لا نصل فيه ، والنصل: حديدة السهم والرمح والسيف .

الإعراب :

كيت وكيت مبنية لأنها حالة محل الجملة ، ولا محل لها من الإعراب لشبهها باسم الفعل ، ومثلها حيدي حياد ، وقيل : هي اسم فعل على سبيل الاحتمال . أعاليل خبر لمبتدأ محذوف أي أقوالكم أعاليل ، وبأضاليل متعلق بأعاليل . ودفاع منصوب بنزع الخافض أي كدفاع . وما بالكم مبتدأ وخبر ، ومثله ما بعده . وقولاً نصب على المصدرية ومثله ما بعده .

المعنى :

(كلامكم يوهي الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء) .. شجاعة وبطولة في المظاهر والأقوال ، وضعف وخور في القلوب والأفعال . (تقولون في المجالس : كيت وكيت ، فإذا جاء القتال قلتم : حيدي حياد) . هذا بيان وتفسير لما قبله ، وتوكيد ما هم عليه من مخالفة القول للفعل ، وأكثر الناس

يقولون ما لا يفعلون إلا مع الخوف والرهبة (ما عزت دعوة من دعاكم) . لأنكم لا تجيبون داعياً ، ولا تسعفون شاكياً .

(ولا استراح قلب من قاساكم) . كأنّ الإمام (ع) يجيب بهذا سائلاً يقول: لماذا يترك الإمام أمر الجهاد والحرب لهم ولقناعتهم ، ولا يجندهم بالقهر والقسوة بدل أن يقف فيهم منذراً وموبخاً من غير جدوى تماماً كوعاظ المساجد ؟ أليست السلطة في يده ، والأمر له وحده ؟.

فأجاب عليه السلام بأنه لو قسا عليهم ، وأخذهم بالشدة من أجل الجهاد لشقوا عصا الطاعة ، وكانوا عوناً للعدو عليه .. وأشرنا في بعض ما سبق الى ان طريقة الاسلام في الجهاد ان يحث عليه ، ويبين منافعه وحسناته ، ثم يترك الأمر لقناعة الانسان ، لأنه لو أرغمه عليه لربما أضمر السوء ، وسعى في الفتنة وتفريق الصفوف ، وقد يؤدي به الى التآمر مع العدو .

(أعاليل بأضاليل) . يبررون قعودهم عن الجهاد بعلل عليلة واهية ، كلها نفاق وتضليل (وسألتموني التطويل دفاع ذي الدَّين المطول) . رغبوا الى الإمام في تأخير الحرب والجهاد ، ولا مبرر إلا التسويف والمماطلة تماماً كالمدين الواجد يدافع غريمه ويماطله بلا عذر .. والعدو قد جاس خلال الدار ، وأكثر من القتل والدمار ، والتأخير في حربه يمكنه من بلوغ أهدافه وأهوائه .

(ولا يمنع الضيم الذليلُ) بعد أن هانت عليه نفسه ، وآثر الحياة مع الذل والهوان على الموت مع العزة والكرامة (ولا يدرك الحق إلا بالجد) تماماً كالعلم، هذا بالسهر والمضي في البحث والتنقيب ، والدرس والسؤال مع الصبر على الفقر والفاقة ، وذاك بالدفاع باللسان والقلم وبالإضراب والمظاهرة ، وبالثورة والتضحية بالنفس والمال والأهل ان اقتضت الحال .

(أي دار بعد داركم تمنعون)؟. أتاهم الإمام عن طريق إحساسهم وشعورهم، لأن وطن الانسان نفسه وكرامته ، ومن استهان بوطنه فقد استهان بنفسه وكرامته، بل وبدينه وعقيدته،لأن حب الوطن من الايمان (ومع أي إمام بعدي تقاتلون) ؟.. أبداً ولا إمام ، لأنهم لا يريدون القتال من الأساس ، ويؤثرون الراحة والكسل على الجهاد والعمل .

(المغرور والله من غررتموه) لأنكم كالسراب تقرّبون البعيد ، وتبعدون

القريب ، ومن هنا وصفهم الإمام في غير مكان بالكذب والنفاق (ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب) . لأنكم لا تغنون غناء عصفور (ومن رمى بكم رمى بأفوق ناصل) بسهم لا يصل الى المرمى ، وهذا الكلام عطف تفسير على ما قبله (أصبحت والله لا أصدق قولكم) لأنكم كاذبون (ولا أطمع في نصركم) لأنكم متخاذلون (ولا اوعد العدو بكم) لأنه لا يرهبكم .

(أقوالاً بغير علم)،أي بغير عمل لأن الإمام (ع) يرى التلازم والترابط بين العلم والعمل الصالح ، فمن أقواله : العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل ، والعلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل (وغفلة من غير ورع) . تغفلون عن الواجبات ولا تتورعون عن المحرمات (وطمعاً في غير حق) . لا تؤدون حق الله والناس، ومع هذا تطمعون في غير حقكم .. وسيرة الناس أو أكثرهم على ذلك حتى قيل: الانسان شرير بطبعه . وقال آخر : بل خير بطبعه . وقال ثالث : انه يتكيف حسب ظروفه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ولكل شبهة ومدرك .

الخطبة

- ٣٠ -

استأثر فأساء :

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً . أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ . وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي . وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ : اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ . وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ ، وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ .

الإعراب :

غير بمعنى سوى ، وتأتي بمعنى «لا» مثل فعلت هذا غير مكره ، وعندئذ تنصب على الحال أي فعلته لا مكرهاً وأيضاً تأتي بمعنى «الا» الاستثنائية، ويجري عليها من الاعراب ما يجري على الاسم الذي بعدها إذا وقع بعد أداة الاستثناء مثل جاء القوم غير زيد ، فتنصب غير لأنك تقول : جاء القوم إلا زيداً ، ومثله «غير ان» من الخ في كلام الإمام (ع) ، فقد نصبت «غير» لأن المصدر المنسبك من ان وما بعدها لو وقع بعد إلا لكان منصوباً على الاستثناء .

المعنى :

(لو أمرت به لكنت قاتلاً ، أو نهيت عنه لكنت ناصراً) . الضمير في « به » يعود الى قتل عثمان .. وما كان الإمام (ع) آمراً بذلك ، ولا ذاباً عنه بسيفه ، بل نهى عن قتله : ما في ذلك ريب .. لم يأمر لأنه لو أمر لكان من قاتليه ، وليس في قتله أية مصلحة للإسلام والمسلمين ، ولو ذب عنه بالسيف لعمت الفتنة ، وتكدست القتلى بالألوف أو المئات ، ومن أجل هذا وذاك وقف الإمام عند النهي عن القتل ، والتحذير منه ما استطاع ، قال الشيخ محمد عبده : « أما نهيه عن قتله فهو ثابت ، وقد أمر الحسن والحسين أن يذبا الناس عنه » .

(غير ان من نصره لا يستطيع أن يقول : خذله من إنا خير منه) . حين قتل عثمان كانت المدينة تعج وتغص بالصحابة من المهاجرين والأنصار ، وفيهم الوجوه وأهل السابقة والمكانة ، وقد خذلوا عثمان وتجاهلوه عن عمد ، بل كان بعضهم يحرض عليه سراً أو علناً ، ولو ان الصحابة ناصروه ووقفوا معه لما أقدم وتجرأ أحد على قتله .

أما الذين ناصروا عثمان فهم وزراؤه وأعوانه الذين اغتصب لهم أموال المسلمين، كمروان وأضرابه . وعلى هذا فمن نصر عثمان لا يجرؤ على الادعاء بأنه أفضل ممن خذله ، بل العكس هو الصحيح . ونتيجة ذلك ان من خذل عثمان وهو قادر على الذب عنه — غير مسؤول أمام الله . قال الشيخ محمد عبده : « يريد الإمام ان القلوب متفقة على ان ناصري عثمان لم يكونوا في شيء من الخير الذي يفضلون به على خاذليه » . وقال ابن أبي الحديد : « أما قوله غير ان من نصره فمعناه ان خاذليه كانوا خيراً من ناصريه ، لأن الذين نصروه كان أكثرهم فساقاً كمروان ابن الحكم وأضرابه ، وخذله المهاجرون والأنصار » .

(ومن خذله لا يستطيع أن يقول : نصره من هو خير مني) . بل العكس هو الصحيح لما بينّا .. وهل من أحد يجرؤ على الزعم بأن مروان خير ممن خذل عثمان من المهاجرين والأنصار ؟.. ولو ان منصفاً تتبع سيرة عثمان ، وأحصى عليه أعماله لوجد انها مقدمات طبيعية لما حدث .

(وانا جامع لكم أمره: استأثر فأساء ، وجزعتم فأسأتم الجزع) . أي ان كلاً من القاتل والمقتول على خطأ .. لقد حكم عثمان فجار وأسرف ، وكان عليه أن

لا يتعدى حدود الكتاب والسنة ، وبادر الناقمون الى تأديبه فتجاوزوا حد القصاص الذي شرع حقناً للدماء ، وفتحوا باب القتل والقتال بين المسلمين ، وكانوا سبباً لسفك ما سفك من الدماء بسبب هذه الفتنة .

(ولله حكم واقع في المستأثر والجازع) . بعد أن حكم الإمام (ع) بالإساءة على القاتل والمقتول قال ، هذا حكمي ، ولله سبحانه في كل منهما حكم .:. وهذا تعليم وتنبيه للجاهل أن يحجم عن الحكم ، وللعالِم ان يتثبت قبل أن يحكم ، وقد جرت سُنة المجتهدين منذ القديم أن يقولوا : « والله أعلم » بعد ان يفتوا أو يحكموا .

الخطبة

- ٣١ -

طلحة والزبير :

لَا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ هُوَ الذَّلولُ . وَلٰكِنِ ٱلْقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً فَقُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ ٱبْنُ خَالِكَ : عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا .

اللغة :

الأعقص من التيوس : ما التوى قرناه على أذنيه من خلفه ، والمراد هنا بـ « عاقصاً قرنه » الغرور والغطرسة . والعريكة : الخلق والطبيعة .

الإعراب :

عاقصاً مفعول ثان لتجده ، وكالثور الكاف بمعنى مثل حال من الهاء في تجده أي تجده عاقصاً قرنه مماثلاً للثور . وعريكة تمييز .

المعنى :

الزبير قرشي ، وأبوه العوام بن خويلد أخو السيدة خديجة الكبرى بنت خويلد ، والزوجة الأولى لرسول الله (ص) ،وأم الزبير صفية بنت عبد المطلب عمـة النبي والإمام ، وتزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر ، وأولدها عبدالله ، فالزبير ابن عمة الرسول (ص) وابن أخ زوجته خديجة وعديله . ومن أجل هذا قال له الإمام من جملة ما قال : كنا نعدك من آل عبـد المطلب حتى نشأ ابنك عبدالله،ابن السوء ، ففرق بينك وبيننا .

وكان الزبير يحث سراً على قتل عثمان ، وبعد قتله بايـع الإمام ، ثم نكث بيعته ، وأعلن عليه الحرب . وقبل أن يشتبك الفريقان في وقعـة الجمـل وقف الإمام بينهما ، ونادى الزبير ، وانفرد به ، وقال له : ألم يقل لك رسول الله (ص) ، اما انك ستقاتل علياً ، وأنت له ظالم ! فانصرف الزبير عن القتال ، وتبعه عمرو ابن جرموز فقتله في وادي السباع .. ذكر هذا جماعة من أهل التراجم والتاريخ، منهم ابن عبد البر في الاستيعاب .

وطلحة قرشي أيضاً ، وأبوه عبدالله بن عثمان ، وكان طلحة من أشد الناس تحريضاً على ابن عفان ، ولما قتل بايع طلحة علياً ، ثم نكث وأعلن الحـرب ، وعندما اشتبك الفريقان في وقعة «الجمل» رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله،وقال: والله لا أطالب بثأر عثمان بعد اليوم ، والتفت الى بعض ولد عثمان وقال له : كفيتك ثأر أبيك من طلحة ، وكان مروان وطلحة في أصحاب الجمـل . قال بن عبد البر في (الاستيعاب) : « لا يختلف العلماء الثقات في ان مروان قتل طلحة يومئذ ، وكان في حزبه » أي في الحزب الذي حارب الإمـام .. والعبرة في قصة مروان وطلحة ان كلاً منهما أعلن الحـرب مطالباً بدم عثمان ، وحـين سنحت الفرصة لمروان غدر بصاحبه طلحة ، وأدرك بقتله الثأر منه لعثمان .

كيف اتفق طلحة ومروان معاً على المطالبة بدم عثمان ، وفي نفس الوقت يفتك أحدهما بصاحبه لا لشيء إلا ليثأر منه لعثمان ؟. ولا عجب فكل أعـداء علي من هذا الطراز ، وعلى هذا المبدأ ، يطالبون بالحق ويتخذونه شعاراً لهم ، ثم يقيمون الدليل من أنفسهم وايمانهم وأعمالهم على انهم هم الذين خنقوا الحق،وحملوا جنازته

على رؤوسهم ينشدون اللحن الجنائزي ، ويطلبون القصاص من أصحاب الحق الذي اغتصبه وخنقه المطالبون بدمه .. وهـذا هو منطق الانتهازيين ، وكل من يتاجر بالمبادىء والدين ، ويقول : أنا وحدي على الحق الكامل ومن خالفني على الضلال التام .

والمعروف من سيرة الإمام (ع) انه ما خاض حرباً ، ولا شهر سيفاً على أحد إلا بعد اليأس من السلم والصلح ، وكان يسلك اليه كل سبيل ، ومن أقواله : « سأمسك الأمر ما استمسك ، وإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكي » أي الحرب . ومن الشواهد على ذلك قوله لابن عباس قبل أن تقع حرب الجمل : دع عنك طلحة ، ولا تكلمه في شأن الحرب أو السلم ، فقد استبدت به الغطرسة ، وأعماه الغرور حتى أصبح يرى البعيد قريباً ، والصعب سهلاً .

(ولكن الق الزبـير ، فإنه ألين عريكة) . أرق قلباً ، وأسهل جانباً من طلحة . قال المؤرخون : « كان الزبير في أشد الحيرة منذ وصل الى البصرة ، وعرف ان عمار بن ياسر قد أقبل في أصحاب علي : وكان المسلمون يتسامعون بقول النبي (ص) لعمار : « ويحك يا ابن سمية ، تقتلك الفئة الباغية . فلما عرف ان عماراً في جيش علي أشفق أن يكون من هذه الفئة الباغية .

(فقل له : يقول لك ابن خالك : عرفتني بالحجاز ، وأنكرتني بالعراق) : كان الزبير من أشد الناس حماساً وحباً لعلي في عهد الرسول (ص) وبعد وفاته ، وقد شهر سيفه يوم السقيفة ، وأبى إلا علياً للخلافة ، ووقف الى جانبه في الشورى يوم جعلها عمر في ستة ، ثم بايع الإمام بعد مقتل عثمان ، كل هذا كان في الحجاز ، واليه أشار الإمام بقوله : « عرفتني بالحجاز » ثم نكث البيعة وخرج على الإمام في البصرة ، والى هذا النكث أشار الإمام بـ « أنكرتني بالعراق » :

(فما عدا مما بدا) . عدا فلان طوره تجاوزه وتعداه ، وبدا ظهر وتبين ، والمعنى كنت من قبل – يا زبير – لي ومعي حتى بايعتني بالخلافة ، ثم ثرت علي وانكرتني .. لماذا ؟ وأي شيء ظهر لك مني بعد البيعة حتى تغيرت وتجاوزت ما كنت عليه من قبل ؟ وعلى هذا تكون « من » في قوله « مما » لبيان الجنس كما قال ميثم في شرحه ، وليست بمعنى « عن » كما قال ابن أبي الحديد ومن تابعه كالشيخ محمد عبده ، والشيء الذي بينته « من » هو : ما بدا من أفعال

الإمام للزبير بعد البيعة ، ان كان هناك من شيء .

وتسأل : هل بلغ ابن عباس رسالة الإمـــام (ع) الى الزبير ؟ وبمـاذا أجاب عنها ؟.

قال ابن عباس : أتيت الزبير ، وقلت له ما قال الإمام . فأجاب بأنه يريد ما نريد ، ولم يزدني على ذلك : وفهمت من جوابه انه يريـد المُلْك ، فرجعت الى أمير المؤمنين (ع) فأخبرته .

الخطبة

-٣٢-

الناس على أربعة أصناف .. فقرة ١ — ٤ :

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً ، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً . لاَ نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا ، وَلاَ نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا ، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا(١) . فَالنَّاسُ عَلى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلاَلَةُ حَدِّهِ وَنَضِيضُ وَفْرِهِ . وَمِنْهُمُ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ . قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ وَأَوْبَقَ دِينَهُ ، لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ . وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً ، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضاً(٢) . وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا ، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ

لِلْأَمَانَةِ وَاتَّخَذَ سَتْرَ اللهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ . وَمِنْهُمْ مَـــنْ أَقْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُؤُولَةُ نَفْسِهِ ، وَانْقِطَاعُ سَبَبِـــهِ . فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَنْ حَالِهِ فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ وَلَيْسَ مِنْ ذٰلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدًى(٣) .

اللغة :

العنود : الجـــائر عن الطريق ، والمفهوم منـــه عرفاً المخالف المشاكس . والكنود : الكافر بالنعمة . والعتو : القسوه . والقارعـــة : الداهية والخطب . والكلالة : الإعيـــاء . وكَلّ السيف : لم يقطع . والنضيض : القلة . والوفر – بفتح الواو : الغنى . والمصلت لسيفه : من سله من غمده . والمعلن : المظهر . والمجلب : من جلب وجمع من هنـــا وهنـــاك . ورجله – بفتح الراء – جمع راجل . وأوبق : أهلك . والحطـــام : متاع الحياة الدنيا . وينتهز : يستلب ويختلس . والمقنب – بكسر الميم وفتح النون – نوع من الخيل . ويفرعه : يعلوه . وطامن : خفض . والضؤولة : الضعف والحقارة . والمراح : مكان الماشية بالليل ، وقيل : لها ولغيرها . والمغدى : مكانها بالنهار .

الإعراب :

عتواً تمييز محول عن فاعل لأن المعنى يزداد عتو الظالم ، والمتجر فاعل بئس ، والمصدر من ان ترى الدنيا هو المخصوص بالذم ، ومحله الرفع بالابتداء ، وجملة بئس المتجر خبر مقدم ، ومما لك عوضاً معطوف على ما قبلـه أي وان ترى مما لك الخ .

المعنى :

(قد أصبحنا في دهر عنود ، وزمن كنود) . المراد بالزمان أهلــه ، وإلا

فإن الزمن من حيث هو لا يُمدح ولا يلم (يعد فيه المحسن مسيئاً) . لو سئلت عن الفرق بين المحسن والمسيء لأجبت بأن المحسن من لا يرى نفسه محسناً ، وفي الوقت نفسه يرى ان في إمكانه ومقدوره ان يردعها عن المحرمات والإساءة الى الناس .. والى هذا يومىء كلام الإمام (ع) : « كان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة » على عكس المسيء الذي يرى نفسه محسناً ، وغيره المسيء ، ونفسه منه في راحة ، والناس منه ومن شره في شغل شاغل .

(ويزداد الظالم عتواً) . للظلم والعتو أسباب ، وأهمها أن يتولى المجرمون مركز القيادة ، ويحتكروا المال والسلاح ، وسائر مظاهر القوة كوسائل النشر والدعاية وما اليها (لا ننتفع بما علمنا) . نحن نعرف المجرمين بأسمائهم وأشخاصهم ومع هذا نمهد لهم سبيل الجريمة والفساد ، فنختارهم للرئاسة والقيادة ، وللتمثيل والنيابة ، ونطبل لهم ونزمر ، ولا فرق بين الظالم ومن أمده بسبب .

(ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا) . لا نتوقع حدوث المخاطر التي تهدد حياتنا وحياة أبنائنا في المستقبل القريب أو البعيد، أو نتوقعها ولكن نستهين بها، ولا نبذل أي جهد لدفعها والتحرز منها .. أجل ، إذا وقعت تصايحنا واستغثنا، ولكن لا جواب إلا الندم والحسرات .

واليوم يعاني العالم وبخاصة الشعوب المتخلفة أخطر مشكلة ، وهي النمو العددي للسكان مع العلم بأن هذه الشعوب تملك الكثير من الطاقات والموارد فوق الأرض وتحتها ، ولكن هذه تُهمل وتتجاهل ، ويستغلها الأعداء والأباعد، وتعيش هي في أسوأ حال ، تتسول وتستجدي ممن ينتهبها ويستلبها .. أما الأجيال الآتية من أبناء هذه الشعوب فقد تنبأ بعض الباحثين بأن الحاجة ستدفع بهم الى أن يأكل بعضهم بعضاً ، ثم الى مهاوي الفناء جوعاً . وليس هذا ببعيد ، فقد حدث وتكرر في التاريخ الذي قال : حدثت مجاعة في البصرة ، فحفر الناس القبور ، وأكلوا ما فيها من بقايا الموتى .

(والناس على أربعة أصناف) . وهم في الحقيقة صنفان : أهل الدنيا ، وأهل الآخرة . وأهل الدنيا أربعة أصناف :

١ — (منهم من لا يمنعه الفسادَ في الأرض إلا مهانة نفسه ، وكلالة حده ، ونضيض وفره) . انه لا يسعى للرئاسة ، ولا يفسد في الأرض ، ولكن لا زهداً

في الدنيا ، ولا تورعاً عن محارم الله ، بل للضعف والعجز مالاً وسلاحاً . وأشار الإمام الى العجز المالي بنضيض الوفرة ، والى العجز في السلاح بكلالة الحد .. وعلى أية حال فإن الله سبحانه لا يعاقب على مجرد النية ، فذاك الرجل لو كان قادراً لملأ الدنيا فساداً ، وانما يحاسب ويعاقب على العمل الذي يحس ويلمس « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » لا من ينوي الشر . قال الإمام (ع) : من العصمة تعذر المعاصي .

٢ – (ومنهم المصلت لسيفه ، والمعلن بشرّه ، والمجلب بخيله ورجله) : هذا الصنف من الناس قوي بسلاحه وأعوانه ، وقوته هي التي دفعت به الى الفساد والإفساد (قد أشرط نفسه) جعلها وقفاً على الشر (وأوبق دينه لحطام ينتهزه). أهلك دينه وضميره من أجل الدنيا وحطامها .. وهذا الكلام واضح وصريح في ان الامتياز في القوة بشتى مظاهرها يغري صاحبه بالإمعان في الفساد في الأرض ، وان المجتمع اذا تساوى أفراده في القدرات والامكانات يخلو من الدوافع على اقتراف الجرائم .. اللهم إلا من قبل أهل الداء العضال .

(أو مقنب يقوده) . يتكبر ويستعلي على العباد بخيله وصهيلها (أو منبر يفرعه) . يعلوه ويلقي على الناس المجاهيل والأضاليل (ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً) . نفسُ الانسان أحب الأشياء اليه ، وأعزها عليه ، فكيف يبيعها بثمن بخس ؟. ومن أقواله (ع) : ان أنصح الناس لنفسه أطوعهم لربه ، وان أغشهم لنفسه أعصاهم لربه ، والمغبون من غبن نفسه .

للمنبر – المرائي والمومس :

٣ – (ومنهم من طلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا). يشير الإمام بهذا الى المرائين الذين يحتلبون الدنيا بالدين !.. ولست أشك في ان المومس التي تبيع جسدها وتعيش على فرجها أشرف من المرائي الذي يتاجر بالدين وأقرب منه الى الله .. انها تاجرت بمخرج البول ، وتاجر هو بالوحي وقدس الأقداس الذي به عظمة الرسل والأنبياء ، ومن أجله يستميتون ، وفي سبيله يستشهدون .. وأيضاً هي لا تغش ولا تكذب في مهنتها وتجارتها ، وتظهر للناس عارية ، ولا تطلب الاحترام من أحد ، بل تشعر بضعتها واحتقار الناس لها ،

وقد يكون في هذا شيء لها من الشفاعة عند الله .

أما المرائي الذي يتاجر بالدين فإنه يغش ويخدع في وظيفته ، ويكذب وينافق في مظهره والستر على عيوبه ، ومع هذا يتوقع من النـــاس التقدير والاحترام :. فأيهما عند الله والضمير الانساني أفضل ، أو أرذل: هو أو هي ؟ التضليل المموه أو الخطيئة المكشوفة ؟.

(قد طامن شخصه) . أظهر التواضع الكاذب الدال عـــلى جبنه وخسته ، وضعفه وضعته (وقارب من خطوه) . مشى بهدوء ليعدّ من الصالحين (وشمّر من ثوبه) . يظهـر الاحتياط من النجاسة والعمـــل بآية « وثيابك فطهـــر » . (وزخرف من نفسه للأمانة) . أحاطها بهالة كاذبة من النزاهة والأمانة كـــي يخفي ما فيها من الدناءة والخيانة (واتخذ ستر الله ذريعـــة الى المعصية) . قال الإمام (ع) : كم مستدرَج بالاحسان اليه ، ومغرور بالستر عليه ، ومفتون بحسن القول فيه ، وما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء .. فالحذرَ الحذر ، فوالله لقد ستر كأنه قد غفر .

٤ – (ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه) . يلتقي هذا الرابع مع الأول في الضعف والعجز في قلة المـــال وعدم الأعوان ، ويفترق عنه في أن الأول صرف النظر عن الرئاسة والسمعة والشهرة بعد أن أيقن بالعجز ، أما هذا الرابع فلم يصرف النظر عن السمعة والشهرة، واستعاض عن المال والأعوان بإظهار الزهد في الدنيا زوراً ونفاقاً ، لأنها هي التي زهدت فيه ، أما هو فأحرص الناس عليها .. وقال الإمام (ع) : أفضل الزهد إخفاء الزهد .. ولا زهد كالزهـد في الحرام .. وليس من شك ان الرياء من أكبر الكبائر .

(وانقطاع سببه) . أي لا يملك شيئاً من أسباب الرئاسة والسمعـــة والشهرة (فقصرته الحال على حاله) . أرغمه العجز ان يقتصر على الحال التي هو عليها من حيث قلـــة المال وعدم الانصار ، وسلك طريق الدجل والاحتيال (وتزين بلباس أهل الزهادة ، وليس من ذلك في مراح ولا مغدى) . الرواح الذهاب في العشي ، والمراح اسم مكان الرواح ، والغدو الذهاب في الصباح ، والمغدى اسم مكان الغدو ، ويقال : « ما ترك فلان من أبيه مراحاً ولا مغـدى » اذا اشبهه في كل شيء . وقصْد الإمام (ع) ظاهر ، وهو ان هذا المرائي ليس من الزهد وأهله في شيء ، وإنما هو دجال محتال .

بقي رجال .. فقرة ٤ ـ ٥ :

وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ ٱلْمَرْجِعِ . وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ ٱلْمَحْشَرِ . فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ . وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ . وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ . وَدَاعٍ مُخْلِصٍ . وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ وَشَمَلَتْهُمُ الذِّلَّةُ فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ . أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ . وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ . وَقَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا . وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا[٤] . فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ ٱلْقَرَظِ وَقُرَاضَةِ الْجَلَمِ ، وَٱتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ . وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ[٥] .

اللغة :

النادّ ـ بتشديد الدال ـ من ندّ اذا نفر وذهب على وجهه شارداً . والمقموع: المقهور . والمكعوم : الملجوم . وثكلان : الحزين لفقدان الأحبة . والتقية : إخفاء الحال خوف الضرر . والأُجاج : الملح . والضامزة : الساكتة . والحثالة: الرديء من كل شيء ويرمى به مع القمامة . والقرظ ـ بفتح الراء ـ ورق السَّلَم يدبغ به . وقراضة : ما يسقط عند القرض . والجلم : المقراض .

المعنى :

بعد أن ذكر الإمام أهل الدنيا وأصنافهم الأربعة أشار الى أهل الله والآخرة ، وذكر طرفاً من صفاتهم ، من ذلك (غض أبصارهم ذكرُ المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر) . يريد بالمرجع القبر ، وبالمحشر البعث منه . قال

سبحانه : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى — ٥٥ طه » خُلقنا من الأرض ، واليها نعود ، ثم نخرج منها الى الحساب والجزاء ، واذن نحن ضيوف مؤقتون عليها ، ثم ننام طويلاً في بطنها ، وبعد السبات العميق ننتبه لنعود الى الله سبحانه والحساب والجزاء عن آداب تلك الضيافة وواجباتها . وقد سمح الله ان نتمتع من خيرات الدنيا جهد طاقتنا على أن نتزود منها ليوم لا زاد فيه ولا عمل ، فقال : « كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان — ١٦٨ البقرة » .. « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله — ٦٩ الأنفال » .

(فهم بين شريد ناد) . فر بدينه عن الساسة والسياسة ، والفساد وأهله ، ليقطع الطريق على نفسه ، فلا تنزل منازل الفاسدين ، وتتدنس بأقذارهم (وخائف مقموع) . خائف من ذنبه ، وعذاب ربه ، ومقهور صبور على المكاره التي حفت بالجنة (وساكت مكعوم) . ملجوم عن الباطل والكذب والغيبة والنميمة (وداع مخلص) . يدعو الى الله والحق بدافع من دينه وضميره (وثكلان موجع). حزين لما يرى من الفساد والضلال (قد أخملتهم التقية) . طاردهم الطغاة ، فتواروا عنهم حتى خفيت مكانتهم على أكثر الناس .

(وشملتهم الذلة) . وكل عزيز عند الله ذليل عند أعدائه (فهم في بحر اجاج) في محيط فاسد ، وبيئة ضالة (أفواههم ضامزة) . ساكتة عن الحرام (وقلوبهم قرحة) خوفاً من الله ومن انتشار الفساد في الأرض (قد وعظوا حتى ملوا) حيث لا اذن تسمع ، ولا قلب يخشع (وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى قلوا) . نكل الطغاة بهم سجناً وقتلاً وتشريداً وتعذيباً حتى أذلوهم ، وكادوا يستأصلون شأفتهم .

(فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة) . الدنيا وسيلة الى غيرها ، وليست غاية في نفسها ، وكل عمل يعمله الانسان في دنياه يقاس بنتائجه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وقد مدح الإمام (ع) الدنيا في بعض أقواله ، ومراده دنيا الأبرار الذين لا يؤثرونها على آخرتهم ، ويقولون : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار — ٢٠١ البقرة » . وأكثر الإمام من ذم الدنيا على قدر المتكالبين عليها ، ومراده دنيا الأشرار الذين آثروا العاجلة على الآجلة ، وهم المعنيون بقوله تعالى : « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا

غافلون ـ ٧ يونس » . وقال : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى ـ ٣٨ النازعات » .

(واتعظوا بمن كان قبلكم الخ) . والشيء المحير ان الانسان يرى كل يوم العديد من الصور والحوادث التي توحي بالاتعاظ والاعتبار ، ومع هذا لا يزدجر من الله بزاجر ، ولا يتعظ منه بواعظ ، فما هو السر يا ترى ؟

وليس ببعيد أن يكون السر هو المجتمع المعقد الفاسد الذي يضم أناساً يأكلون ولا يكدحون تماماً ككلاب السيدات والآنسات « الارستقراطيات » وأناساً يعملون ليل نهار ، ولا يعثرون على الغذاء إلا بقسوة مع الصبر على المخاطر .. وكل الناس قرأوا أو سمعوا عن الآلاف الذين ماتوا خنقاً تحت الردم ، وهم يحفرون في المناجم لتتكدس الثروات في مصارف المتسابقين اليها .. هذا هو السر ، أو السبب الأهم ، واليه يومىء الإمام (ع) بقوله في خطبة يأتي شرحها : « اضرب بطرفك حيث شئت من الناس ، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً ؟ » .

الخطبة

- ٣٣ -

ما عجزت ولا جبنت .. فقرة ١ — ٢ :

إنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً . فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ وَٱطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ . أَمَا وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَإِنَّ مَسِيرِي هٰذَا لِمِثْلِهَا فَلَأَنْقُبَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ[1] مَالِي وَلِقُرَيْشٍ. وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ . وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ ٱلْيَوْمَ ، وَٱللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللهَ ٱخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ ٱلْمَحْضَ صَابِحاً وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ ٱلْمُقَشَّرَةَ ٱلْبُجْرَا

وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ ٱلْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ عَلِيًّا وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا

اللغة :

بوأ : هيأ أو أسكن . وصفاتهم — بفتح الصاد — جمع صفاة ، وهي الصخرة الصلبة . والساقة يكونون في مؤخر الجيش يسوقونه الى الأمام . وبحذافيرها : بأسرها وكاملها . ومفتونين : منحرفين عن الحق .

الإعراب :

إن كنت «ان» مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي انه كنت. ولأنقبن الواو للقسم . وحتى يخرج،الفعل منصوب بأن مضمرة بعد حتى . ما لي مبتدأ وخبر . وكافرين حال ، ومثله مفتونين . والمصدر من ان الله الخ. مفعول من أجله لتنقم .

المعنى :

قال الشريف الرضي نقلاً عن ابن عباس : انه دخل على أمير المؤمنين (ع) بذي قار — بلد قرب البصرة — وهو يخصف نعله أي يخرزها ، فقال له الإمام: ما قيمة هذه النعل ؟. فقال ابن عباس : لا قيمة لها . قال الإمام : والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلا ان أقيم حقاً ، أو أدفع باطلاً ، ثم خرج فخطب الناس وقال :

(إن الله بعث محمداً (ص) وليس من العرب من يقرأ كتاباً ، ولا يدعي نبوة) . المراد بالكتاب هنا الكتاب السماوي من غير تحريف وتزييف ، والمعنى ان العرب قبل البعثة كانوا في جهالة مهلكة ، وضلالة مظلمة ، لا يهتدون بكتاب إلهي ولا بسنة نبوية .. والى هذا تومىء الآية ٢ من سورة الجمعة : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

والقرآن الكريم أصدق مرجع عن أحوال العرب في الجاهلية،ويأتي من بعده نهج البلاغة حيث لم يكن للقوم كتاب سماوي ولا أرضي.. ونزل الكتاب نجوماً أي آناً بعد آن حسب الوقائع والمصالح ، ثم جُمع في مجلد واحد ، وكان الإمام يخطب أو

يكتب الرسائل لعماله أو يرسل الحكمـــة والموعظة حسب المقامات والمناسبات يوم لا تأليف ولا تصنيف عند العرب ، ولا شيء إلا كتاب الله وسنّة نبيه ، وفي أواخر القرن الرابع الهجري جمع الشريف الرضي من آثار الإمام ما في نهج البلاغة.

(فساق الناس حتى بوأهم محلتهم ، وبلّغهم منجاتهم ، فاستقامت قناتهم ، واطمأنت صفاتهم) . دفع الرسول الأعظم (ص) بالناس الى الإمام ، وأنقذهم من الهلكة الى سبيل النجاة ، فاستقامت أمورهم ، وسكنـوا في ديارهم آمنين ، وكانوا يخـافون من قبـل أن يتخطفهم النـــاس ، وبكـــلام أوضح : حوّل الرسول الأعظم (ص) قومه من الشرك الى التوحيد ، ومن الضلال الى الهدى ، ومن الذل الى الفتح المبين ، فكان مبعثه إيذاناً بالتحول الخطير في حياة العرب ، بل في حياة العالم كله بشهادة التاريخ ، وكل باحث قديم وجديد في الشرق وفي الغرب .

(أما والله ان كنت لفي ساقتهـــا حتى تولت بحذافيرها ، ما عجزت ولا جبنت) . الضمير في ساقتها ، وتولت بحـــذافيرها يعود الى الناس الذين ساقهم النبي (ص) حتى بلغ بهم منازل العزة والكرامة ، ويريد الإمام انه قد ساهم في ذلك ، ويجوز أن يعود الضمير الى الجاهلية المفهومة من الكلام أي ان الإمام ساهم في جهاد الجاهلية والقضاء عليها .

ولا يختلف اثنان في أن علياً (ع) ساهم بنصيب فعال مـع رسول الله (ص) في جميع مواقفه ، وكان له شأن كبير في الجهاد من أجل الاسلام .. فلقد بات عـــلى فراش النبي ليلة الهجرة ، وكان بذلك أول فدائـــي في الإسلام ، وقتل ابن ود ، فانهزم الأحزاب ، وأردى مرحباً فانتصر الاسلام وأهله ، أما بقيـــة المشاهد كبدر وأحد .. فقد كان له منها الحظ الأكبر والأوفر. فبسيف عليّ وساعده وشجاعته وثباته قـــام الإسلام ، ورست دعائمه ، وإذن فلا عجب أن يقول : « إن كنت لفي ساقتها حتى تولت بحذافيرها » .

شيء آخر ساهم فيه الإمام (ع) لا يقل نفعاً وشأنـــاً عن جهـاده بالسيف ، وهو أثره البالغ في الشريعة والتفسير واللغة والفلسفة والأخلاق ، ونظريته في المال والاقتصاد والرعية والراعي .. الى غير ذلك من العلوم ، ومن هنا كانت منزلتـه عند الرسول الأعظم فـــوق الجميع بلا استثناء . قال الترمذي في صحيحه ج ٢ ص ٣١٩ طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ هـ : « سئلت عائشة أي النـاس كان أحب الى

رسول الله (ص) ؟ قالت: فاطمة . فقيل لها: من الرجال ؟ قالت : علي . » وفي خصائص النسائي ص ٢٩ طبعة مصر ١٣١٢ هـ : قالت عائشة : ما أعلم أحداً كان أحب الى رسول الله (ص) من علي ، ولا من امرأته فاطمة ». وفي مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٥٧ طبعـة مصر ١٣١٣ هـ : «ان أبا بكر دخل على النبي (ص) فسمع صوت عائشة عالياً ، وهي تقول لرسول الله (ص) : والله لقد عرفت ان علياً أحب اليك من أبي ومني » قالتها مرتين أو ثلاثاً . (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

(وان مسيري هذا لمثلها) . يشير الى ان حربه لأصحاب الجمل تماماً كحربه مع رسول الله (ص) في جهاد الشرك وأهله .. روى الإمام أحمد في مسنده ج ٣ ص ٣٣ طبعة سنة ١٣١٣ هـ. ان رسول الله (ص) قال: ان منكم من يقاتل على تأويله — أي القرآن — كما قاتل على تنزيله ، فقام أبو بكر وعمر ، فقال النبي : لا ولكن خاصف النعل ، وكان علي يخصف نعل الرسول .

(ولأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه) . أبداً لا رائد لعلي إلا الحق .. ويستحيل أن يخدع نفسه بتجاهله ، أو يدع لأحد سبيلاً أن يخدعه فيه ، وهو يسلك كل طريق لنصرته ، واذا أسدل الباطل وأهله ستاراً على الحق ليحجبوا البصر والبصيرة عن رؤيته هتك الإمام هذا الستار ، وكشف عن الحق وأعلنه للناس صافياً جلياً كوضح النهار .

(مالي ولقريش) . أقام النبي (ص) بمكة ١٣ عاماً بعد البعثة ، ولاقى خلالها من قريش كل عنت ، فمن محاصرته في الشعب وقطع المؤونة عنه سنتين الى نعته بالكذب والسحر والجنون ، ومن قذفه بالحجارة الى وضع الأشواك في طريقه والقمامة على جسده .. ولما هاجر الى المدينة جمعوا الجيوش والأحزاب لحربه ، وقد شاركه الإمام في كل ما قاساه من قريش ، وزاد عليه ما أصابه منهم من بعده ، اغتصبوا الخلافة منه ، وفدكاً من زوجته ، واقتحموا عليها دارها ، ثم قرنوا الإمام في شورى عمر مع خمسة لا يجمعهم معه شبه ولا جامع .. « فيا لله وللشورى ! . متى اعترض الريب في مع الأول حتى صرت أقرن الى هذه النظائر » ؟.

ولما بايعه المهاجرون والأنصار « نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وقسط آخرون » . والناكثون والقاسطون من قريش (والله لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلنهم مفتونين) ضالين عن الحق (وإني لصاحبهم بالأمس) في أحد والأحزاب

(كما أنا صاحبهم اليوم) . وقد يقال : ان هذا يصح في حق معاوية وابن العاص حيث حاربا النبي (ص) وحاربهما علي دفاعاً عن الاسلام ونبي الاسلام ، ولا يصح في حق طلحة والزبير حيث كانا مع النبي لا عليه .

ونجيب إن مراد الإمام انه هو هو الآن وفي عهد الرسول(ص) يناصر الحق وأهله، ويحارب الباطل والضلال وأتباعه ، سواء أكانوا مشركين أم مارقين أم قاسطين أم ناكثين .

(والله ما تنقم منا قريش إلا ان الله اختارنا عليهم) . وذلك بأنه سبحانه جعل النبوة في بني عبد المطلب ، وهو ، جلت حكمته ، أعلمُ حيث يجعل رسالته. (فأدخلناهم في حيزنا) . أي وصلنا رحمهم ، ولكن قطعوا رحمنا . وفي خطبة ثانية : « اللهم اني أستعينك على قريش ومن أعانهم ، فإنهم قطعوا رحمي ، وصغروا عظيم منزلتي ، وأجمعوا على منازعتي » . والسر ما أشار اليه سبحانه بقوله : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله — ٥٤ النساء » .

الخطبة

- ٣٤ -

غلب المتخاذلون .. فقرة ١ ــ ٢ :

أفٌّ لَكُمْ لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ . أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عِوَضاً ، وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً . إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُم دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ . وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ ، فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لاَ تَعْقِلُونَ[1] . مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ وَلَا زَوَافِرِ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ . مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ . لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللهِ سُعْرُ نَارِ الْحَرْبِ ، أَنْتُمْ تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ . وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلاَ تَمْتَعِضُونَ . لاَ يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ . غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ[2] .

اللغة :

أفٍ : للتضجر . والسأم : الملل . وغمره الماء: علاه وغطاه ، وغمرة الموت: سكرة تغمر العقل . والذهول : النسيان . ورتج الباب : أغلقه ، وأرتج على المتكلم: استغلق عليه الكلام . والحوار : مراجعة الكلام . وتعمهون : تتحيرون . والمألوس : المجنون ، والقلوب المألوسة هي التي مسها الجنون . والسجيس: الأبد، يقال : لا آتيك سجيس الليالي،أي أبداً ومدى الليالي . والزوافر : جمع زافرة، وهي من البناء ركنه ، ومن الرجل عشيرته . وسُعر — بضم السين وسكون العين — جمع ساعر ، مثل كُظْم جمع كاظم ، والساعر : موقد النار . وتمتعضون : تغضبون .

الإعراب :

أفٍ لا محل لها من الإعراب ، وعوضاً تمييز ومثله خلفاً ، وحواري فاعل يرتج ، وبثقة الباء زائدة ، وثقة خبر أنتم ، ولي متعلق بثقة ، وسجيس ظرف زمان ، ولا زوافر بالرفع على تقدير ولا أنتم زوافر ، وبالجر عطفاً على ركن، واللام في لبئس للقسم ، وسعر فاعل بئس ، وأنتم المخصوص بالذم ، وخبره جملة بئس وفاعلها ، وأنتم في غفلة الواو للحال ، وفي غفلة متعلق بـ «ساهون».

المعنى :

(أفٍ لكم، لقد سئمت عتابكم) . ورب قائل : اذا سئم عتابهم ، ولا يطمع في نصرهم ، كما جاء في خطبة سابقة ، فلماذا تكرار العتاب والحث على الجهاد ؟ وهل الأمر بالمعروف غاية لا وسيلة ؟ ثم ألا يُحدث هذا التقريع المتواصل رد فعل في النفوس فتنفر وتشمئز ، ولا تزداد إلا عناداً ونفوراً ، أو تعتاد على ما تسمع تماماً كما اعتدنا طقطقة الساعة ؟

الجواب :

كان العدو يغزو الدولة باستمرار ، يسلب وينهب ، ويقتل ويدمر ويقطع

منها الأطراف ، وأصحاب الإمام يتثاقلون ، ولا يحركون ساكناً ، فإذا سكت هو أيضاً وتجاهل فلا تفسير لسكوته في هذا المقام إلا الرضا ، لأن السكوت في معرض الحاجة الى البيان يُشعر بالرضا .. وأيضاً كان الإمام يخطب ويقرع حين يأتيه الخبر بغزوة أو تدبير من العدو،وما أكثر ماغزا العدو الأطراف ودبر المكائد .. وأيضاً شكا الأنبياء أقوامهم مرات ومرات ، ودعوا عليهم بالهلاك ، وبلغ الأمر بيونس ان ترك قومه مغاضباً وأن ضرب في الأرض لا يدري الى أين .. على ان الرؤساء في النهاية ثابوا الى رشدهم ، وندموا على تفريطهم ، بخاصة بعد ان صمم الإمام (ع) على المضي الى الجهاد وحده أو مع قلة من أهله ومن تبعه من المؤمنين ، فيقاتل حتى يلقى ربه ، فاستخزى الرؤساء أنفسهم ، وحرض كل رئيس قومَه ، حتى اجتمع للإمام جيش يمكن الركون اليه . وقبل ان يسير الإمام الى حرب عدو الله وعدوه نزل القضاء بضربة من سيف ابن ملجم ، عليه لعائن الله ، وبها اختتم الإمام (ع) بلاءه وأعباءه .

(أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً ، وبالذل من العز خلفاً) ؟ الجهاد لنصرة الحق ، ولو بكلمة خالصة لوجهه تعالى،هو العزة والكرامة دنيا وآخرة ، ومن رغب عن الجهاد ، وتخوف منه فقد رضي بالهوان ، وتخوف من الحق والصدق والعدل (اذا دعوتكم الى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة) . أبداً لا فرق عندهم بين دعوتهم الى الجهاد ، ونزول الموت بهم ، وليس من شك ان لهذه الظاهرة أسبابها ، ومنها كراهية الحرب ، وحب الأمن وفراغ البال ، ولكن هل للأمن والسلم من وزن اذا كان معه رق واستذلال ، واغتصاب واستغلال ؟ ان هذا سلم الظلم لا سلم العدل ، وأمن اللصوص لا أمن الشرفاء (ومن الذهول في سكرة) . بيان وتفسير للمعطوف عليه .

(يرتج عليكم حواري فتعمهون) . لماذا تُفحَمون وتتحيرون اذا خاطبتكم بكلمة الجهاد ؟. (كأنّ قلوبكم مألوسة) . أصاب عقولكم مس الجنون (فأنتم لا تعقلون) مضاركم ومنافعكم ، ولا تميزون بين ما يصلحكم وما يفسدكم (ما أنتم لي بثقة سجيسَ الليالي) . أبداً لا أثق بكم .. وأي عاقل يثق بسراب ! ! (وما أنتم بركن يمال بكم) على العدو ، فتكسرون شوكته ، وتردعونه عن عدوانه (ولا زوافر عز يفتقر اليكم) . لستم أنصاراً للحق ليعتز بكم ويحتاج اليكم المحقون .

(ما أنتم إلا كالإبل ضل رعاتها الخ ..) كناية عن اختلاف كلمتهم،وشتات

أمرهم (لبئس لعمر الله سُعر نار الحرب أنتم) . لستم من أبنـاء الحرب ولا بأكفائها (تُكادون ولا تكيدون) . يدبر العدو لكم الحيل والمكائد ، ويضرب منكم كل بنان ، ولا تمنعونه بحيلة أو وسيلة ، أو تدفعونه بعزم وشجاعة (وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون) . يحتل العدو أرضكم ولا تغضبون .. أبداً « ما لجـرح بميت ايلام » كما قال الشاعر (لا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون) . غفلتم عن عدو ظالم غشوم ، وهو لا يغفـل عنكم (غـُلب والله المتخاذلون) . من تخاذل عن الانتصار لحقه والدفاع عنه طمع فيه الضعيف المبطل،وقوي عليه وأذله،وأصدقُ شاهد على هذه الحقيقة حال اليهود على قلتهم مـع العرب على كثرتهم .. وعلة العلل عند العرب سكوتهم عن سادتهم .

كن ذاك ان شئت .. فقرة ٣ ــ ٤ :

وَآيْمُ اللهِ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ ٱلْوَغَى وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ قَـدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱنْفِرَاجَ الرَّأْسِ ، وَاللهِ إِنَّ ٱمْرأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ وَيَفْرِي جِلْدَهُ لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ . أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ ، فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذٰلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ . وَيَفْعَلُ اللهُ بَعْـدَ ذٰلِكَ مَا يَشَاءُ[٣] . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيَّ حَـقٌّ . فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلَا تَجْهَلُوا وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا . وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ[٤] .

اللغة :

حمس : اشتد . الوغى الحرب . وانفرجتم : انكشفتم وذهبتم . وانفراج الرأس : أي عن البدن بحيث لا التئام بعده معه . ويعرق لحمه : يأكله . ويهشم عظمه : يكسره . ويفري جلده : يقطعه أو يمزقه . وجوانح : جمع جانحة ، وهي الضلع . والمشرفية : السيوف . وفراش الهام — بفتح الفاء — العظام الرقيقة . وتطيح : تسقط . والفيء : هنا يقصد بيت مال المسلمين .

الإعراب :

ايم مبتدأ ، وخبره محذوف وجوباً ، أي قسمي . ان لو «ان» مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي انه . ولعظيم خبر ان امرءاً ، وعجزه فاعل عظيم . وضعيف خبر ثانٍ ، وما اسم موصول فاعل ضعيف . وجوانح نائب فاعل لضمت . وأنا مبتدأ ، وخبره ضرب أي ضارب .

المعنى :

(وايم الله اني لأظن بكم ان لو حمس الوغى ، واستحرّ الموت قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس) عن البدن .. يقسم الإمام (ع) ان تثاقلهم وتكاسلهم عن الجهاد قد بلغ حداً أوحى اليه بأنهم لو كانوا معه في قلب المعركة يقاتل بهم العدو لتركوه وحده وخذلوه في ساعة العسرة .. وفعلوها من قبل في صفين ، فلقد كفوا عن القتال بعد أن وقفوا على أعتاب النصر ، واستجابوا لدعوة عدوهم معاوية الخادعة الكاذبة ، والإمام يناديهم : لا تصدقوا .. انه يرفع القرآن كاذباً لا تائباً ، وخادعاً لا راجعاً الى الله .. فأبَوا .. وأنذره بعضهم بمقارقته ، وهدده آخرون بتسليمه الى معاوية .. لقد فعلوها من قبل في صفين ، ومن بعد مع ولده الإمام الحسن (ع) . وإذن فلا بدع إذا لم يركن اليهم الإمام ، وان يظن بهم الظنون ، وان يعزبوا عنه ويهربوا عند الشدائد .

(والله ان امرءاً يمكن عدوه من نفسه الخ..). سمعنا كثيراً عن أفراد ينتحرون

ويحرقون أنفسهم أحياء مخيرين لا مسيرين احتجاجاً على الطغاة والظالمين ، ولم نسمع قط ان أحداً أسلم نفسه لعدوه وعدو الانسانية كي ينكل به ، ويشفي منه الغليل.. ولا فرق بين هذا ومن سكت عن عدوه الطاغية يفعل به ما يشاء دون أن يدافع ويحرك ساكناً .. بل هو أسوأ حالاً ممن ينتحر محتجاً على أعداء الله والانسانية .. انه تماماً كمن يأكل لحمه بأسنانه ، ويكسر عظمه بيده ، ويمزق جلده بمديته .. ولا شيء وراء هذا الجبن والخور حتى الجنون .

ولا صورة أروع وأصدق للجبن من هذه الصورة .. انه يفصم الجبان عن نفسه ، ويلقي به مكتوفاً بين يدي جزار الانسانية وعدوها اللدود ، ليفعل به ما يفعل الوحش الكاسر بفريسته من فري الجلد ، وأكل اللحم ، وهشم العظم .

(أنت فكن ذاك ان شئت) . الخطاب بـ « أنت » لمطلق شخص يضعف عن عدوه ، ويستسلم له ، والمعنى أنت وما تختار لنفسك أيها الجبان من الاذلال والهوان (فأما أنا فوالله دون أعطي ذلك ضرب بالمشرفية الخ) أي انه (ع) يدافع ويجاهد بسيفه ولا يبالي دخل الى الموت ، أو خرج الموت اليه .

(أيها الناس ان لي عليكم حقاً ، ولكم علي حق) . الحقوق متبادلة بين الراعي والرعية ، وهذا التبادل طبيعي يرتبط بشخصية الاثنين تماماً كما انه شرعي ، لأن واضع الشريعة هو خالق الطبيعة . وأشار الإمام الى حق الرعية عليه بقوله : (فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم) . الاخلاص والصدق في القول والعمل ، والعدل والإنصاف في الحكم والتوزيع (وتوفير فيئكم عليكم) . الحرص على بيت المال وتنميته ، وسد حاجة ذوي الحاجات (وتعليمكم كيلا تجهلوا) . وإرشادكم السبيل التي أرشد اليها كتاب الله وسنّة نبيه ، لأن جهلكم بدين الحق يبتعد بكم عن مكارم الدنيا وحسناتها ، ويغريكم بأقذارها وسيئاتها (وتأديبكم كيما تعملوا) . المراد بالتأديب هنا العقوبة بإقامة حدود الله سبحانه ، والمراد بالعمل الاستقامة حيث قال في بعض ما يأتي من خطبه « وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا » .

ثم أشار الى حق الراعي على الرعية بقوله : (وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة). وهي عقد توثيق بين الحاكم والمحكوم على أن يدبر الحاكم أمور المحكوم على أساس المصلحة ، ويحفظ الأمن والنظام ، ويقيم الحدود وينفذ الأحكام .. وعلى كل من الطرفين أن يفي بهذا العقد ، ولا يجوز فسخه بحال .

(والنصيحة في المشهد والمغيب) . المراد بالنصيحة هنا الاخلاص للحاكم ، والصدق في القول والعمل أمامه وفي غيابه ، لا كما يفعل أرباب الطمع والتصنع، إن حضروا عنده فملائكة ، وإن غابوا عنه فشياطين (والإجابة حين أدعوكم) الى العمل من أجل حياة أفضل (والطاعة حين آمركم) . الظاهر ان عطف الطاعة على إجابة الدعوة من باب عطف التفسير ، وقد يُفرق بينهما في ان المراد بالطاعة الاستمرار فيها ، والثبات عليها .. وعلى أية حال سنعود مع الإمام (ع) الى هذا الموضوع ان شاء الله تعالى .

الخطبة

- ٣٥ -

لو كان يطاع لقصير أمر :

الْحَمْدُ لِلهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ . وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ . وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هٰذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ . حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ :

أَمَرْتُكُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى
فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ

اللغة :

الخطب : الأمر والشأن ، وقد يكون يسيراً أو فادحاً ، والفادح : الثقيل . والحدث : الحادث المنكر غير المعروف . ونخّل الشيء : صفاه ، والمراد هنا ان الإمام (ع) أبدى لهم الرأي الخالص الناصح . وضن : بخل . والزند : عود يُقدح به النار .

الإعراب :

معه خبر مقدم لـ (ليس) وإله اسمها وغيره صفة له ، والحكومة عطف بيان من هذه ، وكما قال خبر كنت .

المعنى :

(أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة ، وتعقب الندامة) . يشير الى انه (ع) قد جرب الأمور وعرفها ، وانه يبذل النصح لكل مخلوق ، ويرى ذلك حقاً لازماً عليه ، وان معصية من عصاه لا تضر إلا العاصي في دينه ودنياه والواقع الذي يعيش فيه ، فيندم وتذهب نفسه حسرات من غير جدوى .. وقد مهد الإمام (ع) بهذه الإشارة ليقول :

(وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري ، ونخلت لكم مخزون رأيي) . يريد بهذه الحكومة تحكيم ابن العاص والأشعري بعد رفع المصاحف ، وكان رأيه المضيّ في القتال حتى النهاية ، وعدم الاستجابة لخديعة معاوية ونفاقه .. ولو أخذ أصحاب الإمام (ع) برأيه لاهتدوا نهج الخير والصواب ، وتجنبوا تلك الفتن ومعضلاتها .

(لو كان يطاع لقصير رأي) . هذا مثل يضرب لمن يخالف الرأي الحكيم، وأصله أن أحد ملوك العرب ، وهو جذيمة الأبرش كان له مولى ، اسمه قصير مشهور بالذكاء وصواب الرأي ، وكان جذيمة قد قتل أبا الزباء ملكة الجزيرة .. وبعدأمد دعت الزبّاءُ جذيمة الى الزواج بها فصدّق وأجاب الدعوة،فحذره قصير من ذلك ، ولكنه لم يسمع منه ، فغدرت به وقتلته ، وعندئذ قال قصير كلمته : « لا يطاع لقصير رأي » . فذهبت مثلاً .

(فأبيتم علي إباء المخالفين الجفـــاة ، والمنابذين العصاة) . قـد يخالفك عالم في رأيك الخاص لشبهة عرضت له ، فتتبادلان الحوار والنقاش حولها على المقاييس ، وقد يقنعك أو تقنعه ، أو يبقى كل على رأيه بلا غلظة وجفاء .. ويحدث هـذا كثيراً بين أهل العلم ؛ اما أن يتعصب جاهل لرأيه ، ويفرضه عليك فرضاً، وان أبيت ثار وشتم ، وهدد وانتقم ، وكلما ازدادت حجتك صـدقاً ووضوحاً ازداد شراسة وعناداً .. أما هـذا فوحش كاسر ، ولا شيء فيه من الانسان وصفات الانسان .

ويصدق هذا الوصف تمام الصدق على خصوم الإمام (ع) رفضوا رأيه في حرب صفين ، وأصروا على وقف القتال ضد معاوية ،وعلى أبي موسى ليسوي الخلاف.. قال لهم الإمام (ع) : لا تصدقوا معاوية في رفع المصاحف،فعـاندوا .. وانتدب ابن عباس للتحكيم فعصوا .. عرض عليهم الاشتر فنفروا .. وقال لهم : هـذا الأحنف بن قيس فأعرضوا .. الا الأشعري المخـدوع . وكان ما كان .. وإذن من حق الإمام (ع) وحق التاريخ أن يصفهم بالجفاة والمنابذين .. وقد حكم عليهم بأكثر من ذلك .

ولطه حسين رأي في هذا التمرد والجفاء عرضه في كتاب «علي وبنوه» ، وهذا الرأي يلقي الضوء على السبب المبـــاشر لإصرارهم على الأشعري ، ونقتطف من أقواله ما يلي :

« أكبر الظن ان بعض الرؤساء من أصحاب علي كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين ، وكانوا يندمون على تلك الأيام الهينة اللينة التي قضوها أيام عثمان ينعمون بالصلات والجوائز .. وأيضاً كان في جيش عليّ بصفين كثير من أهل البصرة الذين حاربوه يوم الجمل ، وانهزموا بعد مقتل طلحة والزبـــير : واذن كان في أصحاب علي المخلص والمدخول .. ولا أستبعد ان قيس بن أشعث قد تـآمر مع ابن العاص على ايقاع الفرقة بين أصحاب علي،وقد تم ما أراد الاثنان .. واستكره الأشعث ومن طاوعه – علياً على كف القتال ، فلم ير بـــداً من الإذعان .. ولم تأت الأمور مصادفة ، بل عن ائتمار وتدبير بين طلاب الدنيا من أصحاب عـــلي وأصحاب معاوية جميعاً » .

ومنطق الحوادث يؤيد رأي الدكتور طـــه حسين ، فإن الناس مع الدنيـــا وخضرتها ، وهي عند معاوية ، ولا شيء عند الإمام إلا الدين ، فمالوا عنه الى معاوية ، واحتلبوا دنياه بدينهم ، وأطاعوا المخلوق في معصية الخالق .

الخطبة

- ٣٦ -

أنا نذير لكم :

فَأَنَا نَذِيرُكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هٰذَا النَّهْرِ وَبِأَهْضَامِ هٰذَا الْغَائِطِ عَلى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ . قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ ، وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ . وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هٰذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ . وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ وَلَمْ آتِ - لَا أَبَا لَكُمْ - بُجْراً وَلَا أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً .

اللغة :

صرعى : جمع صريع ، وهو المطروح على الأرض . وأثناء الشيء : أوساطه وخلاله . واهتضام : جمع هضم ، وهو السهل المنخفض . والغائط : ما سفل من الأرض . وطوحت بكم الدار : تاهت بكم هنا وهناك . واحتبلكم : أوقعكم في الحبالة ، يقال : احتبل الصيد أي وقع في الحبالة . والمراد بالمقدار هنا ظروفهم

الخاصة . والمنابذ : المفارق . وإخفاء : جمع خفيف ضد الثقيل . والهام : جمع الهامة ، وهي رأس كل شيء ، وتطلق على الجثة . والمراد بالأحلام هنا العقول مثل قوله تعالى : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا — ٣٢ الطور » . والبجر — بضم الباء — الشر .

الإعراب :

المصدر من أن تصبحوا منصوب بنزع الخافض . وأنتم الواو للحال . وسفهاء الأحلام خبر ثانٍ لـ «أنتم» . ولا أب لكم لا نافية للجنس واب اسمها ولكم خبرها ، وتقال هذه الكلمة للمدح ، وتأتي للذم . وبجراً مفعول لم آت .

المعنى :

(فأنا نذير لكم) . الخطاب للخوارج حين عزموا على الخروج وشق العصا، وقد أوضح لهم الإمام (ع) انهم مخطئون في رأيهم وعملهم ، وحذرهم من سوء العاقبة بقوله : (أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر) . وكان هذا النهر آنذاك قريباً من الكوفة في طرف صحراء حروراء ، وصدقت نبوءة الإمام، فقتلوا في نفس المكان الذي أشار اليه : ويسمى النهروان ، وسميت الواقعة باسمه ، ولقب هؤلاء الخوارج بالحرورية لأنهم خرجوا في أطراف صحراء حروراء (وبأهضام هذا الغائط) . تشخيص وتعيين للمكان الذي قتلوا فيه .

(على غير بينة من ربكم ، ولا سلطان مبين معكم) . أبداً لا حجة معهم ، ولا معذرة لهم في هذه الفتنة ، وإذا كان التحكيم خطأً فاحشاً فإن النتائج المترتبة على خروجهم أخطر وأفحش .. وأيضاً قال لهم الإمام من جملة ما قال : أنا ما كرهت الحرب وإنما أنتم كرهتموها وجزعتم منها .. وقد أخذنا عهداً على الحكمين أن يحكما بما في كتاب الله ، فإن وفيا بالعهد فذاك وإلا استأنفنا الحرب. وقال عدد من المؤرخين: ان قول الإمام أثر وأجدى : فتسلل كثير من الخوارج وعادوا الى الكوفة ، ومنهم من عاد الى جيش الإمام ، وآخرون اعتزلوا الحرب ولم يبق مع عبدالله بن وهب الراسبي رئيس الخوارج إلا ثلاثة آلاف أو أقل ، و كانوا اثني عشر ألفاً على قول ، وسبعة آلاف على قول آخر .

وقال ابن أبي الحديد : « قد تظافرت الأخبار عن رسول الله (ص) حتى بلغت حد التواتر بما وعد الله تعالى قاتلي الخوارج من الثواب » . بل تظافرت الأخبار عن النبي (ص) في ان على كل مسلم أن يقاتل مع علي (ع) كل من قاتله أياً كان ويكون .. من ذلك قوله (ص) : « سيكون بعدي فتنة ، فإذا كان ذلك فالزموا علي بن أبي طالب ، فإنه أول من يراني ، وأول من يصافحني يوم القيامة ، وهو الصديق الأكبر ، وهو فاروق هذه الأمة ، يفرق بين الحق والباطل ، وهو يعسوب المؤمنين » . رواه ابن عبد البر في (أسد الغابة) ج ٥ ص ٢٨٧ طبعة مصر سنة ١٢٨٥ هـ ، وأيضاً رواه المتقي الهندي في (كنز العمال) ج ٧ ص ٣٠٥ طبعة حيدر آباد سنة ١٣١٢ هـ ، ورواه آخرون . أنظر كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .. ولا يختلف اثنان في قول الرسول الأعظم (ص) : « يا علي لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » . فكيف بمن جيّش الجيوش لحربه وقتله وقتاله؟.. وعلى أية حال فإن الذين اعتذروا عن عائشة ومعاوية وطلحة والزبير — لم يعتذروا عن الخوارج ، وأجمعوا على مروقهم من الدين :

(قد طوّحت بكم الدار) . أي تُهتم عن الحق ، وهو أمامكم ظاهر للعيان (واحتبلكم المقدار) . أي ان أوضاعكم وتفكيركم الخاطىء أوقعكم في الحبالة ، وهي شبكة الصيد (وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة) وهي قبول التحكيم ، وتقدم في الخطبة ٣٥ بالنص الحرفي (حتى صرفت رأيي الى هواكم) . ولو أصر الإمام على رأيه لوقع في محذور أشد ، لأنهم سفهاء وأجلاف ، وأشرنا فيما تقدم ان بعضهم هدد بتسليم الإمام الى معاوية اذا لم يوافق على التحكيم .. ومن البداهة ان العاقل يختار أهون الشرين ، ويدفع الأشد بالأخف ، وقوله : « أنتم أخفاء الهام سفهاء الأحلام » يومىء الى ذلك :

الخطبة

-٣٧-

القوة للحق .. فقرة ١ — ٢ :

فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا . وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا . وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا . وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً وَأَعْلَاهُمْ فَوْتاً . فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا . وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا . كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ . وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ . لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ. وَلَا لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ[١] الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ . وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ . رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ وَسَلَّمْنَا لِلهِ أَمْرَهُ . أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَاللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ . فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي[٢] .

اللغة :

تطلعت أي تعقبت كلام الرسول (ص) وأفعاله ، وما فاتني شيء من ذلك ، ومثله تماماً قوله في بعض خطبه : « لقد كنت أتبعه اتّباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً . وتقبعوا أي لم يتعقبوا الرسول (ص) كما فعلت . والتعتعة في الكلام : الحصر والعي . والفوت : السبق . والرهان : الجعل الذي يستحقه السابق . والقواصف : الشدائد التي تقصف الظهور والأعمار . والعواصف: الأرياح الشديدة . والهمز والغمز : الطعن .

الإعراب :

صوتاً تمييز ، ومثله فوتاً ، كالجبل خبر لمبتدأ محذوف أي أنا كالجبل ، فإذا طاعتي « اذا » للمفاجأة ، واذا الثانية عطف عليها .

المعنى :

(فقمت بالأمر حين فشلوا) . يشير الى فضله ومنزلته ، ولا بد من سبب أوجب هذه الاشارة ، وقد يكون السبب كلمة من مبغض منافق ، أو إفهام المخالفين والمنابذين للإمام انهم يخالفون الحق والعدل ، أو غير ذلك من الأسباب . واستكشف ابن أبي الحديد من قوله : « أتراني أكذب على رسول الله (ص)» : استكشف ان الإمام (ع) تفرس ان البعض يتهمه فيما يخبر به عن النبي (ص) من الملاحم والمغيبات ، فنفى الإمام عنه هذه التهمة بما بينه من فضله الخ .. وليس هذا ببعيد . ثم ذكر ابن أبي الحديد الكثير من المغيبات التي أخبر عنها الإمام (ع)، وكلها عظيم وعلم محجوب عن العباد إلا بوحي من الله الى نبيه الكريم ، ومنه الى خليفته الحق .

والأمر في قوله « فقمت بالأمر » عام يشمل كل فضيلة ومنقبة للإمام (ع) سواء انفرد بها كالسبق الى الاسلام ، والمبيت على فراش النبي (ص) ليلة الهجرة، ومؤاخاة الرسول له ، والكثير من مواقفه في النصح والاخلاص للاسلام والمسلمين أيام الخلفاء المتقدمين الذين كانوا يفزعون اليه في كل ما يعرض لهم من

مشكلات الحكم،أم كان الإمام فيها من السابقين كجهاده في بدر وأحد والأحزاب حيث كان معاوية وابن العاص مع المشركين .

(وتطلعت حين تقبعوا) . أي ان الإمـام (ع) أخذ عن النبي (ص) علومه وأخلاقه . وهذه المنقبة تخص الإمام وحده دون المسلمين،وهي نتيجة حتمية لحياته وبيئته وظروفه ، فلقد كفله النبي (ص) صغيراً ، وقام على تنشئته وتربيته،ولازمه بعد الوحي ملازمة الظل ، وكان أحبَّ الخلق الى النبي ، ويؤثره على جميع الناس دون استثناء كما قالت عائشة حين سُئلت عن أحب النـاس الى النبي (ص) .. (أنظر شرح الخطبة ٣٣) . وكان النبي (ص) يفضي اليه بكـل ما عنده من علوم وأسرار . قال الإمام في بعض خطبه : « والذي بعثه بالحق ما أبقى شيئاً يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني ، وأفضى به إلي » . وجاء في كتاب (الصواعق المحرقة) ص ١٢٥ طبعة ١٣٧٥ هـ : « ما من آية في القرآن إلا وعـلي أميرها وشريفها ، ولقد عاتب الله أصحاب محمد (ص) في غير مكان ، وما ذكر علياً إلا بخير ، وان ابن عساكر قال : ما أنزل الله في أحد ما أنزل في علي ، ولقد بلغت الآيات فيه ثلاثمئة آية » .

(ونطقت حين تعتعوا) . أي ان الإمام (ع) بيّن أحكام المعضلات والمشكلات حين سكت غيره جهـلاً وعجـزاً ، وبيان ذلك انه قد حدث بعد النبي (ص) وقائع لا نص على أحكامها بالخصوص في الكتاب والسنة ، وهذا شيء طبيعي لأن النصوص محدودة ومتناهية ، أما الحوادث المتوقعة فلا نهاية لها ، ولكن في مقدور العالم بأسرار هذين الأصلين وبعلل الشريعة الإسلامية وأحكامهـا أن يستخرج تلك الأحكام من المبادىء العامة التي ترتكز عليها نصوص الكتاب والسنة،ويرتكز عليها الاسلام أصولاً وفروعاً .. وكان الخلفاء وغير الخلفاء من الصحابة يفزعون الى الإمام (ع) في كل ما يعرض لهم من هذه المعضلات ، ولا يجدون لها حلاً وجواباً إلا عنده، وكان عمر بن الخطاب يعرف ذلك للإمام،ويقول: «أعوذ بالله من معضلة ولا أبو حسن لها .. اللهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب »[1] . وكفى بحديث « أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها » شاهداً ودليلاً .

---

١ نقل هذا صاحب كتاب الاسلام على ضوء التشيع عن ابن كثير في تاريخه ج ٧ ص ٣٥٩ ، وعن الخوارزمي في مناقبه ص ٤٨ .

(ومضيت بنور الله حين وقفوا) . المراد بنور الله هنا الوحي ، وبالمضي علم الإمام به ، كما هو في واقعه وعند الله سبحانه (وكنت أخفضهم صوتاً) في مجلس النبي (ص) تأدباً بقوله تعالى : « ان الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى — ٣ الحجرات » . وقال الشارحون لنهج البلاغة : هذا كناية عن ثبات الجأش (واعلاهم فوتاً) . أي أسبقهم الى الفضائل والمكرمات ، ومن أقواله : « ولدت على الفطرة ، وسبقت الى الايمان والهجرة » .

(فطرت بعنانها) . لما سبق الى الخيرات كان كالطائر اليها (واستبددت بيرهانها) . أي انه اختص عند الله بأجر السابقين (كالجبل لا تحركه القواصف، ولا تزيله العواصف) . تراكمت الخطوب على الإمام بعد رسول الله (ص) وبخاصة أيام خلافته ، فثبت لها ثبوت الراسيات ، وما زادته إلا إيماناً بالله ، وإخلاصاً له ، وثقة به ، ومن أقواله : « فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيماناً ، ومضياً على الحق ، وتسليماً للأمر ، وصبراً على مضض الجراح » .

(لم يكن لأحد فيّ مهمز ، ولا لقائل في مغمز) . أبداً حتى أعداء الإمام شاهدوا فضائله وشهدوا بها . قال طه حسين في كتاب « علي وبنوه » ص١٦٩ « لعلي فضائل كثيرة يعرفها له أصحاب النبي (ص) على اختلافهم — أي حتى المناوئين له والحاسدين — ويعرفها له خيار المسلمين من التابعين ، ويؤمن له بها أهل السنة كما يؤمن له بها الشيعة ،وسنرى حين نمضي في سيرته وحين نبين مواقفه من المشكلات الكبيرة التي عرضت له انه كان أهلاً لكل هذه الفضائل ولأكثر منها » .

للمنبر — شريعة الله وشريعة الغاب :

(الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه) . لله وللانسانية شريعة ، وللغاب أيضاً شريعة تقوم على القوة وحدها، فلا محاكمة وقوانين ، ولا أصول واجتهادات ، ولا نقاش وبيّنات .. أبداً لا شيء إلا استسلام الضعيف للقوي يحكم عليه بما يريد ، ويفعل ما يشاء .. وبكلمة: الحق للقوة وصاحب العضلات ، والضعيف مبطل ومفتر على كل حال .. أما شريعة الله والانسانية فلها أصول وقوانين على أساس الحق والعدل ، وللمتهم حق

الاعتراض والدفاع عن النفس والحوار والنقاش ، والإدلاء بكل ما لديه من حجج وما عنده من قرائن .

هذا ملخص الفرق بين شريعة الله وشريعة الغاب ، والأُولى لعالم الانسان ، والثانية لعالم الحيوان ، ولكن في عالم التشريع ومن الوجهة النظرية فقط . أما من حيث العمل والتطبيق فلا فرق بينهما ، فأكثر الناس منذ كانوا ومن هابيل وقابيل حتى يومنا هذا يعملون بشريعة الغاب ، وينفذونها بإخلاص مع فارق واحد ، وهو أن للضعيف تمام الحق في أن يتكلم ويعترض ويحتج ويناقش ويدلي بحجج الأرض والسماء ، بل له أن يسب ويشتم في البرلمان وهيئة الأمم ومجلس الأمن ، وفي الصحف والاذاعات .. في كل مكان .. ولكن في النهاية لا بد أن تنُفذ في حقه شريعة الغاب ، ويقع فريسة بين أنياب القوي على كل حال .

هذا هو منطق الناس ، وعليه عملهم منذ القديم ، أما منطق علي (ع) فهو الحق والعدل ، وشريعته هي شريعة الله والانسانية ، فالقوة عنده للحق وحده ، وصاحبه هو العزيز الغالب ، وان كان ضعيفاً معدماً ، والمبطل هو الحقير الأذل ، وان كان قوياً منعماً .. ولا ريب ان هذا الطراز من الحكم لا تتحمله الناس ، بل يراه الكثيرون قسوة وفظاعة ، وأي « سيد » يرضى أن يكون هو والعبد سواء أمام الحق ؟ وفي روضة الكافي للكليني « ان الإمام قسم العطاء في ذات يوم ، فأعطى رجلاً من الأنصار ثلاثة دنانير ، وجاء بعده غلام أسود ، فأعطاه ثلاثة دنانير ، فقال الأنصاري : يا أمير المؤمنين هذا غلام أعتقته بالأمس ، تجعلني وإياه سواء ؟ فقال الإمام (ع) : اني نظرت في كتاب الله فلم أجد فضلاً لولد اسماعيل على ولد اسحق — ملاحظة الإمام من ولد اسماعيل — ثم قال الإمام : ان آدم لم يلد عبداً ولا أمة ، ان الناس كلهم أحرار »[1] .

هذا هو الاسلام في واقعه وجوهره : الناس كلهم أحرار ، كلهم سواء تماماً كأسنان المشط كما قال سيد الكونين محمد بن عبدالله (ص) .. وما خلق الله الأسود حين خلقه ليكون رقاً لأخيه الأبيض ، حاشا وجل ، ولكن الناس قد تبانوا فيما بينهم على وجود الرق في مرحلة من مراحل التاريخ حيث لا آلة ، ولا حيوان يفي بالعمل المطلوب للانتاج ، ولا غنى للحياة بوجه إلا بالرق ، ومن أجل هذا

---

١ روضة الكافي للشيخ الكليني ج ١ ص ١٢٤ المطبعة الاسلامية بطهران سنة ١٣٨٢ هـ .

أقره جميع الأنبياء قبل محمد (ص) وما أنكره فيلسوف ولا مصلح ، ولما جاء الاسلام لم يجد الوسيلة لإلغائه فقيّده بقيود لصالحه ، وفتح أبواباً لعتقه ذُكرت في كتب الفقه والحديث ، ولما تقدمت العلوم ووُجدت الآلة واستقامت الحياة بدون الرق ، وألغاه الانسان من الأساس فإن الاسلام يقر هذا الإلغاء ويباركه ، ما في ذلك ريب .

(رضينا عن قضائه ، وسلّمنا لله أمره) . وكل من أخلص لله موحداً ، وأذعن له قولاً وعملاً يبقى على ثقته به في الضراء كما هو في السراء ، ولا يظن بالله ظن السوء ، وإن أصيب بنفسه وولده وماله ، وتكلمنا عن القضاء والقدر في كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » (أتراني أكذب على رسول الله (ص) ؟ والله لأنا أول من صدقه فلا أكون أول من كذب عليه) . وسبب الكذب في الغالب يكون واحداً من اثنين : الخوف أو الطمع ، والإمام لا يخشى إلا الله ، ولا يطمع إلا في مرضاة الله فكيف يتقرب اليه بالكذب على رسول الله ؟ وهو أول القوم به إيماناً، وأكثرهم له تسليماً وإذعاناً . وقد روى هو عن النبي (ص) في خطبه الآتية : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وقال في الخطبة نفسها: «ان بعض الصحابة تقربوا الى أئمة الضلال والدعاة الى النار بالزور والبهتان..» ومن أقواله : « الايمان أن تُؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك ، وأن تتقي الله في حديث غيرك » . ومن يتق الله في أحاديث الناس العاديين كيف يعصيه في حديث الرسول الأكمل الذي هو وحي مُنزّل .

(فنظرت في أمري فإذا طاعتي سبقت بيعتي ، واذا الميثاق في عنقي لغيري). يريد ببيعتي مبايعته الخلفاء من قبله ، وبطاعتي طاعته للنبي (ص) حيث أوصاه بالصبر وعدم المقاومة ، والمعنى انه ما أعلن الحرب على من اغتصب حقه في الخلافة لأن النبي (ص) أوصاه بالصبر على دائه ، وليس في وسعه إلا أن يسمع ويطيع لأن طاعة الرسول أمانة في عنقه .

الخطبة

-٣٨-

الشبهة :

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ . فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ . وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى . وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا الضَّلَالُ وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى . فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ . وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ .

اللغة :

اليقين : العلم السليم . والسمت : الطريق .

الإعراب :

أولياء مبتدأ أول ، وضياء مبتدأ ثان ، واليقين خبره ، والجملة خبر الأول ، ومثله أعداء الله الخ . والبقاء بالرفع نائبُ فاعل ، وبالنصب مفعول ليعطي ، ونائب الفاعل من أحبه .

المعنى :

(وانما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق) . قد يكون الباطل واضحاً لا لبس فيه مثل القول: الفوضى خير من النظام، والفقر نعمة وسعادة .. وقد يلتبس الباطل بالحق لشبه بينهما في جهة من الجهات مثل قول من قال : الانسان مسيّر لا مخيّر، لأن الله يعلم منذ البداية بسلوكه وجميع تصرفاته ، ويستحيل أن يتخلف علمه تعالى عن المعلوم وعليه يكون الانسان مسيّراً لا مخيّراً .

فالقول بأن الانسان مسيّر في أفعاله قولٌ باطل، وإلا فكيف يُحاسَب على شيء لا بد من وجوده، والقول : ان الله بكل شيء عليم هو حق ، وأن علمه لا يتخلف عن المعلوم أيضاً حق .. ووجه التشابك والترابط بين فعل الانسان وعلم الله واضح[1] ومن هنا تسربت الشبهة .. وفي قول الإمام (ع) : انما سميت الشبهة الخ ، دلالةٌ على أن كلمة الشبهة لا تطلق إلا على الباطل .

(فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين) . ضمير « فيها » للشبهة ، والمراد باليقين هنا العلم السليم ، وكثيراً ما يستعمل الإمام (ع) كلمة اليقين في العلم ، من ذلك قوله في وصف المتقين : « وإيماناً في يقين» أي في علم، والمعنى ان الذين يستضيئون بنور العلم حقاً – في أمن وأمان من لبس الشبهات والأباطيل ، وهم المرجع في ازاحتها وإبطالها ، ثم أشار الى مصدر علمهم بقوله : (ودليلهم سمت الهدى)، والمراد بالسمت الطريق والهدى الوحي ، قال تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين – ٢ البقرة » أي ان الدليل الذي يعتمدونه لمعرفة الحق وإزاحة الشبهات هو كتاب الله وسنّة نبيه .

(فأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال) . لا شيء عند الأدعياء في إيمانهم بالشبهات إلا الجهالة والضلالة (ودليلهم العمى) أي التقليد والرأي الخاطىء والقياس الباطل ، والاستحسان بالأوهام .

---

١ اجبنا عن هذه الشبهة في كتاب فلسفة التوحيد والولاية بما يتلخص ان علمه تعالى بفعل العبد كاشف عن وجود الفعل الصادر بارادة العبد نفسه ، وليس علة لوجود الفعل بما هو ، وبصرف النظر عن اختيار العبد له ، والفرق بينهما واضح تماماً كالفرق بين قولك : علمت بأن زيداً سيسافر غداً ، وقولك : لما علمت الآن بأنه سيسافر سافر .

(فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه) . قال الشارحون: هذا منقطع عما قبله ، وقد أُخذ من كلام آخر ، وحُشر هنا بلا مناسبة !.. وقد تكون المناسبة تخويف الأعداء الأدعياء وإنذارهم بالحساب والعقاب بعد الموت ، وعلى أية حال فإن المعنى واضح ، وشرحه تكثير كلام ، وان كان ولا بد فنشير الى أن أولياء الله يرهبون الموت الذي لا بد منه ، ويحتاطون لأنفسهم من عواقبه، أما أعداء الله فإنهم يحبون البقاء ، ويغفلون عما ليس يغفل عنهم .

الخطبة

- ٣٩ -

لا دين ولا حمية :

مُنيتُ بِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لَا أَبَا لَكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ . أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ وَلَا حَمِيَّةٌ تُحْمِشُكُمْ ! أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً . وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمراً . حَتَّى تَكَشَّفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ ٱلْمَسَاءَةِ فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ وَلَا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ . دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ . وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الْأَدْبَرِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

اللغة :

منيت : ابتليت . والحمية من الحماية: الأنفة والنخوة والمروءة . وتحمشكم : تهيجكم

أو تغضبكم أو تجمعكم على كلمة واحدة. ومستصرخاً: طالباً العون: ومتغوثاً: طالباً الغوث. تكشف: تنجلي. وجرجر البعير: ردد صوته ضجراً. والجمل الأسرّ: فيه نوع من المرض. والنضو: البعير المهزول. والأدبر: في ظهره جرح وقرح. ومتذائب: مضطرب، يقال: تذاءبت الريح أي جاءت مرة كذا ومرة كذا.

الإعراب:

ما تنتظرون «ما» للاستفهام الإنكاري، ومحلها الرفع بالابتداء، وأما أداة عرض وتحضيض، وقيل: هي كلمتان: الهمزة للاستفهام و «ما» للنفي، ومستصرخاً حال، ومثله متغوثاً، وتكشف مضارع، والأصل تتكشف.

المعنى:

كان الصحابة من المهاجرين والأنصار مع الإمام (ع) ضد معاوية وأصحاب الجمل والنهروان إلا شذاذاً، منهم النعمان بن بشير الأنصاري، وكان انتهازياً مرتزقاً، يبيع دينه وضميره لأي شيطان يدفع الثمن، وكان من المقربين عند عثمان، ولما قُتل عثمان أخذ النعمان قميصه وأصابع زوجته نائلة، وباعهما الى معاوية، فعلّق معاوية القميص وعليه الأصابع ليستثير أهل الشام. وقد عمل النعمان أميراً على الكوفة لمعاوية، ومن بعده ليزيد .. وفي ذات يوم جهزه معاوية بالسلاح والرجال وأمره بالغارة على عين التمر في العراق، ولما ورد الخبر بذلك الى الإمام استنهض الناس فتثاقلوا وتجاهلوا، فقال:

(منيت بمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب اذا دعوت). تفيض هذه الكلمات بالأسى والألم، ومثلها كثير في كلام الإمام (ع) وما ذاك إلا لأنه كان يهتم برعيته وبالانسان أينما كان أكثر من اهتمامه بنفسه وأهله، ولكن ما يصنع؟ وبأي شيء ينفذ الحاكم سلطانه اذا كانت القوى المعدة للتنفيذ تسمع ولا تجيب؟. وكل ما لاقاه الإمام وقاساه من جنده وأصحابه — تجمعه وتحكيه كلمة واحدة،

وهي قوله : « أريد أن أداوي بكم ، وأنتم دائي » . ولا شيء أشد قسوة من داء دواؤه داء .

(ما تنتظرون بنصركم ربكم) ؟. أي بنصر دين الله وشريعته ، ومن نكص عن نصرة الحق فقد نصر الباطل ، أراد ذلك أم لم يرد (أما دينكم يجمعكم ، ولا حمية تحمشكم) . الدين والحمية كلام فارغ في منطق الناس أو أكثرهم من يوم قابيل وهابيل ، والجامع الأول والأخير المصلحة والمنفعة الشخصية، ولا يغضب لله إلا الذين يرجونه ولا يرجون سواه . وقليل ما هم .. (أقوم فيكم مستصرخاً ، وأناديكم متغوثاً ، فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي أمراً) . لأن أمرك هو أمر الله والحق ، ولو كان أمر الشيطان لسمعوا وأطاعوا ، ومن قبل قال تعالى لنبيه الكريم : « فإنك لا تُسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولّوا مدبرين — ٥٢ الروم » .

(حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة) . لا تعرفون نصحي إلا بعد فوات الأوان،وعندئذ تعضون يد الندامة والكآبة على ما كان من عنادكم وتقصيركم (فما يدرك بكم ثأر ، ولا يبلغ بكم مرام) . لأنك — يا مولاي — لا تقتص وتثأر إلا من الباطل وأهله ، ولا تروم إلا الحق وإعلاء كلمته ، ولو كنت من أهل الدنيا لكانوا أطوع اليك من بنانك (دعوتكم الى نصرة اخوانكم) الذين غزاهم معاوية بشياطينه (فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر ، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر) . اذا كلّ البعير وتعب ردد صوته في حنجرته،بخاصة اذا كان هزيلاً ، وفي ظهره عقر ، ومن فوقه حمل ثقيل ، وكان الإمام اذا دعى أصحابه الى الجهاد شق ذلك عليهم ، وتضجروا تماماً كما يفعل الجمل الهزيل الذي اعتقر ظهره وثقل حمله .

(ثم خرج إليّ منكم جنيد متذائب ضعيف كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون).هذا كل ما ترتب على الوعظ والتحريض ، بل والاستصراخ والاستغاثة: نفر قليل ضعيف مضطرب ، لا يسمن ولا يغني من جوع .

وذكر طه حسين السبب المباشر لذلك بقوله : « كان علي لا يستكره أحداً على الحرب .. ولو شاء لجند الناس تجنيداً .. ولو شاء لاستمالهم بالمال ، ولكنه لم يفعل .. وأراد أن ينصروه عن بصيرة وإيمان » . يريد البصيرة والإيمان بالحق

ممن لا يقاد إلا بجيبه ومعدته التي لا حد لها ولا قعر .. قال فيلسوف معاصر ما معناه : للإنسان معدة ، وللقرد معدة أيضاً ، وأنا لا أعرف قروداً تأكل قروداً، ولكني أعرف بشراً يأكلون البشر على الصعيد الفردي والاجتماعي والدولي .. والفرق بين الانسان المتوحش والانسان المتحضر أن الأول يقتل أخـــاه الانسان ويأكله ، والثاني يقتله ويكفنه ويصلي عليه ويدفنـــه ويؤبنه ، ثم يأكل ما كان قـد أعده لقوته وحياته .

الخطبة

- ٤٠ -

كلمة حق يراد بها باطل:

كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ . نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلا لِلّهِ . وَلَكِنْ هُؤُلَاءِ يَقُولُونَ لَا إِمْرَةَ إِلَّا لِلّهِ : وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ . وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ . وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الْأَجَلَ . وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ . وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ . وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بِهِ بَرٌّ وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ . أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ . وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ .

الإعراب:

كلمة حق خبر لمبتدأ محذوف أي هي كلمة حق ، والضمير في انه للشأن ، واما للتفصيل ، والمصدر من أن تنقطع مجرور بـ « الى » ويتعلق بيتمتع .

موقف الإمام من الخوارج :

أشار الإمام (ع) في هذه الخطبة الى الخوارج ، ولذا نمهد لها بكلمة موجزة عن موقفه وسياسته معهم : لقد تكلم الشارحون عن حرب الخوارج ومروقهم ، وأطال المؤرخون الحديث عن أحوالهم ، ووُضع فيهم العديد من المؤلفات ، ومن أحب معرفة التفاصيل فليرجع اليها والى أقوال شارحي النهج .. وغرضنا الآن أن نشير الى موقف أمير المؤمنين (ع) منهم ، ويتلخص بأنه حاول جهـد المستطاع أن لا يهيجهم في شيء . ومن جملة ما قال لهم : ألم أقل عند رفع المصاحف : ان معاوية ورهطه ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وانما هم يكيدون ويخدعون ويتقون حر السيف ؟. فأبيتم إلا إيقاف القتال والكف عنه ، وإلا التحكيم ، وإلا الأشعري .. فرضيت مكرهاً خوف الفتنة ورضوخاً لأهون الشرين .. وأيضاً قلت لـكم بعد التحكيم : لقد أخذنا على الحكـمين العهد بأن يحكما بما في كتاب الله ، فإن وفيا فذاك ، وإلا استأنفنا القتال ؟.

فقالوا للإمام : لقد أخطأنا وكفرنا ، فاشهد أنت على نفسك بالكفر ، وتب الى الله كما تبنا ، ونحن معك وإلا فبيننا وبينك السيف .

فقال لهم الإمام (ع) : أبعد ايماني بالله وجهادي مع رسول الله (ص) أشهد على نفسي بالكفر ؟. لقد ضللت اذن ، وما أنا من المهتدين .. ويرجح في الظن ان الإمام لو استجاب لهم لقالوا : نحن لا نريد إماماً يكفر ويتوب ، أو قالوا: لقد أضمرت غير ما أظهرت ، وانك على ما أنت .

حكم الخوارج بكفر الإمام ، واستباحوا دمه ، وقالوا له بصراحة : « ليس بيننا وبينك إلا السيف » .. ومن هنا أسماهم الرسول الأعظم (ص) بالمارقين من الدين .. ومع هذا كله لم يغضب الإمام ، ولم يبدأهم بالقتـال ، بل نهى عن قتالهم وقال : « لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » .. يشهد الإمام لعدوه الذي كفّره وأباح دمه وأعلن حربه وقال له : لا شيء لك عندي إلا السيف ، يشهد علي لعدوه هذا اللدود انـه طالب حق !.. ولا أدري: هل عرف التاريخ انساناً أنصف عدوه من نفسه وصبر عليه كعلي بن أبي طالب ؟. وهنا يكمن السر في حب القلوب له وتعلقها به، حتى القلوب القاسية والجاحدة .. وقال الإمام أيضاً : لا نمنع الخوارج الفيء : ولا نهيجهم ،

ولا نبغيهم شراً .. إن سكتوا تركناهم ، وإن تكلموا حاججناهم ، وإن أفسدوا في الأرض قاتلناهم .

نبذوه وكفروه ، وأباحوا دمه ومع هذا يحسن اليهم بالعطاء وبالاعتراف انهم طلاب حق ، ولا يبغيهم شراً ، بل ولا يفرض عليهم سلطاناً .. واذا أفسدوا واعتدوا على حقوق الناس تسقط حرمتهم ، وتكون الحرمة والسلطة عليهم للحق لا لعلي بن أبي طالب .

هذه هي سياسته مع الذين كفّروه وحاربوه ، ومع معاوية الذي منعه الماء ، وأبى الإمام أن يمنعه بعد أن تمكن منه ، ومع ابن العاص الذي دافع عن حشاشته بسوءته ، ومع صاحبة الجمل حيث عزّرها وأكرمها .. بل هذه سياسته مع كل الناس لا فرق بين قريب وبعيد ، وعدو وصديق .. ومن هنا قال المتنافسون على المناصب : ان علياً لا يعرف السياسة .. أجل ، انه لا يعرف سياسة البغي والنفاق أو يعرفها ولا يعمل بها ، ولكنه يعرف سياسة العدل والحق والرحمة ، ويدين بها ويعمل، ولا يحيد عنها؛ وان كان الثمن النفس والأهل فضلاً عن الملك والجاه .

المعنى :

(كلمة حق يراد بها باطل) . المراد بكلمة الحق قول الخوارج : « لا حكم إلا لله » . ولا يختلف اثنان من المسلمين في أن تشريع الأحكام ، وجعل الحلال والحرام هو للخالق وحده لقوله تعالى : « إنِ الحكم إلا لله – ٤٠ يوسف » . وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون – ٤٥ المائدة » . ولكن الكلام في الباطل الذي أراده الخوارج وهدفوا اليه من هذه الكلمة ، أي شيء هو ؟.

وقد بيّن الخوارج أنفسهم الشيء الذي أرادوه من قولهم : «لا حكم إلا لله» وهو قبول الإمام فكرة التحكيم ، فقد سألهم ابن عباس : ماذا ينقمون من أمير المؤمنين ؟ فقالوا : تحكيمه الحكمين . وعليه يكون الباطل هو قبول فكرة التحكيم من حيث هي بصرف النظر عن شخصية المحكّمين .

ولكن الظاهر من قول الإمام : (هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله ، وأنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر) . الظاهر من هذا أن الباطل الذي أراده

الخوارج هو نفي الإمرة على الناس من رأس ، وأنه لا حاجة بهم على الإطلاق الى أمير ما دام الحكم لله .

وتسأل : كيف نسب الإمام الى الخوارج القول بنفي الإمرة مع انهم لم يصرحوا بذلك ، والذي صرحوا به هو نفي التحكيم لا الإمرة ؟.

الجواب :

ان نفي الخوارج للتحكيم في قضية معينة لا نص عليها بالخصوص كالتحكيم الذي حصل ، ان هذا النفي بذاته دليل واضح على أنهم يفهمون ويفسرون « لا حكم إلا لله » بأنه لا حكم كلي ولا جزئي لمجتهد أو أمير أو أي إنسان كائناً من كان إلا في الأشياء المنصوص عليها كتاباً أو سنة،أما غير المنصوص عليها فيترك أمرها الى الله ، والبديهة تقضي ببطلان ذلك ، لأن النصوص محدودة ومتناهية ، والحوادث الجزئية المتوقعة لا حد لها ولا نهاية ، واذا لم يُتَح لها حاكم يحكم بها فمن يعطيها منازلها وأحكامها ، ويفصل بين الناس في خصوماتهم ، ويؤدب المعتدي ويردعه مع العلم بأن الله سبحانه لا يتدخل في شؤون الناس ، ويتصل بهم مباشرة وبلا واسطة ؟. واذن لا بد من سلطة عادلة أو جائرة تقدر الحكم الجزئي وتنفذه بالقوة وإلا عمت الفوضى ، وما قام للناس سوق ، ولا انتظم لهم أمر ، ومن أقوال الإمام (ع) : « ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه وينظمه ، فإن انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ، ثم لم يجمع بحذافيره أبداً » .

(يعمل في إمرته المؤمن) . الضمير في إمرته للفاجر ، وقال بعض الشارحين: « يريد الإمام ان إمرة الفاجر لا تمنع المؤمن من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة » ولكن المراد أعم يشمل جميع الواجبات ، وفي طليعتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد جاء في الحديث الشريف وفي نهج البلاغة أيضاً : ان أفضل الأعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانهما لا يقربان من أجل ، ولا ينقصان من رزق ، وأفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر (ويستمتع فيها الكافر) بما أصاب منها ، ولكن الى حين ، ثم يشتد ويطول مقته لنفسه بما رزق من الحرام (ويبلغ الله فيها الأجل) . كل مدة في هذه الحياة الى انتهاء ، وكل نعمة الى زوال عاجلاً أم آجلاً .

(ويُجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي) . يريد الإمام ان هذه المنافع هي من آثار النظام والتنظيم أياً كان

مصدره ، ولا يريد تبرير السلطة المنظمة على كل حال حتى ولو كانت طاغية باغية . وبكلمة ان الإمام يفضل النظام على الفوضى في شتى أحواله (حتى يستريح بر) بموت الفاجر أو عزله أو تغيير الأوضاع من الأساس (ويستراح من فاجر) عطف تفسير على ما قبله لأن الذي يستريح من الفاجر هو البر التقي ، أما الخائن الشقي فتذهب دولته بذهاب الحاكم الفاجر الذي كان يسانده ويحمي مصالحه .

الفوضوية والسلطة :

وبهذه المناسبة نشير الى المذهب الفوضوي الذي ظهر في القرن السابع عشر الميلادي بزعامة المفكر الانكليزي « ونستانلي » ويرمي هذا المذهب الى إلغاء الدولة والسلطة بشتى أنواعها ومظاهرها ، وإيجاد مجتمع خالٍ من وسائل القهر والإرغام، وحجة المؤمنين به ان وجود السلطة ضرر محض أو ضررها أكثر من نفعها،وتتلخص المضار التي ذكروها بما يلي :

١ — ان الدولة مهما كانت صورتها فإنها تخلق بطبيعتها الامتيازات للفئة الحاكمة، وتعطي أفرادها الأقلية سلطة وسيادة على غيرهم من أبناء الشعب .

٢ — تغدق الدولة الامتيازات على موظفيها وأقاربها وأصحابها ، وتوطد مكانتهم في المجتمع،بل وتفرض طاعتهم على الناس بطريق أو بآخر ، فيتعالون ويتكبرون، وقد يهددون ويتوعدون من لا يسجد لهم ويركع .. وهذا ثابت وواضح كوضح النهار .

٣ — تقتطع الدولة جزءاً من انتاج الناس ودخلهم باسم الضرائب ليتنعم بها الموظفون والمحاسيب ، فيبنون بها العمارات ، ويدخرون الأموال في المصارف على حساب الشعب .

٤ — تجند الدولة المواطنين لحمايتها ، وضرب الأحرار ، وقد تزج البلاد في حرب يقدرها الحكام أنفسهم وفقاً لمصالحهم الخاصة ، ولا شيء للبلاد منها إلا الخراب والدمار .

٥ — تمنع الدولة الأفراد من الالتجاء الى القوة لتسوية ما بينهم من الخلافات، وفي الوقت نفسه لا تتورع هي عن استعمال العنف والعدوان المكشوف ضد من يعترض على شيء من تصرفاتها .

وقد كان لهذا المذهب فلاسفة وأنصار ، وفيه العديد من المؤلفات والمقالات ، وآخر فلاسفة الفوضيين ومفكريهم « جوهان موست » الألماني . ثم ضعف مذهب الفوضية منذ سنة ١٩٢٠ ولم يظهر له دعاة وأتباع حتى اليوم حسبما قرأت .

وعلى أية حال فإن هذا المذهب طريف ، وحلم رائع وممتع ، بل ونبيل أيضاً، فإن أسمى مطالب الانسان وأحبهـا اليه أن يتحرر من القيود والأغلال ، فيعيش كريماً لا يضر ولا يضار .. ولا يتعالى عليه قزم أو يضطر للوقوف على باب مسخ أو بين يديه لا لشيء إلا « لمرسوم » يحمله من خائن أو لمنصب يشغله من غير كفاءة .. ولكن هل تستقيم الحياة وتنتظم الأمور بلا والٍ وراعٍ ؟ وليس مـن شك انها إذا استقامت وانتظمت بدونه فوجودُهُ عبء وضرر .. وإلا فلا بد مما ليس منه بد .

وتجدر الإشارة الى ان مذهب الفوضية ــ وهذا الوصف لمجرد القـول برفض السلطة ــ يعزز مذهب الإمامية من ان العصمة شرط في الحاكم ان أمكن وجـود المعصوم وإلا فالعدالة حتم وضرورة ، وقد أجمع فقهاؤهم عـلى أن صاحب الحق يحرم عليه أن يتقاضى عند الجائر للحصول على حقه إلا عند الضرورة وتعذر وجود الحاكم العادل ، وتشدد كثير منهم حيث قالوا : لا ينفذ حكم الجائر ولو حـكم بالحق ، وليس لصاحب الحق أن يأخذ الشيء المحكوم به في بعض الصور والحالات مع العلم بأنه له ، والغرض من ذلك التركيز على الاهتمام في اختيار الحاكم الصالح.

الخطبة

- ٤١ -

الوفاء :

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ ٱلْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ . وَلَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ ٱلْمَرْجِعُ . وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ ٱتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ ٱلْغَدْرَ كَيْساً وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ . مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ ٱلْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهُ مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ .

اللغة :

الجنة بضم الجيم : الوقاية ، وبفتحها الحديقة ، وبكسرها طائفة من الجن . والكَيْس: العقل . والحوَّل : البصير بتحويل الأمور . والقلَّب : الخبير بتقلبها. وينتهز : يبادر . والحريجة : التحرز .

الإعراب :

كيف خبر مقدم ، والمرجع مبتدأ مؤخر ، وعلم معلقة عن العمل لمكان الاستفهام ، والغدر مفعول لاتخذ وكيساً مفعول ثان ، ومالهم مبتدأ وخبر ، ودونها خبر مقدم ومانع مبتدأ مؤخر ، ورأي عين في مكان الحال من هاء يدعها أي مرئية بالعين ، أو من الفاعل المستتر أي رائياً لها بالعين .

المعنى :

(ان الوفاء توأم الصدق) . لا يختص الوفاء والصدق بأهل الايمان والأديان، انهما فرعان عن دوحة الخلق الكريم ، فقد يؤمن الانسان بالله واليوم الآخر ، ولا يتورع عن الكذب والخيانة ، وقد يجحد بالله وحسابه ، ويتنزه نفسه عن الغدر وقول الزور.. والوفاء وصف عام يكون للعقيدة والوطن كما يكون للجار والصديق، ويكون للانسانية جمعاء كما يكون في الأقوال ، ويكون فيما يظهر منه للناس كما يكون في المعاملة مع الخالق ، والصدق دليل الثقة بالنفس ، وكذلك الوفاء .. وبكلمة:لا يفترق الصدق عن الوفاء ، ولا الوفاء عن الصدق وجوداً ومنزلة ، انهما في ذلك تماماً كأخوين في رحم واحد في آن واحد .

(ولا أعلم جنة أوقى منه) . لأن من لا وفاء له لا دين له ، ومن لا دين له لا يقيه شيء من غضب الله وعذابه (وما يغدر من علم كيف المرجع) الى العرض بين يدي الله ، والحساب على ما قدّم وأخر (ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ، ونسبهم أهل الجهل فيه الى حسن الحيلة) . المراد بأهل الجهل هنا كل من كفر ويكفر بالقيم والصالح العام ، ولا يدين إلا بمنفعته الشخصية ، ويسلك اليها كل سبيل ، ويبرر من أجلها كل وسيلة ، واذن فلا بدع أن يرى هذا الطراز من الناس الغدر عقلاً وفضيلة اذا جعله حاكماً،مثل « تشان كاي شك »،أو ثرياً كالمستر « فورد » .

للمنبر – علي والسياسة :

(قد يرى الحوّل القلّب وجه الحيلة ، ودونها مانع من أمر الله ونهيه الخ).

يجيب بهذا عن قول من قال : ان علياً لا يعرف السياسة ، ويتلخص جوابه بأنه يعرف الفرص والوسائل الى بلوغ الملك والسلطان ، ولكنه لا ينتهزها على حساب دينه وضميره . وقال في مكان آخر من النهج : « والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس » . وقال أيضاً : « أتأمروني ان أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه » . إن علياً لا يفهم من كلمة النصر والنجاح إلا مرضاة الله ، والعمل بالحق والعدل ، وهو مستعد لأن يضحي بالنفس والملك وبكل عزيز ليبلغ هذه الغاية ، أما ألاعيب معاوية فهي شر ووبال .

وقال جورج جرداق : « ان الذين قالوا : علي لا يعرف السياسة يريدون من علي أن يكون معاوية بن أبي سفيان ؛ ويأبى علي إلا أن يكون ابن أبي طالب » .

وقال طه حسين : « حارب أبو سفيان النبي (ص) وأظهر في حربه قوة وقسوة وكيداً ومكراً ودهاء .. ثم أسلم حين لم ير من الاسلام بدأ .. وورث معاوية عن أبيه قوته وقسوته ومكره وكيده ودهاءه ، ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكراً للاسلام ، وأسلمت كرهاً كما أسلم زوجها كارهاً .. وكان الطامعون يجدون عند معاوية ما يريدون ، فضم اليه كل من كان له أرب في الدنيا .. وكان علي لا يُدهن في الدين ، ويبغض المكر والكيد ، كان يرى الحق فيمضي اليه مصمماً ، ويرى الباطل فيعرض عنه عازماً .. وما رأيك في رجل جاءه أخوه عقيل مسترفداً فلم يجد عنده ما يريد .. وما رأيك في رجل آخر – أي معاوية يأتيه عقيل هذا نفسه ، فيعطيه من بيت المال مئة ألف » . وهذه الحادثة وحدها كافية وافية لتفسير الفرق بين سياسة الرحمن وسياسة الشيطان .

وأخيراً قرأت للأستاذ الكبير أحمد عباس صالح كلمة في هذا الموضوع بمجلة الكاتب المصرية عدد نيسان سنة ١٩٦٥ قال فيها : « قاد معاوية جيش الشام ، وهو الرجل الذي يمثل النقيض من علي تماماً ، هو شخصية فريدة ، جمعت فيه كل خصائص الرجل الذي لا تشل حركته أية قيمة من القيم الدينية والانسانية ، انه ابن أبي سفيان الشهير ، وابن تلك المرأة التي مضغت كبد حمزة عم النبي حين سقط قتيلاً .. ان في نفس معاوية إرادة الانتصار الشخصي والغلب .. ان فيه قسوة الاعصار ، وعبقرية القدر الغاشم .. انه قطب السلب المطلق الذي يصطرع في قلب الانسان كما يصطرع في قلب الكون ، والسلب في الكون يتجه الى الشر ،

والإيجاب يتجه الى الخير ، وقد تصادم القطبان : — علي ومعاوية — الموجب والسالب بقدر ما تتيح الإنسانية أن تكون سلباً مطلقاً أو إيجاباً مطلقاً » ثم قال الاستاذ صالح « ولو لم يسر علي سيرته المثالية أكانت تبقى تلك الجذوة — أي جذوة الحق — مشتعلة كامنة في النفوس ؟ وكأن دور علي الوحيد أن يكون مثالاً في التأريخ كأنه علامة من علامات الطريق » .

وهذه الكلمة القصيرة الكبيرة لا تصور سياسة علي فحسب ، وإنما ترسم شخصيته في واقعها ، انها تجمع خير الكون بأسره كما تجمع شخصية معاوية شر الكون بكامله ، انهما الدليل والعلامة على الحق ، ولولاها لم يكن له « جذوة مشتعلة كامنة في النفوس » ولانطمس الحق وأثره في عهد علي ، وبالتالي من بعده في كل عهد — حيث يحتج الكبير والصغير لاحتياله على الحق بعمل علي بن أبي طالب — ولكن علياً كان وسيبقى الى آخر يوم حجةً دامغة على من يحيد عن الحق أو يحتال عليه ، وما ترك لأحد على الاطلاق معذرة ولا وسيلة .

الخطبة

- ٤٢ -

الهوى وطول الأمل :

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ : اتِّبَاعُ الْهَوَى ، وَطُولُ الْأَمَلِ . فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ . وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ . أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا . أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ . فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ .

اللغة :

حذّاء — بتشديد الذال — سريعة . وصُبابة — بضم الصاد — البقية من الماء أو اللبن في الاناء ، — وبفتح الصاد — الشوق : واصطبها : سكبها . وصابها : ساكبها . وقال ابن أبي الحديد : اصطبها صابها مثل أبقاها مبقيها أو تركها

تاركها ، ونقل عبارته بالحرف الواحد الشيخ محمد عبـــده بلا تفسير كعادته في أكثر التعليقات .

الإعراب :

أخوف أفعل تفضيل اسم ان ، و« ما » موصول مجرور بالإضافة ، واثنان خبر إن ، واتباع الهوى وطول الأمل بدلٌ مفصَّل من مجمل،والمبدل منه اثنان،ويجوز أن يكون اتباع الهوى وما بعده خبر لمبتدأ محذوف أي هما . وأما الأولى والثانية للتفصيل ، وألا للتنبيـــه . وحساب اسم « لا » والخبر محذوف أي فيه ، ومثله ولا عمل .

المعنى :

(ان أخوف ما أخاف – الى – فينسى الآخرة) . تقدم مثله في الخطبـــة ٢٨ (ألا وان الدنيا قد ولت حــذّاء) أي مسرعة ، والمراد بالدنيا هنا حياة الفرد وعمره الخاص به ، وهو قصير في ذاته مهما طال ، لأنه كما قال الإمام(ع) : « لا يستقبل الانسان يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله » وقال أيضاً : « من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وان كان واقفاً» (ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء اصطبها صابها). ويصدق هذا حتى على من يُخلق في ساعته وعلى من يعيش مئة عام ، لأن القرون لحظات في حساب الشروق والغروب . وهذه الحقيقة يدركها ويؤمن بها المتدين ، والزاهد والطامع .

(ولكل منهما – أي الدنيا والآخرة – بنون) . وأبناء الدنيـــا هم الذين لا يرون نفعاً أو ضراً ، ولا خيراً أو شراً إلا في هذه الحياة ، وان كـل الوسائل صحيحة وخيرةٌ ما أدت الى شيء من منافعها ولذائذها ، أما أبناء الآخـــرة فهم الذين يؤمنون بعالم الغيب والشهادة ، بالآخرة الباقية ، والدنيا الفانية ، ولا يبيعون تلك بهذه ، ويعملون لها معاً ، ويقولون : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (فكونوا من أبناء الآخـــرة) . أي حسوا بوجودها: واحسبوا حسابها ، وادخروا شيئاً لهـــا ، واعتبروا انكم فيهـــا منـذ الآن (ولا

تكونوا من أبناء الدنيا) . أي على انها الأولى والأخيرة،ولا شيء غيرها وبعدها ، بل على انها ممر الى حياة أجدى وأبقى .

(فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة) . وقد أتعب بعض الشارحين نفسه ، وأطال في بيان وجه الشبه بين حال الانسان يوم القيامة ، وبين إلحاقه بأمه ، ثم انتهى الى ما يتلخص بأن أبناء الدنيا يوم الآخرة كالأيتام بلا أب،أما أبناء الآخرة فهم في حضانة أبيهم .. وهذا المعنى بعيد عن دلالة اللفظ والفهم ، والذي تبادر الى فهمنا ان يوم القيامة هو يوم الحق والواقع ، والحكم والفصل بعلم الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية ، ويجزي الانسان بما أراده وهدف اليه من عمله ، لا بما أعلنه وأظهره في الحياة الدنيا .. كلا ، فإن الناس في هذه الحياة يأخذون بالمظاهر ، وقد ينسبون الولد لغير أبيه ، والعلم لغير ذويه ، والصلاح لغير أهله.. ولا شيء في الآخرة إلا الحق والحقيقة : « فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون — ٧٨ غافر » .

(واليوم عمل) أي يوم عمل على حذف المضاف اليه (ولا حساب) . والعاقل من حاسب نفسه قبل أن تحاسَب،ووزنها قبل أن توزن ، ومن أقواله(ع) : « حاسب نفسك لنفسك ، فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك » (وغداً حساب) عرض ونقاش،وسؤال وجواب ، ومحاكمة بلا محاماة ولا شفيع ونصير : « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يُظلمون— ١١١ النحل » . (ولا عمل) لأنه ذهب بذهاب وقته .

الخطبة

-٤٣-

أوجد للناس مقالاً فقالوا :

إِنَّ ٱسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ . وَلٰكِنْ قَدْ وَقَتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لاَ يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً . وَالرَّأْيُ عِنْدِي مَعَ الْأَنَاةِ ، فَأَرْوِدُوا . وَلَا أَكْرَهُ لَكُمُ الْإِعْدَادَ . وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هٰذَا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ . وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ ، فَلَمْ أَرَ لِي إِلَّا ٱلْقِتَالَ أَوِ ٱلْكُفْرَ ، بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى النَّاسِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً وَأَوْجَدَ لِلنَّاسِ مَقَالاً فَقَالُوا ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا .

اللغة :

الإغلاق : من أغلق الباب ضد فتحه. والأناة : التأني . وأرودوا : ارفقوا. وأحدث أحداثاً : ابتدع منكرات غير معروفة في السنة .

الإعراب :

إغلاق خبر ان ، ووقتاً مفعول مطلق لوقّت أي عينت أو ضربت ، ومخدوعاً حال ، والأمر عطف بيان من هذا ، والضمير في أنه للشأن .

المعنى :

(ان استعدادي لحرب أهل الشام – الى – أرادوه) . قال المؤرخون : ان الإمام (ع) أرسل رسلاً الى معاوية الواحد تلو الآخر يحذره من الشقاق والفتنة .. ومنهم جرير بن عبدالله البجلي من أصحاب رسول الله (ص) . فقد أرسله الإمام ليعظ معاوية ويحذره العواقب ، ويطلب منه أن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ، ومنهم الأنصار والمهاجرون ، ولكن معاوية أسرف وماطل في جواب جرير ولف ودار .. ولما استبطأ أصحاب الإمام جريراً أشاروا عليه في النهوض لحرب أهل الشام ، فقال : لا أبادر الحرب إلا بعد إلقاء الحجة وقطع المعذرة ،ولوسقت الجيوش الى أهل الشام ورسولي عندهم لم تقم الحجة عليهم ، ثم ما يدرينا ؟ فلعلهم يؤثرون السلم والعافية .

(ولكن قد وقتُّ لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً) . كان الإمام قد ضرب وقتاً لرجوع جرير وعودته بحيث لا يتأخر عنه إلا لطارىء كخداع معاوية وتسويفه ، أو عصيان جرير ومخالفته ، وحتى الساعة ما تبين شيء من ذلك ، وإذن (الرأي الأناة) والصبر (فأرودوا) . ترفقوا وتمهلوا (ولا أكره لكم الإعداد) . لا بأس أن تتهيأوا للحرب ، وتعدوا لها العدة حتى إذا دعت الحاجة كنتم على استعداد .. وهذا هو التدبير الحكيم : ترك المبادرة الى الشر مع الوقاية منه ، والتحصن بالقوة لردعه ومنعه .

(ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه ، وقلبت ظهره وبطنه) تأملت ملياً في موقف معاوية ووضعه ، ودرسته بدقة وامعان من شتى جهاته (فلم أر لي فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء محمد (ص)) . أبداً لن يحيد معاوية عن الباطل ، ويستجيب لدعوة الحق إلا بالقوة ، وإذن فماذا يصنع الإمام (ع) ؟ هل يتجاهل ويسكت عن معاوية يحدث البدع ، ويتلون في الدين ، ويتخذه أداة لدنياه ؟

روبما أمكن هذا لو لم يكن الإمام خليفة المسلمين ، أما سكوته عن معاوية، وهو خليفة فمعصية لله ، وجحود بما نزل على رسول الله (ص) . واذن فلا دواء إلا الكي .. ومن أقواله : « سأمسك الأمر ما استمسك ، واذا لم أجد بدأ فآخر الدواء الكي » أي الحرب .

(انه قد كان على الأمة وال أحدث أحداثاً ، وأوجد للناس مقالاً). المراد بهذا الوالي عثمان ، وقد تصرف في أموال المسلمين كما يهوى أعداء الله والاسلام، ودوّن علماءُ السنة في كتبهم الكثير من أحداثه ، ونقلنا عنهم طرفاً منها في شرح الخطبة الشقشقية .. والذي نرجحه - بعد الاستقراء والتتبع - ان الذين أولوا واعتذروا عن عثمان يؤمنون بينهم وبين أنفسهم بأن عثمان قد أحدث أحداثاً ، وان الدافع الأول لهم على اعتذار بعضهم هو مجرد التعصب ضد الذين يخطّئون عثمان ، ونفس الشيء يقال في الاعتذار عن معاوية وابن العاص وأصحاب الجمل . ولا تستبعد أيها القارىء فإن التعصب يفعل الأعاجيب .

(فقالوا ثم نقموا فغيّروا) . واو الجماعة في الأفعال الثلاثة يعود الى الناس فتح لهم عثمان باب القول فيه ، والمعنى ان قلوب الناس نفرت من أحداث عثمان، فنطقت ألسنتهم بنقده والاعتراض عليه ، ولما استمرت الأحداث ثاروا عليه ، وفعلوا به الأفاعيل .. فاستيقظت الفتنة بين المسلمين ولم تنم .

الخطبة

- ٤٤ -

قبّح اللهُ مصقلة :

قَبَّحَ اللهُ مَصْقَلَةَ . فَعَلَ فِعْلَ السَّادَاتِ وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ . فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ . وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ . وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وُفُورَهُ .

اللغة :

بكته : قرعه وعنفه ، ووفور المال أو أي شيء : يسره وكثرته .

المعنى :

(قبح الله مصقلة) بن هبيرة الشيباني، وكان عاملاً للإمام على أردشير (فعل فعل السادات) وذلك ان جماعة من النصارى كانوا قد أسلموا، ولما سمعوا بخارجي خرج على أمير المؤمنين (ع) ارتدوا عن الإسلام وانضموا الى هـذا الخارجي ، وهو الحريث من بني ناجية ، فوجه الإمام اليه معقل بن قيس في ألفي فارس ، فقتله ، وأسر من كان معه من المرتدين من الرجال والنساء ، وحملهم الى أمير

المؤمنين ، فصادف مروره بمصقلة بن هبيرة ، فاستغاث به الأسرى ، فـابتاعهم من معقل بخمسمئة ألف درهم واعتقهم ، وقال لمعقل : أنا أحمل المـال الى أمير المؤمنين .

ولما عاد معقل الى الإمام أخبره بالقصه : فشكره وأثنى عـلى عمله ، ولكن مصقلة أبطأ ولم يفِ بوعـده ، فكتب إليه الإمام يطالبه بالمـال ، وما أن قرأ الكتاب حتى فر ولحـق بمعاوية ، وإلى هذا يشير الإمام بقوله : (وفر فرار العبيد) .. وهكـذا كل لص وخائن ، وكل منافق ومداهن يهرب من عدل الإمام وإيمانه الى أطماع معاوية وأحلامه ، قال طه حسين في كتاب « علي وبنوه» ص ٥٩ : « كان الطامعون يجدون عند معاوية ما يريدون ، وكان الزاهدون يجدون عند علي ما يحبون» . ولكن أين النسبة العددية بين الفئتين ؟ ثم أين هم الزاهدون في المال والثراء؟ان الانسان شرِه الى المال بالطبع، وليس اجتماعياً بالطبع كما يقال:

(فما أنطق مادحه حتى أسكته) . ما قال القائل : أحسن مصقلـة في عتق الأسرى حتى ارتفع صوت يقول : قبحه الله من لص محتال .. مـا كان أغناه عن الحالين ! (ولو أقام لأخذنا ميسوره ، وانتظرنا بمالـه وفوره) . لو ثبت وبقي على ما كان لأخذنا منه ما تيسر ، وصبرنا فيما تعسر حتى يستطيع الوفاء .

الخطبة

-٤٥-

الدنيا حلوة خضراء:

الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلَا مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ. الَّذِي لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ. وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ. وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ. فَارْتَحِلُوا عَنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ. وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَاغِ.

اللغة:

يجوز مأيوس من أيس، وأيضاً يجوز ميؤوس من يئس، والمعنى واحد، وهو القنوط. ونكف: أنِف وامتنع، واستنكف: استكبر. ومُنِّي لذا بالبناء على المجهول: وُفق له أو قُدر، والثاني هو المقصود هنا. والتبست: امتزجت واختلطت. والكفاف — بفتح الكاف — ما كف عن الناس وأغنى. والبلاغ والبلغة والتبلغ: الكفاية.

الإعراب :

غير حال ، والدنيا مبتدأ أول ، والدار مبتدأ ثانٍ ، وما بعده خبر له ، والجملة منه ومن خبره خبر المبتدأ الأول. ولأهلها خبر مقدم، والجلاء مبتدأ مؤخر ، وخضراء خبر ثانٍ لـ « هي » .

المعنى :

(الحمد لله غير مقنوط من رحمته) . لأنه سبحانه هو القائل : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ـ ٥٦ الحجر » . وقال نبي الرحمة : « ليغفر الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد، حتى إبليس يتطاول اليها». وقال إمام الهدى : الفقيه كل الفقيه من لا يقنط الناس من رحمة الله (ولا مخلو من نعمته) . لأنه قال ، وقوله الحق ووعده الصدق : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم ـ ٥٣ الزمر » . والرحمة أعم من المغفرة لأنها تكون بالتوفيق والعناية بمن لا ذنب له ، وبالستر على المذنب (ولا مستنكف عن عبادته) . لأنه أهل للعبادة : « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً ـ ١٧٢ النساء » .

للمنبر ـ الدنيا والكفاف :

تكلم الإمام (ع) عن الدنيا ، فما أبقى لها من حال .. فهي غرّارة ضرارة ، وأكّالة غوالة ، وحية دنية، وداهية بغية .. عيشها قصير ، وخطرها يسير، وأملها حقير .. الى آخر السيئات واللعنات .. ومن أجل هذا ألقى حبلها على غاربها ، وطلقها ثلاثاً لا رجعة فيها أبداً .. ولو أرادها لأقبلت عليه إقبال العاشق الولهان ، وكانت أطوع اليه من البنان .

ومع هذا أنصفها الإمام فيما لها من حسنات حيث قال : ان الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزوّد منها .. وإذن فهي لا تتجرم وتبغي على أحد ، ومن كان صادقاً مخلصاً اتعظ بويلاتها ، واستفاد من خيراتها في يومه هذا وفي يوم الفزع الأكبر . أما الذين أعمى الهوى والجهل

عقولهم وقلوبهم فإنهم لا يعقلون عن الله فكيف ينتفعون بمواعظ الدنيا ، وعنهـا يفقهون ؟.

(وقد عجلت للطالب) . ان أكثر الناس يؤثرون المنفعة العاجلة ، وان كانت زهيدة فانية على الآجلة ، وان كانت عظيمة باقية ، ومن أجل هذا تحبيت الدنيا اليهم بالعاجلة (والتبست بقلب النـاظر) . امتزج حب الدنيا بقلب من ركن اليها حتى أعمته عن رشده ومصلحته (فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد). ان في الدنيا خـيراً وشراً ، وهما بين أيديكم ، فاستبقوا الخيرات تربحوا من الله الرحمة والرضوان .

(ولا تسألوا فيها فوق الكفاف ، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ) . ليكتف كل انسان بسد الحاجة فقط من المأكل والمشرب والملبس والمسكن .. وسد الحاجة وسط بين الترف والضرورة ، ولو عمل الناس بوصية الإمام (ع) لعاشوا جميعاً في سعادة وهناء ، لا حرب وفقر ، ولا عبودية واستغلال ، ولا حرص واحتكار، ولا من يحزنون .. ولا اعتداء وجريمة أيضاً إلا ممن شذ .. ولكل قاعدة شواذ لا يعتنى بها ، ولا يقاس عليها ، وبالتالي تتحقق الحرية والعدالة والمساواة بالمعنى العلمي الدقيق لهذه الكلمات .

الخطبة

- ٤٦ -

اللهم أنت الصاحب :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ ٱلْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ ٱلْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَٱلْمَالِ . اللَّهُمَّ أَنتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ ، لِأَنَّ ٱلْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَصْحَباً وَٱلْمُسْتَصْحَبُ لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً .

اللغة :

أعوذ بالله : اعتصم به . وعثاء السفر : مشقته وصعوبة طريقه . والكآبة : الحزن . والمنقلب : الرجوع ، وإنا الى ربنا لمنقلبون أي راجعون .

الإعراب :

اللهم أي يا الله، وضمير التثنية في – يجمعها – يعود الى الاستصحاب المفهوم من كلمة الصاحب والاستخلاف المفهوم من كلمة الخليفة ، والمصدر من لأن المستخلف الخ . مجرور باللام ، ومتعلق بيجمعها .

المعنى :

(اللهم اني أعوذ بك من وعثاء السفر) . قال الشريف الرضي : دعا الإمام بهذا ، وهو يضع رجله في الركاب . وليس من شك ان الدعاء حسن ومحبوب في ذاته لأنه ضرب من العبادة ، والتوكل عليه سبحانه ، ويجوز أن يكون له أثر في خوارق العادات ، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً (وكآبة المنقلب) يدعو الله سبحانه أن يعود الى أهله من سفره مسروراً (وسوء المنظر في الأهل والمال والولد) أن لا يريه الله ما يكره في نفسه وولده وماله وأحبائه .

(اللهم أنت الصاحب في السفر ، وأنت الخليفة في الأهل) . ليس لله زمان ومكان ، فهو مع المسافر تماماً كما هو مع المقيم على السواء : « وهو معكم أينما كنتم ـ ٤ الحديد » . (ولا يجمعها غيرك) بحيث يكون مصاحباً للمسافر ، وخليفة على المقيم في آن واحد .. هذا محال بالنسبة لغيره تعالى (لأن المستخلَف) الباقي مع المقيم (لا يكون مستصحباً) أي مصاحباً للمسافر (والمستصحَب) مع المسافر (لا يكون مستخلفاً) وحاضراً مع المقيم ، كيف ؟ وهل تجتمع الأضداد .

والخلاصة ان الإمام (ع) التجأ الى خالقه ، واعتصم به من مشقة السفر ، والحزن عند مآبه منه ، ومن رؤية ما يكره في من يحب ، ثم سأله تعالى متضرعاً أن يمد اليه يد العون في سفره ، ويحفظه في أهله الذين تركهم بلا كفيل إلا هو جلّ وعز ، انه على كل شيء قدير « لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يغيره زمان ، ولا يحويه مكان ، ولا يصفه لسان » . كما قال الإمام (ع) .

الخطبة

- ٤٧ -

الكوفة :

كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الأَدِيمِ العُكَاظِيِّ، تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ. وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللهُ بِشَاغِلٍ وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ .

اللغة :

الأديم : الجلد المدبوغ . والعكاظي : نسبة الى سوق عكاظ . والعرك : الدلك، قال : عرك الجلد أي دلكه . والمراد بالنوازل والزلازل هنا الخطوب والكوارث .

الإعراب :

بكِ ،الأصلُ كأني أبصرك،ولما حذف الفعل جيء بالباء،وجملة تمدين حال من الكوفة ، والعكاظي صفة الأديم ، والمصدر من انه وما بعدها ساد مسد مفعولي أعلم،

المعنى :

(كأني بكِ يا كوفة تمدّين مد الأديم العكاظي) . وهو الجلد المنسوب الى

سوق عكاظ ، وكان العرب في الجاهلية يجتمعون فيها عشرين يوماً من كل عام يبتاعون ويتاجرون ، وكانوا يعرضون الجلود في هذه السوق بكثرة لوفرة الإبل والغنم عند العرب آنذاك .

وقد تنبأ الإمام (ع) للكوفة بأن الطغاة سوف يتسلطون عليها من بعده ، ويسومون أهلها سوء العذاب ، وعبّر الإمام عن ذلك بمدّ الجلد وعركه حين الدبغ،وأكده بقوله : (تُعركين بالنوازل وتركبين بالزلازل) . وقد تحققت نبوءة الإمام على أيدي الأمويين وشياطينهم . وقال في خطبة ثانية : « وأيم الله لتجدن بني أمية — يا أهل الكوفة — أرباب سوء بعدي كالناب الضروس »، وقال في ثالثة : « تعركم عرك الأديم ، وتدوسكم دوس الحصيد » . (واني لأعلم أنه ما أراد بك جبار الخ). ويرجح في الظن ان الإمام (ع) ما أراد التخصيص بالكوفة، دون غيرها ، وقد أجمع العلماء على أن اللقب لا مفهوم له،فكل ظالم يلقى جزاء عمله لا محالة سواء أوقع ظلمه على الكوفة أم على فلسطين وفيتنام .. والأخبار المنقولة عن أهل البيت (ع) في أهل الكوفة تحتاج الى تمحيص : وكل خبر جاء في فضل بلد من البلاد هو محل نظر ، ولا نستثني إلا العتبات المقدسة لأن المكان بالمكين ، وكان أكثر الرواة ، أو الكثير منهم يضعون الأخبار في فضل أوطانهم وديارهم .

الخطبة

- ٤٨ -

بعث مقدمتي :

الْحَمْدُ لِلهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ ، وَالْحَمْدُ لِلهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ . وَالْحَمْدُ لِلهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ وَلَا مُكَافَإِ الْإِفْضَالِ . أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي ، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هٰذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي . وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هٰذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مُوطِنِينَ أَكْنَافَ دِجْلَةَ ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ .

اللغة :

وقب : دخل أو جاء . وغسقت العين : دمعت ، وغسق الليل : اشتدت ظلمته . وخفق الليل : ذهب أكثره ،وخفق النجم : غاب . وقال ابن أبي الحديد: الملطاط : حافة الوادي وشفيره — أي أعلاه — وساحل البحر . والمراد بالنطفة هنا النهر . والشرذمة : النفر القليل . وموطنين : مستوطنين . وأكناف : جمع كنف ، وهو الظل والجانب والناحية .

الإعراب :

غير مفقود حال ، وموطنين صفة شرذمة ، وأكناف مفعول موطنين، ودجلة ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث .

المعنى :

(الحمد لله كلما الخ) . قال بعض الشارحين : ان الإمام (ع) ذكر الليل هنا من أجل التنبيه الى تعاقب الليل والنهار ، وذكر النجم كي ينبه العقول الى فائدة الكواكب ، أما قصده من ذكر الإنعام والإفضال فهو – على دعوى الشارح – التنبيه الى وجوب شكر المنعم .. وليس من شك ان شكر المنعم واجب ، وان تفكُّر ساعة في خلق الله وآثاره أفضل من عبادة سنين،ولكن الإمام – كما يظهر – لا يريد بالحمد هنا وهناك إلا تمجيد الله وتعظيمه ، وإلا التبرك بافتتاح الكلام باسمه تعالى وشكره تماماً مثل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ومن أقواله : « الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره » . وقال: « استفتحوا بالدعاء أبواب النعم » . ولكن كثيراً من الشارحين والمفسرين اذا مر بهم كلام واضح يفسر ويشرح نفسه بنفسه أوجدوا من عندياتهم موضوعاً للكلام والشرح والتفسير لا لشيء إلا لأنهم شارحون ومفسرون .

(أما بعد فقد بعثت مقدمتي الخ) .قيل انه تكلم بهذا عند خروجه من الكوفة الى صفين ، ومحصّله ان الإمام (ع) كان قد أرسل مقدمة من جيشه ، وأمرهم أن يعسكروا على شاطىء الفرت ، ويبقوا ملازمين له الى ان يأتيهم إشعار منه ، ثم ذهب قاطعاً النهر الى المدائن يستنهض أهلها لينضموا الى جيشه ، ويكونوا عوناً له ومدداً . فقوله : (رأيت أن أقطع هذه النطفة).أي هذا النهر . وقوله: (الى شرذمة منكم موطنين أكناف دجلة) . أي الى أهل المدائن ، وقوله : (فانهضهم معكم الى عدوكم) . أي أستنهضهم كي يقاتلوا معكم .

الخطبة

- ٤٩ -

تشهد لله أعلام الوجود :

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الأُمُورِ . وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ . وَٱمْتَنَعَ عَلى عَيْنِ ٱلْبَصِيرِ . فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ . سَبَقَ فِي ٱلْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلى مِنْهُ ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ . فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي ٱلْمَكَانِ بِهِ . لَمْ يُطْلِعِ ٱلْعُقُولَ عَلى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ . فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ ٱلْوُجُودِ عَلى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ ٱلْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيراً .

اللغة :

بطَن خفيات الأمور : علم أسرارها ، يقال : فلان باطنَ فلاناً أي سارّه .
وأعلام الظهور : الأدلة الظاهرة بنفسها المظهرة لغيرها .

الإعراب :

الذي بطن،صفة لله . ويطلع من اطلع بسكون الطاء لا بتشديدها ، ولا من طالع ، ولهذا تعدى الفعل الى المفعول ، وهو العقول .

للمنبر – في عظمته تعالى :

من أراد أن يعرف عظمة الله وجلاله ، وعلوه وكماله فليقرأ كلمات أهل البيت (ع) وأحاديثهم في هذا الموضوع،فهم الأبواب والخزّنة لعلم الكتاب والسنة، فلا إغلاق في تعبيرهم ، ولا إفراط في تفكيرهم .. أبداً لا شيء في أقوالهم الا ما يحسه القلب ، ويستسيغه العقل بمجرد سماعه أو قراءته حتى كأنها تترجم عن إحساس الانسان ومداركه..والمقطع الذي نحن بصدده هو في تنزيه الباري وتمجيده ، ويتضمن الحقائق التالية :

١ – (الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور) . فهو سبحانه يعلم الأشياء من باطنها وأعماقها ، ومن جميع جهاتها تماماً كما هي في واقعها وحقيقتها منذ وجدت وفي شتى شؤونها وأطوارها .. وعلمه ، جل ذكره . بالأشياء بعد وجودها هو بالذات علمه قبل أن توجد،لا تبديل فيه ولا تعديل .

٢ – (ودلت عليه أعلام الظهور) أي آثاره سبحانه في أقطار الأرض والسموات .. ووجه الدلالة فيها انها تخضع في طباعها وأوضاعها لنظام لا تعدوه ، وقانون لا تتجاوزه . فالشمس – مثلاً – تبعد عن الأرض بنسبة معينة ، وكذلك الكواكب بعضها عن بعض ، ومثلها الضوء والحرارة والضغط والجاذبية .. لكل منها ومن غيرها مقدار معين ، وصدق الله ، جلت حكمته : « وكل شيء عنده بمقدار – ٨ الرعد » .

وقال بعض علماء الطبيعة:ان هذا النظام المبثوث في كل شيء يستحيل أن يكون من عمل الطبيعة العمياء وآثارها ، أو من الصدفة ، أو ان النظام نفسه قد استقل بإيجاد نفسه، وإذن لا بد لوجوده من سبب غير طبيعي ، وأيضاً لا بد أن يكون هذا السبب حكيماً عليماً ، وقادراً كي يستطيع أن يوجد الكون بحكمته ونظامه .

٣ – (وامتنع على عين البصير) . ولو رأته لكان جسماً ، والجسم يفتقر الى حيز بحكم العيان ، والله في غنى عن كل شيء ، وإليه يفتقر كل شيء (فلا

عين من لم يره تنكره) . لأنها قد رأت خلقه وآثاره ، فآمنت به تماماً كما تؤمن بوجود الرسام إذا رأت رسمه ، وبوجود الباني إذا رأت بناءه ، وسئل الإمام الرضا (ع) عن رؤية الله بالبصر ؟ فقال ما يتلخص بأن الرؤية لو كانت ممكنة لانحصر طريق الإيمان بالله بالرؤية البصرية، والمفروض ان ما من أحد قد رآه سبحانه، فلا يكون في الدنيا مؤمن على الاطلاق .: هذا الى أن الإيمان الذي يستند الى العين يموت بموتها ، أما الإيمان الذي يستند الى العقل والقلب فإنه باقٍ ببقاء العقل، وخالد بخلود الروح (ولا قلب من أثبته يبصره) بالذات ، ويدركه بالكنه والحقيقة ، وإنما يعرفه سبحانه بخلقه وآثاره .

٤ — (سبق في العلو فلا شيء أعلى منه) . والسر لهذا العلو هو الكمال المطلق من جميع الجهات ، فهو أزلي كان ولم يكن معه شيء ، وأبدي يبقى ويفنى كل شيء ، وقادر لا يعجزه شيء : وعالم يحيط بكل شيء ، وغني عن كل شيء (وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه) . وأي شيء أقرب من الخالق الى المخلوق ، ومن العلم الى المعلوم ، العالِم بخفيات الأمور وما تنطوي عليه الصدور ؟.

(فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه) . بل دنوه سبحانه من خلقه وكونهم في قدرته وقبضته ، وفي علمه وعنايته هو الذي أبعده عنهم في ذاته وصفاته (ولا قربه ساواهم في المكان به) . هو سبحانه قريب من عباده لأنه يراهم ويسمعهم: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعانِ — ١٨٦ البقرة». وهو تعالى بعيد عنهم لأنهم لا يرونه ولا يسمعونه « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير له مقاليد السموات والأرض — ١٢ الشورى » . ومن أقوال الإمام: « قرُب فنأى ، وعلا فدنا » .

(لم يطلع العقول على تحديد صفته) . لأن صفته لا حد لها ولا بداية ونهاية وهل للمطلق من حدود وقيود ؟ سمع الإمام الصادق (ع) رجلاً يقول : الله أكبر . فقال له : أكبر من أي شيء ؟ قال الرجل : من كل شيء . فقال الإمام : كان الله ولم يكن معه شيء . قال الرجل : فماذا أقول ؟ قال الإمام : قل ، الله أكبر من أن يوصف .

(ولم يحجبها عن واجب معرفته) . حيث أوجد سبحانه الآيات والبينات على وجوده وعظمته ، وهي (إعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود) . والمراد

بأعلام الوجود ما أشار اليه سبحانه بقوله : « أو لم يفتكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق — ٨ الروم » أي إلا لحكمة وغاية ، لا لهواً ولا عبثاً ، أما قول الإمام (ع) : « إقرار قلب ذي الجحود » فإنه يومىء الى ان الدليل الذي يحتج به سبحانه على الجاحدين بوجوده ووجوب الايمان به هو نفس الدليل الذي يستدلون به على وجود الأشياء والتصديق بها في حياتهم اليومية، وأعني بهذا الدليل منطق الحس والعقل.. أليس من دأب الناس جميعاً — الجاحدين وغير الجاحدين — انهم اذا رأوا بأعينهم كتاباً ، مثلاً ، تجزم وتحكم عقولهم بوجود المؤلف ، فيؤمنون ويصدقون ، واذا سمعوا بآذانهم كلاماً من وراء حجاب آمنوا بوجود المتكلم ؟. والله سبحانه يقول للجاحدين : لقد رأيتم بأعينكم الكون وما فيه من نظام وإحكام ، كما رأيتم الكتاب وسمعتم المتكلم ، وعقولكم في واقعها وطبيعتها تحكم بوجود المكوِّن بعد أن رأت العيون الكون ، بل الدليل هنا أوضح وأقوى . واذن ما هو المسوغ للجحود والإنكار؟ وكيف اعتمدتم على منطق الحس والعقل في إثبات ما أثبتموه ، ولم تعتمدوا على هذا المنطق نفسه في إثبات الخالق والتصديق به ؟. وما هو المبرر لهذا التناقض وفصل الشيء عن نفسه ؟ فإن كان منطق الحس والعقل حجة في إثبات الشيء والتصديق به فهو حجة في كل مورد حتى في دلالة الكون على المكون ، بل هو هنا أدل وأقوى . وان لم يكن هذا المنطق حجة في إثباته تعالى على الرغم من رؤية الكون ونظامه — فلا يكون حجة أيضاً في أي شيء من الأشياء ، والقول بالفصل والتجزئة جهالة وضلالة .. وهذا الرد والإلزام يُقر به قلب الجاحد ويطمئن اليه، وان أنكره بلسانه . تعالى الله عما يقول الجاحدون علواً كبيراً .

الخطبة

- ٥٠ -

الحق والباطل:

إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ ٱلْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً عَلى غَيْرِ دِينِ اللهِ. فَلَوْ أَنَّ ٱلْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلى ٱلْمُرْتَادِينَ. وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ ٱلْبَاطِلِ لَانْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ ، وَلٰكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هٰذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هٰذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلى أَوْلِيَائِهِ وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى.

اللغة:

الفتن : جمع فتنة بكسر الفاء ، ولها العديد من المعاني ، منها الابتلاء ، والضلال والجنون والفضيحة والمرض والمال والأولاد والقتال بالسلاح ، والاختلاف في الآراء ، وهذا المعنى هو المقصود هنا بدليل قوله (ع) : « وأحكام تبتدع

يخالف فيها كتاب الله . والمرتادون : الطالبون . والضغث: القبضة من الحشيش يختلط فيها الرطب باليابس .

الإعراب :

على غير دين متعلق بمحذوف صفة لرجال ، والمصدر من ان الحق الخ. فاعل لفعل محذوف،أي:لو ثبت خلوص الحق. وهنالك اشارة الى المكان البعيد،واستعيرت هنا للاشارة الى الحال المستفادة من قوله : يؤخذ من هذا ومن هذا .

المعنى :

(انما بدء وقوع الفتن أهواء تُتّبع ، وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله). قدمنا في فقرة «اللغة» ان المراد بالفتن هنا اختلاف الآراء بقرينة السياق .. وكلمة بدء بعد «انما» أداة الحصر،تدل على ان موضوع كلامه (ع) يختص بأول اختلاف بعد رسول الله (ص) وقع بين الصحابة في الشؤون الدينية والمسائل الشرعية ، وانه لا سبب لهذا الاختلاف إلا الأهواء والأغراض،لأن كتاب الله ينطق بالحق ، وقد كان وما زال بين أيدي المسلمين ، وان أهل بيت النبي (ص) كانوا آنذاك بين أظهر الصحابة ، وقد أمر النبي (ص) بالتمسك بهم والرجوع اليهم في المعضلات، وساوى بينهم وبين القرآن في حديث الثقلين الذي رواه مسلم وغيره،ولكن الأهواء وحدها هي التي صرفت أهلها عن طاعة النبي في أهله .

وقد كان صلى الله عليه وآله هو المصدر الأول لمعرفة الحق ، فلا رأي ولا اجتهاد في عهده ، ولا فرق ولا مذاهب ، ثم اختلف الصحابة من بعده في العديد من المسائل ، لو جمعت لاستوعب عشرات الصفحات ، وكان اختلافهم هذا سبباً لما بحثه السنة في كتب أصول الفقه من ان قول الصحابي هل هو حجة تماماً ككتاب الله وسنّة نبيه ؟. واذا اختلف الصحابة فبأي الأقوال يجب العمل ؟ قال الغزالي في « المستصفى » : «ذهب قوم الى ان قول أبي بكر وعمر مقدّم،وحجة لازمة ، وقال آخرون : بل قول الخلفاء الأربعة » ثم رد الغزالي عليهم بأن الصحابة قد اتفقوا على مخالفة الصحابة ، وصرحوا بجواز الاجتهاد ، وقال : «لقد اختلف أبو بكر وعمر في التسوية في العطاء فأيهما نتبع ؟ »

وهذا الاختلاف لا أثر له عند الإمامية ، لأنهم في غنى عنه بحديث الثقلين الذي جعل أهل البيت عدلاً للقرآن .

ومن المسائل التي اختلف فيها الصحابة مسألةُ المتعة،ونقل الغزالي من المستصفى ان أبا موسى الأشعري كان يقول : النوم لا ينقض الوضوء ! وكان هذا الأشعري من أصحاب رسول الله(ص). وبالمناسبة أشيرُ الى أن شيخاً أفغانياً سألني في بلدة قم عن قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا – ٤١ الأنفال » . وقال الشيخ : ان ظاهر الآية يدل على وجوب الخمس في كل غنيمة أياً كان سببها ، ولكن ما نقل ناقل ان الخلفاء بعد رسول الله (ص) أخذوا بعموم هذا الظاهر وشموله لجميع الغنائم والمكاسب سواء أكان سببها الحرب، أم العمل والتجارة كما يقول الإمامية ؟.

قلت له : آنذاك : العبرة بقوة الدليل حتى يثبت العكس ، ولا شيء في الكتاب والسنة يعارض ظاهر الآية أو يخصصه ، وإذن يجب الأخذ به ، والاعتماد عليه ، وإن أعرض عنه من أعرض .. وبعد أشهر من جوابي هذا قرأت في ج ١ من « روضة الكافي » للشيخ الكليني : ان أمير المؤمنين (ع) قال لجماعة من أهل بيته وخاصة شيعته : ان الولاة السابقين قد عملوا أعمالاً خالفوا فيها رسول الله (ص) ،ثم ذكر الإمام من هذه الأعمال تقسيم العطاء بالتفاضل والتفاوت، ومتعة الحج والنساء ، والمسح على الخفين ، والطلاق على غير السنة وبلا شروط ، وصلاة النوافل جماعة في بعض الحالات الممنوعة ، ثم قال الإمام : « نحن والله ذو القربى الذين عناهم الله في الآية ، لقد قرننا سبحانه بنفسه وبرسوله (ص) فقال : « فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » رحمة منه لنا ، وغنى أغنانا الله به ، ووصى به نبيه ، ولم يجعل لنا في سهم الصدقة نصيباً ، أكرم الله رسوله وأكرمنا أهل البيت أن يطعمنا من أوساخ الناس ، فكذّبوا الله ورسوله » .

قرأت هذا فأدركت ان الدافع الأول على تجاهل آية الأنفال والإعراض عنها هو ان هذه الآية كرمت وفضلت أهل البيت على الصحابة وغير الصحابة .. وأدرك حسدة الفضيلة وأهلها انهم لو عملوا بهذه الآية لعمل المسلمون بها جميعاً الى آخر يوم ، ومعنى هذا ان تطغى عظمة أهل البيت ومكانتهم على شخصية

الخلفاء وغير الخلفاء من الصحابة ، فأهملوها ليهملها الناس من بعدهم ، ويبقى لهم شيء من الذكر والاحدوثة .

وأتمنى لو تتاح الفرصة لي ، أو لأي كاتب من ذوي الكفاءة أن يبحث وينقب في آثار أهل البيت وأقوالهم عن الأسباب المباشرة لإهمال ما أهمل من نصوص الكتاب والسنة ، ثم يجمعها في كتاب مستقل ، وكنت قد كتبت في بعض ما ألفت ان أهل البيت في علومهم تماماً كالكون في كنوزه وأسراره كلما اكتشف العلماء منها سراً طويت عنهم أسرار وأسرار .

(ويتولى عليها رجال رجالاً على غير دين الله) . ضمير عليها يعود الى الأحكام المبتدعة ، والمعنى ان أهل الأهواء يستعينون برجال على شاكلتهم لترويج ما يبتدعون في دين الإسلام ، ويخالفون من الأحكام (فلو ان الباطل خلص – الى المعاندين) . قد يكون الحق واضحاً من جميع جهاته كقولنا : الناس سواسية أمام القانون ، ولكل فرد الحق في صيانة حريته وكرامته من غير تمييز .. وقد يكون الباطل كذلك مثل: لكل قوي أن يستعلي على الضعيف ، ويسخره فيما يشاء من مصالحه بلا سؤال وحرج ، وقد يكون في الحق جهة سلبية تقربه في الظاهر من الباطل ، فيلتبس على كثير من الجهلة كالذين أنكروا المعاد وقالوا : « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون – ٤٨ الواقعة » . وقد يكون في الباطل جهة إيجابية – ظاهراً – تغر الناظرين كأعمال السحر والشعوذة التي عملها سحرة فرعون : « فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم – ١١٦ الأعراف » .

وفي مثل هذه الحال التي يلتبس بها الباطل بالحق يغتنم الفرصة الذين في قلبهم مرض ، فيبثون الدعايات الكاذبة للباطل على أنه الحق الذي لا ريب فيه .. وقد ينخدع بها الأبرياء السذج فيتبعون الباطل من غير قصد . والعالم يتثبت ، ولا يسرع الى الأخذ بالظواهر إلا بعد الفحص والتدقيق والنظر الى الباطن، قال الإمام: « ان أولياء الله هم الذين ينظرون الى باطن الدنيا اذا نظر الناس الى ظاهرها» .

والخلاصة لو اتضح الباطل من كل وجه لما انخدع به انسان ، وأيضاً لو اتضح الحق كذلك لأحجم المبطلون عن الألاعيب والأكاذيب خجلاً أو وجلاً (ولكن يؤخذ من هذا ضغث ، ومن هذا ضغث فيمزجان) . أي ان الذي طلب الحق

فأخطأه نظر اليه من جهة واحدة ، وهي التي التبس بها مع الباطل ظاهراً ، ولو نظر الى الحق من شتى جهاته وتثبت وحقق لأدركه . أما من طلب الباطل فأدركه فإنه يتستر بالجهة التي التبس بها مع الحق ، ولولاها لافتضح ولُعن بكل لسان ، وما وجد من يعتذر عنه بأنه اجتهد فأخطأ (فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه). وهم المدلسون الذين سحروا أعين الناس بالتمويه والتضليل (وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى) . وهـم الذين عرفوا الحق وصراطه القويم ، ولا يخدعهم عنه منافق ومضلل .

الخطبة

- ٥١ -

الحياة مع الذل موت :

قَدِ ٱسْتَطْعَمُوكُمُ ٱلْقِتَالَ فَقِرُّوا عَلى مَذَلَّةٍ ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ . أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تُرْوَوْا مِنَ المَاءِ . فَالمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ . أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَّةً مِنَ ٱلْغُوَاةِ ، وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ .

اللغة :

استطعموكم القتال : طلبوه منكم . ولُمَّة – بضم اللام وفتح الميم مع التخفيف – جماعة قليلة . وعمَّس : أخفى وتجاهل . والأغراض : الأهداف .

الإعراب :

استطعموكم أي استطعموا منكم، والقتال مفعول، وترووا مجزوم جواباً لـ (قِرّوا)، والموت في حياتكم مبتدأ وخبر ، ومقهورين حال من ضمير المخاطبين ، ومثله الحياة في موتكم قاهرين . وألا أداة تنبيه .

المعنى :

سار معاوية بجيشه حتى انتهى الى صفين ، فعسكر على شريعة الفرات ، وأقبل جيش الإمام ونزل بإزاء أهل الشام ، فمنعوهم من الماء ، وأرسل الإمام سفراءه الى معاوية يطلبون اليه أن يخلي الماء حراً للجميع ، فأصر على الامتناع ، وقال له ابن العاص : إن علياً لن يظمأ وأنت ريان ، فأعرض ونأى ، وبعد اليأس قال الإمام لأصحابه : (قد استطعموكم القتال) أي ان معاوية وجيشه يطلبونكم للقتال ، فتهيأوا له وإلا (فقروا على مذلة وتأخير محلة) . اذا لم تجاهدوا بأرواحكم فقد تنازلتم عن كرامتكم واعترفتم بالذل على أنفسكم .

(أرووا السيوف من الدمــاء ترووا من الماء) . لقد أبى .. وكم إلا أن يميتكم عطشاً ، أو تأخذ السيوف من دمه مأخذها ، واذن هو الذي أباح لكم دمه (فالموت في حياتكم مقهورين ، والحياة في موتكم قاهرين) . فرق بعيد بين ان تعيش مع وحش كاسر لا يرضيه إلا ارغامك وإذلالك ، وبين أن تموت قاهراً لهذا الوحش في سبيل كرامتك .. ان موتك هذا هو الحيـاة ، وحياتك تلك هي الموت بالذات .. ولا أعرف صورة لكرامة الانسان أكثر إشراقاً من هذه الصورة: « الموت في حياتكم مقهورين » قهر المذلة والرق والغلبة (والحياة في موتكم قاهرين) لأعدى أعدائكم وأعداء الله والانسانية .. أبداً لا فرج ولا كرامة إلا بالاستماتة لردع الطغاة العتاة .

(ألا وان معاوية قاد لمة من الغواة ، وعمس عليهم الخبر) . كان ينشر قميص عثمان ويتظلم للحق والعدل كذباً ونفاقاً ، وصدقه أهل الشام (حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية) وقتلوا أنفسهم لأجل معاوية وبدعه ومفترياته .

وبعد هذه الخطبة أو هذا التحريض مال جيش الإمام على أعدائهم، واضطروهم الى ترك الشريعة ، فسيطر عليها الإمام ، وألح عليه جماعة من أصحابه أن يمنع معاوية من الماء كما منعه ، فأبى وقال : ان الله سبحانه أجرى هذا الماء ليشرب منه الجميع ، لا ليستأثر به فريق دون فريق .

الخطبة

-٥٢-

أزمعوا الرحيل .. فقرة ١ — ٣ :

أَلا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا ، وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ . فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا ، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا . وَقَدْ أَمَرَّ مِنْهَا مَا كَانَ حُلْواً ، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً . فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الإِدَاوَةِ ، أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ ، فَأَزْمِعُوا عِبَادَ اللهِ الرَّحِيلَ عَنْ هٰذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالُ ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ(١) . فَوَاللهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلْهِ الْعِجَالِ ، وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ ، وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِ الرُّهْبَانِ ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ ، وَحَفِظَهَا رُسُلُهُ ـ لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ

وَأَخافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ(٢) . وَاللهِ لَوِ انْمَاثَتْ قُلُوبُكُمْ انْمِيَاثاً وَسَالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دَماً ، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةٌ مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ — وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جَهْدِكُمْ — أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ(٣) .

اللغة :

تصرمت : انقطعت أو فنيت . وآذنت : أعلمت . وتنكر : تغير . وحذاء : مسرعة . وتحدو : تسوق . والسملة : بقية الماء . والأداوة : إناء الماء . والمقلة : حصاة توضع في الإناء لقسمة الماء بالسوية بين الأفراد إذا قل ، فيصب الماء حتى يغمرها ، فيتناول كل فرد مقدار ما غمر الحصاة . وتمززها : رشفها رشفاً خفيفاً . والصديان : العطشان . ولم ينقع : لم يسكن عطشه أو لم يرو . وازمعوا : عزموا . والوله : جمع واله وولهان أي حزين . والعجال — بكسر العين — جمع العَجول ، والواله والعجول من الإبل الناقة التي فقدت ولدها . وهديل الحمامة : نوحها . والجؤار : رفع الصوت . والمتبتل : الذي انقطع للعبادة . وانماثت : ذابت .

الإعراب :

حذاء حال من ضمير الدنيا في أدبرت ، وكسملة الكاف بمعنى مثل صفة لسملة ، ومثلها الكاف في «كجرعة» ، والتماس مفعول من أجله لخرجتم ، واللام في لكان قليلاً واقعة في جواب لو حننتم ، ورهبة مفعول لأجله ، ودماً تمييز وما الدنيا «ما» مصدرية ظرفية أي مدة بقاء الدنيا ، وما جزت أعمالكم جواب لو انماثت ، وأنعمه مفعول به لجزعت والعظام صفة للأنعم ، وهداه عطف على أنعمه ، والضمير له جل ذكره .

المعنى :

(ألا وان الدنيا — الى — جيرانها) . تكرر هذا المعنى مرات ، ويتلخص

بقوله تعالى : « متاع الحياة الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى — ٧٧ النساء » . وقوله: «انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد — ٢٠ الحديد » (وقد أمرّ فيها ما كان حلواً ، وكدر منها ما كان صفواً) . والمراد بالحلو الذي صار مرّاً ، والصفو الذي صار كدراً — أيام الطفولة والشباب، ولحظات النشوة والفرح وفي المنام كليلة عرس ، أو ساعة أنس مع صديق قديم ، أو محدث لبق حول الموقدة في ليلة عاصفة ، أو نظرة الى انعكاس الأضواء على الماء ، أو الى صورة ناطقة ، أو جنة ضاحكة ، أو متعة بقراءة كتاب يحدثك عن الأخطاء في تفكيرك أنت لا في تفكير افلاطون وأرسطو .. الى كثير من هذه الطيبات العابرات .. ولكنها لا توقظ إحساسنا بلذة الحياة حتى يصطدم بألف ألم وألم .

(فلم يبق منها إلا سملة كسملة الإداوة ، أو جرعة كجرعة المقلة) . ومثله في الخطبة ٤٢ لم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء (لو تمززها الصديان لم ينقع). لو ارتشف الظمآن البقية الباقية من الماء لم يرتو ، وكذلك عمر الانسان وان طال وانتهب فيه جميع الملذات فما هو بشيء إلا اذا كان وسيلة للنجاة في يوم تشخص فيه الأبصار ، وتكشف فيه الأسرار (فأزمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزوال). أي اعزموا من الآن على السفر الى الآخرة بزاد كاف واف (ولا يغلبنكم فيها الأمل) . فإنه يسهي العقل ، وينسي الآخرة (ولا يطولن عليكم فيها الأمد) . لأن كل آت قريب .. ومن حِكَم الإمام : « نفَس المرء خطاه الى أجله ، وكل معدود منقض » . وهذه الحِكَم وأمثالها ذائعة شائعة ، ولكنها لا تحرك النفس الى شيء — في الغالب — سوى خلجة أو صورة تمر بالقلب أو الفكر ، ثم ينتهي كل شيء .. أجل ، هي حجة ظاهرة لا تدع لمقصر من عذر .

للمنبر — في البذل والشعور بالمطلق :

(فوالله لو حننتم — الى — عقابه) . لو ان رجلاً يملك آفاق الأرض والسماء ، وأصابه ألم لا يصبر عليه يلازمه في ليله ونهاره ، ولم يجد لتسكينه أو تخفيفه حيلة ، لو حدث هذا لسخت نفسه بكل ما يملك من أجل شفائه وخلاصه

حتى ولو كان أشح خلق الله ، وعاش فقيراً معدماً عن طيب قلب .. وان انسدت السبل في وجهه انتحر واستراح بالموت من ألمـه ، كما حدث لكثيرين ، واذن فما بال من يؤمن بلقاء ربه وعقابه لا يفتدي نفسه بكل عزيز ، ويتقي هول جهنم وعذابها ، وأدنى شيء منه أشدّ وأقسى من آلام الدنيا مجتمعة ؟ ان أنعم الحياة الفانية لا تقاس باليسير اليسير من ثواب الله ، ولا آلامها تقاس بالقليل الخفيف من عذابه ؟. ما بال هذا المؤمن يحرص على دنياه مع علمه ويقينه بأنه يترك ما جمع للوارث والحوادث ؟.

هذا ، الى ان الله سبحانه كلف يسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، وما أمر ان يخرج الانسان من جميع ما ملك وجمع : ثم يتكفف الناسَ ويصير عالة عليهم ، كلا بل أمره بالعمل لدنياه وآخرته ، وأن لا يبغي في الأرض فساداً ، فلا يغدر ولا يمكر ، ولا يظلم ولا يحتال ، وان يتعاون مع أي انسان يحتاج الى عونـه ، وخيرٌ عند الله سبحانه من بذل الملايين ان تهيء للمحتاجين أعمالاً تناسب كفاءاتهم حتى يشعروا بقيمتهم ولا يحسوا بأنهم عالة على أحد .

وقد تنازل أفراد عن جميع ما يملكون في سبيل الله فنهاهم النبي وزجرهم .. جاء اليه رجل بمثل البيضة من ذهب ، وقال له : يا رسول الله خذها صدقة ، فوالله لا أملك غيرها ، فأعرض النبي (ص) عنه ، ثم أتاه من بين يـديه أعاد القول ، فقال له النبي (ص) : هاتها مغضباً ، فأخذها منه ثم حذفه بها ، وقال يأتيني أحدكم بماله لا يملك غيره، ويجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن غنى ، خذها لا حاجة لنا فيها .

(وتالله لو انماثت الخ ..) أي لو ان إنساناً عاش في عمر الدنيا من بدايتها الى نهايتها ، وانقطع الى الله وحده ، وعبده حتى ذاب قلبه ذوبان الملح في الماء، وسالت عيناه دمـاء لا دموعاً ، وما أبقى لديه من جهد رغبة في ثواب الله ، ورهبة من عقابه ، لو وُجد هذا العابد ما كانت عبادته بكمّها وكيفها تعدل شيئاً من نعم الله وهدايته للإيمان .

ونتساءل : من أي نوع هذا الاحساس بعظمة الخالق وافضاله ؟ وبأي شيء يحد ؟ وما هو أصله ومصدره ؟ أما أنا فالذي أتصوره ان إحساس علي بعظمة الله لا حـد له ، والسر واضح – فيما أعتقد – وهو انه إحساس طبق الأصل

عن الكمال المطلق ، وإذا لم يكن للأصل حد فصورته كذلك :. ان كان للمطلق صورة ولو في عالم الشعور والتصور .. أما مصدره فما هو من نوع التفكير ، لأن التفكير والتأمل من شؤون العقل ، والعقل لا يدرك المطلق لأن العقل محدود، وإنما هو ــ أي إحساس علي بعظمة الله ــ منحة خاصة من خالق العقل لا من غيره « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ــ ٥٤ المائدة » .

الخطبة

-٥٣-

الأضحية :

وَمِنْ كَمالِ الأُضْحِيَةِ اسْتِشْرافُ أُذُنِهَا وَسَلامَةُ عَيْنِهَا. فَإِذَا سَلِمَتِ الأُذُنُ وَالعَيْنُ سَلِمَتِ الأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ. وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ القَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلَى المَنْسَكِ.

اللغة :

الأضحية : شاة ونحوها من الأنعام يضحى بها . والشاة العضباء : مكسورة القرن ، والمراد بالمنسك هنا المذبح .

المعنى :

الأضحية واجبة ، ومستحبة ، ويشترط في الواجبة أن تكون تامة الخلقة ، فقد روى الإمام الباقر (ع) عن جده رسول الله (ص) انه قال : لا تضحي بالعرجاء ولا العجفاء ، ولا الخرقاء ، ولا الجذاء ، ولا العضباء . والمراد بالعجفاء الهزيلة ، وبالخرقاء التي لا أذن لها أو مخروقة الأذن ، وبالجذاء مقطوعتها ، وبالعضباء مكسورة القرن .

وأسباب الوجوب أربعة :

١ — حج التمتع قال تعالى : « فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي — ١٩٦ البقرة » .

٢ — اذا حلق المحرم رأسه لضرورة فعليه كفارة مخيراً بين صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين ، أو التضحية ، قال تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك — ١٩٦ البقرة » والمراد بالنسك هنا الأضحية .

٣ — اذا اصطاد المحرم فعليه مثل ما قتل من النعم، قال تعالى : « ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم — ٩٥ المائدة » .

٤ — هدي الحصر قال سبحانه : « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي — ١٩٦ البقرة » . والمراد بالإحصار هنا الحبس أي إذا أحرمتم للحج أو العمرة ، ثم منعكم مانع من إكمال العبادة على وجهها الشرعي من مرض أو عدو ، وما اليه فعليكم أن تذبحوا ما تيسر .

ولا يُشترط في الأضحية المستحبة ما يُشترط في الواجبة ، وأيام الأضحية المستحبة أربعة لمن كان في منى : يوم العيد ، والأيام الثلاثة التي تليه ، وتسمى بأيام التشريق ، ولمن كان في غير منى يوم العيد ، والحادي عشر والثاني عشر ، وأفضل ساعات الأضحية من يوم الأضحى بعد طلوع الشمس .

وتمام الكلام عن الأضحية في كتب الفقه ، والظاهر ان كلام الإمام (ع) هنا يختص بالأضحية المستحبة .

الخطبة

-٥٤-

لا يسعني إلا قتالهم :

فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ. وَقَدْ قَلَّبْتُ هٰذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ. فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَنِي بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ. وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ.

اللغة :

تداكوا : تزاحموا . والإبل الهيم : العطاش . ومثاني : جمع مثناة ، وهي ما يُعقل به البعير .

الإعراب :

يوم وردها متعلق بمحذوف حالاً من الإبل ، ويجوز أن يتعلق بتداكّ على معنى متداكة ، أو بعضهم بالنصب عطفاً على اسم ان ، وبطنه وظهره بدل اشتمال من الأمر ، والنوم منصوب بنزع الخافض أي من النوم ، والياء في وجدتني مفعول أول ، وجملة يسعني مفعول ثانٍ .

للمنبر – حول البيعة للإمام :

كان علماء المسلمين وما زالوا يقيسون جواز العمل بالحديث ، أو عدم جوازه بشهادة المطلعين على أحوال الراوي في عصره ، فإن شهدوا بصدقه وتثبته في النقل أخذوا به واعتمدوا عليه ، وإلا أهملوه سواء أكان الراوي مجهولاً ، أم معروفاً بالكذب .. ثم ظهرت نظرية جديدة – عند غيرنا نحن الشرقيين – تقول : ان صحة النقل لا تقاس بما قيل في حق الراوي فقط ، بل لا بد أيضاً أن ندرس ونعرف ميوله وأهدافه : هل كان من قصده أن يبين للناس مكانته عند من ينقل عنه وقربه منه ، وانه كان يخصه بالحديث أكثر من غيره ؟ وهل كان يهدف من النقل تأييد جهة خاصة ، وسياسة معينة ؟. وبكلمة : هل كان بنقله يجر النار الى قرصه؟. فإن كان شيء من هذا فنقله ليس بحجة وان شهد بحقه العشرات، ومثله قول الفقهاء في باب الشهادات : لا تقبل شهادة من تجلب له نفعاً ، أو تدفع عنه ضراً .

وأيضاً كان علماء المسلمين وما زالوا يستدلون في كتب الفضائل والمناقب على عظمة من يعظّمون ويقدسون ، بستدلون بما نزل فيه من الآيات ، وجاء من الروايات ، ثم ظهرت نظرية جديدة تقول : ان العظيم هو الذي يعيش للناس لا لنفسه ، ويهتم بمطالبهم ، ويمثل أمانيهم ، ويعمل من أجلهم ، لا ما قيل عنه ويقال .. أجل، ان في الآيات والروايات انعكاساً لأعمال العظيم وجهاده ، ولكن لا بد قبل كل شيء من بيان السبب الأول والمباشر لعظمة العظيم، وانه أمل الملايين، وانه من أجل هذا نزل فيه ما نزل ، وجاء ما جاء .

وكان الملايين في عهد الإمام الذين لا حياة لهم ولا كرامة إلا في ظل الاخاء

والعدالة ، كانوا يرون انه (ع) هو الذي يحقق لهم هذه الأمنية ، ويساوي بينهم وبين المترفين والطامحين ، قال الأستاذ أحمد عباس صالح في مجلة «الكاتب» المصرية عدد آذار سنة ١٩٦٥ : « كان علي في نظر غالبية المسلمين الرجل الوحيد الأقرب الى روح الإسلام وأصوله الصحيحة » . وإذن فلا بدع إذا أسرعوا اليه وتسابقوا الى بيعته حين سنحت لهم الفرصة ، وقد وصف الإمام (ع) اندفاعهم وتسابقهم بقوله :

(فتداكوا علي تداك الإبل الهيم يوم وردها) . ولماذا أسرع أغلبية المسلمين الى الإمام ، وتزاحموا عليه تزاحم الإبل العطاش على الماء ليبايعوه بالخلافة حتى ظن انهم قاتليه أو بعضهم قاتل بعض ؟ ألأنه عالم تقي ، وشجاع قوي ، أو لأنه ابن عم الرسول وزوج البتول ؟ كلا ، لا هذا ولا ذاك ، بل لأنه لهم ولدينهم ودنياهم ، وان الذليل عنده عزيز حتى يأخذ الحق له ، والقوي عنده ضعيف حتى يأخذ الحق منه ، وان الناس في إيمانه وعقيدته كلهم عيال الله ، وان المال مال الله يوزع بالسوية بين عياله . وأشرنا فيما تقدم الى قوله (ع) : ان آدم لم يلد عبداً ولا أمة . وفي ذات يوم جاءته امرأتان تشكوان فقرهما ، فأعطاهما ، ولكن احداهما سألته أن يزيدها ويفضلها على صاحبتها ، لأنها هي عربية ، وصاحبتها من الموالي ، فأخذ قبضة من تراب ، ونظر فيه وقال : لا أعلم ان الله فضل أحداً من الناس على أحد إلا بالطاعة والتقوى .

وقد ينخدع الناس من غير وعي بمداج لا سابقة ولا منقبة له على الاطلاق سوى أنه يتكلم بإصلاح المجتمع ، ويتستر وراء هذا الشعار ، أما إيمان الملايين بمن سبقت له الحسنى في جميع مواقفه منذ يومه الأول والى آخر يوم ، وآثر حياة البساطة مع ضعفة الناس ، ورفض كل امتياز عنهم كالإمام (ع) أما ايمان الملايين هذا فيستحيل أن يكون وهماً وجهلاً .. انه ايمان الوعي والعلم بالحق وأهله .

(وقلبت هذا الأمر بطنه وظهره — الى — محمد (ص) —) تقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٤٣ (فكانت معالجة القتال أهون علي من معالجة العقاب) . يريد انه لو ترك قتال الناكثين والمارقين والقاسطين لكان مسؤولاً أمام الله ومعاقباً بعذابه على الترك ، وليس من شك ان القتال شر ،ولكن المسؤول هو من أثار الشر وفتح بابه . وماذا يصنع الإمام وغير الإمام اذا لم يجد وسيلة للقضاء على العنف

إلا العنف ؟. قال تعالى : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم — ١٩١ البقرة » . وقال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله — ٣٩ الأنفال » . وفي آية ثانية من هذه السورة « إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ». وقال: « الفتنة أشد من القتل » . (وموتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة) . أي ان آلام الدنيا مهما قست فهي أيسر بكثير من آلام جهنم وعذابها . ومن البداهة ان الضرر الأشد يُدفع بالضرر الأخف .

الخطبة

-٥٥-

دخل الى الموت أو خرج اليه :

أَمَّا قَوْلُكُمْ أَكُلُّ ذٰلِكَ كَرَاهِيَةَ ٱلْمَوْتِ فَوَاللهِ مَا أُبَالِي أَدَخَلْتُ إِلَى ٱلْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ ٱلْمَوْتُ إِلَيَّ . وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكًّا فِي أَهْلِ الشَّامِ فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعْشُو إِلَى ضَوْئِي ، وَذٰلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا .

اللغة :

المراد بتعشو هنا تقصد ، لأن من رأى ضوءاً ، ولو بنظر ضعيف فربما قصده مهتدياً به ، وتبوء : ترجع .

الإعراب :

أكل ذلك «كل» يجوز نصبها بفعل محذوف أي أتفعل كل ذلك ، ويجوز رفعها

بالابتداء والخبر محذوف أي كائن منك ، وكراهية مفعول من أجله للفعل أو للخبر المحذوف ، وأما قولكم فمبتدأ ، والخبر محذوف أي أتأخر عن القتال . والمصدر من ان تلحق منصوب بنزع الخافض المحذوف .

المعنى :

كان من دأب الإمام (ع) أن لا يتعجل الحرب حتى ولو التقى الجمعان .. وقد كان خصومه ينضحون جيشه بالنبل ، فيحتمل ويصبر ،ويأمر أصحابه بالصبر ، قال ابن أبي الحديد وغيره من الشارحين : ان أمير المؤمنين (ع) بعدما ملك الماء على أصحاب معاوية في صفين ، وسقاهم منه مكث أياماً لا يأمر بالحرب ، ولما سئم أصحاب الإمام الانتظار والمطاولة قال له البعض : يقولون : انك تكره الحرب كراهية الموت ، أو انك في شك من قتال أهل الشام ، فقال :

(أما قولكم : أكل ذلك كراهية الموت فوالله ما أبالي دخلت الى الموت ، أو خرج الموت إليّ). علي يكره الموت ؟ وهل في سيرته ما يشعر بذلك ؟ ألا تدل أفعاله قبل أقواله أنه آنسُ بالموت من الطفل بمحالب أمه ؟ وهل لعلي من أمنية في حياته غير الاستشهاد في سبيل الله والحق ؟ ومن أقواله : « ان الموت طالبٌ حثيث لا يفوته المقيم ، ولا يعجزه الهارب ، ان أكرم الموت القتل ، والذي نفس علي بن أبي طالب بيده لألفُ ضربة بسيف أهون علي من ميتة على فراش في غير طاعة الله » . والكل يعلمون ان كلام الإمام هو نفسه بالذات حتى كأنه خلق منه ، أو خلقا معاً .

(واما قولكم شكاً في أهل الشام) . ان الإمام على يقين من ضلال أهل الشام ، ولكن هذا لا يدعوه الى اليأس منهم ، فكم من فرج جاء بعد الضيق ؟ وضال عرف مواقع خطأه ، وفاسد آب الى رشده (فوالله ما دفعت الحرب يوماً – أي أخرتها وسوّفتها – الا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي،وتعشو الى ضوئي) . ان الحرب وسيلة لدفع الشر ، وليست غاية في نفسها، واذن فعلى المحارب أن لا يبادر اليها إلا بعد اليأس ، والإمام لا يؤخر الحرب لحظة إلا مع الأمل في أن يهتدي البعض بنوره وضيائه ، وهل الروية والتثبت في الدماء خطأ وجريمة ؟. ومن أقواله : « لا تيأسوا من مدْبر ، فإن المدبر عسى أن تزل به

إحدى قائمتيه – أي رجليه – وتثبت الأخرى ، فترجعا حتى تثبتا جميعاً » .

(وذلك أحب إليّ من أن أقتلها على ضلالها ، وان كانت تبوء بآثامها) .
ذلك اشارة الى تأخير الحرب مع الأمل بهداية من يهتدي ، والمعنى ان هذا التأخير أحب الى قلبه من الإسراع الى قتل الضال على ضلاله ، وان كان إثمه على نفسه لا على غيره .. وهذا أشبه بقول من يقول : لئن أحسن الظن بالمسيء أحب إليّ من أن أسرع الى سوء الظن به مع علمي بأن « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » سواء أظن الناس به خيراً أم شراً .

الخطبة

-٥٦-

كنا مع رسول الله .. فقرة ١ — ٢ :

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخوانَنَا وَأَعْمَامَنَا . مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً وَمُضِيّاً عَلى اللَّقَمِ وَصَبْراً عَلى مَضَضِ الأَلَمِ وَجِدّاً فِي جِهَادِ العَدُوِّ . وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الفَحْلَيْنِ ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ المَنُونِ . فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا ، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا(١) . فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّ الإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ ، وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ . وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ . وَايْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً ، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً(٢) .

اللغة :

اللقم – بتشديد اللام وفتح القاف – الطريق الواضح . ومضض الألم : حرقته. يتصاولان : يحمل كلّ على صاحبه . ويتخالسان : ينتهبان أي كل منهما يريد أن ينتهب نفس الآخر . والكبت : الاذلال . وجران البعير : منحره أو مقدم عنقه. وتبوأ الأوطان : سكنها .

الإعراب :

إيماناً تمييز ، ومنا متعلق بمحذوف حالاً من الرجل ، ومن عدّونا حال من الآخر ، وجملة يتصاولان خبر كان ، وأيهما يسقي مبتدأ وخبر ، وملقياً حال، وجرانه مفعول لـ « لملقيا » وجملة نأتي خبر كنا ، وما قام جواب لو ، وأيم الله مبتدأ ، والخبر محذوف وجوباً أي قسمي ، ودماً تمييز ، ومثله ندماً .

المعنى :

(ولقد كنا مع رسول الله (ص) نقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وأعمامنا) . ان في الانسان العديد من القوى والغرائز ، ومن أهمها غريزة الغضب والثورة .. وتوجد في الصغير والكبير ، وفي العالم والجاهل ، بل وفي الحيوان . وتختلف ثورة الانسان بحسب دوافعها وأهدافها ، فقد يكون قوياً أو ضعيفاً ، وقد لا يظهر له أي أثر خوفاً من محذور أشد وأخطر .. وأيضاً قد يكون الدافع خاصاً كمن يثور ويغضب لرغيفه أو عرضه ، وقد يكون عاماً كالثورة ضد سلطة مستبدة أو نظام جائر : أو دين أو مبدأ باطل ، وقد دلت التجارب ان الثورة من أجل الصالح العام يستحيل أن تأتي بخير إذا كانت مشتتة مفتتة ، أوكان قائدها جاهلاً، أما إذا كان خائناً فإنها تأتي بعكس الهدف .

وقد استطاع رسول الله ان يتجه بروح الثورة في كل فرد من أصحابه وأتباعه نحو هدف واحد ، وهو تغيير المجتمع من جذوره وأساسه في عقيدته وعاداته ، استطاع هذا بعد أن أقنع أصحابه بالحجة الظاهرة والدليل القاطع انه يتكلم بلسان الله لا بلسانه ، وبوحي من السماء لا من الأرض ، وان من يشاقق الرسول فقد

شاقّ الله بالذات كما نطقت الآية ١٣ من سورة الأنفال .. ولا عذر له بحال عند الله ولا عند المسلمين ، إذ لا اجتهاد في مورد النص ، ولا في تفسيره ما دام المفسر الأصيل موجوداً .

وهذا هو الفرق بين الرسول والإمام عند من لا يؤمن بعصمته .. وبهذا نجد التفسير الصحيح للفرق بين من قاتل مع الرسول ، ومن قاتل مع الإمام .. فلقد كان أمر الرسول بقتل الآباء والأبناء والاخوة والأعمام على الشرك أمراً من الله ، ومن خالفه فقد مرق من الدين في عقيدة المسلمين ، وليس الأمر كذلك بالنسبة الى الإمام عند كثيرين، بل ثار عليه وحاربه الناكثون والقاسطون والمارقون متذرعين بالاسلام واسم الاسلام .

(وما يزيدنا ذلك إلا ايماناً وتسليماً) . ذلك اشارة الى قتل الآباء والأبناء بأمر الرسول الأعظم (ص) والمعنى انهم كانوا يباشرون هذا القتل ، وهم على يقين من دينهم ، وراحة من ضميرهم (ومضياً على اللقم) . أي على طريق الحق الواضح دون أن تعترضهم أية شبهة (وصبرا على مضض الألم) . ومثله قول النبي (ص) حين مات ولده ابراهيم : تدمع العين ، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب .. انه أمر حق ، ووعد صدق (وجدّاً في جهاد العدو) . أي عدو الله والحق دون وهن وتعليل بعدم الصبر على قتل الآباء والأبناء .

(ولقد كان الرجل – الى – لعدونا منّا) . هذا تصوير لطبيعة الحرب ، وانها تنتهب روح أحد المتقاتلَين ، أو روحيهما معاً ، وان الغلبة لم تكن للمسلم أبداً ودائماً ، بل قد وقد (فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل علينا النصر) . ان الله سبحانه يجري المسببات على أسبابها ، ويربط النتائج بمقدماتها ، فمن صدق منه العزم وعمل جاهداً مخلصاً في عمله بلغ الغاية بتوفيق الله وعنايته : « والذين اهتدوا زادهم هدى – ١٧ محمد » . ومن راءى وتكاسل فمآله الخسران والخذلان : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً – ١٠ البقرة » .

(حتى استقر الاسلام ملقياً جرانه ، ومتبوئاً أوطانه) . بالصدق والاخلاص، وبالتضحية والفداء توطدت أركان الإسلام ، وانتشر في شرق الأرض وغربها ، وأظهره الله على الدين كله ، لا بالكلام والمزايدات ، والتظاهر بالشعائر والعبادات (ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم) من التكاسل والتخاذل (ما قام للدين عمود ، ولا اخضر للإيمان عود) . أبداً .. لن تقوم للدين قائمة ، ولا للحق والعدل

إلا بجهاد الباطل والضلال ، وتقويض أركانه من الأساس ، ولا يكون هذا إلا باجتماع الكلمة ، ولن تجتمع الكلمة إلا بوحدة القيادة وصلاحها .. سئل الإمام الصادق (ع) : هل يكون في الأرض إمامان — أي في وقت واحد — قال : « لا إلا وأحدهما صامت » . وقال عارف كبير معلقاً على هذا الجواب : لو تعددت الرؤساء لأدى ذلك إلى مخاصمات يختل معها النظام : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (وأيم الله لتحتلبنها دماً ، ولتتبعنها ندماً). ان هذا التفريط والتقصير سوف ينتهي بكم الى الأسف والندم حيث تنتهك منكم الحرمات ، وتستباح منكم الدماء والأعراض .. وقد حدث كل ما أخبر به الإمام (ع) .

الخطبة

-٥٧-

سبوا ولا تتبرأوا:

أَمَا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ ٱلْبُلْعُومِ مُنْدَحِقُ ٱلبَطْنِ يَأْكُلُ مَا يَجِدُ وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ . فَاقْتُلُوهُ وَلَنْ تَقْتُلُوهُ . أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَٱلبَرَاءَةِ مِنِّي . فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجَاةٌ . وَأَمَّا ٱلبَرَاءَةُ فَلَا تَتَبَرَّأُوا مِنِّي فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلى ٱلفِطْرَةِ ، وَسَبَقْتُ إِلَى ٱلإِيمَانِ وَٱلْهِجْرَةِ .

اللغة :

ظهر له : تبين له ، وظهر عليه : غلبه وتفوق عليه ، قال تعالى : « فأيّدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين — ١٤ الصف » . والرحب: الواسع . والبلعوم : مجرى الطعام في الحلق . والبطن مذكر ، وبطن مندحق : ناتىء وبارز مثل مندلق .

المعنى :

(أما انه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم ، مندحق البطن ، يأكل ما يجد ، ويطلب ما لا يجد) . قال بعض الشارحين : اختلفوا في الذي عناه الإمام (ع) بهذا الوصف : من هو ؟ فمن قائل : هو معاوية . وقال آخر : هو زياد ابن أبيه . وقال ثالث : هو المغيرة بن شعبة . ورابع : انه الحجاج . والظاهر أنه معاوية بدليل قول الإمام : « سيأمركم بسبّي والبراءة مني » . وليس من شك ان معاوية هو الذي سن هذه السنة السيئة .. هذا ، الى ان الرواة قالوا: كان بطن معاوية كبيراً ، وانه كان يأكل كثيراً ، وإذا قعد وضع بطنه على فخذه ، وفي شرح ابن أبي الحديد : « تظاهرت الأخبار ان رسول الله (ص) دعا على معاوية وقال : اللهم لا تشبع بطنه » .

(فاقتلوه) . قال الذهبي – وهو من أهل السنة والمتعصبين – في كتاب « ميزان الاعتدال » ج ٢ ص ٧ طبعة مصر سنة ١٣٢٥ هـ ، وابن حجر – من السنة – في « تهذيب التهذيب » ج ٥ ص ١١٠ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٥ هـ : « قال رسول الله (ص) : إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه » . ورواه أيضاً من علماء السنه المناوي في « كنز الحقائق » ص ٩ طبعة استانبول سنة ١٢٨٥ هـ ، والمراد بمنبره (ص) هنا الخلافة . وقال الحاكم في « مستدرك الصحيحين » ج ١ ص ١٢١ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٤ هـ : « ان رسول الله قال : من سب علياً فقد سبني »[1] ، وليس من شك ان من سب رسول الله (ص) يجب قتله ، وان معاوية قد سب علياً ، وجعل سبه سنة يشيب عليها الصغير ، ويهرم الكبير على حد تعبير معاوية نفسه ، ومعنى هذا ان معاوية سنّ سبّ الرسول بالذات .

(فاقتلوه ولن تقتلوه) . لأنه قد اشترى دينكم بأمواله . قال طه حسين في كتاب « علي وبنوه » : « ان أشراف أهل العراق كانوا يتصلون بمعاوية أيام علي يتلقون ماله ، ويمهدون له أمره » .

(الا انه سيأمركم بسبي والبراءة مني) . الظاهر من هذا الكلام ان التقية

---

١ عن كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروزآبادي .

تجوز في السب ، ولا تجوز في البراءة من الإمام لأنــه وُلد على الفطرة أي على دين الله الذي أنزله على رسول الله (ص) ، والبراءة منه تستدعي البراءة من هذا الدين القويم . وقد بالــغ الرسول وأهـل بيته (ص) في النهــي عن البراءة من الإسلام ، وان من تبرأ منه بأية صورة لم يعد اليه بحال .. هذا في البراءة من الاسلام .

أما البراءة من الإمام أمير المؤمنين (ع) فإن فيهـا روايات متعارضة : بعضها في الجواز ، وبعضها الآخر في المنع ، واذا عرضناها على كتاب الله ، ورجحنا الموافق منها دون المخالف – كما في كثير من الأخبار – تعين ترجيح الروايات الآذنة،وطرح الروايات المانعة لقوله تعالى : « من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان – ١٠٦ النحل) . وهذه الآية ظاهرة في ان من كفر بلسانه مكرهاً دون قلبه فهو معذور .. وقال الشيخ الأنصاري في « رسالة التقية » المطبوعة في آخر كتاب « المكاسب » : ان بعض الأخبار فيها دلالة على ترجيح أخبار البراءة . ثم قال : ويمكن أن يكون المــراد من الأخبار الناهية – البراءة حقيقة أي قلباً ولساناً ظاهراً وباطناً بحيث يرتد المبتدىء عن التشيــع والولاية الى الكفر والنصب .

ونحن مع القائلين بجواز النطق بالبراءة ، والتظاهر بها على شريطة الخوف على النفس ، واطمئنان القلب بالايمان ، ودليلنا أولاً : عموم أدلة نفي الضرر . ثانياً: قوله تعالى : « الا من كره وقلبه مطمئن بالايمان » . ثالثـاً : ان هلاك الموالي المخلص وانقطاعه عن مناصرة الولاية والموالين فيه ضرر كبــير وأكثر بكثير من كلمة لا تضر ولا تمس عظمة الإمام (ع) من قريب أو بعيد .

وتسأل : لو أصر الموالي على عدم البراءة وقتل ، فهل يكون آثماً ؟.

الجواب :

كلا ، فقد أصر حجر بن عـدي وميثم التــمار ، واستشهدا وهما من صفوة الصفوة ، وعليه يكون الموالي معذوراً في الحالين ، ولا يلزم بأحدهما . وقد سئل الإمام الباقر (ع) عن رجلين من الكوفة أخذا وأمرا بالبراءة من أمير المؤمنين (ع) وإلا قتلا ، فتبرأ أحدهما فسلم ، وأبى الآخر فقتل ؟ فقـال الإمام (ع) : أما الذي تبرأ فرجل فقيه في دينه أي أخذ بقوله تعالى : « إلا من أكره » . وأما

الذي لم يتبرأ فقد تعجل الجنة .

أما سبق الإمام الى الهجرة فإن النبي (ص) هاجر من مكة مراراً يطوف أحياء العرب داعياً الى الله وعليّ معه دون غيره في هجرته الى بني عامر ، وكان معه في هجرته الى الطائف .. هذا ، الى مبيتـه في الفـراش فداءً للرسول وتنفيذه لوصيته (ص) بتأدية الأمانات الى أهلها نيابة عن النبي – هجرة وزيادة ، ومنقبة تفرد بها وحده .

الخطبة

-٥٨-

أبعد الايمان والجهاد مع رسول الله ؟

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ وَلَا بَقِي مِنْكُمْ آبِرٌ . أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللهِ أَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِي بِالْكُفْرِ . لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ ، وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ . أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلاًّ شَامِلاً ، وَسَيْفاً قَاطِعاً ، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً .

اللغة :

الحاصب : ريح شديدة تحمل حصى صغيرة . والآبر : من يُصلح النخل . أوبوا : انقلبوا . والأثرة – بفتح الثاء والراء – الاستبداد .

المعنى :

قال الخوارج للإمام (ع) : إما أن تشهد على نفسك بالكفر وتتوب ، وإما قاتلناك ، فقال : (أبعد ايماني بالله ، وجهادي مع رسول الله (ص) أشهد على نفسي بالكفر) . قال ابن جرير الطبري في تاريخه ج ٢ ص ٧٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ : « كان أول ذكر آمن برسول الله (ص) وصلى معه وصدقه بما جاءه من عند الله علي بن أبي طالب ، وهو يومئذ ابن عشر سنين ، وكان مما أنعم الله به على علي بن أبي طالب انه كان في حجر رسول الله قبل الاسلام » .

وقال السيوطي في « الدر المنثور » طبعة مصر سنة ١٣١٤ هـ عند تفسير قوله تعالى : « فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها — ٣٥ النساء » : « أخرج الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه: ان ابن عباس قال للخوارج: ماذا تنقمون من علي وهو أول من آمن برسول الله (ص) ؟ فرجع منهم عشرون ألفاً ، وبقي أربعة آلاف » . (كتاب فضائل الخمسة) .

وقلنا في كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » : قال محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » (ص) ص ١٤٠ طبعة سنة ١٩٦٥م : « دعا محمد (ص) ابن عمه علياً الى عبادة الله وحده لا شريك له ، والى دينه الذي بعث به نبيه .. فاستمهل علي ابن عمه محمداً حتى يشاور أباه ، ثم قضى ليله مضطرباً حتى إذا أصبح أعلن لرسول الله وخديجة انه يتبع دين محمد من غير حاجة الى رأي أبي طالب ، وقال علي : لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله ؟ » وبعد أن نطق هيكل بهذه الحقيقة أخذه عرق من تربيته وقال : « وكذلك كان علي أول صبي أسلم » .

ان علياً سبق أبا بكر الى الإسلام باتفاق الكل ، وسبقه أبو بكر الى الخلافة، فقال من آمن بالله ورسوله : كيف تقدم أبو بكر على أول القوم إسلاماً، وأقدمهم بالله إيماناً ، والله يقول : « والسابقون السابقون أولئك المقربون — ١١ الواقعة » وحار في الجواب من تنكر للحق وأهله ، وأخيراً أسعفته القريحة ، فلف ودار وتلاعب بالألفاظ وقال : أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الصبيان علي ، ومن الرجال أبو بكر .

(فأوبوا شر مآب ، وارجعوا على أثر الأعقاب ، أما انكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً الخ . قال ابن أبي الحديد : هذا الخطاب للخوارج ، وهذا الدعاء عليهم ، وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم قد وقع ، فان الله تعالى سلط عليهم الذل الشامل ، والسيف القاطع،والأثرة من السلطان ، وما زالت حالهم تضمحل .

وتكلمنا عن سياسة الإمام (ع) مع الخوارج في شرح الخطبة ٤٠ فقرة : « موقف الإمام من الخوارج » .

الخطبة

-٥٩-

حول الخوارج :

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ . وَاللهِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ .

المعنى :

الضمير في مصارعهم يعود الى الخوارج ، والمراد بالنطفة النهر . وجاء في كتاب « علي وبنوه » لطه حسين ص ١٠٤ : «وصلت الأنباء الى علي بأن الخوارج نشروا الفساد في الأرض ، وقتلوا عبدالله بن خباب بن الأرت ، وهو من خيار الصحابة ، وقتلوا نسوة كنّ معه ، وجعلوا يستعرضون الناس ، ويذيعون الذعر، فأرسل اليهم علي رجلاً من أصحابه يسألهم الكف عن الفساد،وقتل النفس المحرمة، فقتلوا الرسول ، فسار علي اليهم ، وطلب قتلة عبدالله بن خباب ومن كان معه ، فقالوا : كلنا قاتليه » .

وجاء في « مروج الذهب » للمسعودي : ان الإمام (ع) وقف بنفسه على الخوارج وقال لهم : ارجعوا وتوبوا ، فأبوا ورموا أصحابه . فقيل له : قد رمونا ، قال : كفوا عنهم . فكرروا ، وهو يأمرهم بالكف حتى أتوه برجل

قتيل ، فقال : الله أكبر، الآن حل قتالهم ، احملوا (والله لا يفلت منهم عشرة، ولا يهلك منكم عشرة) . قال الشيخ محمد عبده : ما نجا من الخوارج إلا تسعة، تفرقوا في البلاد ، وما قتل من أصحاب أمير المؤمنين إلا ثمانية .

وكل ما أخبر به الإمام (ع) من الغيب فهو عن رسول الله (ص) عن جبريل عن الله ، والى هذا أشار الإمام بقوله : « ليس بعلم غيب ، وإنما هو تعلُّمٌ من ذي علم ، علمه الله نبيه فعلّمنيه » .

الخطبة

- ٦٠ -

طلب الباطل فأدركه :

كَلاَّ وَاللهِ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ . كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرهُمْ لُصُوصاً سَلاَّبِينَ . لاَ تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ .

اللغة :

الأصلاب : جمع صلب – بضم الصاد – وهو عظم في الظهر ذو فقار . والمراد بقرارات النساء أرحامهن . ونجم : طلع . والمراد بالقرن هنا الرئيس .

الإعراب :

كلا حرف ردع وزجر ، وكل اسم موضوع لاستغراق ما بعده ، وكمن طلب،الكاف بمعنى مثل خبر ليس .

المعنى :

قال قائل للإمام (ع) بعد وقعة النهروان : هلك الخوارج بأجمعهم يا أمير المؤمنين ، فقال له : (كلا،والله انهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء). أي ان مذهب الخوارج سوف يجد أتباعاً وأنصاراً ، وان النساء سوف يلدن الكثير من أمثالهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية — على حد تعبير الحديث الشريف — ومع هذا يصومون ويصلّون ويقرأون القرآن ، ولكن لا تتجاوز كلماته تراقيهم (كلما نجم منهم قرن قطع) . لا يخرج منهم ثائر إلا قتل أو هزم (حتى يكون آخرهم لصوصاً سلاّبين) . أي ينتهي الأمر بهم الى اللصوصية وقطع الطرقات .

(لا تقاتلوا الخوارج بعدي) من الذين لا يفسدون في الأرض ، وإلا وجب حكم الله فيهم ، وهو قوله تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض — ٣٣ المائدة » .

(فليس من طلب الحق) لوجه الحق لا لغاية شخصية (فأخطأه) لشبهة عرضت له ، وتمكنت من عقله (كمن طلب الباطل) وأقدم عليه مع علمه بأنه باطل، فإن المشتبه يُدرأ عنه الحد لقول الرسول الأعظم (ص) : الحدود تدرأ بالشبهات. أما هذا الذي طلب الباطل عامداً (فأدركه) ودافع عنه بالسيف ، وجيّش الجيوش لمحاربة الحق وأهله ، وابتدع في الدين ، وكذّب على سيد المرسلين .. أما هذا فلا عذر له ، كما فعل معاوية ، انه لم يكتف بإراقة الدماء ومحاربة امام الحق والعدل حتى سن سبه على المنابر ، فقد نقل ابن أبي الحديد عن الواقدي ان معاوية خطب في أهل الشام فقال : ان رسول الله قال لي : انك ستلي الخلافة من بعدي ، فاختر الأرض المقدسة ، فإن فيها الإبدال ، وقد اخترتكم ، فالعنوا أبا تراب . فلعنوه .. وأيضاً أغرى معاوية سمرة بن جندب بأربعمئة ألف درهم ، وروى مفترياً ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » . وان الله أنزل في ابن ملجم : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » .

قال طه حسين في كتاب « علي وبنوه » ص ١٣١ و ١٣٢ : « لو ردت الى المسلمين أمورهم ، وطلب اليهم أن يختاروا إماماً لما اختاروا معاوية بحال من الأحوال ، لأنهم بلوا سياسته وخبروا عماله فرأوا ان أمورهم تصير الى شر عظيم .. فهم يحكمون بالخوف لا بالرضى ، ويساسون بالرغب والرهب ، لا بما ينبغي أن يساس به المسلمون من كتاب الله وسنة نبيه ، وأموالهم العامة ليست لهم بل الى ملكهم وولاتهم يتصرفون فيها ما يشتهون ، لا على ما يقتضيه الحق والعدل والمعروف .. ودماؤهم ليست حراماً على الملك وعماله ، وإنما يستحل منها الملك والعمال ما حرم الله .. لا إقامة لحدود الدين ، ولكن تثبيتاً لسلطان الملك » .

الخطبة

- ٦١ -

الأجل حارس :

وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ اللهِ جُنَّـــةً حَصِينَةً ، فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي ٱنْفَرَجَتْ عَنِّي وَأَسْلَمَتْنِي ، فَحِينَئِذٍ لاَ يَطِيشُ السَّهْمُ وَلَا يَبْرَأُ ٱلْكَلْمُ .

اللغة :

الجنة – بضم الجيم – الوقاية . ويطيش السهم : يخطىء هدفه . والكلم – بفتح الكاف وسكون اللام – الجرح .

الإعراب :

علي متعلق بمحذوف خبراً مقدماً لإن ، وجنة اسمها ، ومن الله متعلق بمحذوف حالاً من جنة ، وحينئذ متعلق بـ « لا يطيش » .

المعنى :

قيل للإمام (ع) : نخشى عليك من الاغتيال ، فأجاب بهذه الكلمة ، وليس

من شك ان الكل الى الموت ، ولكن هذا تمتد به الحياة مئة عام أو تزيد،وذاك يوماً أو بعض يوم فما هو السر؟ هل هو قوة أو ضعف في الجسم ، أو هو حظ، أو قضاء وقدر ؟ . وهناك فلسفات أو تفلسفات كثيرة ، ولكن لا تركن النفس اليها ، لأن العقل والحس يشهدان ان صاحب الجسم السقيم قد تمتد به الحياة أكثر من السليم ، وان انساناً قد يموت بضربة ، ولا يموت آخر بعشر أمثالها .. وليس لنا في مثل هذه الحال إلا اللجوء الى خالق الموت والحياة ، وهو يقول جل من قائل : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ــ ٣٣ الأعراف » .

وفي معنى هذه الآية قول الإمام : (ان عليَّ من الله جُنة حصينة). وقوله: « كفى بالأجل حارساً » . ولكن الله سبحانه ما بيَّن سبب الأجـــل ، والناس يسندونه الى ما يرون من قتل أو مرض أو تردٍّ أو غـرق أو تقدمٍ ي السن ، واذا لم يروا شيئاً قالوا من الله مباشرة ان كانوا مؤمنين، وليس للعلم الحديث قول قاطع في الموت ، والذي لا شك فيه ان تقدم الطب قلّل كثيراً من عدد الوفيات، كما ان الفقر وسوء التغدية يزيد منها ، وأخيراً اكتشف الأطبــاء ان تلوث الهواء من تفجير القنابل الذرية ، ومن مـــداخن المصانع وما اليها يُسبب للناس الموت والاختناق .

كل ذلك تشمله آية « فإذا جاء أجلهم » بلا ريب ، ولكنه من صنع الانسان كما شاهدنا ، فأين الحارس ؟.

الجواب :

إن وجود الحارس يمنع من وجود السبب الموجب للموت ووصوله الى الحي ، ولا يمنع من تأثيره بعد وجوده ، كيف ووجود المسبب حتم وطبيعي عند وجود سببه التام ، فإذا تخلى الحارس عن الحي جاء السبب وأثر أثره،ومن مات بالقتل أو الجوع أو المرض أو التلوث انما مات بعد أن تركه الحارس وتخلى عنه . وفي الآية ١٤٥ من سورة آل عمران : « ومـا كان لنفس أن تموت إلا باذن الله » للحارس بأن يذهب وينصرف « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

الخطبة
- ٦٢ -

الدنيا فتنة :

أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا . وَلَا يُنْجَى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا . ٱبْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ . وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ . وَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي ٱلْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّى قَلَصَ ، وَزَائِداً حَتَّى نَقَصَ .

اللغة :

السابغ : الممتد ، ونعمة سابغة أي واسعة ، وقلص الظل أو الفيء: انقبض ، وقلص الغدير : ذهب ماؤه .

الإعراب :

فتنة مفعول مطلق لابتلي لأنها بمعنى الابتلاء ، أو مفعول لأجله أي ابتلي من أجل الاختبار ، وبين ظرف بمعنى وسط ، فإن أضفتها الى الزمـــان فهي ظرف

زمان مثل جاءني بين الطلوعين ، والمكان فهي ظرف مكان مثل جلست بين زيد وعمرو ، ويجوز تكرارها بين زيد وبين عمرو ، ويجب مع الضمير بيني وبينك ، وان قلت : « بين بين » فهي مركب مزجي مبني الجزءين على الفتح ، والأصل بين وبين مثل خمسة عشر أصلها خمسة وعشر ، ولما حذفت الواو جاء التركيب ، وقد تشبع الفتحة على آخرها فتصير ألفاً مثل بينا أو تزاد « ما » مثل بينما ، وقيل : الألف و « ما » عوض عن محذوف .

المعنى :

(ألا وان الدنيا دار لا يسلم منها إلا فيها) . قدمنا مرات ان بين الدنيا والآخرة ترابطاً وتشابكاً ، فما من نعيم أو جحيم في الآخرة إلا وهو جزاء على عمل من أعمال الدنيا ، فمن أحسن فيها فله غداً من الله الحسنى « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها » اللهم إلا اذا تاب وعمل صالحاً من قبل أن يأتي يوم لا تكليف فيه ولا فداء ، ومعنى هذا ان أسباب العذاب في الآخرة وأسباب النجاة فيها كلها قد تجمعت في الدنيا : ولا شيء منها في الآخرة على الاطلاق حيث لا تكليف ولا عمل ، أبداً لا شيء إلا الحساب والجزاء ، واذن فأنا وأنت وكل انسان لا نجاة له غداً إلا اذا ابتعد وسلم ، وهو في هذه الدنيا، من المظالم والمآثم.

(ولا ينجي بشيء كان لها) وحدها بحيث لا يرى الانسان فيها إلا نفسه وأولاده ، وإلا همومه ومشاكله ، وهو بذلك في شغل شاغل عن العالم كله (ابتلي الناس بها فتنة) . والفتنة هي الأموال والأولاد والجاه وما الى ذاك من متاع هذه الحياة ، وبالفتنة يتميز الطيب من الخبيث ، وتظهر الأفعال التي بها يستحق الانسان الثواب والعقاب .

(فما أخذ منها) ينظر فيه : فإن كان لسد الحاجة التي تستدعيها الحياة فهو لله وللانسان ، ما في ذلك ريب ، وان كان للتضاهر والتباهي ، وللاستعلاء والطغيان (أخرجوا منه) أي مما جمعوا وادخروا حيث يتركونه بالموت القاهر القابر (وحوسبوا عليه) . وبعد الحساب حريق وعذاب (وما أخذوه منها لغيرها) . أي تزودوا بالصالحات من العاجلة الى الآجلة ، ومن الفانية الى الباقية (قدموا عليه وأقاموا فيه) انجازاً لوعده تعالى وقوله: «وعد الله المؤمنين والمؤمنات

جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم – ٧٢ التوبة » .

(فإنها – أي الدنيا – عند ذوي العقول كفيء الظل) سريعة الزوال (بينا تراه سابغاً) ممتداً (حتى قلص) انقبض (وزائداً حتى نقص) عطف تفسير وبيان؛

والخلاصة ان الدنيا في نظر الاسلام والإمام دار ابتلاء وفتنة لأنها دار التكليف والعمل، واللهو والحيل، والطيّب العاقل ينصرف عن مفاتنها ومفاسدها الى الصالحات حيث تنتهي به الى النعيم الخالص ، والراحة المطلقة : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون – ٩٧ النحل » .. أبداً لا وسيلة الى الحياة الطيبة للذكور والاناث إلا العمل الصالح. ومن البداهة ان العمل الصالح لا يكون ولن يكون مع الدكتاتورية والضغط على الحرية ، ولا مع طغيان الرأسمالية وشركاتها الاحتكارية .

الخطبة

- ٦٣ -

الآجال والأعمال .. فقرة ١ — ٢ :

وَٱتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ . وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ . وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ . وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ . وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا . وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا[1] ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى . وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا ٱلْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ . وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ ٱلْمُدَّةِ . وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ : — اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ — لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ . وَإِنَّ قَادِماً يَقْدَمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ ٱلْعُدَّةِ[2] .

اللغة :

بادروا آجالكم : اجعلوها تسرع بالأعمال . وابتاعوا : اشتروا . وجُدَّ بكم: أسرع بكم . ويحدوه : يسوقه . وحري وجدير وخليق وأولى بمعنى واحد . والعدة — بكسر العين — الجماعة ، وبضمها الاستعداد .

الإعراب :

عباد الله أي يا عباد الله ، والمصدر من ان الدنيا ساد مسد مفعولي علموا ، وعبثاً مصدر في موضع الحال أي عابثاً ، ومثله سدى أي مهملين ، وبين أحدكم خبر مقدم والموت مبتدأ مؤخر ، والمصدر من أن ينزل بـــدل اشتمال من الموت لأن المعنى نزول الموت فيكون مثـــل:أعجبني زيد ثوبه ، والأصل أعجبني ثوب زيد،والليل والنهار بدل مفصل من مجمل ، والمبدل منه الجديدان .

المعنى :

(وبادروا آجالكم بأعمالكم).لا تدعوا أعماركم تذهب سدى ، وفي غير الأعمال الصالحات (وابتاعوا ما يبقى لكم بمـــا يزول عنكم) اشتروا النعيم الدائم باللذيذ الزائل (وترحلوا فقد جُد بكم) . أنتم تساقون في سفر لا رجعة بعـــده ، ولا بد للمسافر من الزاد (واستعدوا للموت فقد أظلكم) . ليس الموت بعيداً عنكم.. انه مخيم على رؤوسكم ينذر ويحذر ، فلماذا تتشاغلون عنه ، ولا تعدون له عدتـــه (وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا) . صاح بكم الموت للرحيل ، فاستيقظوا من سباتكم (وعلموا ان الدار ليست لهم بدار) . أي وكونوا من الذين علموا ان الدنيا ليست لهم بدار سعادة واقامة ، بل دار فنـــاء وبلاء (فاستبدلوا) . أي كونوا من الذين استبدلوا الثمين بالرخيص ، والباقي بالفاني أي اشتروا ذاك بهذا.

(فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً) . وفيه إيماء الى ان الدنيـــا لو كانت هي الغاية من خلق الانسان لكان خلقه عبثاً لا معنى له ، لأن وجوده أمداً قصيراً في هذه الحياة لا يستدعي كل ما أودع الله فيه من أسرار وطاقات ، وإذن فلا بد أن يكون القصـــد من خلق الانسان ووجوده في الدنيا أن يهيىء نفسه لحياة أسمى

وأبقى ، ومن أقوال الإمام (ع) : الدنيا خُلقت لغيرها ، ولم تخلق لنفسها (ولم يتركَكم سدى) بلا تكليف ونذير وبشير (وما بين أحدكم وبين الجنـة أو النار إلا الموت أن ينزل به) لا محالة مهما طال عمره ، وبلغ نصيبه من الصحة والجاه والثراء ، وليس بعد الموت إلا الحساب ، والجزاء بالنعيم على عمل الخير ، أو الجحيم على فعل الشر .

(وان غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المـدة) . المراد بالغاية هنا العمر ، وبالساعة الموت ، لأن الساعة من أسماء القيامة ، ومن مات فقد قامت قيامته ، والمعنى ان عمر الانسان أشبه بالحلم والخيال ينقص ويقصر مع الثواني واللحظات ، وما فات منه لا ترجى رجعته ، ثم يزول بالمرة ، ويهدم من الأساس بالموت ، وإذا كان العمر على هذه الحال فهو قصير الأمـد مهما طال ، والعاقل يبادر الفرصة قبل فواتها (وان غائباً يحدوه الجديدان : الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة) . المراد بالغائب هنا الموت ، وبالأوبة مجرد الإقدام والإقبال ، وليس المراد بها الرجوع الذي سبقه الحضور ، كي يقـال : ان الموت لم يكن حاضراً من قبل كي يؤوب ويرجع ، ومهما يكن فإن المعنى : ان الموت غائب عن الحي ، ولكنه قادم عليه بسرعة الليل والنهار اللذين لا يقفان لحظة فما دونها ، ومن أقوال الإمام : « فإن غداً من اليوم قريب ، ما أسرع الساعات في اليوم ، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنين » .

(وان قادمـاً يقدم بالفوز أو الشقـوة لمستحق لأفضل العـدة) . المـراد بالقادم هنا الموت ، وبالفوز النعيم ، وبالشقوة الجحيم، وبالعدة الاستعداد بالخيرات والأعمال الصالحات ، والمعنى ان الموت قادم لا محالة ، وبسرعة ، ولا شيء بعده إلا الهناء أو الشقاء ، فأعدوا له عدته منذ الآن لأنـه لا يمهلكم — اذا جاء — لحظة ، ولا يدعكم تنطقون بحرف ، أو تتنفسون بنفس .

عمر الانسان حجة عليه .. فقرة ٣ — ٤ :

فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ . نَصَحَ نَفْسَهُ . قَدَّمَ تَوْبَتَهُ ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ

عَنْهُ ، وأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ يُزَيِّنُ لَهُ المَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا(٣) حَتَّى تَنْجُمَ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا ، فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلى ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً ، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى شِقْوَةٍ . نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ ، وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ المَوْتِ نَدَامَةٌ وَلَا كَآبَةٌ(٤) .

اللغة :

يمنيه : يعده وعداً كاذباً بتحقق أمنيته . ليسوّفها : ليؤخرها . وتبطره : طغيه فيتجاوز الحد .

الإعراب :

أغفل ما يكون حال من الضمير في « عليه » ، وفيا لها « يا » حرف نداء والمنادى محذوف ، واللام للتعجب ، وحسرة تمييز ، وهي بيان وتفسير للهاء في « لها » مثل : يا لك من عالم ، فالخطاب هنا للعالم ، والمصدر من أن يكون عمره بدل اشتمال من ذي غفلة ، ويجوز أن يكون منصوباً بنزع الخافض ، والمصدر من أن يجعلنا مفعول نسأل الله ، والغاية فاعل تقصر .

المعنى :

(فتزوّدوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً) . صونوا أنفسكم من عذاب الآخرة بتقوى الله في الدنيا ، وتقدم بالحرف مع الشرح في الخطبة ٢٩ (فاتقى عبد ربه ، نصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته) . بعد أن أمر بالتزوّد الى المعاد فسّر الزاد بالتقوى ، وفسر التقوى بلجم النفس عن الشهوات،

والنصح لها بالمحاسبة والمراقبة ، والتوبة قبل الموت (فإن أجله مستور عنه) . ضمير أجله يعود الى العبد ، والمعنى ان العبد إذا كان لا يدري متى وأين يموت فجدير به أن يكون دائم الاستعداد للموت وملاقاته (وأمله خادع له) . الأمل مع الجد والاجتهاد عقل ودين ، ومع الإهمال والكسل سفه وتسويف .

(والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوّفها) . كل شيء يزين القبح للإنسان ، ويغريه به فهو شيطان إنساناً كان ، أم مالاً ، أم وسوسة (اذا هجمت منيته عليه أغفل ما يكون عنها) . بينا هو يتمادى في المعصية والآثام ، ويؤخر التوبة آناً فآناً ، وإذا بالمنية تغتاله بغتة ، وتختطفه من حيث لا يشعر .

(فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وأن تؤديه أيامه الى الشقوة) . يتحسر الإمام (ع) ويأسف لكل غافل وذاهل أن يكون عمره الذي منّ الله به عليه ، ليغتنم الفرصة ، ويستبق الخيرات .. يتوجع الإمام لهذا المسكين : كيف ضيع الفرصة ، وحوّل النعمة الى نقمة وحجة عليه !.. ان حال هذا المهمل المسوّف تماماً كحال من ملك ثروة كبرى فبددها وأتلفها فيما يضره ويذله ، وهوى في النهاية الى الحضيض (نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره النعمة) . فتدفع به الى الغرور ، وتميل به عن الحدود (ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية) . فإن النعمة تستأدي شكر المنعم وطاعته ، لا تجاهله ومعصيته .

الخطبة

- ٦٤ -

الكمال المطلق .. فقرة ١ – ٢ :

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً ، فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً ، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً . كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرُهُ ذَلِيلٌ ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرُهُ ضَعِيفٌ ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرُهُ مَمْلُوكٌ ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرُهُ مُتَعَلِّمٌ ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرُهُ يَقْدِرُ وَيَعْجِزُ ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا ، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرُهُ بَاطِنٌ ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرُهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ[1] . لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ ، وَلَا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ ، وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ عَلَى نِدٍّ مُثَاوِرٍ ، وَلَا شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ وَلَا ضِدٍّ مُنَافِرٍ . وَلٰكِنْ خَلَائِقُ مَرْبُوبُونَ ، وَعِبَادٌ

دَاخِرُونَ . لَمْ يَحْلُلْ فِي ٱلْأَشْيَاءِ فَيُقَالُ هُوَ فِيهَا كَائِنٌ . وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَالُ هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ . لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ٱبْتَدَأَ وَلَا تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ ، وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ ، وَلَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَىٰ وَقَدَّرَ . بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ . ٱلْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ وَٱلْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ (٢) .

اللغة :

المراد هنا بلطيف الأصوات ما لا يُسمع ، وبلطيف الأجسام ما لا يرى . والند : النظير . والمثاور : المحارب . والمكاثر : مَن يفاخر بالكثرة . والمنافر : يفاخر غيره ويقول : أنا أعزُّ منك نفراً . وداخرون : صاغرون . قال تعالى : « سجداً لله وهم داخرون – ٤٨ النحل » . ولم ينأ : لم يبعد . ولم يؤده : لم يُثقله ويجهده . وذرأ : خلق . وولجت : دخلت .

الإعراب :

وكل عزيز غيرُهُ يجوز رفع «غير» صفة لكل، ويجوز جرّها صفة لعزيز، ونصبها على الاستثناء ، لأنها في مثل هذه الحال تعرب إعراب المستثنى . وخلائق خبر لمبتدأ محذوف أي هم خلائق ، فيقال قرىء بالرفع على الأصل في الفعل المضارع ، وبالنصب على اضمار « ان » بعد فاء السببية مع تقدم النفي ، وقضاء خبر لمبتدأ محذوف أي ذلك قضاء ، والمأمول أي هو المأمول ، وهو المرهوب .

المعنى :

(الحمد لله الذي لم تسبق له حال حالاً) . تقدم الكلام عن صفاته تعالى في شرح الخطبة الأولى ، ومن أجل هذا نوجز هنا بقدر الإمكان .. ان الله سبحانه

ليس من جنس المعاني العقلية المجردة كالشرف والكرامة ، لأن هذه لا تستقل بذاتها في الوجود ، ولا هو ، تعالى ذكره ، من جنس الماديات لأنها تنفعل بالغير ، وتفتقر الى زمان ومكان .. انه ، جل وعز ، قوة عالمة مريدة ، وقادرة ، وضرورية الوجود ذاتاً وأصالة ، ومن أجل هذا هي هي لا تبديل ولا تعديل .

(لم تسبق له حال حالاً) . لأن السبق يستدعي الحدوث،والله قديم ذاتاً وصفات (فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً) . الله أول بمعنى انه كان ولم يكن معه شيء ، وانه المبدأ لوجود كل شيء ، وهو ليس بأول على معنى ان لوجوده ابتداء ، وإلا يكون حادثاً . والله آخر بمعنى انه يبقى بعد فناء كل شيء ، واليه ينتهي كل شيء ، وهو ليس بآخر على معنى ان لوجوده نهاية ، كيف والغرض انه ضروري الوجود ؟. واذن يصح لنا أن نقول : هو سبحانه الأول والآخر الآن ومن قبل ومن بعد .

(ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً) . بل هو ظاهر وباطن في آن واحد، هو ظاهر بآياته الدالة على وجوده وعظمته ، وهو باطن لأن العقول تقصر عن إدراك كنهه وحقيقته،وأيضاً لأنه يعلم ما خفي وبطن (كل مسمى بالوحدة غيره قليل) . لأن الوحدة لغير الله ضعف وقلة ، أما هو سبحانه فقد توحد وتفرد بالقدرة والعزة والبقاء (وكل عزيز غيره ذليل) . لأن عزته تعالى ذاتية، والعزة في غيره مستمدة منه ، ويسلبه إياها متى شاء ، ومن هنا شاع وذاع : من اعتز بغير الله ذل .

(وكل قوي غيره ضعيف) . لنفس السبب السابق أي ان قوته تعالى ذاتية، وقوة غيره مستمدة منه ، وأيضاً شاع وذاع : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (وكل مالك غيره مملوك) . لله ، هو وحده يؤتي الملك من يشاء،وينزعه ممن يشاء . ومن أقوال الإمام : لا نملك إلا ما ملكنا (وكل عالم غيره متعلم) . لأن علمه تعالى عين ذاته (وكل قادر غيره يقدر ويعجز) . أما هو فلا يعجزه شيء ، قاهر غير مقهور (وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ، ويصمه كبيرها ، ويذهب عنه ما بعد منها). الأُذن تضعف عن سمع الهمسات والوشوشات، وتُصم من عالي الأصوات ، ولا يصل اليها البعيد عنها ، أما هو سبحانه فلا يسمع بجارحة وأداة ، بل يعلم كل شيء مباشرة وبلا واسطة حتى وسوسات الصدر، وخفقات القلب .

(وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأجسام) . استطاع الانسان أن يخترع آلة ، أسماها المجهر ، وقد أتاحت له أن يرى أجساماً أدق ألوف الأضعاف مما تستطيع العين المجردة أن تراه ، ومع ذلك هناك أجسام لا تُرى بالمجهر — كما نظن — لأن أصحاب المجهر قالوا : ان أصغر كتلة من المادة الحية تتألف من ألوف الملايين من الذرات ، ومعنى هذا انه لو انفصلت هذه الذرات وتفرقت لعجز المجهر عن رؤية الذرة الواحدة .. وعلى أية حال فإن القصد أن نعلم بأن الله وسع كل شيء علماً ، أما نحن فما أوتينا من العلم إلا قليلاً .

(وكل ظاهر غيره غير باطن) . هذه الجملة جاءت في بعض النسخ بلفظ « غير باطن » كما رسمناها هنا ، وفي بعضها بدون كلمة « غير » أي هكذا « وكل ظاهر غيره باطن » والصحيح الجملة الأولى — كما نرجح — والمعنى ان كل كائن غيره تعالى يمكن أن ندرك ذاته ، ونتصورها بوجه من الوجوه سواء أكان جسماً ، كالحجر والشجر ، أم غير جسم كالعقل والعلم ، أما الجسم فنتصور ذاته أو جهة منها — بالحس والعيان ، وغير الجسم نتصور ذاته أو جهة منها — بآثاره وأعماله ، لأنها انعكاس عن ذاته، تحكيها وتعبر عنها، أو عن نوعها بنحو من الأنحاء ، فالكتاب — مثلاً — يحكي عن مبلغ علم المؤلف ونوعه لأن بين الكتابة والكاتب تشابكاً وترابطاً ، بل قيل : ان أسلوب الانسان هو الانسان بالذات ، وكذلك البناء والباني وأمثاله .. ولا يصدق هذا بوجه في حقه تعالى ، لأن خلقه وآثاره ليست انعكاساً عن ذاته ولا عن مبلغ علمه وقدرته بوجه من الوجوه، حيث لا شبه هنا بين الأثر والمؤثر مهما عظم الأثر .. انه فيض ورشحة محدودة من مطلق لا حد له .. وللتقريب لا للتشبيه نشير الى ان خلقه تعالى وآثاره كعرق جسم الإنسان ، فكما أن العرق لا يعبر عن حقيقة الانسان كذلك خلقُ الكون بما فيه بالنسبة الى خالقه بكلمة «كن» .. مع العلم بأن آثاره سبحانه تنطق بعلمه وقدرته وحكمته وارادته .. وعليه يصح القول : ان كل ظاهر من الكائنات فهو غير باطن ذاتاً وأصالة أي ان العقل يمكن أن يتصور ذاته ولو إجمالاً ، أما تصور ذات الواجب فمستحيل تفصيلاً وإجمالاً .

(وكل باطن غيره غير ظاهر) في وجوده كظهور الله سبحانه ، فالعقل — مثلاً — موجود وباطن ، والله سبحانه موجود وباطن ، والعقل يعرف بآثاره، والله تعالى ذكره يُعرف بخلقه وآثاره ، ولكن وجود العقل غير ظاهر وواضح

كظهوره ووضوح وجوده سبحانه ، لأن آثار العقل تظهر في بعض الأشياء ، أما العلي الأعلى « ففي كل شيء له آية تدل على انه واحد » . (لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطانه) . لأن سلطانه تعالى شديد وقوي بالذات ، والخلق والتشديد أثر من آثار السلطان ، وليس السلطان من آثار التشديد كما هو الشأن بالنسبة الى غيره (ولا تخوف من عواقب زمان) . لأن ذات الواجب يستحيل في حقهـا التغيير والتعديل ، واذن فمن أي شيء تخاف ؟. بل لا أمان للانسان إلا مع الخوف من الله اصل الأمان والسلام .

(ولا استعانة على ند مثاور ، ولا شريك مكاثر ، ولا ضد منافر) . ما خلق الله سبحانه شيئاً كخط دفاع عن ملكه وسلطانه ، ولا للتفاخـر والتكاثر ، ولا لأية مصلحة تعود عليه ، لأنه تعالى في غنى عن كل شيء ، وإليه يفتقر كل شيء .. ان كل ما في الوجود يسير على خطة مرسومة ، والى غاية معينة ، لأن هذا النظام المتناسق المحكم ، وهذه القوانين الثابتة التي تحكم كل شيء من أكبر الى أصغر جزء ، وتربط كل الموجودات برابط دقيق ومتين – هذه القوانين وهـذا النظام يستحيل أن يحدث من غير قصد ، ولا بد لكل قصد أن يهدف الى غاية تعود الى من يحتاج اليها ، وينتفع بها ، والله غني عن العالمين .

(ولكن خلائق مربوبون ، وعباد داخرون) . العـالم كله في قبضته تعالى خاضع لأمره ومسبّح بحمده (لم يحلل في الأشياء فيقـال: هو كائن) . الحلول وجود شيء في شيء ، وهذا مستحيل في حقه تعالى ، لأنه فوق الزمان والمكان، وقال ابن أبي الحديد : مـراد الإمام بالحلول انه تعالى لم ينأ عن الأشياء نأيـاً مكانياً .. وليس هذا ببعيد ، بل يدل عليه قول الإمـام بلا فاصل : (ولم ينأ عنها فيقال : هو منها بائن) . وعلى أية حال فإن الغرض الأول والأخير هو أن نؤمن ونوقن بأن الله معنا في السر والعلانية : « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير – ٤ الحديد » .

(لم يؤده خلق ما ابتدأ ، ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق). أنشأ وحكم ، وقدّر ودبر ، وأمات وأحيا ، لا قسراً وقهراً ، ولا لغايـة تعود عليه ، وبلا تعب وكلل ، لأنه « اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون – ٤٧ آل عمران » (ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقـدر) من أين تعرض

الشبهات لمن هو عالم بالذات ؟. ان الالتباس يأتي من الأقيسة ومقدماتها ، والأدلة وكلياتها ، وهو سبحانه المصدر الأول لكل دليل وحجة (بل قضاء متقـن) لا خلل فيه (وعلم محكم) لا شك يعتريه (وأمر مبرم) لا ناقض له (المأمول مع النقم) لأن رحمته وسعت كل شيء (المرهوب مع النعم) لأن بأسه قـد يأتي بغتة وبياتاً . قال الإمام : « لا يشغله غضب عن رحمة ، ولا توله – أي تذهله – رحمة عن عقاب » . فما لرحمته وغضبه ، ولا لشيء من صفاته حـد وشرط .. وهذا هو شأن الكمال المطلق .

الخطبة

-٦٥-

عضّوا على النواجذ :

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ وَتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ . وَعَضُّوا عَلى النَّوَاجِذِ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ وَأَكْمِلُوا اللَّامَةَ وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا ، وَالْحَظُوا الْخَزَرَ وَاطْعُنُوا الشَّزْرَ وَنَافِحُوا بِالظُّبَا وَصِلُوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا . وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . فَعَاوِدُوا الْكَرَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ ، فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ . وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً ، وَامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْياً سُجُحاً . وَعَلَيْكُمْ بِهٰذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ ، وَالرِّوَاقِ الْمُطَنَّبِ ، فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ . قَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً فَصَمْداً صَمْداً ، حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ ، وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ .

اللغة :

استشعروا : اتخذوها شعاراً بكسر الشين ، والشعار : العلامة في الحرب ، واللباس على شعر الجسد بلا فاصل . والمراد بالخشية هنا الخوف منه تعالى . وتجلببوا : البسوا الجلباب ، وهو القميص . والسكينة : الطمأنينة . والنواجذ : أقصى الأضراس أي آخرها ، وفي بعض القواميس انها أربعة ، وتنبت بعد الحلم. والهام : جمع هامة ، وهي رأس كل شيء ، وتطلق على الجثة . واللأمة : الدرع ، وتطلق على آلات الحرب . وقلقلوا : حركوا . والحظو الخزر : أي بغضب . واطعنوا الشزر : أي لا في مكان واحد ، بل هنا وهناك . ونافحوا : كافحوا . والظبا : جمع ظبة ، وهي حد السيف . واستحى أو استحيا منه : خجل منه . والفر : الفرار . وسُجُحاً : سهلاً . والمراد بالرواق خيمة معاوية. والمطنب : المشدود بالطنب . وثبجه : وسطه . والكِسْر: جانب البيت. والنكوص: الرجوع . ولن يترِكم : لن ينقصكم .

الإعراب :

معاشر المسلمين أي يا معاشر المسلمين ، والخزر صفة لمفعول مطلق محذوف أي اللحظ الخزر ، ومثله الشزر ، ونفساً تمييز ، وصمداً نصب على المصدرية أي اصمدوا صمداً ، وأنتم الأعلون الواو للحال .

المعنى :

(استشعروا الخشية) . اجعلوا الخوف من الله شعاراً لكم ، لأن هذا الخوف أساس الاتقان والاخلاص في العمل ، والدليل على ذلك انك لو أسندت عملاً خاصاً لمن لا يخاف الله ، ثم أسندت هذا العمل بالذات لمن يخاف منه تعالى لوجدت الفرق بينهما كبيراً وبعيداً (وتجلببوا السكينة) تحلّوا بالوقار ، وهدوء الأعصاب ، ولا تهتموا بالقيل والقال والدعايات الكاذبة (وعضّوا على النواجذ فإنه أنبى للسيوف عن الهام) . اذا عض الانسان على أضراسه تصلبت أعصابه وصارت أشد وأقوى على تحمّل الطعن والضرب (وأكملوا اللامة) أي الدرع

وآلات الحرب (وقلقلوا السيوف في أغمادها) حرّكوها (قبل سلها) كيلا تستعصي عن الخروج (والحظوا الخزر ، واطعنوا الشزر) . أنظروا عند الحرب بغضب ونوّعوا الضربات (ونافحوا بالظبا) اضربوا أعداءكم بالسيوف (وصلوا السيوف بالخطا) اذا قصرت السيوف عن الوصول الى الأعداء فصلوها بخطاكم أي تقدموا نحوهم ولا تهابوهم .

وكانت هذه التنبيهات ضرورية آنذاك حيث كانت الحرب بالطعن والضرب تماماً كالملاكمة والمصارعة ، أما اليوم فالقوة للعلم وأدواته لا للجسم وعضلاته .

(واعلموا انكم بعين الله ، ومع ابن عم رسول الله (ص)) . أنتم على حق في هذه الحرب تماماً كما لو كنتم مع رسول الله (ص) والله سبحانه يشملكم بعونه وعنايته اذا أخلصتم التوكل عليه (فعاودوا الكر) . كرروا هجماتكم على العدو (واستحيوا من الفر) . لأن الشجاع لا ينهزم ولا يستسلم ، ويصبر على الشدائد (فإنه عار في الأعقاب) . أي ان الناس يعيّرون الأبناء بفرار الآباء (ونار يوم الحساب) بالاضافة الى عذاب الحريق بعد الموت ، وقد أجمع الفقهاء على ان الفرار من الزحف من أكبر الكبائر بخاصة اذا كان بأمر المعصوم وقيادته (وطيبوا عن أنفسكم نفساً) . ابذلوا أنفسكم في سبيل الله عن طيب نفس (وامشوا الى الموت مشياً سُجُحاً) أي سهلاً ، والمعنى أقبلوا على الموت راغبين لا كارهين (وعليكم بهذا السواد الأعظم) . وهو عسكر معاوية (والرواق المطنب) أي خيمة معاوية التي شُدت بالأطناب (فاضربوا ثبجه) أي وسطه (فإن الشيطان) وهو معاوية (كامن في كسره) أي في جانبه .

(وقد قدم للوثبة يداً ، وأخر للنكوص رجلاً) . أي ان معاوية ان رأى في جيش الإمام ضعفاً وجبناً وثب وأقدم، وان رأى فيه شجاعة وجلَداً نكص وانهزم (فصمداً صمداً) اثبتوا واصبروا (حتى ينجلي لكم عمود الحق) . أي أنتم تحاربون من أجل فكرة تؤمنون بها وتقدمون التضحيات من أجلها، فاصبروا واستمروا في الجهاد حتى تتحقق هذه الفكرة وتبرز الى الوجود (وأنتم الأعلون والله معكم) ان صبرتم في الجهاد ، ورفضتم الاستسلام ، ولم تخدعكم الحيل والأكاذيب (ولن يتركم أعمالكم) . لا ينقصكم الله شيئاً من الجزاء والثواب .

الخطبة*

-٦٦-

بين المهاجرين والأنصار :

قبل أن تبرد جثة النبي (ص) اختلف رؤوس المهاجرين والأنصار على الحكم والسلطان من بعده ، ثم قال الأنصار للمهاجرين : منا أمير ، ومنكم أمير .. وكان الإمام أمير المؤمنين (ع) وبعض أهله وصحبه الى جوار النبي (ص) يبكونه ويعدون العدة لدفنه ، وحين أبلغ الإمام بخبر السقيفة ، وبقول الأنصار: منا أمير ومنكم أمير ، قال : (فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله (ص) وصى بأن يحسَّن الى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ؟) .

قالوا : وما في هذا من الحجة ؟. قال : (لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم) بل اليهم ، لأن الإمام يُوصى اليه بالغير ، ولا يوصى به الى الغير. ثم قال الإمام : فماذا قالت قريش ؟ قالوا : احتجت بأنها شجرة رسول الله (ص) . قال : (احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة) . وهي أهل البيت (ع) وفي معناه قول العباس لأبي بكر : أما قولك نحن شجرة الرسول (ص) فإنكم جيرانها ، ونحن أغصانها .

---

* في شرح الخطبة ١٢ بينا السبب الموجب لاطلاق اسم الخطبة على مثل هذا الكلام مع انه ليس من الخطبة في شيء .

وتجدر الاشارة الى ان مراد الإمام (ع) من قوله هذا مجرد الرد على قريش، وإبطال قولهم بأنهم أولى بالنبي لقربهم منه نسباً وعشيرة .. ومن أقوال الإمام : واعجباه ! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة ؟.. ان ولي محمد (ص) من أطاع الله وان بعدت لحمته ، وان عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته .

ومن تتبع المناقشات التي دارت في السقيفة حول الخلافة يرى انه لا مصدر للاختلاف بين المهاجرين والأنصار إلا المصلحة الشخصية وإلا الدنيا وزهرتها ، فالمهاجر كان يحتج ويزهو بقرابة النبي (ص) والأنصاري كان يحتج ويزهو بأنه آوى النبي (ص) .. أما مصلحة الاسلام والمسلمين فما أشار اليها واحد من الجانبين .. ومن أجل هذا عارض خلافة الخلفاء الذين لا يستطيعون العيش بحرية وكرامة إلا في ظل العدل والمساواة ، والقرآن الكريم يطلق على هؤلاء كلمة المستضعفين ، وقد أمر بقتال الأقوياء الطغاة من أجل تحريرهم من الظلم والبغي في الآية ٧٥ من سورة النساء : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » . وكان هؤلاء المستضعفون من الرواد الأوائل للاسلام ومن أقوى وأصلب جنوده ، وتحملوا في سبيله الكثير من العذاب والتنكيل كعمّار وسلمان وأبي ذر وغيرهم من العبيد والمستضعفين ، وتطلق اليوم كلمة اليسار على من يمثل آمالهم ويطالب بالمساواة بينهم وبين الأقوياء .

وقال الأستاذ أحمد عباس صالح في مجلة « الكاتب » المصرية عدد كانون الثاني سنة ١٩٦٥ : « ان اليمين كله قد رحب بخلافة أبي بكر .. وترحيب اليمين بهذه الخلافة والاسراع بتأييدها ليس له إلا معنى واحد ، وهو ان غالبية المسلمين كانوا مع الاتجاه اليساري الذي يمثله علي بن أبي طالب وأصحابه ، أعني ان جماهير المسلمين العريضة كانت مع هذا الاتجاه ، لأن النبي (ص) نفسه كان زعيمه وواضع مبادئه الأساسية ، وأي اتجاه مضاد كان سيقابل بالعنف ، وكان سيقضى عليه في المهد ، ولذلك جاءت خلافة أبي بكر فرصة ليستجمع اليمين فيها قواه، ويرتب أمره للوثوب على الحكم بعد ان قضى النبي الذي لم يجرؤ أحد في حياته أن ينحرف بالدعوة الى اتجاه غير اتجاهها . لهذا وافق اليمين على البيعة لأبي بكر ، بل رحب بها وعمل على نجاحها بينما عارضها اليسار ، وعلى رأسه علي بن أبي طالب ، معارضة صريحة » .

وقال الأستاذ أحمد صالح في عـدد آذار من السنـة المذكورة : « ان بعض المسلمين الكبار الذين كانت أوضاعهم الاجتماعية قبل الاسلام وبعده أوضاعاً ممتازة من حيث الثروة والمكانة — لم يستطيعوا التخلص تماماً من تأثير أوضاعهم عليهم.. فكان هواهم مع أحزاب اليمين ، وكان اليمين يستغل شهرتهم أحسن استغلال في شدهم اليه ، وضمهم الى صفوفه » .

الخطبة

-٦٧-

مصر ومحمد بن أبي بكر :

وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَا خَلَّى لَهُمُ ٱلْعَرْصَةَ ، وَلَا أَنْهَزَهُمُ ٱلْفُرْصَةَ . بِلَا ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً وَكَانَ لِي رَبِيباً .

اللغة :

العرصة — بفتح العين وسكون الراء — ساحة الدار ، أو كل بقعة ليس فيها بناء ، والمراد بها هنا ساحة الحرب . ولا أنهزهم : ولا أمكنهم . والربيب : ابن زوجة الرجل من غيره .

الإعراب :

اياها مفعول ثانٍ لولّيته ، وبلا ذمٍ متعلق بمحذوف أي أقول هذا بلا ذم .

المعنى :

(وقد أردت تولية مصر هاشم بن عتبة) الملقب بالمرقال ، لأنه كان يرقل

في الحرب أي يسرع فيها ، وكان صاحب راية الإمام (ع) في صفين ، ومن أفاضل أصحابه ، واستشهد في نفس اليوم الذي استشهد فيه عمار بن ياسر ، وقال الإمام هذا حين بلغه مقتل محمد بن أبي بكر (ولو وليته اياها لما خلّى لهم العرصة) وفرّ كما فرّ ابن ابي بكر ، ولصبر صبر الأحرار ، وقاتل قتال الأبطال .

(بلا ذم لمحمد بن أبي بكر ، ولقد كان إلي حبيباً ، وكان لي ربيباً) : أم محمد بن أبي بكر هي أسماء بنت عميس ، كانت تحت جعفر بن أبي طالب أخي الإمام ، وهاجرت معه الى الحبشة ، وولدت له هناك عبدالله بن جعفر ، ولما قتل عنها في مؤتة تزوجها أبو بكر ، وولدت له محمداً ، ولما مات عنها تزوجها الإمام ، فكان ربيبه وخريجه ، رضع التشيّع منذ الصبا ، وكان الإمام يقول : محمد ابني من صلب أبي بكر ، كما في شرح ابن أبي الحديد .

وقال المسعودي في « مروج الذهب » : في سنة ٣٨ وجه معاوية عمرو بن العاص في أربعة آلاف الى مصر ، واقتتل مع محمد بن أبي بكر ، وكان عامل عليّ عليها ، فانهزم محمد لإسلام أصحابه اياه وتركهم له ، واختفى في دار بمصر ، فأحاط ابن العاص وجيشه بالدار ، فخرج محمد اليهم ، وقاتلهم حتى قتل ، فجعلوه في جلد حمار ، وأضرموه بالنار ، وقيل : انهم فعلوا ذلك وبه شيء من الحياة . وبلغ معاوية قتل محمد ، فأظهر الفرح والسرور ، وقال الإمام (ع) : جزعنا عليه على قدر سرورهم .

الخطبة

-٦٨-

لا أفسد نفسي بصلاحكم :

كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى ٱلْبِكَارُ ٱلْعَمِدَةُ . وَالثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ . أَكُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ وَٱنْجَحَرَ ٱنْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا . الذَّلِيلُ وَاللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ . وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ . وَإِنَّكُمْ وَاللهِ لَكَثِيرٌ فِي ٱلْبَاحَاتِ ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَاتِ . وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ ، وَلٰكِنِّي لاَ أَرَى إِصْلَاحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي . أَضْرَعَ اللهُ خُدُودَكُمْ ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ ، لاَ تَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُمُ ٱلْبَاطِلَ ، وَلَا تُبْطِلُونَ ٱلْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الْحَقَّ .

اللغة :

البكار : جمع بكر ، ضرب من الإبل . والعمدة – بكسر الميم – الناقة مكسورة السنام ، وظاهره سليم . وحيصت : خيطت . وتهتكت : تخرقت . واطلّ : أشرف . والمنسر : القطعة من الجيش . وانجحر : دخل الجحر، وهو كل مكان تحتفره الهوام والسباع لأنفسها . والضبّة : أنثى الضب ، وذنَبه كثير العقد ، وتقول العرب: أعقُّ من ضب ، وأجبن من ضب ، وأخدع من ضب . والضبع : ضرب من السباع معروف . والوجار : الجحر . والأفوق من السهام: ما كسر فوقه . والناصل : العاري من النصل أي حديدة السهم . والباحات : الساحات . وأوَدكم : اعوجاجكم . وأضرع خدودكم : أذل وجوهكم . وأتعس جدودكم . حط من حظوظكم .

الإعراب :

قال النحاة : تستعمل « كم » في معنيين : الأول في كثير ، وتسمى خبرية ، الثاني في أي عدد ، وتسمى استفهامية ، وتمييز الأولى مخفوض ، وتمييز الثانية منصوب . هذا ما قاله النحاة ، والذي نفهمه من « كم » في قول الإمام : « كم أداريكم » الى متى أداريكم ، وعليه تكون منصوبة بنزع الخافض ، و « كما » الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف و « ما » مصدرية . وكلما حيصت « كل » منصوبة على الظرفية لأن المعنى كل وقت حيصت أو حياصة ، وناصبها تهتكت . قال ابن هشام في المغني : « قالوا : كلما منصوبة على الظرفية باتفاق، وناصبها الفعل الذي هو جواب في المعنى » .

المعنى :

تثاقل أصحاب الإمام (ع) عن القتال ، وانصرفوا عنه بعد حرب الجمل وصفين والنهروان ، وأصبحوا لا يبالون بأوامر الإمام وتوبيخه ومواعظه ، ومنها قوله : (كم أداريكم – الى – تهتك من آخر) . أنتم في حال شاذة غير طبيعية، وقد اضطرني شذوذكم هذا ان أسوسكم بالرفق والملاينة تماماً كما يُدارى البعير المريض ، والثوب البالي اذا خيط منه جانب انفتق جانب .

(كلما أطل عليكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه) على نفسه جبناً وخوراً (وانجحر) أي تخبأ واختفى (انجحار الضبة) وهي أنثى الضب (في جحرها) أي حفرتها (والضبع في وجارها) أي بيتها أو كهفها (والذليل والله من نصرتموه) لأنكم لا تفيدونه بشيء (ومن رُمي بكم فقد رُمي بأفوق ناصل) أي بغير سهم ، أو بسهم محطم ، وتقدم مع الشرح في الخطبة ٣٠ (انكم والله لكثير من الباحات) حيث لا حرب ولا جهاد (وقليل تحت الرايات) حيث الحرب والجهاد .

(واني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ، ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي). أبداً لا شيء عند علي إلا الدين ، فهو آخرته ودنياه ، ونفسه وهواه ، ومن أجل هذا ساس به أصحابه ، وما حاول أو فكر قط أن يستميل أحداً بمال أو منصب أو بالتضليل والتغرير والخداع ، ومن أجل هذا تفلت أصحابه أو أكثرهم من يده ، وهو يعلم علم اليقين انه لو استجاب الى أهوائهم كما يفعل معاوية لكانوا أطوع اليه من بنانه ، ولكنه – كما قال – لا يطلب النصر بالجور ، ولا يصلح دنياه بإفساد دينه . قال طه حسين في كتاب « مرآة الاسلام » ص ٢٧٠ : « كان معاوية يشتري ضمائر كثير من أهل البصرة والكوفة ليفسدهم على علي ، ثم ظل على ذلك بعد أن استقام له الأمر ، وجعل يتألف الناس حول عرشه بمال المسلمين لا يرى بذلك بأساً ، ولا يرى فيه جناحاً ، ومضى الخلفاء من بني أمية على سنته».

ثم قال طه حسين : « وكان علي كثيراً ما يقول لأهل الكوفة : اني لأعرف ما يصلحكم ، ولكني لا أفسد نفسي بصلاحكم ، وصدق عمر بن الخطاب حين قال : لو ولّوها – يريد الخلافة – ابن أبي طالب لحملهم على الجادة . وقد همّ علي أن يحمل المسلمين على الجادة ، ولكن المسلمين أبوا عليه .. ومن أجل ذلك قال كثير من المتأخرين : انه لم يكن محسناً للسياسة ، وما أشك في انه كان يحسن السياسة كل الاحسان ، وكان جديراً لو اصطنعها ان يجمع اليه الناس ، ولكنه آثر الدين على الدنيا ، وأبى أن يصلح الناس ويفسد نفسه .. وفارق الدنيا راضياً مرضياً لم يحتمل خطيئة ، ولم يقترف إثماً » .

وقال عبد الكريم الخطيب المصري في كتاب « علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة » في ص ٤٤٥ : « كان المال في يد علي حرباً عليه يكثر من

أعدائه ، ويفسد عليه أصحابه وأنصاره بينما نجد المال في يد معاوية جيشاً عاملاً يبسط له على الناس سلطاناً قائماً على الرغبة والأمل » .

(أضرع الله خدودكم) . دعاء عليهم بالمذلة والهوان (وأتعس جدودكم) . دعاء بالخيبة وسوء الحظ (لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل) . أي يعملون بالباطل دون الحق ، ومثله قوله (ع) : ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ، ولا أعرف من المنكر (ولا تبطلوا الباطل كإبطالكم الحق) . ومن أجل هذا كانوا هدفاً للغزاة والطامعين ، وعاشوا أذلاء خاسئين .

الخطبة

-٦٩-

شكوى الإمام للنبي :

مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوَدِ وَاللَّدَدِ ! فَقَالَ أُدْعُ عَلَيْهِمْ ، فَقُلْتُ أَبْدَلَنِي اللهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرّاً لَهُمْ مِنِّي .

اللغة :

ملكتني عيني : غلبني النوم . السانح هو الذي يأتي من جانب اليمين، والبارح من جانب اليسار ، والناطح الذي يستقبلك ، والقعيد الذي يستدبرك ، والمراد هنا بـ (سنح لي) انه رأى في المنام رسول الله (ص) . والأود : الاعوجاج . واللدد : الخصام .

الإعراب :

وأنا جالس الواو للحال ، وماذا مبتدأ وخبر ، أو كلمة واحدة مبتدأ ، وجملة لقيت خبر .

المعنى :

يقول الإمام (ع) : انه رأى رسول الله (ص) في منامه ، فشكا اليه ما لاقاه من أمته ، وكان ذلك في آخر الليلة التي قتل في صبيحتها ، فأمره النبي (ص) أن يدعو عليهم ، فسأل الله سبحانه أن يبدله بالخبيث طيبـاً ، ويبدلهم بالطيب خبيثاً ، فاستجاب له سبحانه ، ونقله الى جواره ، وسلط عليهم معاوية يسومهم خسفاً ، ويسوقهم عنفاً ، ولا يعطيهم إلا السيف ، وتقدم مثله في الخطبة ٢٦ .

الخطبة

-٧٠-

أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ ٱلْعِرَاقِ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالمَرْأَةِ الْحَامِلِ حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ ، وَمَاتَ قَيِّمُهَا وَطَالَ تَأَيُّمُهَا وَوَرِثَهَا أَبْعَدُهَا . أَمَا وَاللهِ مَا أَتَيْتُكُمْ ٱخْتِيَاراً وَلٰكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عَلِيٌّ يَكْذِبُ . قَاتَلَكُمُ اللهُ فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ ، أَعَلَى اللهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ . أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ . كَلاَّ وَاللهِ وَلٰكِنَّهَا لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا ، وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا . وَيْلُمِّهِ كَيْلاً بِغَيْرِ ثَمَنٍ ، لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .

اللغة :

أملصت المرأة : ألقت حملها ميتاً . والقيّم على الأمر : متولّيه ، وقيّم المرأة زوجها . والأيم : غير المتزوج رجلاً كان أم امرأة بكراً كانت أم ثيباً . والمراد باللهجة هنا الكلام الذي تضيق عن إدراكه العقول الضعيفة .

الإعراب :

أما للتفصيل والتوكيد، وبعد تأتي ظرف زمان مثل أتيت بعد الظهر، وظرف مكان مثل أتيت بيروت بعد صيدا، وإذا قطعتْ بعد عن الاضافة جاز نصبها وضمها، وهي هنا مبنية على الضم، والأصل أما بعدَ الحمد، واختياراً مصدر في مقام الحال أي ما أتيتكم مختاراً، ومثله سوقاً أي مسوقاً ومضطراً، وكلاّ حرف ردع وزجر، والويل كلمة دعاء بالشر، وتستعمل للتعجب واستعظام الأمر، وإذا أضيفت الى الأم كان الدعـاء عليها بأن تصاب في أولادها، وهي مع الإفراد يجوز رفعها بالابتداء، مثل ويلٌ لزيد، ونصبها على اضمار الفعل، ومع الإضافة يجب نصبها لأنها لو رفعت لم يكن لها خبر، وفي الندبة يقال: ويلاه، والهاء للسكت، وكيلاً منصوب على المصدرية أي أكيل لكم كيلاً.

المعنى :

اشتد القتال في صِفين، ولما بدت علامات النصر في جبهة الإمام (ع) وظهر الوهن في جبهة معاوية رفع هذا المصاحف حيلة وخداعاً، ودبَّ الخلاف والاضطراب في أصحاب الإمام، ولم يكن من المستطاع جمعهم على كلمة سواء، وتم لمعاوية ما أراد، فامتلأت نفس الإمام حسرة، وقال من جملة ما قال: (أما بعد يا أهل العراق – الى – ورِثها أبعدُها). يشبّه الإمام أصحابه الذين كفّوا عن قتال معاوية في صِفين بعد أن أمكنهم الله منه، يشبههم بالمرأة التي حملت جنينها الى الشهر التاسع، ثم أسقطته ميتاً بصدمة ونحوها، ثم فقدت زوجها، فعاشت بلا زوج يكفلها، ولا ولد يسعدها حتى اذا هلكت لم يرثها ذو نسب أو سبب قريب كالابن والزوج، بل الأرحام الأباعد كأبناء العمومة والخؤولة.

(أما والله ما أتيتكم اختياراً، ولكن جئت اليكم سوقاً). بقي الإمام في المدينة أربعة أشهر بعد البيعة له بالخلافة، ثم خرج منها لحرب أهل الجمل، واضطر الى البقاء في العراق لمقابلة أهل الشام في صفين.. واذن لم يكن الإمام مالكاً ارادة البقاء في المدينة، ولا ارادة الذهاب الى العراق، بل كان يتحرك بدافع من الظروف والقضاء على الفتن والضلال.

(ولقد بلغني – الى – من صدقه). قال الشيخ محمد عبده: «كثيراً ما

كان الإمام يخبر أصحابه بما لا يعرفون ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فيقول المنافقون من أصحابه : انه يكذب ! كما كان المنافقون يقولون مثل ذلك للنبي (ص) — يشير الشيخ محمد عبده الى قوله تعالى : « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب — ٥ ص » فرد الإمام عليهم بقوله : انه أول من آمن بالله وصدق برسول الله ، فكيف يجترىء على الكذب على الله أو على رسوله مع قوة إيمانه وكمال يقينه » .

(ولكنها لهجة غبتم عنها ، ولم تكونوا من أهلها) . أنتم لا تعقلون ما أقول، لأنكم لستم من أهل العقول والقلوب التي أضيئت بنور الله (ويل أمه) أي أم الذي قال : علي يكذب (كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء) . ان الإمام يكيل العلم بلا حساب لمن يعقل عنه ويقدره ، ولكن أين هو ؟ ومثله : ان ها هنا لعلماً جماً (ولتعلمن نبأه بعد حين) . أي سيعرفون عظمة الإمام (ع) بعد أن يُبتلوا بغيره .

وقال عبد الكريم الخطيب في كتاب « علي بن أبي طالب » ص ٨٥ : « لم نجد أحداً كان له من طول الصحبة مع النبي ومن مخالطته ما كان لعلي ، فلقد صحب علي النبي صحبة متصلة أكثر من ثلاثين عاماً ، وتلك مدة لم يظفر بها أحد من المسلمين جميعاً ، فإذا اجتمع الى طول الصحبة قرابة قريبة ، وإلف متصل ، ومخالطة في حلو الحياة ومرها ، ثم صادف ذلك كله أذناً واعية ، وقلباً ذاكراً ، وعقلاً حافظاً كان ما نُسب الى علي من علم وحكمة ونفاذ بصيرة وشفافية روح — قليلاً الى ما يرجى منه ويؤمل فيه » .

وقال الاستاذ الخطيب في ص ٨٧ : « كان علي بطل الإسلام دون منازع لا يعرف المسلمون سيفاً كسيف علي في إطاحته لرؤوس أئمة الكفر وطواغيت الضلال من سادة قريش وقادتها ، وكان علي فقيه الاسلام ، وعالم الاسلام ، وحكيم الاسلام غير مدفوع عن هذا أو منازع فيه » .

الخطبة

-٧١-

اللهم صل على محمد وآله .. فقرة ١ – ٢ :

اللهُمَّ دَاحِيَ الْمَدْحُوَّاتِ ، وَدَاعِمَ الْمَسْمُوكَاتِ ، وَجَابِلَ الْقُلُوبِ عَلَى فِطْرَتِهَا ، شَقِيِّهَا وَسَعِيدِهَا . اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ ، وَالدَّامِغِ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ . كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ قَائِماً بِأَمْرِكَ مُسْتَوْفِزاً فِي مَرْضَاتِكَ غَيْرَ نَاكِلٍ عَنْ قُدُمٍ ، وَلَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ ، وَاعِياً لِوَحْيِكَ حَافِظاً لِعَهْدِكَ ، مَاضِياً عَلَى نَفَاذِ أَمْرِكَ[1] . حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ وَأَضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخَابِطِ ، وَهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ . وَأَقَامَ مُوضِحَاتِ الْأَعْلَامِ وَنَيِّرَاتِ الْأَحْكَامِ . فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ . وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ ، وَرَسُولُكَ إِلَى

الْخَلْقِ . اللَّهُمَّ أفْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ وَآجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ أعلِ عَلى بِنَاءِ آلْبَانِينَ بِنَاءهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ ، وَآجْزِهِ مِنِ آبْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ وَمَرْضِيَّ المَقَالَةِ ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ ، وَخُطَّةٍ فَصْلٍ . اللَّهُمَّ آجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ العَيْشِ وَقَرَارِ النِّعْمَةِ ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ . وَأَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ وَرَخَاءِ الدَّعَةِ ، وَمُنْتَهَى الطُّمأْنِينَةِ ، وَتُحَفِ آلْكَرَامَةِ(٢) .

اللغة :

داحي : باسط . والمدحوات : الأرضون ، والأرض كرة ، ولكن فيها قطعاً مبسوطة . والمسموكات: السموات . وجابل : خالق . والشرائف : جمع شريفة . ونوامي البركات : زيادتها أو زوائدها . وجاشت القدر : غلت، والبحر : هاج، والعين : فاضت، والنفس : اضطربت . وجيشات الأباطيل : ارتفاعها . واضطلع بالأمر : نهض به وقوي عليه . ومستوفزاً : مسرعاً . ونكل : نكص وجبن . وقدم - بضم القاف والدال - من مضى قدماً أي سار ولم يُعرج . وأورى الزند : أخرج ناره . والقبس : شعلة من النار . والقابس : طالب النار . والخابط : السائر على غير هدى . وأفسح له : وسع له . وفي ظلك : في برك وإحسانك . وابتعاثك : بعثك له رسولاً الى الخلق . وبرد العيش : لا شيء يكدر صفوه . ومنى الشهوات : ما تتمناه وتشتهيه .

الإعراب :

داحي أي يا داحي ، وشقيها وسعيدها بدل من الفطرة ، وعبدك بدل من محمد ، والخاتم صفة للرسول ، وكما حمل الكاف هنا بمعنى لام التعليل ، وما مصدرية ، قال ابن هشام في المغني : أثبت ذلك قوم ، وهو ظاهر في قوله

تعالى : « واذكروه كما هداكم — ١٩٨ البقــرة » أي لهدايته اياكم ، وجيشات مفعول للدافع ، وصولات مفعول للدامغ ، وقائماً حال ، ومثله مستوفزاً وغــير ناكل وواعياً وحافظاً وماضياً ، ومفسحاً صفة لموصوف محذوف أي وسع له مكاناً متسعاً ، ومضاعفات مفعول ثانٍ لأجزه ، ومقبول الشهادة مفعول ثانٍ لأجزه ، ومرضي المقالة عطف على مقبولَ الشهادة بحذف الواو ، وذا منطق حال .

المعنى :

دعا الإمام (ع) في هذه الخطبة أن يرفع الله سبحانه من شأن محمد (ص) عنده مع علمه بأن لرسول الله عند الله ما لا يحلم به ملَك مقرّب ولا نبي مرسل،وإذن فلا معنى لهذا الدعاء إلا العبادة والتقرب الى الله بتعظيم حبيبه وتقديسه .

(اللهــم داحي المدحوات) . باسط الأرضين بجعلهـا للخلق فراشاً ومعاشاً (وداعم المسموكات) أي السموات ، والمراد بدعمها إمساكها بقانون الجاذبيــة (وجابل القلوب على فطرتها شقيّها وسعيدها) . والمراد بالفطرة استعداد الانسان لأن يكون خيّراً أو شريراً ، قال تعالى : « ونفسٍ ومـا سواها فألهمها فجورها وتقواها » أي هداهـا النجديـن : طريق الخــير ، وطريق الشر ، وترك الخيار لصاحبها حرصاً على حريته وانسانيته ، وقال سبحانه : « قد أفلح من زكاها » وهو السعيد الذي آثر الخير على الشر ، وحـلالَ الله على حرامــه «وخاب من دساها » وهو الشقي الذي آثر الشر على الخير ، والحرام على الحلال . وهــذه الآيات في سورة الشمس .

(اجعل شرائف صلواتك ، ونوامي بركاتك على محمد عبـدك ورسولك) . محمد (ص) عبدالله ورسوله : « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ — ٦ فصلت ». أجل ، ان محمداً بشر ، ما في ذلك ريب ، ولكنه معجزة السماء ، والعظيم من اقتدى بسيرته ، ومنها انه كان يكره الفقر ويحاربه ، ومع هــذا كان يمر الشهر والشهران ، ولا يوقد ناراً ، ويعيش على الأسودَين : التمر والماء ، ومات(ص) ودرعه مرهونة عنــد يهودي ، وطلب من يهودي آخر أن يبيعــه الطعام بالدين فرفض وقال : ما لمحمد زرع ولا ضرع فمن أين يسد ديونه ؟ وما ملكَ ثوبين معاً ولا نعلين في حياته كلها ، وكان ينــام ليلاً على حصير أثرت في جنبه ،

ويبسطها نهاراً فيجلس عليها ، هذا وثروة الجزيرة العربية كلهـا طوع ارادته ، وغرضه من حياة التقشف هذه ان يفهم الأجيال ان الحاكم لا يجوز له أن يجمع بين السلطة والثروة ، بين الحـكم والترف « وان على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره » . كما قال الإمام (ع) أي لا يهيج بـه ألم الفقر فيهلكه .

(الخاتم لما سبق) . ختم الله النبوة بنبوة محمد (ص) وبرسالته وشريعته، رسالة السماء الى أهل الأرض ، والسر شمول الرسالة المحمدية لشتى نواحي الحياة، فلقد أوضحت بجلاء أسس العقيدة والعبادة ، وعلاقة الانسان بربه وبغيره من الناس في جميع المعاملات والصلات ، ومن مظاهر شمولها انها جعلت العمل الصالح في الدنيا وسيلة السعادة في الآخرة ، واعتبرت تلك مطية لهذه ، بالإضافة الى ان رسالـة محمد (ص) أول رسالة رفعت من شأن الانسان ذكراً وأنثى ،ووضعت الأساس الحقيقي للمساواة بين الناس،ولم تجعل لأحد فضلاً على أحد إلا بما يقتضيه الحق والواجب، فليس رعاية الفقراء فضلاً من الأغنياء عليهم،بل حقاً من حقوقهم واجب الاداء، وليس إنصاف الضعيف أو المظلوم فضلا من الأقوياء أو أولي الأمر ، بل حقـاً يجب أن يؤدى . وتكلمنا مطولاً بعنوان : « لماذا ختمت النبوة بمحمـد » (ص) في المجلد السادس من « التفسير الكاشف » عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.

(والفاتح لما أغلق) . كانت العقول قبل محمد (ص) مغلقة بالجهل، والقلوب بالضلال ، فافتتحها محمد بنور العلم والهداية (والمعلن الحق بالحق) . أظهر الحق بالأدلة والبينات التي لا ينكرها إلا الطغاة المعاندون للحق والصالح العام ، وقـد ابتلي بهم رسول الله (ص) ولكن حربهم له كان من أقوى الأدلة وأوضحها على صدقه وعظمته (والدافع جيشات الأباطيل ، والدامغ صولات الأضاليل). كانت حياة البشر قبل الاسلام في ضلال وفساد ، فبعث الله محمداً (ص) بالهدى ودين الحق ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً بعد أن لاقى صاحب الدعوة في سبيلها ما لاقى من العنت والأذى .

(كما حُمل فاضطلع) . حمل محمد (ص) رسالة الحق الى الخلق ، وبلغها على أكمل وجه بأمانـة وإخلاص (قائماً بأمرك) على ثقله وشدته .. وأي تكليف أشد وأثقل من التكليف بإخراج الناس من الظلمات الى النور ، والقضاء عـلى عقائدهم الفاسدة ، وتقاليدهم الموروثة ، وحمل البشرية كلها على مكارم الأخلاق؟

ومن الذي يستطيع أن يغير من أخلاق زوجته وولده ؟ لكن محمداً (ص) تغلب على جميع هذه الصعاب بشخصيته العظيمة ، وصبره على الشدائد ، قال برنارد شو: لو كان محمد في القرن العشرين لقضى على ما فيه من ضلال وفساد (مستوفزاً في مرضاتك) أي مسرعاً في طاعة الله ، ومن أقواله حين رماه أهل الطائف بالحجارة مخاطباً ربه « لك العتبى حتى ترضى .. ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي » .

(غير ناكل عن قُدم) . لا يتأخر ويجبن عما يرضي الله ، ويحرص كل الحرص على طاعته مهما تكن النتائج (ولا واهٍ في عزم) . قوي في توكله على الله ، وفي عزمه على أداء رسالته وفي صبره على الشدائد في سبيل ذلك (واعياً لوحيك ، حافظاً لعهدك ، ماضياً على نفاذ أمرك) . ولو لم يكن واعياً للوحي ، وحافظاً للعهد ، ومنفذاً للأمر لم يكن أهلاً للنبوة والرسالة (حتى أورى قبس القابس) . أعلن الحق وأوضحه ومهّد السبيل اليه لكل طالب وراغب ، وما ترك عذراً لمعتذر (وأضاء الطريق للخابط). أنار سبيل السلامة لمن ضل عنه (وهُديت به القلوب بعد خوضات الفتن والآثام) . اهتدى به من كان يخبط حائراً في ظلمة الجهالة والضلالة (وأقام بموضحات الأعلام) . نصب العلامات التي ترشد التائهين الى نهج السبيل (ونيّرات الأحكام) . وبيّن مصادر الأحكام الشرعية (فهو أمينك المأمون) . ائتمنته على وحيك ، فأدى الأمانة الى عبادك مخلصاً لك ولهم (وخازن علمك المخزون) . هناك علم كشفه الله لجميع خلقه،وعلم اختص به وحده ، وعلم اختص به صفوة الصفوة ، وهذا هو المراد بالعلم المخزون (وشهيدك يوم الدين) . اشارة الى قوله تعالى : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً – ٤١ النساء » . (وبعيثك بالحق ، ورسولك الى الخلق) . أي مبعوثك بالهدى ودين الحق الى خلقك وعبادك .

(اللهم افسح له مفسحاً في ظلك ، واجزه مضاعفات الخير من فضلك) : ارفعه الى أعلى الدرجات وضاعف له من الأجر ما لا يناله أحد سواه (اللهم وأعلِ على بناء البانين بناءه) . ما تركت شريعة محمد (ص) ناحية من نواحي الحياة إلا وسنت لها القواعد الكفيلة ببيان نظامها السليم وحكمها القويم ، وفي ذلك يقول صاحبها : « انما مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً ، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويقولون: هلا وضعت

هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » . والإمـــام (ع) يسأل الله سبحانه أن تسود هذه الشريعة على جميع الشرائع .

(وأكرم لديك منزلته ، وأتمم له نوره) . وليس من شك ان الله أكـرم محمداً (ص) وأتم نوره بانتشار الاسلام في شرق الأرض وغربها ، ولكن الإمـام يطلب المزيد (واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة مرضي المقالة). اجعل جزاءه على قيامه مجاهداً مخلصاً بواجب البعثة والرسالة ــ الشهادة المقبولة والمقالة المرضية عندك ، وأيضاً ليس من شك ان النبي مقبول الشهادة ومرضي المقالة عند الله ، ولكن هذا من باب الذكر والتسبيح والتحميد « ولذكرُ الله أكبر » وكذلك ذكر الرسول الأعظم (ص) (ذا منطق عدل وخطبـــة فصل) . أي ان النبي مقبول الشهادة ومرضي المقالة لأن قوله العدل ، وحكمه الفصل .

(اللهم اجمع بيننا وبينه) في جنات النعيم ، وأشار الإمـام (ع) الى طرف من نعيم هذه الجنان بقوله : (في برد العيش) الـذي لا ينغصه شيء (وقرار النعمة) التي لا تزول ولا تحول (ومنى الشهوات) ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين (وأهواء اللذات) من الحور والقصور والأعناب والأكواب (ورخاء الدعـة ، ومنتهى الطمأنينة ، وتحف الكرامة) . الرخاء سعة العيش ، والدعة سكون النفس ، والتحفة الهدية يُكرم بها الانسان . والرسول الأعظم يتمتع بهذه وبغيرها من النعم التي لا يبلغها الإحصاء ، والإمام يسأل الله أن يجعله غداً في جوار الرسول ليكون له من هذه النعم نصيب ، وهي خير ما أعده الله للمطيعين .

الخطبة

- ٧٢ -

مروان بن الحكم :

أوَ لَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ ، إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ . لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسَبَّتِهِ . أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ ٱلْكَلْبِ أَنْفَهُ . وَهُوَ أَبُو ٱلْأَكْبُشِ الْأَرْبَعَةِ وَسَتَلْقَى الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ .

اللغة :

يهودية : غادرة . والسبت : الاست . واللعقة : اللحسة . وكبش القوم : رئيسهم . يوماً أحمر : شديداً . . .

الإعراب :

عثمان ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون ، وأنفه مفعول لعقة ، وأحمر غير مصروف للوصف ووزن الفعل .

المعنى :

كان الحكم بن أبي العاص يتجسس على رسول الله (ص) ويحكيه في مشيه وحركاته ، فلعنه ونفاه الى الطائف ، ولم يزل بها حتى تولى عثمان فردّه الى المدينة لأنه أخو أبيه،وقال عبد الكريم في كتاب « علي بن أبي طالب » « وأبو مروان هو الحكم بن أبي العاص لعين رسول الله وطريده ، وقد استأثر مروان عند عثمان بثلاثة : فكان صاحب سره ، والموجه لسياسته ، والمشير عليه في كل أموره ». وقال الخطيب في مكان آخر من الكتاب: «وكان النبي قد أهدر دم الحكم ، وقال لا يساكنني وولده ، فغربهم جميعاً الى الطائف . ولما توفي النبي كلم عثمان أبا بكر في عمه الحكم فقال : ما كنت لآوي طريد رسول الله ، وكذلك كان موقف عمر ، فلما ولي عثمان الخلافة أدخلهم المدينة ، واتخذ مروان كاتباً » .

وقال الشريف الرضي في النهج : «قالوا : أخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل ، فاستشفع الحسنَ والحسين (ع) الى أمير المؤمنين (ع) فكلماه فيه ، فخلى سبيله ، فقالا له : يبايعك يا أمير المؤمنين . فقال : (أو لم يبايعني بعد قتل عثمان) ونكث بيعتي ، وتطوع لمحاربتي مع عائشة والزبير وطلحة (لا حاجة لي في بيعته،انها كفّ يهودية) . لا تترك الغدر بحال ، ويومىء هذا الوصف الى ان اليهود كانوا يعرفون بالغدر منذ القديم ، وانهم كانوا يمثلون دور الغادر الفاجر في كل مسرح ومطرح (لو بايعني بكفه لغدر بسبته) . قال الشيخ محمد عبده: « السبت الاست ، وكنى به عن الغدرالخفي لتحقير الغادر » .

(أما ان له إمرة كلعقة الكلب أنفه) . يخبر الإمام (ع) بأن مروان سوف يحكم الناس مدة من الزمن ، وعبّر عنها بلحسة الكلب أنفه لقصرها ، وكانت تسعة أشهر ، وقيل : أربعة أشهر وعشراً (وهو أبو الأكبش الأربعة) . اشارة الى أحفاد مروان ، وأولاد عبد الملك الذين حكموا ، وهم عبد الملك وسليمان ويزيد وهشام ، واجاز ابن أبي الحديد أن يكون المراد بالأربعة أولاد مروان للصلب لا أحفاده أي عبد الملك الذي تولى الخلافة ، وبشر الذي تولى العراق ، وعبد العزيز الذي تولى مصر ، ومحمد صاحب الجزيرة .

(وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر) . ولاقى الاسلام والمسلمون من الأموية أياماً حمراء وسوداء ، وكتب التاريخ متخمة بمثالب الأمويين ، ووُضع

فيها كتب خاصة . ومن أقوال الإمام (ع) : « ولكني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها ، فيتخذون مال الله دُولاً وعباده خولاً ، والصالحين حرباً والفاسقين حزباً » .

ويصدق هذا الوصف على الخلفاء الأمويين إلا واحداً ، قال العقاد في كتاب « أبو الشهداء » : « لما أصبحت الدولة الاسلامية أموية ما طمع في خيراتها ولا ولاتها إلا من كان من أمية وحزبها ، فمروان بن الحكم وزير عثمان الأكبر يغدق العطاء على الأقرباء ، ويحبس الأموال عن سائر الناس » وعثمان هو الذي جعل للثائرين عليه سبيلاً ، ومزق قتله وحدة المسلمين وفرق كلمتهم الى يوم الدين ، أما معاوية فكان يقول ، ان لله جنوداً من عسل،ويعني العسل الذي كان يدس فيه السم ، وقتل به الإمام الحسن ريحانة رسول الله ، والاشتر النخعي ، وعبد الرحمن ابن خالد . وقتل ولده يزيدُ الإمامَ الحسين ، وضرب الكعبة بالمنجنيق ، وأباح المدينة. وحاصر عبد الملك مكة وهدم الكعبة ، وأطلق يد الحجاج في دماء المسلمين، وبعبد الملك اقتدى أولاده وأحفاده ، وزادوا عليه أضعافاً مضاعفة .

الخطبة

-٧٣-

أسالم ما سلمتْ أمور المسلمين :

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي . وَوَاللهِ لَأُسَلِّمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ .

اللغة :

الزخرف — بضم الزاء ، والزبرج — بكسرها وكسر الراء كانا في الأصل للذهب ، ثم أطلقا على كل كاذب مموّه ظاهرُه الرحمة وباطنه العذاب،قال تعالى: « يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً — ١١٢ الأنعام » أي الأباطيل المموهة :

الإعراب :

ما سلمت « ما » مصدرية ظرفية أي مدة سلامة الأمور ، وخاصة مصدر في موضع الحال أي مختصاً بي ، والتماساً مفعول من أجله لأسلمن .

للمنبر – علي وأعضاء الشورى :

قال الشريف الرضي وابن أبي الحديد : لما عزموا على بيعة عثمان قال لهم الإمام (ع) : (لقد علمتم اني أحق الناس بها من غيري الخ ..) . وضمير بها يعود الى البيعة أو الى الخلافة بقرينة المقام ، وكلام الإمام هنا واضح ، ولا شيء فيه من الغموض ، فالخلافة في مفهومه أداة لتحقيق العدل وتصحيح الخطأ ، فإذا تحققت هذه الغاية هان عليه الضغوط والأساليب الملتوية التي مارسوها لإقصائه عن الخلافة مع علمه ويقينه بأنه أولى بها وأحق من غيره . وتقدم قوله في الخطبة الشقشقية : « لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ، لألقيتُ حبلها على غاربها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز » .

وإذا عطفنا قوله هذا في الشقشقية على قوله هنا : « لأسلمن ما سلمت أمور لمسلمين » وجمعناهما في كلام واحد .. إذا فعلنا ذلك يكون المعنى ان الإمام (ع) نما يسكت ولا يعلن الحرب في حالين : الأولى أن يتحقق العدل بأية وسيلة من الوسائل . الثانية أن يحصل الجور ، ولكن الإمام لا يجد من يناصره ويؤازره على إقامة الحق وإزهاق الباطل . وعلى هذا فإن سكوت الإمام عمن سبقه الى الحكم لا يكشف عن إيمانه بأن حكم السابق لم يكن جائراً ، بل قد يكون السبب المباشر للسكوت هو العجز وعدم التكافؤ بين قوة الإمام ، وقوة الحاكمين .

ومن المفيد أن نذكر بهذه المناسبة ما قاله أحمد عباس صالح في مجلة « الكاتب المصرية » عدد شباط ١٩٦٥ : « عيّن عمر أعضاء مجلس الشورى ليختاروا أحدهم للخلافة ، وهم : عبد الرحمن بن عوف ، وهو من أغنى الأغنياء ، وعثمان أحد أقطاب بني أمية ، وسعد بن أبي وقاص من أغنياء قريش ، ثم الزبير من أثرى أثرياء قريش ، ثم طلحة من سراة قريش ، وأخيراً علي بن أبي طالب ، وكلهم ما عدا علياً في كفة من حيث هواهم السياسي ، وعلي وحده في كفة .. وان وضعهم الطبقي ومصالحهم تجعل لهم مفهوماً خاصاً للعدل الاجتماعي يختلف مع ما يدعو اليه علي » اي انهم جميعاً من طبقة الأغنياء ، وعلي من الفقراء ومع الفقراء. ومن أقواله : « اضرب بطرفك من حيث شئت من الناس ، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً .. فما جاع فقير إلا بما متع به غني» .

ثم قال الأستاذ أحمد عباس صالح: «ولا يستبعد أن يكون تشكيل مجلس الشورى بصورته هذه تم عن قصد وتبصر من عمر كيلا تعلو كلمة اليسار في أجهزة الحكم». يريد باليسار أصحاب رؤوس المال ، ثم قال : « من المتصور أن يطمح الزبير أو سعد في الخلافة ، ولكن هذا الطموح يصبح غريباً في وجود علي الذي كان حزب كبير من المسلمين يعتقدون انه كان أولى بالخلافة من أبي بكر ، ثم أولى بها من عمر،وليس هناك شك في ان كلاً من أعضاء المجلس كان يعتقد انه أقل جدارة بالمنصب من علي . ولكن منطق الحوادث ومركز علي في الاسلام وميل غالبية المسلمين اليه — كل هذا قد يجعلهم يترددون كثيراً أو قليلاً في التفكير في منافسة علي بن أبي طالب في قيادة المسلمين .. على ان الذي حدث غير ذلك ، فقد بدا الجميع يريدون ترشيح أنفسهم ومنافسة علي » .

يستدل شيعة علي بالنص كتاباً وسنّة على انه أولى بالخلافـة من غيره ، أما العلماء في هذا العصر فإنهم لا يؤمنون إلا بالمنهج العلمي على حد تعبيرهم ، وبه لا بالنص يثبتون ما يجب الايمان به على كل انسان ، ويريدون بالمنهج العلمي أن ينظر الباحث الى طبيعة الأشياء التي تبدو للعيان ، ثم يشرحها ويحللها ليكشف ما وراءها من حقائق وأسرار ، وبعد أن درسوا على هذا الأساس طبيعة الصراع على خلافة النبي (ص) انتهوا الى ان علياً أحق بها من غيره وأولى .

الخطبة

-٧٤-

أنا حجيج المارقين:

أَوَ لَمْ يَنْهَ أُمَيَّةَ عِلْمُها بِي عَنْ قَرْفِي. أَوَ مَا وَزَعَ الْجُهَّالَ سَابِقَتِي عَنْ تُهَمَتِي. وَلَمَا وَعَظَهُمُ اللهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي. أَنَا حَجِيجُ الْمَارِقِينَ وَخَصِيمُ الْمُرْتَابِينَ. وَعَلَى كِتَابِ اللهِ تُعْرَضُ الْأَمْثَالُ وَبِمَا فِي الصُّدُورِ تُجَازَى الْعِبَادُ.

اللغة:

قرفي: اتهامي. وزع: ردع. وحجيج المارقين: خصيمهم فأخصمهم وأفحمهم. والمارقون: الخارجون من الدين. والمرتابون: المشككون. والمراد بالأمثال هنا متشابهات الأعمال.

الإعراب:

الهمزة في «أولم» للاستفهام مع الإنكار، ومثلها في «أوما». واللام في «لما وعظهم» للتوكيد، و«ما» اسم موصول مبتدأ، وأبلغ خبر.

المعنى :

اتهم بنو أمية الإمام (ع) بدم عثمان ، فرد عليهم بقوله : (أوَ لم ينه بني أمية علمها بي عن قرفي) . من أين جاء اتهامي بدم عثمان؟وما هو مصدره ؟ فهل من شيء في سيرتي يوجب الشك فيّ والريب ؟ وهل تجهل أمية سيرتي وحقيقتي؟ انها تعلم حق العلم بأن الذين يحملون قميص عثمان ويطالبون بدمه هم الذين أباحوه وأراقوه ، وتعلم أمية اني بريء من تهمتها ، ولكن أرادت أن تعلن ما في نفسها من حقد علي وشنآن فلم تجد مبرراً ، فابتدعت وافترت .

(أوما وزع الجهال سابقتي عن تهمتي ؟) . إن حياة الإمام كلها فضائل ومكرمات ، وصدق وأمانة تماماً كحياة الرسول الأعظم (ص) ، ومن قبل اتهمت قريش النبي بالسحر والكذب فأجابهم : « فلقد لبثت فيكم عمراً من قبله — أي قبل القرآن — أفلا تعقلون — ١٦ يونس » ، وكذلك اتهمت أمية الإمام (ع) فأجاب : أوَما وزع الجهالَ سابقتي ؟.

(ولما وعظهم الله به أبلغ من لساني) . نهى الله سبحانه عن ظن السوء والغيبة فلم ينتفعوا ببيانه ويتعظوا بمواعظه ، فهل يقبلون نصحتي وينتفعون ببياني؟ (أنا حجيج المارقين ، وخصيم المرتابين) . أقارع بالحجة الدامغة من مرقَ من الدين فآخذه مغلوباً ، وأخاصم بالبرهان القاطع من تشكك في دين الله فلا أدع له عذراً (وعلى كتاب الله تعرض الأمثال) . فهو وحده الميزان والمقياس ، فما اعترف به كان حقاً وصدقاً ، وما أنكره كان كذباً وضلالاً ، وعلي مع القرآن قولاً وعملاً ، والقرآن مع علي نصاً وروحاً .

(وبما في الصدور تجازى العباد) . ومثله الحديث المشهور : انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل ما نوى .. من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

الخطبة

-٧٥-

كابر هواه وكذّب مناه :

رَحِمَ اللهُ ٱمْرأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى . وَدُعِيَ إلى رَشَادٍ فَدَنَا ، وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا . رَاقَبَ رَبَّهُ ، وَخَافَ ذَنْبَهُ . قَدَّمَ خَالِصاً ، وَعَمِلَ صَالِحاً . ٱكْتَسَبَ مَذْخُوراً ، وَٱجْتَنَبَ مَحْذُوراً . رَمَى غَرَضاً وَأَحْرَزَ عِوَضاً . كَابَرَ هَوَاهُ ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ . جَعَلَ ٱلصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ وَٱلتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ . رَكِبَ ٱلطَّرِيقَةَ ٱلْغَرَّاءَ ، وَلَزِمَ ٱلمَحَجَّةَ ٱلْبَيْضَاءَ . ٱغْتَنَمَ ٱلْمَهَلَ وَبَادَرَ ٱلْأَجَلَ وَتَزَوَّدَ مِنَ ٱلْعَمَلِ .

اللغة :

الحجز — بفتح الحاء — المنع ، والحجزة — بضمها — معقد الإزار وموضع التكة ، والمراد بها هنا الاعتصام ، يقال : أخذ بحجزته اذا اعتصم به والتجأ اليه. ومذخوراً : من ذخر الشيء وخبأه لوقت الحاجة. ومحذوراً : من الحذر والتحرز. وغرضاً : هدفاً . وكابر هواه : غالبه وعانده . والغراء : البيضاء . والمحجة : الجادة أو معظمها. والمهل — بفتح الميم والهاء — التؤدة والرفق، والمراد به هنا الفرصة.

المعنى :

(رحم الله امرءاً سمع – الى – فدنا) . قال عز من قائل : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه – ١٨ الزمر » . (وأخذ بحجزة هادٍ فنجا) . اعتصم بمن هداه الى الحق ، واستنصحه وعمل بقوله (راقب ربه) بطاعته له (وخاف ذنبه) أي خاف من الله فما أذنب ، وان حدث منه ما يؤاخذ عليه أسرع الى التوبة (قدم) أمامه وقبل وفاته عملاً (خالصاً) لوجه الله (وعمل صالحاً) عطف بيان وتفسير (اكتسب مذخوراً) أي عمل ليوم تذخر له الذخائر (واجتنب محذوراً) . ابتعد عن المحرمات (ورمى غرضاً ، وأحرز عوضاً) . سلك سبيل الهدى ، وفاز بمرضاة الله وثوابه (كابر هواه) . غالبه وقمعه من نفسه (وكذب مناه) . لا يغتر بالأماني والأحلام ، ولا يركن الى النفس الأمّارة بالسوء .

(جعل الصبر مطية نجاته) . يصبر على طاعة الله رغبة في النجاة من غضبه وعذابه (والتقوى عدة وفاته) . يتزود بتقوى الله ليوم الله (ركب الطريقة الغراء ، ولزم المحجة البيضاء) . سلك سبيل الهدى ، وتجنب طريق الردى (اغتنم المهل) أي الفرصة قبل الفوات (وبادر الأجل) قبل حضوره (وتزود من العمل) الصالح ولم يقصّر .

الخطبة

-٧٦-

اللهم اغفر:

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَفْوِيقاً ، وَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ اللَّحَّامِ الْوِذَامَ التَّرِبَةَ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي . فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ ، وَسَقَطَاتِ الْأَلْفَاظِ ، وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ ، وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ .

اللغة:

يفوقونني : يعطونني القليل . الوذام : جمع وذمة ، وهي المعى والكرش . ما وأيت : ما وعدت . والرمزات : الاشارات . وسقطات الألفاظ : لغوها . والجنان : القلب . وهفوات اللسان : زلاته .

الإعراب :

الوذام مفعول لنفْض ، والتّربة بدل اشتمال من الوذام ، والأصل نفض التّربة عن الوذام .

المعنى :

كان عثمان يغدق مال الله على أهله وحزبه بالقناطير المقنطرة ، فيبذّرونه على القصور والرياش والجواري والقيان ، ويرسل عثمان الوشل من هذا المال الى الإمام (ع) فقال : (ان بني أمية ليفوقونني تراث محمد (ص) تفويقاً) . أي ان هذه الأموال الّتي يتنعم بها بنو أمية ، ويجعلونها دُولة بينهم هي الفيء الذي أنعم الله به على المسلمين ببركة محمد (ص) ورسالته ، وللإمام منها ما للمسلمين، ولكن عثمان كان يمنعه حقه إلا القليل (والله لئن بقيت لهم لأنفضنهم نفض اللحام الوذام التّربة) . يقسم الإمام (ع) لئن تولى الخلافة ليردن الأموال الّتي اغتصبها الأمويون الى بيت المال ، ولا يبقي شيئاً منها تماماً كما ينفض القصاب التّراب عن الكرش إذا أصابه ، وقال الإمام بعد أن تولى الخلافة : والله لو وجدته — أي المال — قد تُزوج به النساء ، ومُلك به الإماء لرددته .

وكأن الإمام (ع) أحس بأن في كلامه هذا شائبة من الغضب لنفسه مع العلم بأنه من أجل الظلم والجور على الدين وحرماته فقال: (اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به مني) . يتهم نفسه عملاً بقوله تعالى : « فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى — ٣٢ النجم » . (اللهم اغفر لي ما وأيت من نفسي ولم تجد له وفاء عندي) . قد أعِد نفسي وأعاهدها على القيام بأمر الله ، ثم أخلف ، فإن حدث شيء من هذا فامنن اللهم عليّ بعفوك وصفحك عن هذا الخلف (اللهم اغفر لي ما تقربت به اليك بلساني ، ثم خالفه قلبي) . كل الناس إلا من عصم ربك يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم (اللهم اغفر لي رمزات الألحاظ) . الإيماء والإشارة إلى عيوب الناس ومساوئهم (وسقطات الألفاظ) أي ما ينطق به اللسان مما لا يرضي الرحمن (وشهوات الجنان) أي ما يميل القلب اليه من متاع الحياة وزينتها (وهفوات اللسان) عطف تفسير على سقطات الألفاظ .

الخطبة

-٧٧-

المنجّم كاذب :

أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ ؟. فَمَنْ صَدَّقَ بِهٰذَا فَقَدْ كَذَّبَ ٱلْقُرْآنَ وَٱسْتَغْنَى عَنِ الْاسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِي نَيْلِ المَحْبُوبِ وَدَفْعِ ٱلْمَكْرُوهِ . وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ ٱلْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ لِأَنَّكَ بِزَعْمِكَ أَنتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ وَأَمِنَ الضُّرَّ. أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى ٱلْكَهَانَةِ وَالْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ ، وَٱلْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَٱلْكَافِرُ فِي النَّارِ ، سِيرُوا عَلى ٱسْمِ ٱللهِ .

اللغة :

حاق به : أحاط به . يوليك الحمد : يعطرك الحمد أو يقلدك الحمد أو يجعلك جديراً به ، كل هذه من معاني الولاية . والكهانة : الحكم على الشيء بالغيب .

الإعراب :

التي من سار صفــة للساعة ، والمصدر من ان يوليك مفعول تبغي ، ودون متعلق بمحذوف حالاً من كاف يوليك ، وإياكم من باب التحذير ، وهو مفعول لفعل محذوف وجوباً ، لأن لفظ « إياكم » قائم مقامه ، والتقدير جنبـوا أنفسكم تعلم النجوم .

المعنى :

حين عزم الإمام (ع) على السير الى تأديب الخوارج قال له بعض أصحابه : ان سرت في هذا الوقت خشيتً أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجـوم فقال له الإمام : (أتزعم انك تهدي الى الساعة — الى — حـاق به الضرر). الإسلام إيمان بالله وبالعلم والعمل لحياة أفضل ، وبالقيم التي لا ينكر شيئاً منها عاقل على وجه الأرض من حيث هي قيم ومثل عليا ، ومن البداهة — وهذه هي حقيقــة الاسلام — أن يرفض الكهانة ولا يقبلها بحال، كيف والاسلام يدعو الى تحرير الانسان من الأغلال والعقل من الأوهام ، ويأمر باتباع العقل والعـلم ! ولو أقر الاسلام الكهانة والخرافة لم يكن له تاريخ ولا حضارة ، ولا أتباع يعدون بمئات الملايين في شرق الأرض وغربها .

(فمن صدق بهذا فقد كذّب القرآن) . لأنه يربط الأحداث بأسبابها، والنتائج بمقدماتها طبيعية كانت أم اجتماعية ، وقد صرح القرآن بهذا في العديد من الآيات، منها : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً — ٢ الفرقان » . « إنا كل شي خلقناه بقدَر — ٤٩ القمر » . فهذا المبدأ إلهي كوني لا يقبل التبديل والتعديل : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً — ٦٢ الأحزاب » . ومعنى

هذا ان كل شيء يأتي وفقاً لقوانين مطردة ، ومعناه أيضاً ان القرآن يقر مبدأ التطور . وقال الإمام الصادق (ع) : أبى الله الا أن يجري الأمور على أسبابها .

وحث الإسلام على طلب العلم بهذه الأسباب ولو في الصين ، وأمر بالرجوع الى العلماء فيما يعود الى اختصاصهم .. ومن جملة ما قرأت : ان سائلاً قال لبعض الشيوخ : هل في القرآن آية تشير الى عدد الأرغفة التي تُخبز من كيس الطحين ؟ فقال له الشيخ : نعم . واتصل تلفونياً بمدير المخابز وسأله عن ذلك فأعطاه ، فقال السائل : ولكن هذا ليس من القرآن ، ورد الشيخ : ألم تقرأ : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وقد فعلت .

(واستغنى عن الاستعانة بالله) الذي ربط الأحداث بأسبابها الطبيعية ، وجعل من العمل والجهاد والعزم والتوكل عليه تعالى سبباً ضرورياً (في نيل المحبوب ودفع المكروه) . قال سبحانه : « فإذا عزمت فتوكل على الله — ٥٩ آل عمران » لا على أقوال المنجمين .

(وتبغي من قولك — إلى — أمِنَ الضر) . أي انك تحب أن تُحمد من دون الله بما لا أثر لك فيه إلا الكذب والرياء (أيها الناس ، اياكم وتعلُّم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر) . كل ما ينفع الناس بجهة من الجهات فهو علم وعقل ودين وسياسة حقة سواء أطلقنا عليه كلمة فلك أم جبر وهندسة أم ميكانيك أم « لونا وأبوللو » وبعلم الكواكب تعرف الجهات ويهتدى إلى مسالك البراري والبحار ، قال تعالى : « وبالنجم هم يهتدون — ١٦ النحل » . وقال : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر — ٩٧ الأنعام » . واذا كان الغرض من هذه الآيات بيان الشواهد على القدرة الإلهية فإنها تتضمن أيضاً الحث على طلب العلم بالنجوم لأن الانسان كلما ازداد علماً بخلق الله ازداد ايماناً وتسليماً به وبعظمته .

(فإنها تدعو الى الكهانة) . الهاء في « انها » تعود الى حركات النجوم وآثارها التي يخبر بها المنجم رجماً بالغيب ، وهذا الرجم والزعم هو الكهانة بالذات (والمنجم كالكاهن) في أباطيله وأكاذيبه لأن علم الغيب لله وحده (والكاهن كالساحر) في شعوذته وشيطنته (والساحر كالكافر) . جاء في كتاب الوسائل للحر العاملي : ان الإمام الصادق (ع) روى عن جده (ص) : من مشى الى ساحر

أو كاهن أو كذاب يصدّقه فقد كفر بما أنزل الله . وفي رواية ثانية : ساحر المسلمين يُقتل ، وساحر الكفار لا يقتل (والكافر في النار) سواء أكفر نظرياً وعملياً ، أم عملياً فقط . قال الشيخ محمد عبده : « كلام أمير المؤمنين حجة حاسمة لخيالات المعتقدين بالرمل والجفر والتنجيم وما شاكلها ، ودليل واضح على عدم صحتها ومنافاتها للأصول الشرعية والعقلية» (سيروا على اسم الله) الى حرب الخوارج ، ولا تعبأوا بأقوال المنجمين . وكانت الغلبة للإمام وأصحابه الذين ساروا للحرب في نفس الساعة التي نهى عنها المنجم .

الخطبة

-٧٨-

نواقص العقول :

مَعَاشِرَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱلنِّسَاءَ نَوَاقِصُ ٱلْإِيمَانِ نَوَاقِصُ ٱلْحُظُوظِ نَوَاقِصُ ٱلْعُقُولِ . فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ ٱلصَّلَاةِ وَٱلصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ . وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلى ٱلْأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ ٱلرِّجَالِ . وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ ٱمْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلْوَاحِدِ . فَٱتَّقُوا شِرَارَ ٱلنِّسَاءِ ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلى حَذَرٍ ، وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي ٱلْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعْنَ فِي ٱلْمُنْكَرِ .

للمنبر — علي والمرأة :

تكلم الباحثون كثيراً عن المرأة ومواهبها وخصائصها ، وعن حقوقها وواجباتها ، وتكلموا عن المرأة في الاسلام أو في القرآن ، وعن المرأة الشرقية والغربية ، وعن دور المرأة وتأثيرها في حياة العباقرة والمجانين أيضاً .. وطال حولها الجدال والنقاش وسيبقى قائماً الى آخر يوم ، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على ان المرأة هي ذلك الانسان أو اللغز المجهول .

وأيضاً تكلموا عن علي والمرأة ، وقال قائل : ان الإمام نظر الى المرأة من خلال رأيه بعائشة صاحبة الجمل،حيث عارضت حكمه وخلافته ، وألّبت عليه الجموع وجيّشت الجيوش ، ولولا موقفها هذا لم ينظر الى المرأة هذه النظرة الّتي تحط من شأنها وقدرها .

وأجبنا عن هذا في كتاب « علي والفلسفة » بخمسة أجوبة ، وهي :

١ - ان موقف عائشة من الإمام (ع) ليس بأعظم من موقف طلحة والزبير اللذين بايعا ثم نكثا وحرّضا عائشة على الخروج ، ولا بأعظم من موقف معاوية وابن العاص ، ولا بأعظم من موقف الخوارج .. ولو صح تفسير رأي الإمام في المرأة بكراهية عائشة لوجب أن يكون رأيه في الرجل تماماً كرأيه في المرأة ، لأن طلحة والزبير ومعاوية وابن العاص ومن لف لفهم فعلوا ما فعلت عائشة وزيادة .

٢ - جرت العادة أن يكره الانسانُ ويحقد على القوي دون الضعيف،وعلى الغالب دون المغلوب ، وعائشة كانت أسيرة بين يدي الإمام حتى قالت آسفة نادمة : « ليتني لم أكن وأخلق » .

٣ - هل بلغ الذهول بعلي - وهو باب مدينة العلم - أن يحكم على النساء ، كل النساء ، من خلال امرأة واحدة تلقب بصاحبة الجمل ، ويقيسَ النوع على الفرد ؟. ان هذا منطق أهل الجهل والغباء لا منطق المعصومين والعلماء .

٤ - متى كان لعلي الذي يدور الحق معه كيفما دار - شهوات وميول حتى يستمد منها آراءه وينطق بوحيها ؟. أحين أكرم عائشة وأطلقها من الأسر ، أو حين تمكن سيفه من رقبة ابن العاص وبسر ابن ارطاة فعفا عنهما ، أو حين سقى الماء لمعاوية بعد أن منعه منه ؟.

٥ - قالوا : ان النبي (ص) كان يحب عائشة .. وعليه ينبغي أن يكون رأيه في المرأة حسناً يخالف رأي الإمام (ع) مع أن النبي (ص) بالذات وصفها بنفس الوصف الذي نعتها به الإمام ، بل ان الإمام نقله بالحرف الواحد عن النبي ، فقد جاء في الجزء الأول من صحيح البخاري ، كتاب « الحيض » ، باب : ترك الحائض الصوم ، ما نصه بالحرف الواحد :

« خرج رسول الله في أضحى أو فطر الى المصلّى ، فمر على النساء ، فقال يا معشر النساء تصدّقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقلن بمَ يا رسول الله ؟ فقال : تكثرن اللعن ، وتكفرن العشيرة ، ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهبَ

للب الرجل الحازم من احداكن. قلن له : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال : أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بـلى . قال فذاك من نقصان عقلها . أليس إذا حاضت لم تصلّ ولم تصم ؟ قلن : بلى . قال ذاك من نقصان دينها » .

هن ناقصات عقل ودين عند النبي الذي قيل : انه كان يحب عائشة ، وأخذ عنه قوله هذا بالحرف ربيبه وتلميذه الذي قيل : انـه كان يبغض عائشة ، فإذا كان قول النبي في المرأة بوحي من الله فيجب أن يكون قول الإمام كذلك ، وان كان قول الإمام بوحي من بغضه لعائشة فيجب أن يكون قول النبي كـذلك .. والفرق تناقض ظاهر .

وقال الشيخ محمد عبده : خلق الله النساء ، وحملهن على ثقل الولادة وتربية الأطفال الى سن معينـة لا تكاد تنتهي حتّى تستعد لحمل وولادة ، وهكذا فلا يكدن يفرغن من الولادة والتربية.. فكأنهن قد خصصن لتدبير أمر المنزل وملازمته، وهو دائرة محدودة يقوم عليهن فيها أزواجهن ، فخلق اليهن من العقول بقدر ما يحتجن اليه في هذا ، وجاء الشرع الشريف مطابقاً للفطرة ، فكنّ في أحكامه غير لاحقات للرجال ، لا في العبادة ، ولا الشهادة ، ولا الميراث .

الخطبة

-٧٩-

التورع عند المحارم :

أَيُّهَا النَّاسُ ، الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وَالْوَرَعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ . فَإِنْ عَزَبَ ذٰلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ ، وَلَا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ، ظَاهِرَةٍ وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ .

اللغة :

تورعَ عند المحارم : تحرّج منها وابتعد عنها . وعزب : بعد .

المعنى :

لا يكون الزهد إلا في المقدور ، ولو بالجد والطلب،أما الزهد في غير المقدور فهو تماماً كزهد الثعلب في العنب الذي قصرت يده عنه . وقد حدد الإمام الزهد بثلاثة أوصاف : الأول (قصر الأمل) وهو أن يحسب الانسان لنزول الموت به

في أية لحظة تماماً كالمحتضر ، ويستعد له بالعمل الصالح . الثاني (الشكر عند النعم) بالطاعة ، وبالفعل لا بالقول ، وأوضح مظاهر الجحود وكفران النعم أن يستعين بها الانسان على معصية المنعم . الثالث (التورع عن المحارم) . يكف عن المحرمات ، ويقف عند الشبهات . ومن أقوال الإمام : لا ورع كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهد كالزهد في الحرام .

(فإن عزب ذلك عنكم فلا يغلب الحرام صبركم ، ولا تنسوا عند النعم شكركم). ذلك اشارة الى العمل بالأوصاف الثلاثة مجتمعة ، والمعنى اذا لم تعملوا بالثلاثة فعليكم أن تعملوا بالوصفين الأخيرين ، ولا يجوز تركها بحال ، وهما الكف عن المحرمات، وشكر المنعم ، أما طول الأمل فإذا لم يؤد الى فعل الحرام فليس بحرام لأنه أشبه بحديث النفس الذي لا مؤاخذة عليه ، ومن أجل هذا رخص به الإمام .

(فقد أعذر الله اليكم) أي لم يدع لكم عذراً تعللون به ، ذلك بأنه تعاهدكم (بحجج مسفرة ظاهرة) من منطق الحس والعقل (وكتب بارزة العذر واضحة). ان ما أنزله سبحانه في كتابه من آيات محكمات هي عذر واضح له ، جلت حكمته، فيما ينزله بالعاصي من العقوبات .

والخلاصة ان الله تعالى منح الانسان العقل والقدرة والارادة ، وأوضح له نهج السبيل ، ولم يدعْ له من عذر إن تنكب عنه ، وهذه بمجموعها حجة كاملة لله على من سوّلت له نفسه أن يتعدى حدوده وأحكامه .

الخطبة

- ٨٠ -

الدنيا :

مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ . فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ ، مَنِ ٱسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ وَمَنِ ٱفْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ ، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ .

اللغة :

ساعاها : غالبها ، يقال ساعاني فلان فسعيته أي غلبته في المشي ، ومن ملك شيئاً من متاع الدنيا بالجد يظن انه غلبها ، ولكنها هي الغالبة على كل حال كما يتضح من الشرح . واتته : طاوعته . والفرق بين أبصر بها وأبصر إليها كالفرق بين من أبصر الأشياء بسبب ضوء الشمس ، وبين من نظر الى الشمس بالذات فأعشت بصره .

الإعراب :

ما اصف « ما » استفهام مبتـدأ ، وجملة أصف خبر ، والباء في « بها » للسببية . وأبصر اليها أي نظر اليها كما يقال دخلت الى البيت أي ولجت الى البيت على حد تمثيل ابن أبي الحديد .

المعنى :

(ما أصف من دارٍ أولها عناء) . تعب وآلام منذ اللحظة الأولى التي يولد فيها الانسان حتى النفس الأخير (وآخرها فناء) موت لا يرده جاه ولا مال ، ولا كفر ولا ايمان وبه تختم دنيا الأحياء (في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب). يُسأل المرء غداً عن الحلال والحرام ، أما السؤال عن المال الحلال فعلى أي شيء أنفقه وأتلفه ، أما المال الحرام فيسأل من أين ؟ والى أين ؟ وفي الحديث: «يسأل العبد غداً عن عمره فم أفناه ؟ وعن جسده فيم أبلاه وماله من أين اكتسبه ؟ وأين وضعه ؟ » وفي القرآن الكريم : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم – ٨ التكاثر » . وقال أبو ذر : ان صاحب الدرهم يوم القيامة أخف حساباً من صاحب الدرهمين. واذن فما هي حال أصحاب الملايين التي يبذرونها على التضاهي والتباهي والفساد والضلال ؟.

(ومن استغنى فيها فتن) . أي من حاز شيئاً من المال اغتر به وطغى،قال تعالى « : ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى – ٦ العلق » . وقال الإمام : ان استغنى بطر وفتن ، وان افتقر قنط ووهن (ومن افتقر فيها حزن) . واذن فالدنيا شر على الفقير والغني إلا من آمن واتقى،وتزود منها لآخرته،واتخذها وسيلة الى الظفر برضوان الله . وخير الوسائل لهذه الغاية خدمة الناس ونصح الناس . قال بعض العارفين : لو قيل لي : خذ بيد خير أهل المسجد – أي المصلين العابدين – لقلت: دلوني على أنصحهم للناس .

(ومن ساعاها فاتته) . أي من غالبها قد يملك شيئاً منها ولكن تفوته أشياء وأشياء كثيرة . قال الشيخ محمد عبده معلقاً على هذه الجملة : « كلما نال الانسان من الدنيا شيئاً فتحت له أبواب الأمل فيها ، فلا يقضي مطلوباً واحداً حتى يهتف به ألف مطلوب » . وهذا ما أراده الإمام بقوله : منهومان لا يشبعان طالب علم، وطالب دنيا (ومن قعد عنها واتته) . أي من لا يجعل الدنيا كل همه واهتمامه،

ويقنع منها بسد الحاجة – فإنه يحصل على ما يريد لا محالة . قيل لزاهد : أما تخاف الفاقة ؟ قال : بلى . واذا أصابتني حملت المسحاة وعملت مع الفعلة،وعشت كما يعيشون .

(ومن أبصر بها بصّرته) . أي من تدبر الدنيا في ضوء ما فيها من عيوب ومساوىء تدبر واعتبر ، وكرر الإمام هذا المعنى بأساليب شتى منها : « الدنيا صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها .. وقد ذمها رجال غداة الندامة : ومدحها آخرون يوم القيامة ، ذكّرتهم فتذكروا ، وحدثتهم فصدقوا ، ووعظتهم فاتعظوا » . وقال أيضاً : نعتْ الدنيا لك نفسها ، وتكشفت عن مساويها .. يأكل عزيزها ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها (ومن أبصر اليها أعمته) . أي من ركن اليها،وانصرف الى ملذاتها صرفته عما فيها من حسنات واستباق خيرات .

الخطبة

-٨١-

أنتم مختبرون ومحاسبون .. فقرة ١ — ٢ :

اَلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ ، وَدَنَا بِطَوْلِهِ . مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ ، وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ . أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ ، وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلاً بَادِياً ، وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً ، وَأَسْتَعِينُهُ قَادِراً قَاهِراً ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ لِإِنْفَاذِ أَمْرِهِ وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ(١) . أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ ٱلَّذِي ضَرَبَ لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَوَقَّتَ لَكُمُ ٱلْآجَالَ ، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ وَأَرْفَغَ لَكُمُ ٱلْمَعَاشَ ، وَأَحَاطَكُمْ بِالْإِحْصَاءِ ، وَأَرْصَدَ لَكُمُ ٱلْجَزَاءَ ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ وَالرِّفَدِ الرَّوَافِغِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ ٱلْبَوَالِغِ ، وَأَحْصَاكُمْ

عَدَداً ، وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ وَدَارِ عِبْرَةٍ. أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا(٢) .

اللغة :

بحوله : بقدرته على كل شيء ، ومعنى لا حول ولا قوة إلا بالله ــ لا حركة ولا قوة إلا بمشيئة الله . وبطوله : بعطائه . والمراد بالأزل هنا الضيق والمشقة . وسوابغ النعمة كواملها ، ونعمة سابغة أي تامة كاملة . والإنهاء: الإبلاغ ، تقول : أنهيت اليه أي أبلغته،ونهيته أي زجرته . والرياش : اللباس . وأرفغ : أوسع . والرفد . العطية . ووظف : قدر . وفي قرار : في دار. وخبرة : ابتلاء واختبار. وعبرة : اعتبار واتعاظ .

الإعراب :

أولاً حال ، ومثله ما بعده من المنصوبات ، والآجال والرياش والمعاش مفعولات به ، والإحصاء مفعول مطلق ، مثل قعدت جلوساً ، لأن الإحاطة تستدعي الإحصاء ، وعدداً مفعول مطلق لأحصاكم ، وقيل : تمييز محول عن مفعول والأصل أحصى عددكم ، مثل وفجّرنا الأرض عيوناً أي عيون الأرض .

المعنى :

(الحمد لله الذي علا بحوله) . ارتفع بقدرته على كل شيء (ودنا بطوله). قرب من خلقه بعطائه وإحسانه ، وفي معنساه قوله (ع) : قرب فنأى ، وعلا فدنا ، وظهر فبطن . أي دنا من الخلق بعلمه بهم وتدبيره لهم ، وعلا عنهم بحقيقته وصفاته ، وظهر للعقول بآثاره ، وخفي عنها بذاته (مانح كل غنيمة وفضل) يعطي الخيرات ، ويكشف الكربات ، قال عز من قائل في الآية ٢ من سورة فاطر: « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له » . (أحمده على عواطف كرمه،وسوابغ نعمه) . كنعمة الوجود والقدرة والإدراك،

والدين والإيمان ، وقبول التوبة والغفران .. الى ما لا يبلغه الإحصاء ، وهنـــاك نعم خفية لا يتنبه إليها إلا القليـــل ، ومنها انه تعالى جعل نفسه كالمقترض من الباذل في سبيله ، وهذا كالقارض مع ان الكل منه واليه .

(واؤمن به أولا بادياً) . أولاً حال من الضمير في «به» العائد اليه تعالى، والمعنى أصدّق بالله الأول بلا أول كان قبله ، والظاهر للناظرين بعجائب خلقـــه وتدبيره (واستهديه قريباً هادياً) . أطلب منه تعالى الهداية ، وهو الهادي والمجيب، والرحيم والقريب (وأستعينه قاهراً قادراً) . أستعين بالله وحده القاهر فوق عباده على كل ما أهمني ، وبخاصة على طاعته ورعايـــة حقوقه (وأتوكل عليه كافياً ناصراً) . أفوض أمري الى الله ، فهو يغنيني عن جميع خلقه ، ويكشف عني شر كل ذي شر .

(وأشهد ان محمداً (ص) عبده ورسوله أرسله لإنفاذ أمره) وهو القيام بواجب الرسالة (وانهاء عـــذره) بإبلاغ الحجج والبينـات الى عباده (وتقديم نذره) بتهديد من عاند بعذاب الحريق .

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال) . أي الآيات التي ذكرها في كتابه دليلاً على وجوب الإيمان به وباليوم الآخر ، وبكتبه ورسله ، وهـــذه الآيات على أنواع : منهـــا ما يصدق عليه المنهج الطبيعي كقوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ــ ١٨٥ الأعراف». ومنها ما يدخل في المنهج العقلي : « انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ــ ٤٦ سبأ » ومنها من باب المنهج الـروحي : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ــ ١٦٩ آل عمران » .

(ووقّت) عين (لكم الآجال) . إشارة الى قوله تعـــالى : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ــ ٣٤ الأعراف » . (وألبسكم الرياش) اللباس (وارفع لكم المعاش) أوسع باب الرزق وسبله ، وكل سبب من الأسباب الطبيعية ينتهي اليه تعالى ، لأنه المبدأ الأول لكل موجود (وأحاط بكم الاحصاء). والاحاطة أعم من الاحصاء لأنها تشمل الموجود والمعدوم ، ولا يكـــون الاحصاء إلا في الموجود : « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ــ ٤٩ الكهف » .

(وارصد لكم الجزاء) . ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

(وآثركم بالنعم السوابغ) . والإيثار عطاؤك ما أنت محتاج اليه ، وهذا لا يجوز في حقه تعالى ، لأنه غني عن العالمين ، وعليه يكون المعنى ان الله سبحانه خصكم بالنعم التامة الكاملة : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة — ٢٠ لقمان » . والظاهرة تدرك بالحس ، والباطنة بالوحي والعقل (والرّفد الروافغ) . أي وخصكم أيضاً بالعطايا الواسعة : « كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً — ٢٠ الاسراء» أي ممنوعاً ، وهؤلاء وهؤلاء إشارة الى أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فعطاؤه يعم الجميع في الدنيا دون استثناء .

(وأنذركم بالحجج البوالغ) . وذكّرنا سبحانه مرات ومرات في كتابه وعلى لسان أنبيائه ، ولم يدع عذراً لنا بجهل أو غفلة (فأحصاكم عدداً) توكيد لقوله: وأحاط بكم الإحصاء (ووظف لكم مدداً) توكيد لقوله : ووقّت لكم الآجال ، والحكمة من هذا التوكيد والتكرار أن يمهد به لقوله : (في قرار خبرة) . أي في دار الدنيا التي يُبتلى فيها الانسان ويُختبر بالنعم والنقم : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون — ١٦٨ الأعراف » . ومن البداهة انه لولا وجود الدعوة والتكليف لكان الاختبار والابتلاء لغواً وعبثاً (ودار عبرة). أي اعتبار بما يحدث فيها من مصائب ومتاعب ، وهذه العبرة ، وتلك الخبرة ضرب من اقامة الحجة على من عاند وخالف (أنتم مختبرون فيها) للتمييز بين المخلص والخائن، والمتواضع والمتكبر (ومحاسبون عليها) بما معكم من عقل وقدرة وارادة ، وبما جاءكم من رسول وكتاب .

ضنك المضجع ووحشة المرجع .. فقرة ٣ — ٥ :

فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا رَدِغٌ مَشْرَعُهَا . يُونِقُ مَنْظَرُهَا وَيُوبِقُ مَخْبَرُهَا . غُرُورٌ حَائِلٌ ، وَظِلٌّ زَائِلٌ ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا ، وَٱطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا ، وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا ، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا ، وَأَعْلَقَتِ ٱلْمَرْءَ أَوْهَاقَ ٱلْمَنِيَّةِ . قَائِدَةٌ لَهُ إِلَى

ضَنْكِ ٱلْمَضْجَعِ وَوَحْشَةِ ٱلْمَرْجِعِ ، وَمُعَايَنَةِ ٱلْمَحَلِّ وَثَوَابِ ٱلْعَمَلِ(٣) وَكَذٰلِكَ ٱلْخَلَفُ يَعْقُبُ ٱلسَّلَفَ . لَا تُقْلِعُ ٱلْمَنِيَّةُ ٱخْتِرَاماً وَلَا يَرْعَوِي ٱلْبَاقُونَ ٱجْتِرَاماً . يَحْتَذُونَ مِثَالاً وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً إِلَى غَايَةِ ٱلْانْتِهَاءِ، وَصَيُّورِ ٱلْفَنَاءِ حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ ٱلْأُمُورُ وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ وَأَزِفَ ٱلنُّشُورُ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ ٱلْقُبُورِ وَأَوْكَارِ ٱلطُّيُورِ ، وَأَوْجِرَةِ ٱلسِّبَاعِ ، وَمَطَارِحِ ٱلْمَهَالِكِ سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ . مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ ، رَعِيلاً صُمُوتاً قِيَاماً صُفُوفاً(٤) يَنْفُذُهُمُ ٱلْبَصَرُ وَيُسْمِعُهُمُ ٱلدَّاعِي . عَلَيْهِمْ لَبُوسُ ٱلْاِسْتِكَانَةِ ، وَضَرْعُ ٱلْاِسْتِسْلَامِ وَالذِّلَّةِ . قَدْ ضَلَّتِ ٱلْحِيَلُ ، وَٱنْقَطَعَ ٱلْأَمَلُ ، وَهَوَتِ ٱلْأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً، وَأَلْجَمَ ٱلْعَرَقُ ، وَعَظُمَ ٱلشَّفَقُ وَأُرْعِدَتِ ٱلْأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ ٱلدَّاعِي إِلَى فَصْلِ ٱلْخِطَابِ وَمُقَايَضَةِ ٱلْجَزَاءِ ، وَنَكَالِ ٱلْعِقَابِ وَنَوَالِ ٱلثَّوَابِ(٥) .

اللغة :

رنق الماء : كدر . والمشرب : مورد الشرب . وردغ مشرعها : كثير الطين والوحل . ويونق : يعجب . ويوبق : يهلك . وأفل القمر : غاب . وسناد – بكسر السين – ما يُستند اليه . ونافرها : أي من كان نافراً عنها . وناكرها: أي من كان منكراً لها . وقمص الفرس : رفع يديه معاً وطرحها وعجن برجليه . وقنصت : اصطادت . واقصدت : أصابت القصد . وأعلقت : ربطت . وأوهاق: جمع وهق وهو الحبل . لا تُقلع : لا تكف . والاخترام : الاستئصال ، يقال: تخرمت المنية القوم أي استأصلتهم . واجترم : ارتكب الجرائم ، واجترح : اكتسب . ويحتذون : يقتدون . وصيور : مصير . وتصرمت : انقضت . وازف : قرب.

ومهطعين : مسرعين . والرعيل : القطعة المتقدمة من الخيل أو الرجال أو الطير أو غير ذلك . واللبوس : ما يلبس . والاستكانــة : الخضوع . والكاظمة : الكاتمة . والهينمة : الصوت الخفي . وزبرة الداعي : زجره وانتهاره . والمقايضة: المعاوضة والمبادلة .

الإعراب :

الدنيا اسم ان ، ومشربها مبتدأ مؤخر ، ورنق خبر مقدم ، والجملة خبر ان، ومشرعها مبتدأ مؤخر ،ردغ خبر مقدم،وغرور خبر مبتدأ محذوف أي هي غرور ، وحائل صفة غرور ، وقائدة حال من المنية ، واخترامــاً منصوب بنزع الخافض أي عن اخترام ، ومثله اجتراماً ، ومثالاً حال أي مشابهين ، أو مفعول مطلق لأن الاحتذاء يتضمن معنى المماثلة والمشابهة ، ومثله ارسالاً ، وسراعاً مصدر في موضع الحال من مفعول أخرجهم أي مسرعين ، ومثله ما بعده من المنصوبات ، وعليهم خبر مقدم للبوس .

المعنى :

(فإن الدنيا رنق مشربها) . أي مشوب بالكدر ، وفي خطبة ثانية: يشربون الرنق أي الكدر (ردغ مشرعها) . الردغ كثير الوحل ، والمراد به هنا مصائب الدنيا ونكباتها ، والمشرع مورد الشرب ، والقصد منه في هذا المكان المورد الذي يطلب فيه الانسان شيئاً من أشياء الدنيا وزينتها ، والمعنى ان الدنيا حُفت بالمكاره والمخاوف (يونق منظرها ، ويوبق مخبرها) . ظاهرها الرحمة ، وباطنها العذاب (غرور حائل) تخدع ضعاف العقول حتى اذا ركنوا اليها تحولت عنهم وغدرت بهم (وضوء آفل) كالبرق، ما إن يلمع حتى يختفي (وظل زائل) . كل نعيم في الدنيا الى انتهاء ، وكل حي فيها الى فناء (وسناد مائل) . من اعتمد عليه سقط وهوى .

(حتى اذا أنس نافرها) أي ركن اليها بعد أن نفر منها (واطمأن ناكرها). عطف تفسير لأن المعنى أنس بها بعد أن تنكر لها (قمصت بأرجلها) . جواب

اذا ، والمعنى بعد أن اطمأن الى الدنيا غدرت به تماماً كالذي علا ظهر الدابة ، ولكنها امتنعت عن السير ، ورفعت يديها في الهواء وطرحتها تفعل ذلك مرات ، وأطلق الإمام (ع) هنا الأرجل على الأيدي تنزيلاً لها منزلة الأرجـل لأن الدابة تمشي على أربع ، فأشبهت الأيدي الأرجل من هذه الناحية (وقنصت بأحبلها) . اصطادت بحبالها (وأقصدت بأسهمها) . أي أصابت بها المقتل (وأعلقت المرء أوهاق المنية) . ربطت بعنقه حبل المشنقة (قائدة له الى ضنك المضجع) أي ضيق اللحد (ووحشة المرجع) وهو المعاد للحساب والجزاء (ومعاينة المحل وثواب العمل) . غداً يشاهد الانسان مكانه في الجنة أو النار قبل أن يدخلها. والخلاصة: ما من شيء في الدنيا يسرك إلا وألصق به شيء يسوؤك .

(وكذلك الخلف يعقب السلف) . هذه هي الحال تجري وتطرد على الآباء والأبناء (لا تُقلِـع المنية اخترامًا) . لا تكف عن إهلاك النـاس واستئصالهم (ولا يرعوي الباقون اجترامًا) . إن الخلف رأى أو سمع ما حل بالسلف ولكنه لم يعتبر ويتعظ ، بل ارتكب الجرائم تماماً كما ارتكبوا (يحتذون مثالاً) . يفعل الأواخر كما يفعل الأوائل (ويمضون إرسالاً) . يسيرون على رسلهم في طريق السابقين (الى غاية الانتهاء وصيور الفناء). أي بلغوا الغاية من ارتكاب المعاصي ، واستمروا عليها حتى هلكوا .

(حتى إذا تصرمت الأمور) أي انقطعت الأعمال في هـذه الحياة ، وانسد باب التوبة حيث جاءت الساعة بعلاماتها ودلالاتها (وتقضت الدهـور) . انتهى عمر الدنيا ، وجاء أجلها المقدر عند الله تعالى (وأزف النشور) . قرب البعث وإعادة الأموات الى الحياة (أخرجهم — الله — من ضرائح القبور) وجمع كل ذرة من الأجساد البالية ، وان استحالت الى تراب أو حيوان أو نبات (وأوكار الطيور وأوجرة السباع) . الأوكار والاوجرة كناية عن بطون الطيور والحيوانات المفترسة ، والمعنى ان الله سبحانه يعيد جسم الانسان الى ما كان حتى ولـو كان قد أكله الطير أو الحيوان ، أما شبهة الآكل والمأكول التي أطال الكلام حولهـا أهل المعقول — فقد أجاب سبحانه عنها بقوله : « وهو عـلى جمعهم إذا يشاء قدير — ٢٩ الشورى » .

وتعرضنا في « التفسير الكاشف » لهذه الشبهة بمناسبة ما جاء في الآية ٤ من

سورة ق ، وفي كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » ، وملخص هـذه الشبهة : إذا أكل الكافر مؤمناً ، واستحال الى لحمه ودمه فإن أدخل الله الكافر النار بالنظر الى كفره تعذب المؤمن « وان أدخله الجنة بالنظر الى إيمان المؤمن تنعم الكافر » .. واطلعت على أجوبة هذه الشبهة في كتاب « الأسفار » للملا صدره وغيره من كتب الفلسفة والكلام ، وما اقتنعت بشيء إلا بقدرة الله على كل شيء . ومن أجوبتهم : ان في كل إنسان أجزاء أصيلة لا تتغير ولا تتبدل آكلة كانت أم مأكولة ، وأخرى دخيلة تتطور وتزول ، والمعاد الأجزاء الأصيلة لا الدخيلة .. وهذا الجواب أو التفلسف يُعبر عن ذات صاحبه ، وليس بفلسفة تعكس الواقع .

(ومطارح المهالك) كالغرق في البحار أو الاحراق بالنار أو القتل في ميدان القتال ، أو مكان الاغتيال ونحو ذلك (سراعاً الى أمره) يستجيبون لدعوة الله (مهطعين) مسرعين (الى معاده) ، وهو اليوم الذي أشار اليه سبحانه بقوله: « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم — ٨٩ الشعراء » . (رعيلاً صموتاً) جماعات صامتين (قياماً صفوفاً) قائمين صافين (ينفذهم البصر) أي انه تعالى يحيط بهم علماً : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية — ١٨ الحاقة » . أي يعلم أعمالهم وسرائرهم في الدنيا ومواقفهم في الآخرة .

(ويُسمعهم الداعي) . كل واحد يسمع صيحة البعث للحساب والجزاء ، ويسرع الى الله أهل السماء والأرض (عليهم لبوس الاستكانة ، وضرع الاستسلام والذلة) . يأتون الى الله أذلاء خاضعين خاشعين لا حول لهم ولا طول إلا الاستسلام لعزة الواحد القهار (قد ضلت الحيل ، وانقطع الأمل) حيث لا عمل آنذاك ، ولا خيار واستغفار ، ولا صلات وعلاقات .. أبداً لا شيء إلا السؤال والأهوال ، والندم على ما مضى وفات ، وأشقى الناس من كان قد قصر وسوّف .

(وهوت الأفئدة كاظمة) . أي ان القلوب يوم القيامة تكون هواء وخواء قد أذهب الرعب كل ما فيها من شعور وإدراك ، وأمل ورجاء بالنجاة والسلامة ، ومع هذا لا يستطيع الانسان قولاً ولا عملاً إلا تجرع الغيظ وكتمه (وخشعت الأصوات مهينمة) أي سكنت وذلت متخافتة : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً — ١٠٨ طه » . (وألجم العرق) لأنه بلغ الأفواه (وعظم الشفق) أي الخوف (وارتعدت الأسماع) أصابتها الرعدة خوفاً من الله تعالى وأيضاً (لزبرة الداعي) أي صيحته (الى فصل الخطاب) . الحساب الكامل ،

والقضاء العادل (ومقايضة الجزاء) أي المبادلة بالمثل ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر (ونكال العقاب) لمن عصى (ونوال الثواب) لمن أطاع .

وجل فعمل .. فقرة ٦ — ٨ :

عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ اقْتِدَاراً ، وَمَرْبُوبُونَ اقْتِسَاراً ، وَمَقْبُوضُونَ احْتِضَاراً ، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً ، وَكَائِنُونَ رُفَاتاً ، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً ، وَمَدِينُونَ جَزَاءً ، وَمُمَيَّزُونَ حِسَاباً . قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ الْمَخْرَجِ وَهُدُوا سَبِيلَ الْمَنْهَجِ ، وَعُمِّرُوا مَهَلَ الْمُسْتَعْتَبِ ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ الرِّيَبِ ، وَخُلُّوا لِمِضْمَارِ الْجِيَادِ ، وَرَوِيَّةِ الِارْتِيَادِ ، وَأَنَاةِ الْمُقْتَبِسِ الْمُرْتَادِ فِي مُدَّةِ الْأَجَلِ وَمُضْطَرَبِ الْمَهَلِ(٦) . فَيَا لَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً ، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً . لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً ، وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً ، وَآرَاءً عَازِمَةً ، وَأَلْبَاباً حَازِمَةً . فَاتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ ، وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ ، وَوَجِلَ فَعَمِلَ ، وَحَاذَرَ فَبَادَرَ ، وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ ، وَعُبِّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَحُذِّرَ فَحَذِرَ وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ وَأَجَابَ فَأَنَابَ ، وَرَجَعَ فَتَابَ ، وَاقْتَدَى فَاحْتَذَى ، وَأُرِيَ فَرَأَى(٧) . فَأَسْرَعَ طَالِباً وَنَجَا هَارِباً . فَأَفَادَ ذَخِيرَةً ، وَأَطَابَ سَرِيرَةً ، وَعَمَّرَ مَعَاداً ، وَاسْتَظْهَرَ زَاداً . لِيَوْمِ رَحِيلِهِ ، وَوَجْهِ سَبِيلِهِ ، وَحَالِ حَاجَتِهِ ، وَمَوْطِنِ فَاقَتِهِ ، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ . فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ ، وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا

حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاسْتَحِقوا مِنْـــهُ مَا أَعَدَّ لَـكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ ، وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ(٨) .

اللغة :

مربوبون : مملوكون . اقتساراً : قسراً وقهراً . والاحتضار : حضور الموت . والأجداث : القبور . والرفات : الحطام . والمخرج : طريق الخلاص. والمنهج: الطريق الواضح . والمهل : الإمهال . والمستعتب : طالب العتبى أي الرضا،وعليه فمعنى المستعتب المسترضي . وسدف – بضم السين – جمع سدفة بفتحها ، وهي الظلمة . والريب – بفتح الياء – جمع ريبة أي الشك والتهمة . والمضمار : المكان أو الزمان الذي تُضمَّر فيه الخيل . والروية : إعمال الفكر . والارتيـاد : طلب ما يراد . والمضطرب : مكان أو زمان الحركة . واقترف : اكتسب . وعبُتّر أي أراه الواعظ أو أسمعه العبـر . واستظهر على فلان : غلبه ، واستظهر القرآن: حفظه ، واستظهر الزاد: أعده . والمراد بالكنه هنا الغاية . والمعاد : من الإعادة، والمراد به هنا الآخرة ، والميعاد من الوعد .

الإعراب :

عباد أي أنتم عباد ، ومخلوقون صفة ، وقيل : إن اقتداراً واقتساراً منصوبان على التمييز ، والصحيح أنهما : مفعول مطلق مبينان للنوع ، مثـل سرت حسناً ، أي أنتم مخلوقون بقدرة الله لا صدفة ، ومملوكون قسراً لا اختياراً ، وقيــل : ان احتضاراً حال ، وهذا جائز أي مقبوضون محتضرين ، ويجوز أيضاً أن يكون مفعولاً مطلقاً ، لأن القبض يتضمن معنى الاحتضار أي حضور الموت ، وأجداثاً مفعول فيه أي في الأجداث ، ورفاتاً منصوب بـ « كائنون » أي يصيرون رفاتاً، وأفراداً حال ، وجزاء مفعول مطلق لأن « مدينون » بمعنى مجازين ، وقال بعض الشارحين : ان حساباً مفعول مطلق ، ورد عليه شارح آخر بقوله : بل هــو منصوب بنزع الخافض ! والصحيح انه مفعول من أجله ، أي أنتم مميزون غــداً

من أجل الحساب، وأصل عمروا مهل المستعتب عمروا مدة مثل مدة إمهال المستعتب، ثم حذف المضاف اليه وأقيم المضاف مقامه ، وانتصب انتصابه ، ويا لهـا « يا » حرف نداء ، والمنادى محذوف أي يا قوم ، واللام في « لها » للتعجب ، وأمثالاً تمييز مبين لضمير « لها » وصائبة صفة ، وطالباً حال ، ومثله هارباً ، وجهة ظرف متعلق بمحذوف حالاً من واو اتقوا أي متوجهين الى الجهة أو الناحية التي خلقتم لها ، وبالتنجز متعلق باستحقوا .

المعنى :

(عباد مخلوقون اقتداراً ، ومربوبون — أي مملوكون — اقتساراً) . الكون بما فيه فيض من قدرته تعالى ، وفي ملكه وسلطانه قسراً وقهراً عن المملوك ، لأن من ملك الاختيار لا يكون رقاً مستعبداً (ومقبوضون احتضاراً) ان الله سبحانه يقبض كل حي بحضور الموت (ومضمّنون أجداثاً) ويا لها من حفرة موحشة (وكائنون رفاتاً) تراباً وعظاماً (ومبعوثون أفراداً) بلا مال ولا ناصر : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاء — ٩٤ الأنعام » . (مدينون جزاء) حسب ما كنتم تعملون ، وفي خطبة ثانية : كما تدين تدان ، وكما تزرع تحصد ، وما قدّمت اليوم تقدم عليه غداً (ومميزون حساباً) يميز الله العباد يوم القيامة بعضهم عن بعض من اجل الحساب كلاً على حدة ، أو ان الخبيث يتميز عن الطيب بعد الحساب .

(قد أمهلوا في طلب المخرج) . الله عادل ورحيم ، ومن عدله أن لا يعذب أحداً حتى يقيم الحجة عليه بالبيان منه تعالى ، والعصيان من العبد ، ومن رحمته، جلت حكمته ، أن يمهل العاصي في دار الدنيا ، ويفتح له باب التوبة من الذنب والخلاص من العذاب ، فإن تاب وأناب غفر له ، وان أصر واستمر في التقصير والإهمال استحق العقاب بإرادته وسوء اختياره (وهُدوا سبيل المنهج) . أرشد سبحانه عباده الى الطريق الواضح للخلاص والنجاة بما منحهم من إدراك وقدرة وإرادة ، وبما أرسل من رسل وأنزل من كتب .

(وعمروا مهل المستعتب) . بعد أن هداهم سبحانه وأقدرهم أعطاهم من العمر ما لا عذر لهم معه ان قصروا وأهملوا ، لقد أمهلهم أمداً يتسع للتوبة وطلب

المغفرة تماماً كما يجد أحدهم الوقت الكافي لطلب الرضا ممن يبتغي مرضاته والقرب منه (وكشف عنهم سدف الريب) عطف تفسير على قوله : « وهدوا سبيل المنهج » لأن الهداية الى الطريق الواضح والكشف عن ظلمة الشك والجهل بمعنى واحد (وخلّوا لمضمار الجياد) وهي الخيل ، والمعنى انه تعالى أفسح المجال في الدنيا لعباده – كما يُفسح المضمار للخيل – كي يستبقوا الخيرات قبل الممات (وروية الارتياد) . وأيضاً أفسح لهم المجال كي يفكروا ويتدبروا فيما ينبغي أن يطلب ويراد ، وهو الخلاص من العقاب والعذاب (وأناة المقتبس المرتاد ، ومضطرب المهل) . قال الشيخ محمد عبده : « المقتبس المرتاد أي الذي أخذ بيده مصباحاً ليرتاد على ضوئه شيئاً غاب عنه ، ومثل هذا يتأنى في حركته خوف أن يطفأ مصباحه ، وخشية أن يفوته في بعض خطواته ما يفتش عليه لو أسرع ، فلذا ضرب المثل به ، والمضطرب مدة الاضطراب أي الحركة في العمل » .

(فيا لها – الى عازمة) . يقول الإمام (ع) : بثثت لكم من المواعظ ما لو صادفت قلوباً طيبة لآتت أكلها الطيب في كل حين، ومن البداهة أن البذر الصالح لا يجدي شيئاً اذا زرع في أرض خبيثة : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً – ٥٨ الأعراف » . وقال الإمام في خطبة ثانية: قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم،وأديت اليكم ما أدت الأوصياء الى من بعدهم ، وأدبتكم بسوطي فلم تستمعوا .

(فاتقوا الله تقية من سمع – الموعظة – فخشع) لله وحده ، أما من يخشع ويخضع لعبد مثله فهو ذليل وحقير ، ومجرم آثم (واقترف فاعترف) . اكتسب إثماً فندم وتاب (ووجل فعمل) لأن من خاف من شيء ظهر خوفه في عمله (وحاذر فبادر) عطف تفسير على وجل فعمل (وأيقن فأحسن) أي فهم الحق والدين على وجهه ، وأحسن في العمل به (وعُبّر – الى – فرأى) . هذه الجمل السبع ترجع كلها الى معنى واحد ، وهو وُعظ فاتعظ ، وكما يكون الوعظ بآية أو رواية أو حكمة يكون أيضاً بالتجارب ، بل هي أنفع وأبلغ ، ومن لا ينتفع بها فهو مجرم أصيل ، أو قاصر عليل .

(فأسرع طالباً ، ونجا هارباً) . هرب من المحرمات، وسارع الى الواجبات، فنجا وسلم (فأفاد ذخيرة) ليوم تبلى فيه السرائر ، وتذخر فيه الذخائر (وأطاب

سريرة) بحسن النية وسلامة القصد (وعمّر معاداً — الى — دار مقامة) . أي تزود بالعمل الصالح ليوم الفزع الأكبر ، فهو وجـه السبيل ، واليه الرحيل ، والإقامة فيه دائمة ، ولا يسد فاقته إلا زاد التقوى (فاتقوا الله عباد الله وجهة ما خلقكم له) . خلق الله العباد لحياة أفضل ، ولا تكون ولن تكون هذه الحياة إلا لمن جاهد وأخلص .

(واحذروا منه كنه ما حذركم من نفسه) . احترزوا من معصية الله،وابتعدوا عنها ، وأطيعوه في أمره ونهيه حتى تبلغوا الغاية والنهاية من طاعته .. وقد حذر سبحانه العصاة ، وهددهم بعذابه حيث قال : «وإياي فارهبون — ٤٠ البقرة » . وقال : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدود الله يدخله ناراً خالداً فيها ولـه عذاب مهين — ١٤ النساء » . وتقدم مثلـه في الخطبة ٢٣ فقرة ٢ (واستحقوا منه ما أعـد لـكم بالتنجز لصدق ميعاده ، والحذر من هول معاده) . يستحق العباد من خالقهم حسن الثواب شريطة أن يصدقوه في وعده فعلاً وقولاً ، وقد أشار الى هذا الوعد بقوله : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم — ٩ المائدة » أما من كذّب وتولى فقد توعده بقوله : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم — ٦٨ التوبة » .

القلوب قاسية لاهية .. فقرة ٩-١٣ :

جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا ، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا ، وَأَشْلَاءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا ، مُلَائِمَةً لِأَحْنَائِهَا ، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا وَمُدَدِ عُمُرِهَا ، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا ، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا ، فِي مُجَلِّلَاتِ نِعَمِهِ ، وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ(٩) وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلَاقِهِمْ وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ . أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ

الْآمَالِ ، وَشَذَّ بِهِمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الْآجَالِ . لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلَامَةِ الْأَبْدَانِ ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ الْأَوَانِ[١٠] . فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلَّا حَوَانِيَ الْهَرَمِ ، وَأَهْلُ غَضَارَةِ الصِّحَّةِ إِلَّا نَوَازِلَ السَّقَمِ ، وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلَّا آوِنَةَ الْفَنَاءِ مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ وَأُزُوفِ الِانْتِقَالِ وَعَلَزِ الْقَلَقِ ، وَأَلَمِ الْمَضَضِ وَغُصَصِ الْجَرَضِ ، وَتَلَفُّتِ الِاسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ وَالْأَقْرِبَاءِ وَالْأَعِزَّةِ وَالْقُرَنَاءِ[١١] . فَهَلْ دَفَعَتِ الْأَقَارِبُ أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ . وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ رَهِيناً ، وَفِي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً . قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ ، وَأَبْلَتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ ، وَعَفَّتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ ، وَمَحَا الْحِدْثَانُ مَعَالِمَهُ ، وَصَارَتِ الْأَجْسَادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا ، وَالْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا ، وَالْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا ، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبَائِهَا . لَا تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا ، وَلَا تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئِ زَلَلِهَا[١٢] . أَوَلَسْتُمْ أَبْنَاءَ الْقَوْمِ وَالْآبَاءِ ، وَإِخْوَانَهُمْ وَالْأَقْرِبَاءَ . تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ ، وَتَطَأُونَ جَادَّتَهُمْ . فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا ، لَاهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا سَالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا . كَأَنَّ الْمَعْنِيَّ سِوَاهَا ، وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا[١٣] .

اللغة :

جلا المرآة صقلها ، وجلا عن الأمر أوضحه وأزال عنه الشك والريب ، وعن

البلد فارقه ، وهذا المعنى هو المراد من قوله : لتجلو عن عشاها أي عن عماها . والاشلاء : جمع الشلو – بكسر الشين – وهو العضو ، والمراد به هنا الجسد . والأحناء : جمع حنو – بكسر الحاء – وهو كل ما اعوجّ من البدن ، وقيل: يجوز فتح الحاء . والارفاق : جمع الرفق أي اللطف واللين، ولكن المراد بها هنا الأعضاء التي يستعان بها على قضاء الحاجة . والرائدة : الهادية ، لأن الرائد يهدي أهله الى طريق السلامة . ومجللات : من جلل الشيء أي عمّ ، ويقال : جلل المطر الأرض إذا عمها وطبقها . والخلاق : النصيب ، قال تعالى : « ما له في الآخرة من خلاق ١٠٢ البقرة » . والخناق : ما يخنق به من حبله ونحوه . وأرهقتهم : أعجلتهم . وشذبهم : فرقهم . وأُنف – بضم الألف والنون – أول. والبضاضة : الرقة والنعومة ، والمراد بها هنا القوة والنشاط . والحواني : جمع الحنو – بفتح الحاء وسكون النون – ضد الاستقامة . والغضارة : طيب العيش وسعته . وآونة : أزمنة ، والمفرد أوان مثل أزمنة وزمان . والزيال : الفراق . والأزوف : القرب . وعلز : اضطرب أو هلع أو ارتعد . وجرض بريقه : ابتلعه على هم . وهتكت : قطعت . والهوام : كل ذي سم قاتل كالحيات وما اليها . والحدثان : النوائب . والمعالم : الآثار التي يُستدل بها . وشحبة : هازلة حلة . ونخرة بالية . والأعباء : الأثقال . والقدة – بتشديد الدال – الطريقة .

الإعراب :

واشلاء عطف على « أسماعاً » وجامعة صفة لها ، وملائمة حال من الأعضاء ، وفي مجللات متعلق بمحذوف حالاً من الخطاب في « لكم » أي كائنين في مجللات نعمه ، ورهيناً حال من ضمير غودر ، ومثله وحيداً ، فالقلوب مبتدأ ، وقاسية ولاهية وسالكة اخبار له .

المعنى :

أشار الإمام (ع) هنا الى طرف من نعم الله على عباده التي لا يبلغها الإحصاء، ومنها (جعل لكم اسماعاً لتعي ما عناها ، وأبصاراً لتجلو ما عشاها) . أي ما عمي عنه غير أولي الأبصار .. ومن البداهة أن السمع والبصر طريقان للعلم والفهم

وقد عبّر بهما سبحانه عن علمه حيث قال : « ليس كمثله شيء وهـو السميع البصـير – ١١ الشورى » أي العالم بكل شيء ، كما وصف عظمت كلمتـه ، الجاهلين والمعاندين بالصم البكم ، العمي . وقدم الإمام السمع على البصر في الذكر تبعاً للقرآن الكريم حيث ذكر السمع أولاً في العديد من الآيات ، منها آية السميع العليم ، ومنها : « وجعل لكم السمع والأبصار – ٧٨ النحل » .

وقرأت نقـلاً عن علماء التشريح : ان جهاز السمع أرهف وأدق من جهاز البصر ، فهو يدرك المجردات كالموسيقى وتداخل النغمات ، وان الولد قـد يتوه عن عين أمه في الزحام ، ولا يتوه عن سمعها .. وكلنا يعلم ان عـلم التشريح لم يصل عند نزول القرآن إلى ما وصل اليه اليوم ومع ذلك يذكر القرآن السمع مقدماً على البصر في أكثر من سبعة عشر موضعـاً .. فمن أين جاء محمد (ص) بهـذا العلم ان لم يكن من عند الله ؟ وبهذه المناسبة نشير الى ان الغالب ان يذهب السمع و يضعف عند الكبر قبل ذهاب البصر ، أو ضعفه .

هل أعضاء الانسان تعقل ؟

(وأشلاء جامعة – الى – حوافز عافيته) ملائمة لاحنائها أي ان انحناء كل عضو يناسب وظيفته ، وقائمة بأرفاقها : بأعمالها ووظائفها ، ورائدة لأرزاقها : تهدي الى طريق الرزق ، وفي مجللات نعمه : أنتم غارقون في نعم الله، وحواجز عافيته : منحكم الله العافية التي تحجز وتدفع عنكم الكثير من المتـاعب والآلام ، والمعنى الجامع لذلك كله انه من عظيم نعم الله على الانسان ، وعجيب حكمتـه أن يتكوّن جسمه من أعضاء تقوم بأعمالها ووظائفها بيسر وسهولة بحيث لـو كان العضو على غير الكيفية التي هو عليها ، أو في غير المكان الذي هو فيه – لتعذر الانتفاع به على الوجه المطلوب .

وأغرب ما قرأت في هذا الباب أن متخصصاً بعلم وظائف الأعضاء ، اسمـه الدكتور « اليكسيس كاريل » ، قال في كتابه « الانسان ذلك المجهول » : ان كل عضو من جسم الانسان هو بالذات يعقل ويدرك ما يُطلب منـه في الحاضر والمستقبل ، ويعمل في ضوء معرفته هذه لصالح الجسم ، ويدرك الجسم كل ما

هو قريب وبعيد ، وكل ما هو آني ومقبل فيما يختص به ويعود عليه بالنفع[1] .

ونحن لا نشك في ان الأعضاء لا تدرك شيئاً .. ولكن كل نظام متناسق ومستمر لا يمكن أن يحدث إلا عن قصد حكيم ، وكل قصد لا بد أن يهدف الى غاية ، ويسمى هذا عند الفلاسفة « بقانون الغائية ». ومن البداهة ان الأعضاء وسيلة لا غاية . واذن فالعالم القاصد الحكيم هو الذي خلق الأعضاء وسوّاها ، وجعلها وسائل الى مصلحة الانسان وأغراضه .

(وقدر لكم أعماراً سترها عنكم) . لحياة الانسان أجل يسدد الحساب عند حلوله ، ولكن متى وأين يحل ويجب ؟ ذلك في علم الله وحده : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً – ١٤٥ آل عمران » . (وخلف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم) . جعل سبحانه لكم من آثار الأولين تبصرةً ومزدجراً عن معصيته ان كنتم تعقلون ، ثم أشار الإمام الى بعض تلك الآثار بقوله : (من مستمتع خلاقهم ، ومستفسح خناقهم) . مستمتع بفتح التاء اسم مفعول ، ومثله مستفسح ، والمعنى ان الله قد أفسح للماضين ، وأمدّ في حياتهم ، ولم يأخذ الموت بخناقهم حتى استوفوا نصيبهم من متع الحياة وزينتها .

(أرهقتهم المنايا دون الآمال ، وشذّبهم عنها تخرّم الآجال) . لم يكتفوا بما نالوا من متع الحياة ، بل كانت لهم آمال طوال عراض ، ولكن الموت بدّد شملهم وأعجلهم قبل أن يبلغوا ما كانوا يطمحون اليه ، ولم يبق منهم إلا الآثار لتكون عبرة لمن اعتبر (لم يمهدوا في سلامة الأبدان) . أي لم يستعدوا ويتزودوا في دار الدنيا – وهم في تمام الصحة وكمال العافية – ليوم الآخرة (ولم يعتبروا في أنف الأوان) في أول زمانهم حيث كان في مقدورهم أن يعملوا لأنفسهم ما يجدونه ذخراً عند الله ..

(فهل ينظر أهل بضاضة الشباب إلا حواني الهرم) . لا شيء بعد الشباب إلا المشيب ، ولا شيء مع المشيب إلا الهزال والأدواء والآلام والانحناء (وأهل غضارة الصحة إلا نوازل السقم) . قد يفاجئك المرض ، وأنت آنس ما تكون في صحتك ، ويداهمك الحزن والفزع ، وأنت في ساعة الأمن والسرور (وأهل مدة البقاء إلا آونة الفناء) . كل مدة في الدنيا الى انتهاء ، وكل حي الى فناء

---

١ كتاب كيف يحيا الانسان للفيلسوف الصيني « لين يوتانج » ص ٦١ طبعة سنة ١٩٦٧ .

(مع قرب الزيال) الفراق (وأُزوف الانتقال) عطف تفسير عن قرب الزيال (وعلز القلق) . أي ان القلق يجعله يرتعد ويضطرب ، يقال : بات فلان علزا أي قلقاً مضطرباً .

(وألم المضض) . وهو ما يحسه الانسان من الحزن عند المصيبة (وغصص الجرض) . يبتلع ريقه على همّ وغمّ (وتلفت الاستغاثة بنصرة الحفدة والأقرباء والأعـزة والقرناء) . اذا جاءت سكرة الموت بالحق نظر المحتضر الى الأهـل والأصحاب كأنه يطلب منهم النجدة ، ولكن « متطلباً في الماء جذوة نار » . ومن خطبة ثانية : فصار بين أهله لا ينطق بلسانه ، ولا يسمع بسمعه، يردد طرفه بالنظر في وجوههم يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم (فهل دفعت الأقارب ، أو نفعت النواحب) . أي الباكون .. كلا ، لا يدفع ولا ينفع إلا العمل الصالح .

(وقد غودر في محلة الأموات رهيناً ، وفي ضيق المضجع وحيداً) حبيساً في لحده الى يوم يبعثون (قد هتكت الهوام جلدته). أكلت الحشرات لحمه، وامتصت دمه حتى صار عظاماً وحطاماً (وأبلت النواهك جدتـه) . النواهك النوائب ، والجدة ضد البلى أي صيّرته النوائب رثاً بالياً بعد أن كان نامياً قوياً (وعفت العواصف آثاره ، ومحا الحدثان معالمه) . درست الرياح والأمطار ومرور الزمان قبره ودياره ، واسمه وأخباره ، ولم يبق من شيء يدل عليه ، ويومىء اليه من قريب أو بعيد (وصارت الأجساد شحبة بعد بضتها) . كان الجسم ممتلئاً ناعماً، فأصبح هزيلاً واهياً (والعظام نخرة) أي بالية (بعد قوتّها) أيام حياته وشبابه.

(والأرواح مرتهنة بثقل أعبائها) . الانسان روح وبدن ، والبدن بعد الموت للعفونات والحشرات ، أما الروح فلهول الحساب عن الأعمال وما حملت من الأثقال (موقنة بغيب أنبائها) . جمع نبأ ، وهو الخبر ، والمعنى ان الله سبحانه يكشف للروح غداً عن جزاء ما عملت من خير أو شر : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ـ ٣٠ آل عمران » . (لا تستزاد من صالح عملها) . أي لا تكلف الأرواح في الآخرة بأن تزيد من صالح الأعمال حيث لا شيء هناك إلا الحساب والجزاء (ولا تستعتب من سيء زللها) . لا تتاح لها الفرصة لكي تتوب عن سيئاتها وتطلب الإقالة منها .

(أولستم أبناء القوم والآباء واخوانهم والأقرباء) . كـــل انسان هو ابن أو ابن وأب وأخ وقريب لغيره ، وما من أحد إلا وفقد أباه أو ابنه أو واحداً من من أقاربه ، وقد رآه في سكرات الموت وهو يجود بنفسه ، ومحمولاً في جنازته ، وموسداً في لحده ، وأيضاً بكاه وعُزي به ، واذن كيف لا يعتبر ويتعظ بمـــا رأى وسمع ؟ (تحتذون أمثلتهم ، وتركبون قدتهم ، وتطأون جادتهم). اعتبروا واتعظوا بمن كان قبلـكم ، فإنكم سالكون مسلكهـــم ، ومنتهون الى مصيرهم لا محالة .

(فالقلوب قاسية عن حظها) . يقال : أرض قاسية أي لا تنبت ولا تنتج شيئاً ، والمراد هنا ان قلوبهم لا نصيب لها من حسن الثواب لأنها ما أنتجت شيئاً يعود عليها أو على غيرها بالخير (لاهية عن رشدها ، سالكة في غير مضمارها) . أي غافلة ذاهلة عن مصلحتها ، وعما يراد بها ، وسلكت طريقاً تؤدي بهـــا الى الهاوية (كأن المعني سواها) من خطاب الإرشاد والهدايـــة (وكأن الرشد في إحراز دنياها) فقط ، أما الآخرة فهي نسياً منسياً . ومن أقوال الإمام (ع) : ما نقص من الدنيا ، وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة ، وزاد في الدنيا ، فكم من منقوص رابح ، ومزيد خاسر .

وبعد ، فإن من يمعن النظر في أقوال الإمـــام (ع) وهو يصف الانسان في دنياه ، وفي قبره ، ثم في موقفه للحساب – لا بد أن يتساءل : لماذا كل ذلك؟ وهل المراد مجرد التخويف من المعصية ، والترغيب في الطاعة ؟.

وليس من شك ان كلام الإمام شرح وتفسير لظاهر القرآن الكريم ، وما زاد عليه شيئاً ، والعمل بالظاهر هو الأصل ، ولا يجوز العدول عنه إلا بدليل يصرف الكلام عن ظاهره ، ولا دليل من النقل ولا من العقل،وعليه فحساب القبر حق.

المجاز على الصراط .. فقرة ١٤ – ١٦ :

وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلى ٱلصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ ، وَأَهَـــاوِيلِ زَلَلِهِ وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ فَاتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ ٱلتَّفَكُّرُ قَلْبَهُ ، وَأَنْصَبَ

ٱلْخَوْفُ بَدَنَهُ ، وَأَسْهَرَ ٱلتَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ وَأَظْمَأَ ٱلرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَظَلَفَ ٱلزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ ، وَأَرْجَفَ ٱلذِّكْرُ بِلِسَانِهِ وَقَدَّمَ ٱلْخَوْفَ لِأَمَانِهِ ، وَتَنَكَّبَ ٱلْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ ٱلسَّبِيلِ ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ ٱلْمَسَالِكَ إِلَى ٱلنَّهْجِ ٱلْمَطْلُوبِ(١٤) ، وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ ٱلْغُرُورِ ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ ٱلْأُمُورِ . ظَافِراً بِفَرْحَةِ ٱلْبُشْرَى وَرَاحَةِ ٱلنُّعْمَى فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ . قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ ٱلْعَاجِلَةِ حَمِيداً ، وَقَدَّمَ زَادَ ٱلْآجِلَةِ سَعِيداً ، وَبَادَرَ مِنْ وَجَلٍ ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ ، وَنَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ فَكَفَى بِٱلْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً ، وَكَفَى بِٱلنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً ، وَكَفَى بِٱللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً ، وَكَفَى بِٱلْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً(١٥) أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللهِ ٱلَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ ، وَٱحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ ، وَحَذَّرَكُمْ عَدُوّاً نَفَذَ فِي ٱلصُّدُورِ خَفِيًّا وَنَفَثَ فِي ٱلْآذَانِ نَجِيًّا ، فَأَضَلَّ وَأَرْدَى ، وَوَعَدَ فَمَنَّى ، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ ٱلْجَرَائِمِ ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ ٱلْعَظَائِمِ ، حَتَّى إِذَا ٱسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ وَٱسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ وَٱسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ(١٦) .

اللغة :

مزالق : جمع مزلق ، وهو المكان الذي لا يثبت عليه قدم . والدحض : الزلق والبطلان ، قال تعالى : « حجتهم داحضة عند ربهم — ١٦ الشورى »

أي باطلة . والتارات : جمع تارة،وهي المرة والدفعة والفرصة والحين . والتهجد: سهر الليل للعبادة . والغرار : القليل . وأنصب : أتعب . وهواجر : جمع هاجرة ، وهي نصف النهار في القيظ . وظلف : كفّ . وأوجف : أسرع . وتنكّب : مالَ . والمخالج : الطرق المتشعبة المتفرعة عن الطريق الأصيل . وأقصد المسالك : أقومها . ولم تفتله : لم ترده . والنعمى : سعة العيش . والعاجلة : الدنيا . والآجلة : الآخرة . وأكمش : مضى وأسرع . في مهل : في مهلة الحياة وفرصتها . وذهب عن هرب : هرب مما يجب الهروب منه . بما نهج : بما وضح وتبين . وقرينته : النفس التابعة له ، قال تعالى : « نُقيض له شيطاناً فهو له قرين — ٣٦ الزخرف » .

الإعراب :

خبر ان مجازكم محذوف ، تقديره كائن لا محالة . وظافراً حال من ضمير « عليه » ، وبفرحة متعلق بـ « ظافراً » ، وفي أنعم متعلق براحة ، وقدماً — بضم القاف والدال — قائم مقام الحال أي متقدماً لا يلوي على شيء ، وبالجنة الباء زائدة ، والجنة فاعل كفى ، وثواباً تمييز ، ومثله كفى بالنار عقاباً ، ومنتقماً حال ، ومثله حجيجاً وخفياً ونجياً .

للمنبر — حول الصراط :

(اعلموا ان مجازكم — الى — أهواله) . قال جماعة كُثْر : ان الصراط شيء يُرى ويحس ، وهو فوق جهنم ، أوله في الموقف ، وآخره عند أبواب الجنة ، أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف ، وأشد حراً من نار جهنم ، والله سبحانه يأمر عباده جميعاً أن يمروا عليه ، فمن ساء عمله يهوي في النار قبل أن يتم الخطوة الأولى ، ومن أحسن عملاً ولم يكتسب إثماً مر عليه كالبرق الخاطف، واما الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً — فيجتازونه على حسب أعمالهم ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجليه، ومنهم كراكب الفرس .

وليس في كتاب الله أية إشارة الى هذا الصراط الدقيق الخطير ، والآيات التي ذكرت كلمة الصراط تدل بصراحة على ان المراد بالصراط طريق الحق والهداية، ومن أجل هذا اضطر الشيخ الصدوق وغيره من القائلين بالصراط الحسّي — أن يستدلوا بقوله تعالى : « وانْ منكم إلا واردها — ٧١ مريم » . ولم يتضح لدي وجه الدلالة في هذه الآية على الصراط ، ولا العلاقة بينه وبين الورود ، والأصل عدم التأويل ، وأبعد من هذا الاستدلال وأغرب استدلال ابن عربي في الفتوحات المكيّة بقوله تعالى : « ان ربك لبالمرصاد » .

وغير بعيد أن يكون المراد بالصراط هنا في قول الإمام (ع) نقاش الحساب الذي يُرهق ويُهلك المجرمين والمترفين ووطأة الحساب تشبه وطأة الحريق الى حد بعيد .

وقال زاهد لصاحبه : أتحب انك شجرة، وتنجو من الحساب ؟ قال صاحبه: لا . قال الزاهد : أما أنا فأود اني شجرة تأكلني الراحلة ، ثم تقذفني بعراً ، ولا أكابد الحساب يوم القيامة ، اني أخاف الداهيـة الكبرى ، وقال تعالى : « ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً — ٤٩ الكهف » . وعلى أية حال فإن على المؤمن أن يعتقد بالحساب والجزاء العادل ، أما التفاصيل والكيفيات فغير مسؤول عنها .

(فاتقوا الله عباد الله تقية ذي لب شغل التفكر قلبه) . أعمل فكره في كل آية وعظة ، فتدبرها واتعظ بها .. فكر ذو اللب طويلاً لكي يعلم ويعمل على هدى وبصيرة (وأنصب الخوف بدنه) . خاف فأطال في مرضاة الله اجتهاده، وأتعب نفسه وبدنه ليأمن من غضبه تعالى وعذابه (وأسهر التهجد غرار نومه) . سهر طويلاً يتعبـد ويتضرع ، وأفضل أنواع العبادة بلا استثناء العمل لمنفعة النـاس والصالح العام (وأظمأ الرجاء هواجر يومه) . المؤمن الأصيل يظمأ ويتشوق الى ما أعد الله له من حسن الثواب ، تماماً كالظمآن في شدة الحر يتشوق الى الماء ، وما طمع المؤمن المخلص بثوابه تعالى وحسن جزائه إلا لثقته بالله ووعده ، وبدافع من هذه الثقـة أتعب نفسه وبدنه في سبيـل مرضاته تعالى ، ولولاها ما عمل ولا رجا .

(وظلف الزهد شهواته) . زهد في الدنيا فاستهان بها ، وألجم نفسه عما يغضب خالقه ، وقادها الى مرضاته (وأوجف الذكر بلسانه) . أسرع لسانه الى الصدق والذكر ، لا الى الكذب والكفر (وقدّم الخوف لامانه) . عمل في دنياه لآخرته ليكون في سلام وأمان من آلامها وسهامها (وتنكب المخالج عن وضح الطريق) . عدل عما يبعده عن السبيل الواضح الى الله وثوابه (وسلك أقصد المسالك) أي أقومها (الى النهج المطلوب) لله تعالى (ولم تفتله) أي ترده وتصده (فاتلات الغرور) . وهي التي تغري بالرذيلة ، وتصد عن الفضيلة (ولم تعم عليه مشتبهات الأمور) . لأنه لا يقول ولا يفعل حتى يكون على بينة من ربه .

(ظافراً بفرحة البشرى ، وراحة النعمى) . المراد بالبشرى ما أشارت اليه الآية ٢٥ من سورة البقرة : « وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » . اما الفرحة فعند دخول هذه الجنة (في انعم نومه ، وآمن يومه) . كناية عن متعة الروح ، وراحة البدن ، وبهما غنى عن الحرام ولذته (وقد عبر معبر العاجلة حميداً ، وقدّم زاد الآجلة سعيداً) . خرج من الدنيا طاهراً نقياً ، وورد الآخرة راضياً مرضياً بما قدم لها من صالح الأعمال ، ومحامد الأفعال (وبادر من وجل) . أسرع الى مرضاة الله خوفاً من غضبه (واكمش في مهل) . انتهز الفرصة أيام حياته وعمل للجنة عملها، قال الإمام: اعملوا والألسنة مطلقة ، والأبدان صحيحة قبل إرهاق الفوت ، وحلول الموت .

(ورغب في طلب) الحق (وذهب عن هرب) أي ابتعد عما يجب الابتعاد عنه خوفاً من الله (وراقب في يومه غده) . عمل في دنياه لآخرته (ونظر قُدماً أمامه) مضى في سبيل الخير لا يلوي على شيء (وكفى بالجنة ثواباً ونوالاً ، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً) . لأن كل نعيم دون الجنة فهو محقور ، وكل بلاء دون النار عافية كما قال الإمام (وكفى بالله منتقماً) من أهل الشر والفساد (ونصيراً) لأهل الخير والصلاح (وكفى بالقرآن حجيجاً وخصيماً) . القرآن برهان قاطع، وحجة دامغة لمن حاجّ به وخاصم .

(أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر) في كتابه المُنزل ، وبلسان نبيه المرسل (واحتج بما نهج) أي بما بيّن وأوضح من طرق الخير والهداية (وحذركم عدواً نفذ في الصدور خفياً) كالوسوسة ، قال تعالى : « الذي يوسوس في

صدور الناس من الجنة والناس » . (ونفث في الآذان نجياً) . يلقي في أذنه بما يريه انه خير له وصالح ، قال عز من قائل: « يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً -- ١١٢ الأنعام » . (فأضل) بأباطيله من يستمع اليه ويثق بـه (وأردى) أي أهلكه (ووعد فمنى) . غره بالأماني الكاذبة (وزين سيئات الجرائم) بالتمويه والتدليس .

(وهوّن موبقات العظائم) . أي قرّب البعيد ، وبعّد القريب ، وأغرى بكبائر الذنوب والاستخفاف بها (حتى اذا استدرج قرينته ، واستغلق رهينته) . المراد بالقرينة والرهينة هنا النفس التي أغراها واصطادها ، ويقال : استغلق الرهن اذا عجز الراهن عن فكه عند حلول الأجل ، والمعنى ان النفس بعد إغوائهـا يصعب تحريرها من الضلال والغواية حيث تصبح رقاً وملكاً للغاوي وتضليله (أنكر ما زيّن ، واستعظم ما هوّن ، وحذر ما أمّن) . أضله عن سبيل النجـاة ، وأغراه بطريق الهلاك وسلوكه ، ولما سلكه وهلك خذله وعذله تماماً كالشيطـان « إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين — ١٦ الحشر » .

حول الانسان .. فقرة ١٧ — ١٩ :

أَمْ هٰذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ ، وَشُغُفِ الْأَسْتَارِ نُطْفَـةً دِهَاقاً وَعَلَقَةً مُحَاقاً ، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً ، وَوَلِيداً وَيَافِعاً . ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً وَلِسَاناً لَافِظاً وَبَصَراً لَاحِظاً . لِيَفْهَمَ مُعْتَـبِراً ، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً . حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ وَاسْتَوَى مِثَالُهُ ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً وَخَبَطَ سَادِراً . مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ . فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً ، وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً (١٧) . فَمَـاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيرًا ، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً . لَمْ يُفِدْ عِوَضاً ، وَلَمْ يَقْضِ

مُفْتَرَضاً . دَهَمَتْهُ فَجَعَاتُ ٱلْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ ، وَسَنَنِ مِرَاحِهِ . فَظَلَّ سَادِراً وَبَاتَ سَاهِراً . فِي غَمَرَاتِ الْآلاَمِ ، وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ . بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ وَوَالِدٍ شَفِيقٍ ، وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً ، وَلَادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً . وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِيَةٍ ، وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ ، وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ ، وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ ، وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ . ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً ، وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً (١٨) . ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ . رَجِيعَ وَصَبٍ ، وَنِضْوَ سَقَمٍ تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ ٱلْوِلْدَانِ ، وَحَشَدَةُ الْإِخْوَانِ ، إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ ، وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ ، حَتَّى إِذَا ٱنْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ ، وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيًّا لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ وَعَثْرَةِ الِامْتِحَانِ . وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيمِ ، وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ . لاَ فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ ، وَلَا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ ، وَلَا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ ، وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ ، وَلَا سِنَةٌ مُسْلِيَةٌ بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ إِنَّا بِاللهِ عَائِذُونَ (١٩) .

اللغة :

شُغُف – بضم الشين والغين – جمع شغاف ، وهو غلاف القلب ، وقيل : سويداؤه ، ومهما يكن فإن المراد بالشغاف هنا المشيمة . ودهق الكأس دهقاً : ملأه ، أو أفرغه بشدة : من الأضداد ، ونطفة دهاقاً : صبها بقوة ، أو هي ممتلئة من جراثيم الحياة . وعلقة محاقاً : ناقصة ، أو مُحيت عنها الأشكال والصور . ويفع الغلام فهو يافع : ناهز البلوغ ، وقيل : راهق العشرين . والمراد بمثاله هنا

قامته ، وباستوائها وبلوغها الحد الأخير من النمو . وسادراً : متحيراً . والماتح : نازع الدلو من البئر . والغرب : الدلو . والبدوات : ما يبدو للمرء من خواطر. وغبر – بضم الغين وتشديد الباء – جمع غابر أي باق « إلا امرأته كانت من الغابرين » أي من الباقين . والسنن – بفتح السين والنون – الطريقة . ومبلساً : يائساً أو ساكتاً . ومبلساً : سهلاً . والرجيع : ما رجع به من سفر الى آخر ، والوصب : التعب . والنضو – بكسر النون – المهزول . والسورات : جمع سورة ، وهي الشدة . والناجزة : الحاضرة .

الإعراب :

أم هنا للاستفهام بقصد التقريع لأنها تأتي بمعنى همزة الاستفهام ، وقيل : منقطعة بمعنى بل ، ونطفة حال من هاء انشأه ، ومثلها ما بعدها ، وسعياً مفعول مطلق لـ « كادحاً » مثل قمت وقوفاً ، ورزية مفعول به : وتقية مفعول مطلق مبين للنوع أي خشوع التقوى ، وقيل : مفعول لأجله ، ويسيراً صفة لمحذوف أي زمناً يسيراً ، وعوضاً مفعول به ومثله مفترضاً ، وجزعاً مفعول لأجله ، والعامل فيه داعية ، ومثله قلقاً ، والعامل لادمة .

المعنى :

(أم هذا – الى – « يافعاً ») . خُلق الانسان من نطفة ، الأرض أصلها، والأرحام مقرها ، قال سبحانه : « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث – ٦ الزمر » . وهي ظلمة البطن ، والرحم والمشيمة ، وكل واحدة من هذه الثلاث في داخل الأخرى ، والنطفة في قلبها ، ثم ترتقي النطفة الى علقة ، ومنها الى جنين،فإذا وُلد فهو وليد ، وما دام يرضع فرضيع، فإذا فطم ففطيم ، فإذا مشى فدارج ، فإذا سقطت أسنانه فمثغور ، فإذا نبتت من جديد فمثغر ، فإذا بلغ عشراً فمترعرع ، فإذا كاد يبلغ الحلم فراهق ، فإذا احتلم فشاب الى الأربعين ، فإذا تجاوزها فكهل الى الستين،وبعدها يكون شيخاً[1].

---

١ أكتب هذه الكلمات ، وأنا على عتبة السبعين .

للمنبر — حول الذاكره والنطق والبصر :

(ثم منحه قلباً حافظاً ، ولساناً لافظاً ، وبصراً لاحظاً) . في الانسان أسرار وروائع ، بها تفوّق على كثير من المخلوقات ، قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم — الى قوله — وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً — ٧٠ الاسراء » . وقد أشار الإمام (ع) الى ثلاث من صفات الانسان : الذاكرة والنطق والبصر ، وفيما يلي التفصيل :

الذاكرة :

ليس المهم أن نعرف : هل الذاكرة من صفات العقل أو القلب ؟ وإنما المهم أن نشير الى فوائدها ومنافعها ، وهي إحدى الوسائل التي نهتدي بها في حياتنا العملية — مثلاً — نحن نجرب هذا الشيء مرة واحدة فنجده نافعاً ، ونجرب غيره — أيضاً مرة واحدة — فنجده ضاراً ، ثم تظهر آثار هذه التجربة في سلوكنا ونشاطنا ما دمنا أحياء دون أن نعيد التجربة ثانية ، والفضل في ذلك للذاكرة ، وأيضاً نحفظ قواعد العلوم أيام الدراسة ، فنفرع عنها ، ونقيس عليها دون أن نعود الى قراءتها مرة ثانية ، والفضل للذاكرة ، وبكلمة لولا الذاكرة ما كانت العلوم والحضارة ، ولا استقامت الحياة .

وهذا أحد الفروق بين الانسان والحيوان الذي لا يملك التصور لشيء من الماضي ولا المستقبل .

وقرأت نقلاً عن كتاب ذكاء القردة العليا لـ « كوهلر » : « ان القرد إذا رأى موزة معلقة ، ورأى عصاً في آن واحد ، فإنه لا يلبث حتى يستعين بالعصا من أجل الوصول الى الموزة ، أما إذا رأى العصا فقط ، ثم رأى الموزة فإنه لا يفكر في العصا حين يرى الموزة ، لأنه لا يملك الذاكرة والتأمل ، ومن أجل هذا لم يكن له تاريخ وتراث مع أنه أرقى أنواع الحيوان ذكاء واحتيالاً . »

الكلمة :

أما النطق أو الكلمة فهي من أعظم ما فى الانسان من روعة وإبداع .. فبها

يُعبر عن الله ، والكائنات ، وبها يبتدىء الوحي والتنزيل ، وفيها تنعكس أفعال الانسان ومشاعره ومقاصده ، وعليها ترتكــز العلوم والآداب والفنون . قال عالم قديم : كل ما يتناوله العلم يُعبر عنه بالكلمة ، ولا شيء إلا والعـلم يتناوله . وتقول النظرية الحديثة : إن اللغة ليست لمجرد التعبير عن أفكار تكونت، بل هي جزء لا يتجزأ من عملية التفكير وتكوينه . ونقـل الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب « تجديد الفكر العربي » ان « دي تراسي » قال : « ان تكوين الأفكار وثيق الصلة بتكوين الكلمـات ، وان « كونديلك » قال : ان عملية الفكر نفسها مستحيلة بغير اللغة ورموزها » . ومعنى هذا ان الانسان هو الكلمة لأنها جزء من تفكيره الذي به قوامه وكيانه ، ولا شيء أدل على هـذه الحقيقة من ان كل ما فعلته الانسانية ، أو فكرت فيه قد ذهب مع الأيام إلا ما حُفر فوق الصخور ، أو سُطّر في صفحات الكتب .. وكل ميت الى النسيان والإهمـال إلا من ترك كلمة تنير العقل ، وتحرك الضمير ، وتهدي الى حياة أحسن .

البصر :

ونعمة البصر تماماً كنعمـــة البصيرة ، لأن الانسان بعقله وحواسه ، ولولاها لكان أشبه بالجماد لا يميز بين الظلمة والنور .. والحديث عن فائـــدة البصر نافلة وفضول تماماً كالحديث عن فائدة الماء والضياء . وأشار الإمام الى الغاية من البصر والبصيرة بقوله : (ليفهم معتبراً) أي ان الله سبحانه منح الانسان نعمـة البصر والبصيرة لينتفع بتجاربه الحسية ، ويهتدي بها الى معرفة الخطأ والصواب ، والضار والنافع ، فيفعل هذا ، ويبتعد عن ذاك ، وهذا البعد عن الخطأ والضار هو المراد من قوله : (ويقصر مزدجراً) .

(حتّى اذا قام اعتداله) . أي انتظمت وتناسبت أعضاؤه ، قال سبحانه : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ــ ٥ التين » . (واستوى مثاله) . بلغت قامته من النمو الغاية والنهاية (نفر مستكبراً) على آيات الله وأحكامه ، وصدق عليه قوله عز من قائل: كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار ــ ٣٥ غافر» . (وخبط سادراً) . كناية عن جهله وقصور عقله كما وصفه الإمام (ع) في مقام آخر: خباط جهالات .. لم يعض على العلم بضرس قاطع (ماتحاً في غرب هواه) .

أي مندفعاً وراء أهوائه لا يردعه عنها دين ولا عقل (كادحاً سعياً لدنياه في لذات طربه وبدوات أربه) يجدّ ويكدح في ليله ونهاره للحصول على الأرباح وتكديس الثروات ولو على حساب الضعفاء والمعذبين .

(ثم لا يحتسب رزية) لا يفكر في المصير وسوء العاقبة (ولا يخشع تقية) لا يخشع قلبه لموعظة ، ولا يتقي الله في شيء (فمات في فتنته غريراً ، وعاش في هفواته يسيراً) . عاش في الدنيا أياماً قصاراً أمضاها في اللهو والملذات مغتراً بها ، مطمئناً اليها حتى اختطفه الموت ، وهو على أسوأ حال (دهمته فجعات المنية في غُبر جماحه ، وسنن مراحه) . رأى دلائل الموت بغتة ، وهو غارق في شهواته وأفراحه (فظل سادراً) أي حائراً ، لا يدري ماذا يصنع ؟ وكيف يتلافى ما فرط وقصر ؟.

(وبات ساهراً — الى — سوقة متعبة) . يصف الإمام (ع) بهذه الكلمات المرء ، وهو على فراش الموت حيث تتراكم عليه الأسقام والأوجاع ، والخوف والأحزان ، واللهثات والأنّات ، واليأس والمرارة .. الى بكاء وعويل ؛ ولدم ونحيب من الأهل والأصحاب الذين لا يملكون له نفعاً ولا ضراً .. والغريب انهم يتوجعون له ويتفجعون ، ومع هذا لا يعتبرون ويتعظون !.

(ثم أدرج في أكفانه مبلساً) ساكتاً (وجذب منقاداً سلساً) لا يدافع ولا يمانع (ثم ألقي على الأعواد رجيع وصب،ونضو سقم) أي وضع في النعش بعد أن لاقى الكثير الكثير من التعب والمرض (تحمله حفدة الولدان) . والحفدة هنا جمع حافد ، ويطلق على الخادم والناصر والتابع ، والمعنى ان الذين يحملون الجنازة هم أعوان أولاد الميت (وحشدة الاخوان) الذين تجمعوا من هنا وهناك للتشييع (الى دار غربته ، ومنقطع زورته ، ومفرد وحشته) أسلموه الى لحده وحيداً فريداً ، وغريباً ترِيباً .

(حتى إذا انصرف — الى — الامتحان) . بعد أن يوضع في قبره ، ويُهال عليه التراب تنقطع بينه وبين أهل الدنيا كل علاقة ، ويعود من شيع الجنازة الى شأنه ، ويهدأ من تفجع وتوجع ، وينسى مع الأيام ، أما حساب الميت في قبره فقد ثبت بالنقل المتواتر من طريق الشيعة والسنة ، وأنكره بعض علماء الكلام ، ومما استدل به المثبتون قوله تعالى : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم

تقوم الساعة – ٤٦ غافر » . فالمعطوف عليه العرض على النار صباحاً ومساء ، والمعطوف قيام القيامة ، وأحدهما غير الآخر ، والمفروض انه لا عرض في الحياة الدنيا فتعين ان يكون في البرزخ أي بعد الموت وقبل البعث ، وقال العلامة الحلي في شرح التجريد : « وهذا نص في الباب » .

(وأعظم ما هنالك بلية نزول الحميم ، وتصلية جحيم ، وفورات السعير ، وسورات الزفير) . والسورة الشدة ، والزفير صوت النار ، والمعنى ان ما قاساه المرء في الدنيا من النكبات ، وفي قبره من الأهوال – ليس بشيء إذا قيس بعذاب الحريق يوم القيامة ، الحريق بنار اشتد لهبها ، وهدد وزمجر (لا فترة مريحة) بل عذاب دائم ومتواصل (ولا دعة مزيحة) أي تنحي العذاب عنه ، أو تنحيه عن العذاب (ولا قوة حاجزة) بينه وبين النار ، وهذه الجمل الثلاث بمعنى واحد أو متقاربة المعنى .

(ولا موتة ناجزة) لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها – ٣٦ فاطر » . (ولا سنة مسلية) . والسنة – بكسر السين – أول النوم أو النعاس الذي يسبقه ، والمراد بها هنا الموت (بين أطوار الموتات ، وعذاب الساعات) . كل نوبة من نوبات العذاب ، ولحظة من لحظاته هي موت أو أشد (انا بالله) وبالولاء للنبي وآله (عائذون) من عذاب الجبار وغضبه .

هل من مناص ؟ فقرة ٢٠ – ٢١ :

عِبَادَ ٱللهِ أَيْنَ ٱلَّذِينَ عُمِّرُوا فَنَعِمُوا وَعُلِّمُوا فَفَهِمُوا وَأُنْظِرُوا فَلَهَـوا وَسَلِمُوا فَنَسُوا . أُمْهِلُوا طَوِيلاً ، وَمُنِحُوا جَمِيلاً ، وَحُـذِّرُوا أَلِيماً ، وَوُعِدُوا جَسِيماً . إِحْذَرُوا ٱلذُّنُوبَ ٱلْمُوَرِّطَـةَ وَٱلْعُيُوبَ ٱلْمُسْخِطَةَ ، أُولِي ٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَسْمَاعِ ، وَٱلْعَافِيَةِ وَٱلْمَتَاعِ ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَـلَاذٍ ، أَوْ فِرَارٍ أَوْ مَحَارٍ ، أَمْ لَا فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ ، أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ(٢٠) . وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ

مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلطولِ وَٱلعَرْضِ ، قَيْدُ قَدِّهِ ، مُتَعَفِّراً عَلى خَـدِّهِ . ٱلْآنَ ، عِبَادَ ٱللهِ وَٱلْخَنَاقُ مُهْمَلٌ وَٱلرُّوحُ مُرْسَلٌ فِي فَيْنَـةِ ٱلْإِرْشَادِ وَرَاحَةِ ٱلْأَجْسَادِ وَبَاحَةِ ٱلِاحْتِشَادِ ، وَمَهَلِ ٱلْبَقِيَّـةِ ، وَأُنُفِ ٱلْمَشِيَّةِ ، وَإِنْظَارِ ٱلتَّوْبَةِ وَٱنْفِسَاحِ ٱلْحَوْبَةِ قَبْـلَ ٱلضَّنْكِ وَٱلْمَضِيقِ وَٱلرَّوْعِ وَٱلزُّهُوقِ وَقَبْلَ قُدُومِ ٱلْغَائِبِ ٱلْمُنْتَظَرِ وَأَخْذَةِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمُقْتَدِرِ(٢١) .

اللغة :

الورطة : التهلكة ، والمورطة – بتشديد الراء – المهلكة . والمحار : المرجع . وتؤفكون : تصرفون أو تنقلبون . والقد : مقدار القامة . ومتعفراً على خده : واضعاً خده على التراب . والفينة : الساعة والحين . والباحة : الساحة . وأُنف – بضم الألف والنون – الأول أو المستأنف . والضنك : الضيق . والروع : الخوف . والزهوق : الاضمحلال .

الإعراب :

طويلاً صفة لمحذوف أي أمداً طويلاً ، وجميلاً أي مُنحوا منحاً جميلاً ، وجسيماً أي وُعدوا وعداً جسيماً . وأولي الأبصار أي يا أولي الأبصار ، ومن مناص « من » زائدة ، ومناص مبتدأ ، والخبر محذوف أى هل لكم مناص ، وأنّى مفعول مطلق أيْ أيَّ افك تؤفكون ، وذات صفة للأرض ، وقيد خبر لحظ ، ومتعفراً حال من الضمير المجرور بإضافة قده ، والآن متعلق بمحذوف أي اعملوا الآن ، وفي فينة متعلق بمرسل ، وقبل متعلق بانفساح .

المعنى :

(عباد الله أين الذين عمروا فنعموا ؟) . هذا تذكير بحال الماضين الذين

عاشوا طويلاً ، وتقلبوا في الملذات كثيراً (وعُلّموا ففهموا ونظروا) . أرشدو الى الطريق القويم ، فرأوه وعرفوه ولكنهم (لهوا) عنه بالدنيا وزينتها (وسُلّموا) أي عاشوا أمداً غير قصير في سلامة الأبدان والأرزاق ولكنهم (نسوا) الطريق القويم الذي كانوا قد أرشدوا اليه فعرفوه وفهموه (وأُمهلوا طويلاً) كي يعملوا (ومنحوا جميلاً) كي يشكروا (وحذروا أليماً) أي من عذاب أليم كي يتقوا (ووُعدوا جسيماً) على صالح الأعمال كي يرغبوا (احذروا الذنوب المورطة) أي المهلكة (والعيوب المسخطة) أي التي تؤدي بكم الى عذاب الله وسخطه .

(أولي الأبصار والأسماع – الى – بماذا تغترون ؟) . خاطب الإمام بهذا المترفين الطغاة ، وقال لهم : الى متى التمادي في العدوان والعصيان ؟ أما لكم من الله أو الضمير رادع وزاجر ؟ وبأي شيء تغترون ؟ وعلى أي شيء تعتمدون ؟ أعلى مال تتركونه للوارث والحوادث ، أو على صحة وجاه الى زوال ، أم معكم أمان من الله وعذابه ، أم تستطيعون الفرار مما خُبيء لكم ؟. لكم الويل مما تفعلون وتكتسبون .

(وانما حظ – الى – خده) . كل انسان صعلوكاً كان أم ملكاً يسيطر على الأرض بطولها وعرضها – لا بد أن ينتهي الى لحد ، طوله خمسة أشبار أو ستة في عرض شبرين ونصف أو ثلاثة .. قدراً بقدر .. مفترشاً التراب ، وملتحفاً الصخور والأحجار.. اذن فعلامَ الغرور والكبرياء ما دام هذا هو المصير والعاقبة؟. وقال واعظ لمن يعظه : « احمل القبر دوماً معك ، ولا أقول : احمل تربته ، بل احمل فكرته » ومن حمل فكرة أي شيء ظهر أثرها في عمله .

(الآن عباد الله والخناق مهمل) أي مطلق لم يشدّ به شيء (والروح مرسل في فينة الإرشاد) . الروح ما كان به الحياة يذكّر ويؤنّث ، والمعنى ان أرواحكم متروكة لم تقبض في زمن التكليف والعمل (وراحة الأجساد) أي وقت قوتها وقدرتها على العمل (وباحة الاحتشاد) أي تستطيعون أن تجتمعوا وتعملوا يداً واحدة على ما فيه خير الجميع (ومهل البقية) . لقد بقي لكم من العمر ما يمكنكم معه أن تتوبوا الى الله عما كان ، وتتلافوا ما فاتكم من الإهمال والتقصير (وأُنُف المشيئة). لو كان لكم عزم صادق على الطاعة لابتدأتم من الآن بما افترض الله عليكم (وإنظار التوبة) . في الوقت متسع للتوبة ان بادرتم الآن (وانفساح الحوبة) أي الحاجة ، والمعنى انكم قادرون على عمل ما تحتاجون اليه في آخرتكم .

(قبل الضنك والمضيق والروع والزهوق) . اغتنموا الفرصة ، فإنكم ضيوف مؤقتون في هـذه الأرض ، فإذا جاء وقت الرحيل والفزع والاضمحلال ضاق عليكم المخرج ، ولم تملكوا من الأمر شيئاً (وقبل قدوم الغائب المنتظر – بالفتح اسم مفعول – وأخذة العزيز المقتدر) وهو الموت ، وإنما وصفه الإمام بالمنتظر والعزيز المقتدِر لأنه آت لا محالة ، وغالبٌ قاهر في شتى الأحوال، وقال عنه في خطبة ثانية : زائر غير محبوب ، وقِرن غير مرغوب ، وواتر غير مطلوب .

الخطبة

- ٨٣ -

شر القول الكذب :

عَجباً لِابْنِ النّابِغَةِ يَزْعُمُ لِأَهلِ الشّامِ أنَّ فِيَّ دُعابَةً وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعابَةٌ أُعافِسُ وَأُمارِسُ ، لَقَدْ قالَ باطِلاً وَنَطَقَ آثِماً . أَمَا وَشَرُّ القَوْلِ الكَذِبُ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ ، وَيَخُونُ العَهْدَ ، وَيَقْطَعُ الإِلَّ فَإِذا كانَ عِنْدَ الحَرْبِ فَأَيُّ زاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ ، ما لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَها فَإِذا كانَ ذٰلِكَ كانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ القِرْمَ سُبَّتَهُ . أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ المَوْتِ ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الحَقِّ نِسْيانُ الآخِرَةِ ، إِنَّهُ لَمْ يُبايِعْ مُعاوِيَةَ حَتّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً وَيَرْضَخَ لَهُ عَلى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً .

اللغة :

الدعابة : المزاح . والتلعابة : مبالغة في اللعب . والإل : الرحم . وأعافس : ألاعب ، يقال : عافس أهله أي لاعبها وعالجها ، ومثله أمارس . ويلحف : يلح ، قال تعالى : « لا يسألون الناس الحافاً – ٢٧٣ البقرة » . والسبة – بضم السين وتشديد الباء – السوءة . وأتية – بتشديد الياء – العطية . ومثلها الرضيخة مع كون العطاء قليلاً .

الإعراب :

عجباً نصب على المصدرية أي أتعجب ، والمصدر من ان وما بعدها ساد مسد مفعولي « يزعم» وباطلاً صفة لمفعول مطلق محذوف أي قال قولاً باطلاً ، وآثماً حال ، وأي خبر مقدم ، و « هو » مبتدأ مؤخر أي فهو اي زاجر ، وقيل ان «أي» هنا حال ، ولم يتضح لدي وجه الحالية .

المعنى :

(عجباً لابن النابغة) . وهي أم عمرو بن العاص ، قال ميثم البحراني : سميت ام عمرو النابغة لشهرتها بالفجور وتظاهرها به ، وجاء في شرح ابن الحديد أن النابغة أم عمرو بن العاص وقع عليها أبو لهب وأمية بن خلف وهشام بن المغيرة وأبو سفيان بن حرب والعاص ، وقعوا عليها جميعاً في طهر واحد ، فولدت عمراً ، فادعاه كلهم ، ولكن أمه اختارت العاص لأنه كان ينفق عليها كثيراً ، وكان عمرو أشبه بأبي سفيان، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت لنا فيك منه بينات الشمائل

(يزعم لأهل الشام ان في دعابة ، واني امرؤ تلعابة أعافس وأمارس) . أي ألاعب وأداعب .. فكر ابن العاص طويلاً ليجد مأخذاً واحداً على الإمام (ع) تصدقه الناس فيه ولما عجز ويئس افترى وقال : ان علياً لا يصلح للخلافة ،

لأنه مزّاح هزّال .. والله يعلم والصالحون من عباده أنه (قال باطلاً ، ونطق آثماً أما وشر القول الكذب) في الجد والهزل باتفاق أهل الأرض منذ وُجدوا على ظهرها ، ولكن ابن النابغة يتخطى القيم (انه يقول فيكذب) بلا خجل من الناس ، ووجل من الله (ويعد فيخلف) كما هو دأب الكذوب والمنافق (ويسأل) بالبناء للمجهول (فيبخل) . والبخل جامع لمساوىء العيوب ، وهو زمام يقاد به لكل سوء كما قال الإمام (ع) .

(ويسأل) بالبناء للمعلوم (فيلحف) أي يلح في السؤال ، ويطلب من غيره بإلحاح ما ضنت به نفسه .. وهنا مكان الغرابة (ويخون العهد) . والخيانة من علامات الغدر والنفاق (ويقطع الإل) . وليس قطع الرحم بغريب على من يغدر ويفجر (فإذا كان عند الحرب فأي زاجر وآمر هو ما لم تأخذ مآخذها) . انه محارب .. ولكن بالكلام ، وفي موطن الأمن والأمان (فإذا كان ذلك) . أي استعرت نار الحرب ، واشتبكت السيوف والأسنة (كان أكبر مكيدته أن يمنح القرم سُبته) . يشير الإمام بهذا الى ما حدث له مع عمرو بن العاص لما حمل عليه في صفين ، وكشف عمرو عن سوءته لينجو بحشاشته ، فأعطاه الإمام (ع) ظهره ، وصار عمرو مثلاً لمن يدفع المكروه عن نفسه بالذل والعار ، وفي ذلك يقول الشاعر :

ولا خير في دفع الأذى بمذلة كما ردها يوماً بسوءته عمرو

(أما والله انه ليمنعني من اللعب ذكر الموت) . ولا نعرف أحداً على الاطلاق وصف الموت وغمراته وسكراته ، وأنزله حق منزلته كالإمام (ع) والشاهد هي أقواله في النهج وغير النهج ، وما انتقلتُ من موضوع الى موضوع في خطب الإمام (ع) ، أياً كان نوعه – إلا ورأيت معه بطريق أو بآخر التحذير من زينة الحياة وأوزارها ، ومعصية الله وآثارها .. ويصح لقائل أن يقول : ان هذا التحذير هو القدر الجامع والقاسم المشترك بين خطبه كلها أو جلها .. لقد نظر الإمام الى الدنيا من خلال الموت ، وبه قاس بهجتها وزينتها ، ومن أجل ذلك خاطبها بقوله : فعيشك قصير ، وخطرك يسير وأملك حقير .. وأيضاً من أجل ذلك طلقها ثلاثاً لا رجعة فيها ، وكلنا يعلم ان أقوال الإمام عين أفكاره ، وان أفكاره عين أفعاله ، وان شخصيته واحدة لا تعدد فيها ، ولا انفصام لها .

(وانه — أي ابن العاص — ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة). ومن يبحث عن السبب المباشر لعداوة من عادى الإمام وحاربه لا يجد إلا سبباً واحداً ، وهو ان الإمام لا يعمل ويستحيل عليه أن يعمل إلا لربه وآخرته ، وان أعداءه يعملون للدنيا وزينتها كابن العاص الذي سيطرت الأهواء على دينه وعقله وقلبه ، والدليل (انه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه أتيّة ، ويرضخ له على ترك الدين رضيخة). والمراد بالأيته والرضيخة هنا ولاية مصر ، والقصة معروفة ، وأشهر من أن تذكر ، ومع هذا أشرنا اليها فيما سبق .. وليس بغريب أن يسوى الحساب بين معاوية وابن العاص على حساب الاسلام ودماء المسلمين ما دام كل منهما يحرص على دنياه ولا يترك منها شيئاً لآخرته .

الخطبة

-٨٣-

درجات متفاضلات :

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ . الْأَوَّلُ لاَ شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَالْآخِرُ لاَ غَايَةَ لَهُ . لاَ تَقَعُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلى صِفَةٍ وَلاَ تَعْقِدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلى كَيْفِيَّةٍ ، وَلاَ تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ وَالتَّبْعِيضُ . وَلاَ تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ .. فَاتَّعِظُوا عِبَادَ اللهِ بِالْعِبَرِ النَّوَافِعِ ، وَاعْتَبِرُوا بِالْآيِ السَّوَاطِعِ ، وَازْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ الْبَوَالِغِ ، وَانْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَالْمَوَاعِظِ . فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ الْمَنِيَّةِ ، وَانْقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلاَئِقُ الْأُمْنِيَّةِ ، وَدَهَمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى الْوِرْدِ الْمَوْرُودِ ، وَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا . دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلاَتٌ ، وَمَنَازِلُ

مُتَفَاوِتَاتٌ . لاَ يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا وَلاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا ، وَلاَ يَهْرَمُ خَالِدُهَا ، وَلاَ يَبْأَسُ سَاكِنُهَا .

اللغة :

الآي : جمع آية . والسواطع : جمع الساطع ، وهو الظاهر الواضح . والبوالغ : جمع البالغة ، ومعنى الحجة أو الموعظة البالغة انها بلغت الغاية من الوضوح والكشف عن العواقب والآثار . وعلائق : من تعلق به . والمفظعات : الشدائد . والسياقة : من ساق يسوق . لا يظعن : لا يرحل . لا يبأس : لا يحتاج .

الإعراب :

أشهد أن لا إله إلا الله « ان » مخففة ، واسمها ضمير الشأن أي انه، وجملة لا بعدها خبر ، والأول بدل من الله ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو الأول ، وكأن مخففة ، واسمها محذوف مثل « ان » و « سائق » الثاني بدل من « سائق » الأول ، وشاهد بدل من شهيد . ودرجات مبتدأ ، ومتفضلات صفة ، والخبر محذوف أي لأهل الجنة .

المعنى :

(وحده لا شريك له) وإلا فسدت الأرض والسماء كما قال سبحانه : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا — ٢٢ الأنبياء » . وتقدم الكلام عن ذلك . وأيضاً لو كان لربك شريك لأتتك رسله كما قال الإمام (الأول لا شيء قبله ، والآخر لا غاية له) . أي هو سبحانه أول بلا ابتداء،وآخر بلا انتهاء ، أبدي سرمدي، ولو سبقه العدم أو انتهى اليه لكان حادثاً ، ولا بد لوجود الحادث من سبب ، فإن لم يكن هذا السبب ذاتياً — كما هو الفرض — احتاج الى غيره ، وإذن فلا مفر من الانتهاء الى سبب الأسباب ، ومثله قولك : لا تصح النظرية إلا مع

البرهان على صحتها : ولا بد أن يكون هذا البرهان صحيحاً بالذات ، أو ينتهي الى برهان كذلك وإلا غرقنا في بحر الجهل والظلمات .

(لا تقع الأوهام له على صفة) . مهما سمت العقول فلا تبلغ كنه عظمته تعالى ، وإنما تدرك منها بمقدار ما يدل عليها خلقه وآثارها ، وليس من شك ان في الفاعل والخالق صفات لا تظهر ولا يمكن أن تظهر في الفعل والمخلوق ، ومن هنا قيل : العلة أكمل من المعلول ، وتقدم الكلام عن ذلك مراراً (ولا تعقد القلوب منه على كيفية) . ليس لله سبحانه هيئة وصورة كي تعتقد وتحكم بوجودها العقول وإلا كان شبيهاً بخلقه ، فتعالى الله الذي ليس كمثله شيء . وعن الإمام الصادق (ع) : لا تتكلموا في ذات الله .. وإياكم والتفكير في ذلك.. ولكن انظروا الى عظيم خلقه (ولا تناله التجزئة والتبعيض) . لأن التجزئة من خواص الأجسام ، والله ليس بجسم وإلا افتقر الى مكان .. وأيضاً التجزئة تستدعي التركيب ، والمركب يفتقر الى أجزائه .. هذا ، الى أن التجزئة كثرة ، والله واحد (ولا تحيط به الأبصار والقلوب) . عطف تفسير على : « لا تقع الأوهام.. ولا تقعد القلوب » .

(فاتعظوا – الى – البوالغ) . والموت أظهر الآيات والعبر والنذر حيث يتساوى فيه الملوك والصعاليك ، ولو تساوى الناس في كل شيء كما تساووا في الموت لأحب بعضهم بعضاً حتى ولو قال لهم الوعاظ : تباغضوا وتحاسدوا ، ولا أعرف أحداً – إلا من عصم ربك – عمل بهذه الوصية : « أحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها » وفي ظني أن المراد بهذه الوصية الحث والتأكيد على الاغاثة والعون (وانتفعوا بالذكر والمواعظ) : مثل وتعاونوا على البر والتقوى .. ولا تبغ الفساد في الأرض .. فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ، وما أشبه .

(فكأن قد علقتكم مخالب المنية) . أتاكم الموت بغتة (وانقطعت منكم علائق الأمنية) . إذا جاء الموت ذهبت الأمنيات ، وانقطعت العلاقات (ودهمتكم مفظعات الأمور) أي شدائدها كسكرة الموت ، وحسرة الفوت ، وهذه أشد عنفاً ، وأصعب وطأ (والسياقة الى الورد المورود) أي دهمتكم المنية لتسوقكم الى القبر ، ثم الى الحشر والنشر (فكل نفس معها سائق) وهو أمر الله (يسوقها الى محشرها) للحساب والجزاء (وشاهد) من الأنبياء أو العلماء ، أو من عقل الانسان وأعضائه

(يشهد بعملها من خير أو شر .

(درجات متفاضلات ، ومنازل متفاوتات) . الانسان غداً الى نعيم أو جحيم حسبما يعمل ويقدم ، وفي الجحيم مراتب على حسب سيئات المجرمين ، وفي الجنة أيضاً مراتب على حسب حسنات المؤمنين ، وكلام الإمام هنـا يشير الى مراتب أهل الجنة التي (لا ينقطع نعيمها) كما قال سبحانه : « أكلها دائم » . (ولا يظعن – الى – ساكنها) . ليس في الجنة هموم وآلام ، وشيخوخة واسقام ، ولا بغض وحسد ، ولا موت وفراق .. أبداً لا شيء إلا الخلود والنعيم .

الخطبة

- ٨٤ -

لم يخلقكم عبثاً .. فقرة ١ – ٢ :

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ . لَهُ الإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغْلِهِ ، وَفِي مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ ، وَلْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ . فَاللهَ اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ وَاسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ[1] . فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلاَ عَمًى . قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ وَكَتَبَ آجَالَكُمْ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ

وَمَكَارِهَهُ وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ . فَأَلْقَى إِلَيْكُمُ ٱلْمَعْذِرَةَ وَٱتَّخَذَ عَلَيْكُمُ ٱلْحُجَّةَ ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ[٢] .

اللغة :

الإرهاق : الإعجال . والكظم : الفم أو مخرج النفس . وسمى : بيّن . وأنهى : أبلغ . ومحابه : ما يحب . ومكارهه : ما يكره .

الإعراب :

له خبر مقدم ، والإحاطة مبتدأ مؤخر ، فليعمل اللام للأمر ، وتجزم فعلاً واحداً ، ومثلها اللام في ليمهد . فالله الله نصب بفعل محذوف أي فاتقوا الله ، أو احذروا عذاب الله ، وتبياناً حال من الكتاب .

المعنى :

(قد علم — الله — السرائر ، وخبر الضمائر ، له الإحاطة بكل شيء) كلياً كان أو جزئياً ، صغيراً أو كبيراً .. وعلمه تعالى بالشيء عند حدوثه هو بالذات علمه به قبل حدوثه .. هذا ما يجب علينا الايمان به ، والدليل عليه كتاب الله ، أما أقوال الفلاسفة وأدلتهم في مسألة العلم بالكليات دون الجزئيات أو العلم بهما معاً فهو تكثير كلام لا يهتدي به أحد في حياته العملية ، ولا يحل مشكلة من مشكلاته (والغلبة لكل شيء ، والقوة على كل شيء). والفرق بين القوة والغلبة ان القوة هي مصدر الخلق والايجاد ، أما الغلبة فهي السيطرة على الشيء بعد وجوده .

(فليعمل العامل — الى — دار إقامته) . تقدم هذا المعنى في الخطبة ٨٢ و ٧٦ ويتلخص بأن العلم بما هو ليس بشيء ، وان الايمان وحده غير كاف ، والمهم العمل عن بصيرة ، وما دام الانسان على وجه الأرض يمكنه أن يعمل، فإذا مات انقطع عمله من الدنيا ، فالعاقل — اذن — من بادر الأجل ، وتزود من العمل (فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتابه ، واستودعكم من حقوقه). الضمير

من حقوقه يعود الى الكتاب ، والمعنى اتقوا الله في القرآن الكريم الذي ائتمنكم عليه سبحانه ، واستودعكم اياه لتقدروه حق قدره عاملين بأحكامه وتعاليمه ، ومثله قوله تعالى : « بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء — ٤٤ المائدة » أي ان الذين يعملون بكتاب الله مخلصين قد شهدوا بالفعل لا بالقول فقط انه حق وصدق .

(فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى) . لقد دلنا العقل الألكتروني والهبوط على القمر ان في الانسان مواهب وطاقات لو استغلها جميعاً الى أقصى حدودها — ان كان لها حدود — لم يبق فوقه شيء إلا خالق كل شيء .. ومن الأحاديث القدسية : « يا عبدي أطعني تكن مثلي ، تقول للشيء كن فيكون » . وأخشى أن يقول قائل : ان معنى هذا الحديث يا عبدي اعمل في استغلال مواهبك،وما منحتك من طاقات تكن مثلي تحقق كل ما تبغي وتريد.. وقلت في « التفسير الكاشف » : ان هذا الوصف يكون للمطيع في الجنة التي فيها ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين ، لا في الدنيا . ومهما يكن فهل بعد هذه المواهب والطاقات التي أودعها سبحانه في الانسان — يصح فيه القول : انه خُلق ووُجد سدى وعبثاً ؟ كلا ، وألف كلا .

(ولم يدعكم في جهالة ولا عمى) بل أرسل الينا رسلاً مبشرين ومنذرين ، وأنزل الكتاب تبياناً لكل شيء ، وفي أصول الكافي قال الإمام الصادق (ع) : ما من شيء إلا وفيه كتاب وسنة، وقال أبوه (ع) : إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عن كتاب الله ، ثم قال : ان رسول الله (ص) نهى عن القيل والقال ، وفساد المال ، وكثرة السؤال . فقيل له : أين هذا من كتاب الله ؟ قال : ان الله عز وجل يقول : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس — ١١٤ النساء » — وهذا نهي عن القيل والقال — وقال سبحانه : « ولا تأتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً — ٥ النساء » وهذا نهي عن فساد المال — وقال ، « لا تسألوا عن أشياء أن تبدُ لكم تسؤكم — ١٠١ المائدة » — وهذا نهي عن كثرة السؤال .

(وعمّر فيكم نبيه الخ ..) عاش رسول الله (ص) ثلاثاً وستين سنة ، مات أبوه قبل أن يولد،فكفله جده عبد المطلب ثماني سنين كما في اعلام الورى للطبرسي

ثم كفله عمه أبو طالب ، وتزوج بخديجة ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وبُعث ، وله من العمر ٤٠ سنة ، ولما تُوفي أبو طالب كان عمر النبي (ص) ستاً وأربعين سنة وبضعة أشهر ، فكان زمن بعثته ٢٣ سنة ، نزل فيها القرآن الكريم ، وتمت السنة النبوية ، وفيها أحكام كثيرة لم ينص عليها القرآن صراحة ، ولكنها جزء متمم له بنص الآية ٧ من سورة الحشر : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . وعليه يكون كل من الكتاب والسنة جزءاً متمماً للآخر ، وحجة قائمة على العباد ، وما لأحد معها من عذر ، وفي أصول الكافي عن الإمام الصادق (ع) : في تفسير الآية ٨ من سورة الشمس : « فألهمها فجورها وتقواها » — انه قال : بيّن لها ما تأتي ، وما تترك .. وقال أيضاً : لا يعذب الله العباد حتى يعرّفهم ما يرضيه وما يسخطه .. ان الله احتج على العباد بما آتاهم وعرّفهم .

الحسد يأكل الايمان .. فقرة ٣ — ٤ :

فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُم ، وَٱصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ ٱلْأَيَّامِ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا ٱلْغَفْلَةُ وَٱلتَّشَاغُلُ عَنِ ٱلْمَوْعِظَةِ ، وَلَا تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ فَتَذْهَبَ بِكُمُ ٱلرُّخَصُ فِيهَا مَذَاهِبَ ٱلظَّلَمَةِ وَلَا تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ ٱلْإِدْهَانُ عَلَى ٱلْمُصِيبَةِ . عِبَادَ اللهِ إِنَّ أَنْصَحَ ٱلنَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ ، وَٱلْمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ وَٱلْمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ ، وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَٱلشَّقِيُّ مَنِ ٱنْخَدَعَ لِهَوَاهُ(٣) . وَٱعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ ٱلرِّيَاءِ شِرْكٌ وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ ٱلْهَوَى مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ ، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ . جَانِبُوا ٱلْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ . ٱلصَّادِقُ عَلَى شَرَفِ مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ ، وَٱلْكَاذِبُ عَلَى

شَفَا مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ. وَلَا تَحَاسَدُوا فَإِنَّ ٱلْحَسَدَ يَأْكُلُ ٱلْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلنَّارُ ٱلْحَطَبَ ، وَلَا تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا ٱلْحَالِقَةُ ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱلْأَمَلَ يُسْهِي ٱلْعَقْلَ وَيُنْسِي ٱلذِّكْرَ فَأَكْذِبُوا ٱلْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ(٤) .

اللغة :

الادهان : النفاق بإظهار الطاعة ، وإخفاء المعصيـة . والمنساة : ما يدعو الى النسيان . والشفا : طرف كل شيء ، والمراد به هنا القرب. والحالقة : الماحية.

الإعراب :

لها يعود الضمير على بقية الأيام، واللام بمعنى «في»، مثل قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة – ٤٧ الأنبياء » أي في يوم القيامة . فإنها الحالقة ، الضمير في « انها » يعود على البغضاء ، وتدل عليها كلمة « تباغضوا » .

المعنى :

(فاستدركوا بقية أيامـــكم) . تداركوا بالتوبة فيما بقي لـكم من العمر – ما أسلفتم من المعاصي والآثام (واصبروا لها أنفسكم) على طاعـــة الله ، وجاهدوها فيما بقي من أيامـــكم (فإنها قليـــل في كثير الأيام التي تكون منـــكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة) . ان أيامـكم الباقية قليلة بالنسبة الى الماضية ، وقد قتلتم هذه باللهو والغفلة عما تنتفعون به ، فاجعلوا عملـكم فيما بقي كفارة عما مضى (ولا ترخّصوا أنفسكم) أي تطلقوا لها العنان وراء الشهوات (فتذهب بـــكم الرخص مذاهب الظلمة) وتقودكم الى الهلكة ، وهي المصير الحتم لكل من أهمل وتجاهل (ولا تداهنوا فيهجم بكم الادهان على المعصية) . المداهنة والرياء بمعنى واحد ،

وهي محرمة بذاتها ، وأيضاً تقود الى العديد من المعاصي ، فإن أدت اليها اشتد التحريم وتضاعف .

(عباد الله ان أنصح — الى — شرك) . للانسان ميــول ورغبات فردية ، كميله الى المأكل والمشرب والجنس والراحة والصحة وما اليها من لذة ومتعـة ، ولا شيء من ذلك محــرم في دين الله ، والنقيض هو الصحيــح على شرط الله ورسوله ، وفي حدود الكتاب والسنة ، وانما المحــرم هو التبذير والإسراف ، والتضاهي والتباهي ، وإشبــاع الشهوات على حساب الآخرين ، قال سبحانه : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق — ٣٢ الأعراف » . واضافة الزينة اليه تعالى تومىء الى شرطه وحدوده كما أشرنا .

وما دام الأمر على هذا فمن اقتنع بالحلال من رزق الله وزينته وطيباته فقــد أخلص لربه ، ونصح لنفسه وأراحها واستراح من غضب الله وعذابـه ، وعاش سعيداً كريماً في دنياه وآخرته ، ومن اندفع وراء شهواته ، وتجاوز حــدود الله وشريعته — فقـد هلك وأهلك ، وعاش في الجهــل والغرور في دنياه ، والشقاء والبلاء في آخرته (واعلموا ان يسير الرياء شرك) . المرائي يضمر شراً، ويظهر خيراً ، والمراد بالشرك هنا العمل لغير الله ، وقال الإمام الصادق (ع) : « كل رياء شرك .. انه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ، ومن عمل لله كان ثوابه على الله » . هذا ، الى ان المرائي لن تطول بــه الحال حتى يفتضح ويتكشف على حقيقته .. ومن علاماته — كما في بعض الروايات — انه ينشط اذا كان الناس عنده ، ويكسل اذا كان وحده ، ويحب أن يحمد بما لم يفعل .

(ومجالسة أهــل الهوى منساة للايمـان ، ومحضرة للشيطان) . للعدوى قوة وسيطرة على ضعاف النفوس ، وتنفذ اليها من عدة مسالك ، منها المعشر والكتب والصحف والاستماع الى الاذاعات والجلوس الى التلفزيون ، وكلما زادت وسائــل النشر تجاوبت وتداخلت العزائم ، والشاهد أخبار الجرائد عن الجرائم والمجرمين، وقال الرسول الأعظم (ص) : المرء على دين خليله وقرينه ، وفي الأمثال : قل لي من تعاشر أقول لك من أنت .

(جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان) . أي لا يسلم للمرء دين ولا إيمان إلا إذا ابتعد عن الكذب ، ومن أقوال الإمام : لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب جده وهزله . وقلت في المجلــد الرابع من كتاب « التفسير الكاشف »

ص ٥٥٤ : ان الكاذب يعامل في الدنيا معاملة المسلم إذا نطق بالشهادتين، ويعامل في الآخرة معاملة الكافر ، لقوله تعالى : « إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ـ ١٠٥ النحل » . وقول الرسول الأكرم (ص) : المؤمن لا يكذب. وصرف الكلام عن ظاهره خلاف الأصل .

(الصادق على شُرَف منجاة وكرامة) أي ان الصادق المخلص في قصده وسلوكه قريب من الله وجنته ومرضاته ، وفي عقيدتي انه المثل الأعلى للإنسانية (والكاذب على شَفا مهواة ومهانة) . أي مشرف على الهلاك والهوان (ولا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب) لأنه يقود الى الافتراء والبغي ، والفرق بين الحسود والمعجب بنفسه أن الحسود ساخط على الله والناس أجمعين ، والمعجب يرى نفسه فوق الناس أجمعين .. وعلى أية حال فمن ابتلي بالحسد فليمسك لسانه عن الباطل ، فإن الحسد من حيث هو ليس بمحرم ، والمحرم منه ما كان وسيلة الى الحرام كالغيبة والكذب والنميمة ، ولذا قال الرسول الأعظم (ص) : إذا حسدت فلا تبغ ، ولم يقل : لا تحسد ، حتى ولو نهى عن الحسد فإن مراده النهي عن أثره ، لأن التكليف بتركه من حيث هو تكليف بما لا يطاق .

(ولا تباغضوا فإنها – أي البغضاء – الحالقة) للدين تماماً كما تحلق الموسى الشعر ، والمعنى افشوا السلام بينكم ، وتعاونوا على ما فيه خيركم ، قال سبحانه: « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ـ ٢٠٨ البقرة » . (واعلموا أن الأمل يسهي الخ ..) الأمل من حيث هو لا يُذم ولا يُمدح، بل يُنظر الى نتائجه وآثاره ، ويحكم عليه بحسبها ، فالأمل في الحياة وطولها مع التقوى وعمل الخير ممدوح ، وهو مع الشره والحرص على الأموال كغاية مذموم لأنه يُعمى العقل عن الصواب ، ويبعث في النفوس الغرور ، ويصرفها عن التفكير في مصيرها ، قال سبحانه في ذم اليهود : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ـ ٩٦ البقرة» .

الخطبة

-٨٥-

نظر فأبصر .. فقرة ١ — ٢ :

عِبَادَ ٱللهِ إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ ٱللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ ٱللهُ عَلى نَفْسِهِ فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ وَأَعَدَّ ٱلْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ ، فَقَرَّبَ عَلى نَفْسِهِ ٱلْبَعِيدَ وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ . نَظَرَ فَأَبْصَرَ ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ ، وَٱرْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ . سَهُلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ فَشَرِبَ نَهَلاً ، وَسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً[1] . قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ وَتَخَلَّى مِنَ ٱلْهُمُومِ إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً ٱنْفَرَدَ بِهِ ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ ٱلْعَمَى وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ ٱلْهَوَى ، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ ٱلْهُدَى وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى . قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ . وَعَرَفَ مَنَارَهُ ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ . ٱسْتَمْسَكَ مِنَ ٱلْعُرَى بِأَوْثَقِهَا ، وَمِنَ الْحِبَالِ بِأَمْتَنِهَا[2] .

اللغة :

استشعر الحزن : حزن . وتجلبب الخوف : خاف . وزهر : صفا وأضاء . والقرى — بكسر القاف — ما يهيأ للأضياف . والنهل : أول الشرب ، والمراد هنا انه شرب ما فيه الكفاية . والجدد — بفتح الجيم — الأرض الصلبة المستوية . والغمار : جمع الغمر ، وهو الماء الكثير . والعروة : ما يؤخذ باليد كالحلقة .

الإعراب :

عبداً اسم ان مؤخر ، وجملة اعانهُ صفة ، ومن أحب خبر مقدم ، ونهلاً مفعول مطلق مبين للنوع ، ومن العُرى « من » بيانية ، والمجرور متعلق بأوثقها .

المعنى :

(ان من أحب عباد الله اليه عبداً أعانه الله على نفسه) . المراد بالنفس هنا الاهواء والشهوات المفسدة المهلكة ، والمعنى ان الانسان القريب من الله سبحانه هو الذي يتغلب على نفسه الامارة حين يقع الصدام والصراع بينها وبين إيمانه ومعتقده ، وليس هذا من الديانة المتزمتة ، بل من العمل بوحي الضمير المبدئي الخلقي (فاستشعر الحزن) أي يشعر من نفسه بالتقصير في جنب الله ، فيحزن ويتألم (وتجلبب الخوف) . تورع عن محارم الله خوفاً منه ، والمراد هنا بالخوف ما ثبت ودام ، أما الحال التي تأتي وتزول فما هي في شيء من الخوف الذي خالط النفس ، ونبع من القلب ، ومن دعاء الإمام زين العابدين (ع) اللهم اني أسألك خوف العابدين ، وعبادة الخاشعين .

(فزهر مصباح الهدى في قلبه) . اهتدى بنور العلم والايمان الى نهج السبيل (وأعدّ القِرى ليومه النازل به) أي أعد العمل الصالح للموت والقبر كما يُعد الزاد للأضياف (فقرب على نفسه البعيد ، وهوّن الشديد) . المراد بالبعيد هنا الموت ، وهو قريب في واقعه ، ولكنه بعيد عن عقول المستهترين وأفكارهم ، وبهذا الاعتبار وصفه الإمام بالبعد ، والمراد بالشديد الصبر على ما أوجب الله ،

وعما حرم (نظر) الى باطن الأمور (فأبصر) الواقع (وذكر) الله (فاستكثر) من العمل في رضاه .

(وارتوى من عذب فرات) أي من دين الله وشريعته (سهلت له موارده فشرب نهلاً) هذا ، بعد أن أخلص النية ، وصدق منه العزم ، وجد في العمل (وسلك سبيلاً جدداً) أي طريق العلم والعمل ، لا طريق النفــاق والشعارات الزائفة (قد خلع سرابيل الشهوات) التي تقف حاجزاً بينه وبين الشعور بالمسؤولية عن أعماله وتصرفاته (وتخلى من الهموم) كحب الجاه والمال ، والاهتمام بالقيل والقال (إلا هماً واحداً انفرد به) . وهو أن يلقى الله راضياً مرضياً ، أما في الدنيا فليكن ما كان ، تماماً كما قال سيد الكونين : ان لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي .

(فخرج من صفة العمى) عن نهج الهدايــة (ومشاركة أهل الهوى) في الفساد والضلال (وصار من مفاتيح أبواب الهدى) لعلمه بهذه الأبواب والسبيل اليها (ومغاليق أبواب الردى) حيث ابتعد عنها رحمة بنفسه (قد أبصر طريقه – الى – بأمتنها) . هذه الجُمل بكاملها معطوفة للبيان والتفسير عــلى قوله : « فخرج من صفة العمى ، ومشاركة أهل الهوى » وتتلخص بمجموعها في كلمتين وجملة واحدة ، وهي علم فعمل .

يصف الحق ويعمل به .. فقرة ٣ – ٦ :

فَهُوَ مِنَ ٱلْيَقِينِ عَلى مِثْلِ ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ . قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ الْأُمُورِ مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ . مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ ، كَشَّافُ عَشَاوَاتٍ ، مِفْتَــاحُ مُبْهَمَاتٍ ، دَفَّاعُ مُعْضِلَاتٍ ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ[٣] . يَقُولُ فَيُفْهِمُ وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ ، قَدْ أَخْلَصَ لِلّٰهِ فَاسْتَخْلَصَهُ ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ ، قَــدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ ٱلْعَدْلَ فَكَانَ أَوَّلُ عَدْلِهِ نَفْيَ ٱلْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ ، يَصِفُ ٱلْحَقَّ

وَيَعْمَلُ بِهِ ، لَا يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلَّا أَمَّهَا وَلَا مَظِنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا . قَدْ أَمْكَنَ ٱلْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ(٤) ، وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ . فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ ، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ شَرَكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَقَوْلِ زُورٍ . قَدْ حَمَلَ ٱلْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ ، وَعَطَفَ ٱلْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ ٱلْعَظَائِمِ وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ ٱلْجَرَائِمِ . يَقُولُ أَقِفُ عِنْدَ ٱلشُّبُهَاتِ وَفِيهَا وَقَعَ ، وَأَعْتَزِلُ ٱلْبِدَعَ وَبَيْنَهَا ٱضْطَجَعَ ، فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ ، وَٱلْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ ، لَا يَعْرِفُ بَابَ ٱلْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ ، وَلَا بَابَ ٱلْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ . فَذٰلِكَ مَيِّتُ ٱلْأَحْيَاءِ(٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ، وَٱلْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ ، وَٱلْآيَاتُ وَاضِحَةٌ ، وَٱلْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ ، بَلْ كَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ وَهُمْ أَزِمَّةُ ٱلْحَقِّ وَأَعْلَامُ ٱلدِّينِ وَأَلْسِنَةُ ٱلصِّدْقِ ، فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ ٱلْقُرْآنِ وَرِدُوهُمْ وُرُودَ ٱلْهِيمِ ٱلْعِطَاشِ(٦) .

اللغة :

عشاوات : جمع عشاوة ، وهي سوء البصر . والمعضلات : جمع معضلة ، وهي المشكلة التي يصعب حلها . وفلوات : صحراوات يتيه فيها من يريد الخروج منها . وأمّها : قصدها . ومظنة الشيء : موضعه الذي يظن وجوده فيه . وثقل الكتاب : أحكامه وتعاليمه . وتؤفكون : تصرفون . وتعمهون : تجهلون،وقيل :

العمى في البصر ، والعمه في البصيرة . والأزمة : جمع زمام أي ما يُشد به . والميم – بكسر الهاء – الإبل .

الإعراب :

مصباح ظلمات ، وما بعدها إخبار عن مبتدأ محذوف أي هو الخ ، واسم ليس ضمير مستتر و «به» خبرها ، فأين تذهبون «أين» محلها النصب بنزع الخافض أي الى أين ، وأنّى تؤفكون «أنّى» بمعنى أين ، وعليه يكون إعرابها مثل أين تذهبون ، وكيف تعمهون «كيف» محلها النصب على الحال أي على حال تعمهون ، ويجوز أن تكون مفعولاً مطلقاً على معنى أي عمه تعمهون .

المعنى :

(فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس) . ضمير «هو» يعود الى العبد الذي أعانه الله على نفسه ، واستشعر الحزن .. الى آخر الأوصاف التي نعته بها الإمام (ع) والمعنى ان هذا العبد الصالح هو عالم بحق ، لأنه في علمه وعمله على بينة واضحة من ربه تماماً كوضح النهار (قد نصب نفسه لله سبحانه في أرفع الأمور) أي انه بعد أن درس وسهر الليالي في طلب العلم ، وأتقنه خير اتقان ، بعد هذا تعرض لأرفع الأمور ، وهي الفتوى والقضاء بين الناس ، وما يرشدهم الى الحق وسبيله ، واذا حرم سبحانه على الجاهل هذا المنصب الخطير فقد أوجب على العالم أن يبث علمه ، ولا يمنعه عن الناس ، قال الإمام : ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم ان يعلموا .

كل مجتهد مصيب :

(من اصدار كل وارد عليه) . أي يجيب بالحق عن كل سؤال يسأل عنه (وتصيير كل فرع الى أصله) . هذا أوضح وأوجز تعريف للمجتهد ، فهو الذي يحيط بمدارك الشريعة ، ويتمكن منها حتى اذا عرضت له حادثة من الحوادث

استخرج حكمها – وهو المراد بالفرع – من مداركه وأصوله ، وهي أربعة :

١ – العقل ، وهو المدرك الأول والأساس ، فبمنطقه ومنطق الحس يثبت وجود الله سبحانه ، وبحكمه تؤوّل آيات القرآن التي لا تتفق بظاهرها مع بديهة العقل ، وأيضاً بالعقل والمعجزة تثبت نبوة الأنبياء ، ولولاه لانهار الدين من أساسه ، وأيضاً بالعقل تثبت الأحكام القائمة على رعاية مصالح الناس والتيسير عليهم ، والعدل بينهم ، لأن هذه من شوون العقل وأحكامه ، وقد جرت عادة الفقهاء أن يقدموا القرآن في الذكر على العقل حين يشيرون الى أدلة الشرع تعظيماً لكلام الله الذي خلق العقل والشرع ، وإلا فهو أسبق من القرآن من حيث الدلالة على صدقه وإعجازه .

٢ – القرآن الكريم ، وهو كلام الله سبحانه بالحرف بلا زيادة أو نقصان ، وقد ضم أصول الدين بكاملها حتى ولاية الرسول وأهل بيته (ع) كما في الآية ٥٥ من سورة المائدة والآية ٣٣ من الأحزاب ، وتقدمت اليها الاشارة ، أما الفروع والأحكام فقد نص عليها بالتفصيل أو الاجمال كما أوضحنا في الخطبة ٨٤ فقرة ١ .

٣ – ما ثبت بالتواتر ، أو بخبر الثقة من قول النبي (ص) وفعله وتقريره ، وهذه الطرق الثلاث تسمى بالسنة النبوية منفردة ومجتمعة ، وهي بحكم القرآن حجة ودليلاً ، لقوله : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا – ٧ الحشر» .

٤ – إجماع الفقهاء ، ولنا فيه نظر .. إلا إذا كان المجمع عليه من ضرورة الدين أو المذهب ، ومن البداهة ان الضرورة لا تحتاج الى دليل ، بل تكون هي دليلاً على غيرها .

واختلف الفقهاء : هل الواقعة التي لم نعثر على النص على حكمها المعين ، ونطلبه من الأصول والقواعد العامة ، هل لله سبحانه في هذه الواقعة بالذات حكم معين قد يصيبه ظن المجتهد ، وقد يخطئه ، أو ان هذه الواقعة لا حكم فيها لله من الأساس ، وإنما حكمه تعالى يتبع ظن المجتهد،وعليه يكون هذا الظن مصيباً في شتى الحالات ، اذ المفروض ان الواقعة صحيفة بيضاء ، وحكم الله فيها هو حكم المجتهد وظنه ؟.

ذهب الشيعة الى الأول أي ان لله حكماً معيناً في كل واقعة ، سواء أثبت

النص ، أم لم يثبت ، وبهذا قال الشافعي . وذهب مالك وابو حنيفة الى الثاني، وان كل مجتهد مصيب في الظنيات . (انظر كتاب اللمع لأبي اسحق الشيرازي ص ٧١ طبعة ١٩٣٩) .

وفي رأينا أن كل مجتهد مصيب للحكم الإلهي المعين في الواقع ، أو للحكم المقرر الذي أوجبه سبحانه في حق المجتهد عندما يخطىء الحكم المعين ، فالطبيب – مثلاً – قد يخطىء في تشخيص حالـة من الحالات ، والمهندس قد يخطىء في عملية من العمليات ، والكيماوي قد يخطىء في تجربة من التجارب ، ومع هذا الخطأ هنـا وهناك فإن كل واحـد من هؤلاء وغيرهم من العلماء يلزمه حتماً العمل برأيه ، ويلزمنا نحن أن نأخذ بقـوله إن كان قد اجتهد وافرغ الوسع ، لأن الرفض ، وهذه هي الحال ، معناه رفض العلم من الأساس أياً كان نوعه .

والخلاصة ان المجتهد فقيهاً كان أم طبيباً أم مهندساً أم عالماً بالطبيعة – لا يقرر أحكامه على سبيل الواقع ، بل على ما أدى اليه بحثه واجتهاده ومع هذا فإن عليه أن يترتب آثار الواقع ، وإلا انسد باب العلم بشتى أنواعه .. ولا تفـوتنا الاشارة – بهذه المناسبة – الى ان العالم يتهم فهمه وأفكاره ، وانه كلما ازداد علماً ازداد توقعاً للخطأ ، وقبولاً للنقد ، وعلى قدر ما يكون العلم أو الجهل – على الأصح – يكون الإصرار على الرأي والتهرب من النقد .

(مصباح ظلمات – الى – فلوات) . أي هو علَم على الحق ، ومنار في الشرع (يقول فيُفهم) أي لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، ولا يلوك لفظـاً غير واضح ومحدد المعنى في الافهام كما يفعل عباقرة الكلام (ويسكت) عما يحسن السكوت عنه (فيسلم) من الأخطاء والآثام ، وفي أقوال أهـل البيت (ع) : « حق الله على العبـاد أن يقولوا ما يعلمون ، ويقفوا عندما لا يعلمون .. واذا سئل العالم عن شيء ، وهو لا يعلمه ، ان يقول : الله أعلم ، وليس لغير العالم أن يقول ذلك ، بل يقول : لا أدري » . وقد يكون السر في ذلك ان كلمة لا أعلم تُشعر بأن قائلها على شيء من العلم دون كلمة لا أدري . والله العالم .

(قد أخلص لله) في قصده وقوله وفعله (فاستخلصه) أي قربه وكرمه (فهو من معادن دينه ، وأوتاد أرضه) أي من حفظة الدين ، وخلفاء الله في الأرض، وخليفة الله في أرضه هو الذي يخضع فكراً وسلوكاً لأحكامـه تعالى وتعاليمه التي

أمرت بعمارة الأرض وإصلاحها لخير العباد وصلاحهم(قد ألزم نفسه العدل — الى — منزله) . يريد الإمام (ع) ان المؤمن الصادق هو الذي يعيش دينه وايمانه، ويعبر عن عقيدته بالعمل المجسد المحسوس ، ولا ينفصم عن نفسه وايمانه بحال ، ولا يقيس أي عمل من أعماله ، أو قول من أقواله بغير القرآن ، فهو وحده قائده والآخذ بزمامه .

وبعد أن ذكر الإمام (ع) المؤمن العالم ، وحدده بما ذكر من الأوصاف ، أشار الى الجاهل المنافق بقوله : (وآخر قد تسمى عالماً — الى — قول زور) . العالم العامل قوة ودعامة للدين والحق ، أما الجاهل المنافق فهو حرب على الدين والانسانية بأكاذيبه واحتياله ، وغروره وضلاله ، وفي بعض الأحاديث : ان من اتسم بسمة أهل العلم والدين ، وليس منهم فهو من قطّاع الطريق ، وأشد على الاسلام من جيش يزيد بن معاوية (قد حمل الكتاب على آرائه) لا على ما أراد الله من كلامه . وقال السيد رشيد رضا في المنار عند تفسير الآية ١٦٦ من سورة البقرة : « ان الكرخي — وهو من أئمة الأحناف في الفقه — قال بأن الأصل هو قول أبي حنيفة ، فإن وافقته نصوص الكتاب والسنة فذاك ، وإلا وجب تأويل نصوص القرآن والسنة على قول أبي حنيفة » . ومعنى هذا في واقعه ان الله والرسول تبع لأبي حنيفة .. تعالى الله عما يقول المشركون علواً كبيراً .

(وعطف الحق على أهوائه) أي يقيس الحق بمنافعه ، لا بمقاييسه المقررة (يؤمن الناس من العظائم ، ويهون كبير الجرائم) كأنْ يقول لهم : الى يوم الله يهون الله .. ان الله غفور رحيم .. قال الإمام (ع) : الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله (يقول : أقف عند الشبهات ، وفيها وقع) . الشبهات منطقة « حرام » بين الحلال البيّن والحرام البيّن ، وفيها يلتبس الحلال بالحرام ، ومن الورع أن يتجنبها المسلم كيلا تجره الى مواقعة الحرام . وفي الحديث : حلال بيّن ، وحرام بيّن ، وشبهات بين ذلك ، فمن ترك الشبهات نجا من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات وقع في المحرمات وهلك من حيث لا يعلم .

يقول : (واعتزل البدع ، وبينها اضطلع) . البدعة احداث في الدين ايجاباً أو سلباً ، أي نفي الثابت ، أو اثبات المنفي ، وهذا الجاهل المنافق يدعي تجنب

البدع والشبهات ، وهو غارق فيها الى أذنيه (فالصورة صورة إنسان ، والقلب قلب حيوان) . الطبيعة البشرية واحدة في كل فرد ، والتفاوت بين الأفراد إنما هو نتيجة عوامل خارجة عن طبيعته ، وهي كثيرة :

منها التربية والوراثة والجو الذي يعيش فيه ، والغذاء الذي يتغذى به،واللباس الذي يلبسه ، والكلام الذي يسمعه أو يقرأه ، والشيء الذي يراه ويشاهـده .. الى غـير ذلك . وإذن للإنسان طبيعة ذاتية أولية يشاركه فيها جميع الأفراد ، وتقبل كل ما يمر بها من الهيئات والصفات تماماً « كالريح آخذة مما تمر بها : نتناً من النتن أو طيباً من الطيب » وله – أي للإنسان – طبيعة ثانية مكتسبة ، وبها يقاس لا بطبيعته الأولى .. فإن نشأ واعتاد على الكذب والخداع فهو شيطان في صورة إنسان ، وان نشأ جاهلاً شرهاً فهو في واقعه حيوان ، وفي ظـاهره إنسان .. وقال الملا صدرا في الأسفار : « إذا تمكنت الصفات المختلفة منه خرجت النفوس من القوة الى الفعل – أي من طبيعة اللاخير واللاشر – وتتصور بصورة ملك أو شيطان أو بهيمة أو سبع » .

(لا يعرف باب الهدى فيتبعه ، ولا باب العمى فيصد عنـه) لأنه حيوان (فذلك ميت الأحياء) . هو ميت بطبيعته من حيث الانسانية،وهو حي بطبيعته من حيث البهيمية (فأين تذهبون – الى – يتاه بكم) . أتدبرون منصرفين عن دعوة الهدى والحق تائهين في ظلمات الضلال والهلاك ، وطريق النجاة بمرأى منكم واضحاً كالشمس ؟ ثم بيّن هذا الطريق بقوله :

(وكيف تعمهون ؟ وبينكم عـترة نبيكم) وهم عدل القرآن ، والوسيلة الى الجنان بشهادة جـدهم في حديث الثقلين (وهم أزمة الحق) يقودون اليه من والاهم ، واسترشد بهديهم (واعلام الدين) لأنهم خزنة علمه ، وحفظة عهده وألسنة الصدق) بشهادة القرآن الذي طهرهم مـن الرجس بشتى أنواعه(فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن) . لتعظيم القرآن واحترامه منازل ومراتب ، منها أن نحفظ آياته ، ومنها أن نجيد تلاوته ، أو نفهم مراده ، وخير المراتب كلها أن نعرف أحكامه ، ونعمل بها ، وأيضاً لتعظيم أهل البيت الذين هم ترجمان القرآن منازل، منها أن نصلي عليهم أينما ذكروا ، ومنها أن نزور عتباتهم المقدسة ، وأن نفرح لفرحهم ، ونحزن لحزنهم ، وخير المنازل اطلاقاً أن نعرف تعاليمهم ، ونلتزمها قولاً وعملاً .

(وردوهم ورود الهيم العطاش). قال الشيخ محمد عبده : « هلموا الى بحار علوم أهل البيت مسرعين كما تسرع الى الماء الإبل العطاش » . فهم المورد العذب، والشاهد حياتهم وسيرتهم بصرف النظر عمـا نزل فيهم من الآيات ، وجاء من الروايات ، فلقد جاهدوا في سبيل الإسلام والمسلمين ، ولاقوا في هذه السبيل ما لاقوه من التقتيل والأسر والسبي والتشريد والتنكيل .

لا تستعملوا الرأي .. فقرة ٧ — ٩ :

أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّـهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ . وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّـا وَلَيْسَ بِبَالٍ فَلَا تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ . فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ . وَٱعْذِرُوا مَنْ لاَ حُجَّةَ لَـكُمْ عَلَيْهِ . وَأَنَا هُوَ(٧) . أَلَمْ أَعْمَلْ فِيـكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ ، وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ . وَرَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ . وَوَقَفْتُكُمْ عَلى حُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَأَلْبَسْتُكُمُ ٱلْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي ، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي . فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ ٱلْبَصَرُ وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ ٱلْفِكَرُ(٨) . حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلى بَنِي أُمَيَّـةَ ، تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا ، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا ، وَلاَ يُرْفَعُ عَنْ هٰذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلاَ سَيْفُهَا . وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذٰلِكَ ، بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ ٱلْعَيْشِ ، يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً(٩)

اللغة :

فرشتكم : بسطت لكم . وتغلغل في الشيء : دخل فيه ، وتغلغل وغلغل : أسرع . ومعقولة عليهم : مسخّرة لهم ، من العقال . والمجّة : القليل من الشراب تذوقه ثم تقذفه . والبرهة : مدة غير قصيرة من الزمن . ويتطعمونها : يتذوقونها .

الإعراب :

الهاء في خذوها يعود الى الحقيقة وهي : « انه يموت الخ .. » ، ومن للذيذ متعلق بمجّة أو بمحذوف صفة لها ، وجملة حال من هاء يلفظونها .

المعنى :

(خذوها عن خاتم النبيين (ص) انه يموت من مات منا وليس بميت) . قيل : أشار الإمام (ع) بهذا الى الآية الكريمة : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون — ١٦٩ آل عمران » . وقيل: المراد ان أهل البيت أحياء بحياة آثارهم وتدين الملايين بمبادئهم وتعاليمهم . وكل من القولين صحيح في نفسه ، وغير بعيد عن مداول الكلام ، ولكن القول الثاني أرجح — فيما يظن — بقرينة السياق .

(ويبلى من بلي منا وليس ببال) . قال جماعة : ان أبدان الأولياء لا تبلى أبداً ، بل هي في جوف الأرض غضة طرية كما كانت على وجهها . وقال آخرون : ترفع بأعيانها الى ملكوت السماء ؛ وذهب فريق ثالث الى ان أرواحهم تنتقل الى أبدان مثالية . ورابع الى انها كأبدان غيرهم من غير فرق . ونحن لا نرى أية جدوى وراء هذا النزاع حيث لا نهتدي به في حياتنا العملية الى شيء ، ولسنا بمسؤولين عن ذلك يوم القيامة ، وكل ما يجب علينا اعتقاده ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما أشارت الآية ٦٢ من سورة البقرة .

(فلا تقولوا بما لا تعرفون ، فإن أكثر الحق فيما تنكرون) . أجمع القدامى على ان الماء بسيط ، وأثبت العلم انه مركب ، وأنكروا على «جاليلو» ان الأرض

تدور حول الشمس ، وليس الشمس هي التي تدور حول الأرض ، ويحلف الألوف في عصرنا ان الانسان ما صعد ولن يصعد على القمر .. الى ما لا يبلغه الإحصاء من الأمثلة .. واذا كانت هذه هي الحال في المحسوسات فكيف بغيرها من المعقولات والمغيبات ؟.

(واعذروا من لا حجة لكم عليه ، وأنا هو) . يجب عقلاً وشرعاً وعرفاً على الجاهل أن يقلد العالم فيما يعود الى اختصاصه ، كالأعمى يقلد البصير في معرفة الطريق ، والمريض يقلد الطبيب في تشخيص الداء ومعرفة الدواء .. والإمام (ع) باب مدينة العلم ، والقرآن الناطق يدور معه كيفما دار ، وأيضاً يجب على العالم أن يعلّم الجاهل ، ويبشر وينذر ، وقام الإمام بهذا الواجب ، وأداه بإخلاص، وعلى أكمل وجه ، والذي وصل الى الأجيال من حكمه وخطبه ورسائله في هذا الباب هو أقل بكثير مما ضاع ولم يحفظ ، وإذن فلا عذر لأصحابه ، ولا حجة لهم عليه ولا على غيره إن خالفوا وأهملوا ، بل الحجة عليهم لله وله ، ثم أكد الإمام هذه الحجة بقوله وخطابه : (ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر ، وأترك فيكم الثقل الأصغر) . ويشبه هذا القول الآية ٧١ من سورة الزمر : « ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم » .

والمراد بالثقل – بفتح الثاء – الأكبر القرآن الكريم ، والأصغر أهل البيت، ويطلق الثقل في اللغة على كل نفيس، وعلّق الشيخ محمد عبده على قول الإمام (ع) بما نصه : « في الحديث عن النبي (ص) انه قال : تركت فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي ، وأمير المؤمنين قد عمل بالثقل الاكبر ، وهو القرآن ، وترك الثقل الأصغر ، وهو ولداه » أي الحسن والحسين (ع) .

ومن قرأ سيره الإمام يجد أنه قد حول آيات القرآن من كلمات تحفظ أو تكتب الى واقع يُحس ويُلمس في شخص الإمام وصفاته ، وفي كل خطوة خطاها في سلوكه وحياته ، ولو ان الله خلق القرآن على صورة رجل لكان هذا الرجل علي ابن أبي طالب ، وفيما سبق من شرح الخطب تكلمنا عن الإمام وحديث الثقلين.

(وركزت فيكم – الى – قولي وفعلي) . يشير بهذا الى انه ما ترك شيئاً تتم به الحجة عليهم من بيان الأحكام ووسائل الإقناع إلا وذكره بصراحة ووضوح في أقواله حيث حذر وأنذر ، وفي أفعاله حيث ساوى وعدل (وأريتكم

كرائم الأخلاق من نفسي) . وفي طليعتها الصبر عليهم بلا حقد وضغينة ، ولا ختل ومواربة ، ولا هدف إلا الله والصالح العام .

القياس :

(فلا تستعملوا الرأي الخ ..) . ما لأحد بالغاً ما بلـغ من العلم أن ينسب شيئاً الى دين الله إلا بدليل منه تعالى وفهْم عنه ، ومن تصور وتخيل حكماً من الأحكام بوحي من ذاته ، ونسبه الى الدين فهو من الذين افتروا على الله الكذب، ومنهم أهل العمل بالقياس الذين يثبتون لما لا نص عليه من الشارع حكم المنصوص عليه توهماً من أنفسهم ان العلة الموجبة لحكم المنصوص عليه هي بالذات علة لحكم المسكوت عنه مع اعترافهم صراحة بأن الشارع لم يشر الى علة المنصوص عليه من قريب أو بعيد ، ومعنى هذا انهم ينسبون الى الشارع نصاً لا علم له به .. ومن هنا أطلقوا على القياس كلمة النص غير المباشر ، وقالوا أيضاً : يأتـي القياس في المرتبة الرابعة بعد الكتاب والسنـة والاجماع ، أي هو مقـدم على الاستصحاب والبراءة وغيرهما من الأصول العملية تماماً كالقرآن والسنة (أنظر كتاب الفقـه الاسلامي في ثوبه الجديد للشيخ الزرقا ، مادة ١٠ و ٥٣١) ، ولا أدري كيف ألحقـوا المسكوت عنـه بالمنطوق بـه ، والمظنون بالمعلوم ، والله سبحانه يقول : « وان الظن لا يغني عن الحق شيئاً ــ ٢٨ النجم » . وتكلمنا عن القياس بنحو من التفصيل في كتاب « من هنا وهناك » ، وعند تفسير الآيـة ٥٩ من سورة النساء في الكاشف .

(حتى يظن الظان ان الدنيا معقولة على بني أمية) . قال ابن أبي الحديد: « هذه الخطبة طويلة ، وقد حذف الكثير منها الشريف الرضي » . وبهذا نجـد تفسير عدم الربط والمناسبة بين الاشارة الى الأمويين ، وما تقدمهـا من الكلام ، والمعنى ان الدنيا سوف تُقبل على بني أمية بزخرفها وبهجتها حتى يخيل الى كثير من الناس انها وقف عليهم (تمنحهم درها ، وتوردهم صفوهـا) . أي تغدق عليهم المال والسلطان ، والرخـاء والأعوان (ولا يرفع عن هذه الأمة سوطهـا ولا سيفها) . أي وأيضاً سوف يظن الظان أن جور الأمويين وخوضهم في دماء المسلمين يدوم الى اليوم الأخير .

(وكذب الظان للذلك) لأن العباسيين وجلادهم أبا مسلم يسلبون الملك منهم، ويسومونهم سوء العذاب (بل هي مجة من للذيذ العيش) ينعمون بها قليلاً ، ثم تتكشف الأمور عن أوخم العواقب وأسوئها (يتطعّمونها برهة) أي يتذوقونهـا أمداً قد يطول بعض الوقت (ثم يلفظونها جملة) واحدة ، ولن تعود اليهم أبداً. وهذا من الاخبار بالمغيبات ، يرويها الإمام (ع) عن النبي (ص) عن جبريل عن الله ، كما قال : « انما هو تعلم من ذي علم » .

الخطبة

-٨٦-

ما كل ذي قلب بلبيب :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ ٱللهَ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ ، إلاَّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ وَرَخَاءٍ ، وَلَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إلاَّ بَعْدَ أَزْلٍ وَبَلَاءٍ ، وَفِي دُونِ مَا ٱسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتَبٍ وَمَا ٱسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ . وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ ، وَلاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ ، وَلاَ كُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ . فَيَاعَجَبِي — وَمَالِيَ لَا أَعْجَبُ — مِنْ خَطَإِ هٰذِهِ ٱلْفِرَقِ عَلى ٱخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا ، لَا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ ، وَلَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ ، وَلَا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ ، يَعْمَلُونَ فِي ٱلشُّبُهَاتِ وَيَسِيرُونَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ ، ٱلْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ مَا عَرَفُوا ، وَٱلْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا ، مَفْزَعُهُمْ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ إِلى أَنْفُسِهِمْ ،

وَتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُبْهَمَاتِ عَلى آرَائِهِمْ كَأَنَّ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ إمَامُ نَفْسِهِ قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًى ثِقَاتٍ وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ .

اللغة :

لم يقصم : لم يهلك ، والقصم في الأصل الكسر . والأزل – بسكون الزاء – الشدة . والعتب – بفتح التاء لا بسكونها – الشدة أيضاً . لا يقتصون: لا يتبعون . والمفزع : الملجأ .

الإعراب :

قط – بتشديد الطاء – ظرف زمان لاستغراق ما مضى ، ويا عجباً منصوب على المصدر ، والمنادى محذوف أي يا قوم أو يا نفس أعجب عجباً ، ويجوز أن يكون « عجباً » منادى ، والتنوين عوض عن المضاف أي احضر يا عجبي ، وما لي مبتدأ وخبر ، أي ما شأني ؟.

المعنى :

(فإن الله لم يقصم جباري دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء) . وجبّارو الدهر هم الذين يمارسون المعارك ضد الانسانية ، ويدبرون المؤامرات والانقلابات ضد الحرية ، وتدفع الشعوب الثمن من خبزها ودمائها ، والمعنى ان الله سبحانه لا يدع هؤلاء الطغاة يعملون ما يشتهون حتى النهاية ، ولكنه يمهلهم الى حين ، ثم يأخذهم من حيث لا يشعرون ، وقد شاهدنا ما حل بهتلر الذي كان يتحدث عن استعمار الكرة الأرضية ، ولا يرضى بديلاً عن شرقها وغربها ، وأمثاله كثيرون سابقاً ولاحقاً ، ولا تقلّ أطماع ورّاثه وخلفائه عن أهدافه وأطماعه .. والمصير واحد بعون الله وحوله ، وبنضال من يخلقون التاريخ والحضارات (ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل وبلاء) . أي ان الأمم المستضعفة لا تتحرر من الجبابرة الطغاة ، وتحصل على أهدافها إلا بعد التضحيات والصبر على البلاء والشدائد من

أجل ما تريد.. والشاهد الآن على ذلك الشعب الفيتنامي في الهند الصينية، والأنغولي في افريقيا .

(وفي دون ما استقبلتم من عتب ، وما استدبرتم من خطب معتبر) . أنتم الآن في شدة ، وأيضاً قاسيتم الكثير من قبل ، فلماذا لا تعتبرون ولا تتعظون ؟ أليس الجدير بكم أن تعتبروا بأقل مما ادبر عنكم ، وأقبل عليكم ؟. وكأنّ الإمام (ع) يعنينا – نحن العرب والمسلمين – بهذا الخطاب .. قاسينا من تركيا وفرنسا وانكلترا – ما فيه الكفاية ، ونقاسي الآن من أمريكا والصهيونية ما لا مزيد عليه ، وبرغم التجارب كلها وما فيها من قسوة نصبر على الهوان ولا نحرّك ساكناً (وما كل ذي قلب بلبيب) لأن صاحب القلب السليم لا يرضى بالراحة مع الهوان ، ولا بالعبودية مع الأمان ، ويضحي بنفسه حرصاً على حقه وكرامته (ولا كل ذي سمع بسميع) لما يهديه ويرشده الى الخير والصلاح (ولا كل ناظر ببصير) يرى ما يضره وينفعه ، فيفعل هذا ، ويجتنب عن ذاك .

(فيا عجباً – الى – وصي) . لماذا هذه الفرق والتفرقة في أمة واحدة ؟ وما هو السبب لتناقضها وتنافرها؟ وهل ما استندت اليه كل فرقة حق وصواب ؟. كلا فإن الحق لا يتجزأ ولا ينقسم الى سلب وايجاب .. وهو يقاس بقول النبي وفعله وتقريره ، فلماذا لا يأخذ المسلمون جميعاً بهذا القياس كما فعل الأولياء والأتقياء ؟. وتجدر الاشارة الى ان الإمام أعرف الناس بالأسباب المباشرة لتعدد الفرق ، وانها ترجع الى الاختلاف في اثبات النص عن المعصوم ، أو الى فهمه، أو الى الجهل والتعصب ، أو حب الرياسة والشهرة .. الى غير ذلك ، ان الإمام يعرف هذا ، وأيضاً يعرف ان الانسان لا يعجز عن مواجهة هذه الأسباب لو عزم وصدقت منه النية ، وعلى هذا الأساس قال سبحانه : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا – ١٠٣ آل عمران » . وقال : « ان اقيموا الدين ولا تفرّقوا فيه – ١٣ الشورى » .

(ولا يؤمنون بغيب) أي بالوحي ، وقيل: كل ما لا يدرك بالحواس الخمس فهو من عالم الغيب (ولا يعفّون عن عيب) كالبغضاء وشتات الكلمة ، ويعفون بتشديد الفاء : من العفة والعفاف (يعملون في الشبهات) وهي « المنطقة الحرام » بين الحرام البيّن ، والحلال البين ، وتكلمنا عن الشبهة في الخطبة ٨٥ (ويسيرون في الشهوات) التي تُلقي بهم في التهلكة (المعروف عندهم ما عرفوا ، والمنكر

عندهم ما أنكروا) . فهم وحدهم على حق ، وكل من خالف ويخالف فهو على باطل وضلال .

(مفزعهم في المعضلات الى أنفسهم ، وتعويلهم في المبهمات على آرائهم، فتي عندهم مصدر الحق والقيم (كأن كل امرىء منهم إمام نفسه) . يضع عقله ورأيه فوق علم الله وحكمته ، وصدق الله العظيم : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه ٤٣ الفرقان ». (قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات،وأسباب محكمات) . ضمير منها يعود الى نفسه ، والمعنى يعتمد على أهوائه في تشريع الأحكام ، وتقدير مصالحها، ومع ذلك يرى انه قد استمسك بالعروة الوثقى ، وأخذ بالنص الواضح القطعي متناً وسنداً .

وهذه المزايا والعيوب تنطبق على الكثير من أهل العمائم في عصرنا .. جهل وغرور .. بعضه فوق بعض ، تستره عمة بيضاء أو سوداء حتى التبس على العامة التمييز بين الأصيل والدخيل .. فإلى الله المشتكى .

الخطبة

-٨٧-

الرسول الأعظم .. فقرة ١ :

أَرْسَلَهُ عَلى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ . وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الأُمَمِ وَٱعْتِزَامٍ مِنَ ٱلفِتَنِ ، وَٱنْتِشَارٍ مِنَ الأُمُورِ ، وَتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ ، وَالدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ ٱلغُرُورِ . عَلى حِينِ ٱصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا ، وَإِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا ، وَٱغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا . قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ ٱلْهُدَى ، وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى . فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا ، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا . ثَمَرُهَا ٱلفِتْنَةُ ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ . وَشِعَارُهَا الخَوْفُ وَدِثَارُهَا السَّيْفُ . فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ . وَٱذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ ، وَعَلَيْهَا مُحَاسَبُونَ (١) .

اللغة :

الهجعة : النومة الخفيفة ليلاً . واعتزام الفتن : غلبتها . وتلظّ : مثل نار

تلظى : تلتهب . والأغورار : الذهاب . ودرست : انطمست . والردى، السقوط والهلاك . والشعار : الثوب يلبس على البدن ، والدثار : فوق الشعار ، والداثر : الهالك .

الإعراب :

جملة قد درست حال من الدنيا ، وتيك إشارة للمؤنث بمعنى تلك ، والتي عطف بيان ، وآباؤكم مبتدأ ، ومرتهنون خبر، والجملة صلة الموصول، وهو «التي» .

المعنى :

(أرسله) . أرسل الله سبحانه محمداً (ص) . (على حين فترة من الرسل) بينه وبين من بُعث قبله (وطول هجعة من الأمم) أي غفلتهم واعراضهم عن الله وأحكامه (واعتزام من الفتن) بتغلب الخير على الشر ، والصلاح على الفساد (وانتشار من الأمور) وشتاتها بسبب الفوضى والتحرر من القيود الانسانية والاجتماعية (وتلظ من الحروب) التي انهكت العباد ودمرت البلاد (والدنيا كاسفة النور). لا عامل فيها بخير ، ولا هادي الى رشد (ظاهرة الغرور) بظهور المغترين بها وكثرتهم (على حين اصفرار من أوراقها) . آذنت الدنيا أو المغرور بها — بالرحيل تماماً كأوراق الشجر حين تذبل وتصفر (وإياس من ثمرها ، واغورار من مائها). لا أمل وخير من شجرة اصفر ورقها ، وغار ماؤها .

(قد درست منار الهدى) حيث لا منقذ من الجهل والتضليل ، ولا مرشد الى نهج السبيل (وظهرت أعلام الردى) بظهور المفسدين والمضللين (فهي متجهمة لأهلها ، عابسة في وجه طالبها) تستقبلهم بما يكرهون ويمقتون حتى ولو أغدقت عليهم المال والجاه ، انها تعطي بيد ، وتطعن بأخرى ، قال الإمام : « ان جانب منها اعذوذب واحلولى أمرّ منها جانب فأوبى » .

(ثمرها الفتنة) الفساد والضلال (وطعامها الجيفة) لأنه يؤول الى الجيفة كما يؤول الانسان الى التراب (وشعارها الخوف) . الفقير يخاف الأقوياء والأغنياء، والغني يخاف زوال النعمة وثورة الفقراء (ودثارها السيف) أي الصراع والتناحر

على السلطان والحطام (فاعتبروا عباد الله ، واذكروا تيك) اشارة الى السيئات (التي آباؤكم واخوانكم بهـا مرتهنون ، وعليها محاسبون) حتى الهفوة الصغيرة يُسأل المرء عنها ، ويعاقب عليها ، وفي الآثار : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فانها تجتمع على العبد ، وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه » .

وقدمنا أكثر من مرة ان الدنيا المذمومة هي دنيا البغي والاستغلال ، والفساد والضلال ، أما دنيا الخير ، والعلم النافع ، والعمل الصالح فهي دنيا الله وسبيل رضوانه وجنانه، ولا شيء أدل على ذلك من أنه سبحانه وتعالى ربط خير الآخرة بخير الدنيا ، وشرها بشرها ، قال عز من قائل : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره — ٨ الزلزلة » . وقال : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً — ٧٢ الاسراء » .

أنا مسمعكم .. فقرة ٢ :

وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلاَ بِهِمُ ٱلْعُهُودُ ، وَلاَ خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْأَحْقَابُ وَٱلْقُرُونُ . وَمَا أَنْتُمُ ٱلْيَوْمَ مِنْ يَوْمِ كُنْتُمْ فِي أَصْلاَبِهِمْ بِبَعِيدٍ وَاللهِ مَا أَسْمَعَهُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا ٱلْيَوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ . وَمَا أَسْمَاعُكُمُ ٱلْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِهِمْ بِالأَمْسِ . وَلاَ شُقَّتْ لَهُمُ الْأَبْصَارُ وَلاَ جُعِلَتْ لَهُمُ الْأَفْئِدَةُ فِي ذٰلِكَ الْأَوَانِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هٰذَا الزَّمَانِ . وَوَاللهِ مَا بَصُرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ وَلاَ أُصْفِيتُمْ بِهِ وَحُرِمُوهُ . وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ ٱلْبَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا ، رِخْواً بِطَانُهَا . فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ ٱلْغُرُورِ . فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ(٢) .

اللغة :

الأحقاب : جمع حقب ، وهو ثمانون سنة ، وقيل : أكثر . والقرون : جمع قرن ، وهو مئة سنة ، وقيل : أقل ، والجيل أهل الزمان الواحد . ولا أصفيتم : ولا خُصصتم . والخطام : ما يجعل في أنف البعير ليقاد به . وبطانها : حزامها .

الإعراب :

ببعيد الباء زائدة ، وبعيد خبر « أنتم » أو خبر « ما » على تقدير انها عاملة عمل ليس ، وكل من اليوم ومن يوم متعلق ببعيد ، ها أنا «ها» للتنبيه، وجائلاً حال من البلية ، وخطامها فاعل « جائلاً » ومثله رخواً بطانها ، والى أجل متعلق بممدود .

المعنى :

(ولعمري ما تقادمت — الى — ببعيد) . يتعجب الإمام (ع) كيف ان الخلف لم يتعظ بما آل اليه السلف مع ان العهد بينهما ليس ببعيد،بل ان الكثير ممن تأخر قد شاهد ورأى ما حل بمن تقدم !.. ومثله : « أن يصيبكم مثلما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد — ٨٩ هود » . (والله ما أسمعهم الرسول شيئاً إلا وها أنا ذا مسمعكموه). جمع الله سبحانه لمحمد (ص) علم النبيين ، وجمع محمد ذلك كله لأمير المؤمنين (ع) فبث على كل ذي سمع ما بلغه الرسول (ص) للناس ، ولم يكتم الإمام منه شيئاً .

(وما أسماعكم بدون — الى — هذا الزمان) . ان الشيء الذي سمعتموه مني هو بالذات ما سمعه الصحابة من الرسول ، وان الهدي الذي رأيتموه مني قولاً وعملاً هو نفس الهدي الذي رآه الصحابة من رسول الله ، ومداركم تماماً كمداركهم ، واذن فلا عذر لكم بجهل ، لأني قد بلغت كما بلغ الرسول ، وأيضاً لا عذر لكم بعجز لأنكم مثل الصحابة عقلاً وسمعاً وبصراً (ووالله ما بصرتم بعدهم شيئاً جهلوه ، ولا أصفيتم به وحرموه) أي انكم لا تختصون بشيء من

دونهم ، بل ان حالكم كحالهم من حيث التبليغ ، وتيسير السبيل للعلم بدين الله وأحكامه،كما ان حالي كحال الرسول الأعظم (ص) في قطع المعذرة وقيام الحجة.

(ولقد نزلت بكم البلية جائلاً خطامها رخواً بطانها) . هذا انذار بأنهم سيلاقون من بعد الإمام بلاء يكونون معه كراكب البعير الذي أفلت من أنفه الخطام ، واسترخى من تحت بطنه الحزام ، وأوشك راكبه على السقوط (فلا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور) كالجاه والمال (فإنما هو ظل ممدود الى أجل معدود) يذهب ويبقى وزره وتبعته . ومن أقواله : شتان بين عملين: عمل تذهب لذته وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره .

الخطبة

-٨٨-

إله الخلق ورازقه .. فقرة ١ :

الْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً إِذْ لَا سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَلَا حُجُبٌ ذَاتُ أَرْتَاجٍ ، وَلَا لَيْلٌ دَاجٍ ، وَلَا بَحْرٌ سَاجٍ ، وَلَا جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ ، وَلَا فَجٌّ ذُو اعْوِجَاجٍ ، وَلَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ ، وَلَا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ . ذٰلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ وَإِلٰهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ ، قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِهِمْ وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ[1] .

اللغة :

الرويّة بالفكر ، والرؤية بالبصر . ورتج وأرتج الباب : أغلقه ، والرتاج : الباب العظيم . ودجا الليل : أظلم ، وليل داج : مظلم . وسجا البحـــر : اذا سكن ، قال سبحانه : والليل اذا سجا : أي سكن أهله . وفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواسع بين جبلين . والمهاد : الفراش . ودائبان : جادان ومستمران ، واذا أطلقت كلمة « الدائبان » بلا قرينة انصرفت الى الليل والنهار .

الإعراب :

سماء مبتدأ ، أو اسم «لا» بناءاً على انها عاملة عمل ليس ، والخبر محذوف أي موجودة ، وذات صفة لسماء . وجملة يبليان حال من الشمس والقمـــر ، والمصدر من أن تتناهى متعلق بمستقر ومستودع .

المعنى :

(الحمد لله المعروف من غير رؤية ، والخالق من غير روية) . نحن نعرف الله سبحانه بالتفكر والتدبر في خلقه وآثاره ، لا بالرؤية والمشاهدة ، وأيضاً نحن نعمل وندبر أمورنا بواسطة الشعور والتعليم والجوارح والآلات ، أما هو ، جلت كلمته ، فإنه يقول للشيء : كن فيكون أي يريد فيوجد المراد ، ليس كمثله شيء طبيعي أو غير طبيعي ، انه يؤثر ولا يتأثر (الذي لم يزل قائمـــاً) بذاته غنياً عن غيره ، ولا غنى لغيره عنه (دائماً) بلا ابتداء ولا انتهاء كما هو شأن الواجب أي الموجود بذاته لا بسبب خارج عنها .

(إذ لا سماء — الى — ذو اعتماد) أي ذو قوة ، ويتلخص المعنى بأنه تعالى كان ولم يكن معه شيء ، لأنه المبدأ الأول لكل شيء ، ولا بداية له وإلا كان حادثاً .. وتكلم بعض الشارحين ، وأطال عن المراد بالحجب في قولـــه : « ولا حجب ذات ارتاج » . وقال فيما قال : ان دون الله سبعين ألف حجاب مستنداً الى رواية نقلها صاحب البحار عن الدر المنثور .. لا تركن النفس اليهـــا متناً ولا سنداً . وقال آخر : المراد بالحجب ظلمات النفس وشهواتها ..

وفي رأينا أن نفي الحجب هنا عنه سبحانه من باب السلب بانتفاء الموضوع تماماً كقولنا : ليس لله ولد ، لأن معنى الحجاب نسبي يحتاج الى اثنين: محتجب — بكسر الجيم — ومحتجب — بفتحها — فإذا انتفى هذا — كما هو الفرض — انتفى ذاك حتماً وذاتاً .

(ذلك مبتدع الخلق ووارثه) . ذلك إشارة اليه تعالى حيث كان ولا كائن محجوب وغير محجوب . والبديع هو الذي لا شبيه له ولا نظير ، ومبتدع الشيء موجده من لا شيء ، وعلى غير مثال سابق .. وربما قال قائل : كيف وصف سبحانه نفسه بالوارث ، وهو المالك الأول والأصيل لكل شيء ، وما من أحد يملك الا ما ملكه،وفي الآية ١٢٨ من سورة الأعراف : « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » . والجواب واضح ، وهو ان المراد بالوارث هنا الحي الباقي بلا نهاية لبقائه.

(وإله الخلق ورازقه) عن طريق الكدح والعمل : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه — ١٥ الملك».و(الشمس والقمر دائبان في مرضاته) أي مستمران في تحقيق الفائدة منهما ، وثابتان على قوانين وخصائص لا تتغير ، ولولا هذا الاطراد والاستمرار في جميع الكائنات ما ثبت شيء في ميدان العلم ، وبكلمة أصح ما كان للعلم عين ولا أثر .. ونسأل : من أين جاءت هذه القوانين والخصائص،من الطبيعة العمياء ، أو من الصدفة ؟ وإذا كنا نحن لا نفسر بالصدفة أفعالنا فكيف نفسر بها عظمة الكون ونظامه ؟ واذن فلا محيص عن الايمان بالقوة العليمة الحكيمة .

(يبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد) بمرور الأيام والسنين كما قال الإمام في وصيته لولده الإمام الحسن : من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وان كان واقفاً .

(قسم ارزاقهم) على أساس ما بينه في كتابه : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » .. أبداً لا صداقة لله مع الناس كي يحابي ويعطي جزافاً واعتباطاً ، وانما يتعامل معهم على وفق ما حدد وشرع ، وهو لا يحدد ويشرع شيئاً منافياً لمقتضى نواميس الطبيعة ، كيف وواضع الشريعة هو خالق الطبيعة ؟. ومن أجل هذا ربط سبحانه صلاح الناس ونجاحهم بإخضاع سلوكهم وأعمالهم لنواميس كونية وأسباب طبيعية ، فمن أهمل وعطّل هذه الأسباب ، فآثر البطالة على العمل ،

والخرافة على العلم كان مسؤولاً عن تقصيره وإهماله أمام الله والناس .

(وأحصى آثارهم — الى — الغايات) . والمراد بهذه الغايات مصير الانسان من سعادة أو شقاء في اليوم الآخر، وفي بعض خطب النهج : الجنة غاية السابقين، والنار غاية المفرطين . ويتلخص بأن الله على كل شيء شهيد وحفيظ ووكيل، وانه أعلم بالشيء من نفسه ، لأنه خالق كل شيء ومالكه .

من توكل عليه كفاه .. فقرة ٢ :

هُوَ ٱلَّذِي ٱشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَٱتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ وَمُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ . عِبَادَ ٱللهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا ، وَحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيْقِ ٱلْخِنَاقِ ، وَٱنْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ ٱلسِّيَاقِ وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظ وَزَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ(٢) .

اللغة :

عازّه : رام أن يغلبه في العز . وشاقه : خالفه . وناواه : عاداه .

الإعراب :

قاهر يجوز أن يكون خبراً ثانياً لضمير «هو» المنطوق ، وخبر المبتدأ محذوف أي هو قاهر .

المعنى :

(هو الذي اشتدت نقمته على أعدائه في سعة رحمته ، واتسعت رحمته لأوليائه في شده نقمته) . ونلتمس تفسير هذه الرحمة والنقمة منه تعالى ، نلتمسه بهذا المثال : من البداهة ان الشمس وضياءها رحمة من الله سبحانه ، وكذلك الهواء والغيث والخصب لما فيه من الفوائد والمنافع التي تشمل وتعم البَرّ والفاجر، والمؤمن والكافر ، ومعنى هذا ان الله ، جلت حكمته ، يرحم في الدنيا أعداءه ، وهو كاره لهم وناقم عليهم ، وأيضاً يرسل سبحانه الطوفان والعواصف والزلازل، وهي غضب منه ونقمة لما فيها من شرور ومضار تعم كل من يصادفها صالحاً كان أم طالحاً ، وتجتاح كل ما يعترض طريقها ، سواء أكان قصراً لجبار أم كوخاً لأيتام، ومعنى هذا ان نقمته في الدنيا قد تنزل بالأولياء والأتقياء ، وهو محب لهم وراض عنهم .. والى هذا تومىء الآية ٢٥ من سورة الأنفال : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ومن طريف ما قرأت في هذا الباب قول لفيلسوف معاصر : ان المؤمن يشكر الله على نعمة أنعمها عليه مع ان هذا الشكر وقاحة وأنانية ، إذ يعني بهذا الشكر ان الله لا يحب المحرومين من هذه النعمة !. ونحن مع هذا الفيلسوف إن كان الدافع للمؤمن هو اختصاصه بالنعمة، وحرمان الآخرين منها .. وسمع رسول الله (ص) رجلاً يقول : اللهم ارحم محمداً وارحمني معه ، ولا ترحم أحداً غيرنا . فقال له : يا هذا ضيقت واسعاً .

(قاهر من عازه) . لله العزة وحده ، ولا شيء منها لمخلوق إلا بدين الله وطاعته ، ومن انتحلها فهو من الأخسرين تماماً كما خسر فرعون من قبل، وهتلر من بعد (ومدمر من شاقه) خالفه (ومذل من ناواه) عاداه (وغالب من عاداه) عطف تفسير (ومن توكل عليه كفاه ، ومن سأله أعطاه) . والتوكل أن تعمل معتقداً ان وراءك قوة خفية تراك وتسمع نجواك ، وتقدر وتدبر كل ما يقع في الكون من دقيق الحوادث وجليلها ، أما سؤاله سبحانه فمفتاحه العمل وإلا ذهب السؤال والدعاء مع الريح ، فبالعمل يقاس النوال وإجابة السؤال منه ، عظمت كلمته ، لا بالدعوات والشعارات .. والشاهد المحسوس تأخر الشرقيين مع حرصهم على الشعارات دون العمل ، وتقدم الغربيين بسبب مصانعهم وحساباتهم ومعادلاتهم العلمية الدقيقة .

(ومن أقرضه قضاه) . يشير بهذا الى قوله تعالى : « ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم – ١٧ التغابن » . وخير تفسير لهذه الآية قول الإمام : استقرضكم ، وله خزائن جنود السموات والأرض ، وهو الغني الحميد ، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً (ومن شكر جزاه) . ليس المراد بالشكر ترداد الكلمات ، بل الطاعة والعمل النافع وفاء لفضله تعالى (زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا – الى – عنف السياق) الجمل عطف على « زنوا » وهي للبيان والتفسير ، والمعنى انظروا الى أنفسكم : هل أدت الواجبات ، وتركت المحرمات ، أو أهملت وقصرت ، فإن تكن الأولى فهي المطلوب ، وان تكن الثانية فاستدركوا بالتوبة وطلب المغفرة قبل الحساب والجزاء .

(واعلموا انه من لم يعن على نفسه « الخ ..) المراد بالنفس هنا الأمّارة ، وبالاعانة عليها أن يغلبها هو على الحق ، ولا تغلبه هي على الباطل ، وان لا يعطيها فضائل ليست فيها ، أما الواعظ الزاجر من داخل النفس فالمراد به العقل السليم أو الضمير الحي أو الوجدان اليقظ .. مهما شئت فعبّر ، والعقل السليم هو الذي يدرك النتائج والعواقب على حقيقتها ، ويعرف الحوادث قبل وقوعها مستنداً في ذلك الى ما شاهد ورأى .

الفهرست

٦٨٥ / ٨ / ٧٢

مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان